

مركز دراسات الوحدة العربية

زخرفة عربية من نوع آخر

الإثنية السورية - اللبنانية في البرازيل النيوليبرالية

د. جون توفيق كرم

زخرفة عربية من نوع آخر

الإثنية السورية ـ اللبنانية
في البرازيل النيوليبرالية

مركز دراسات الوحدة العربية



زخرفة عربية من نوع آخر

الإثنية السورية ـ اللبنانية في البرازيل النيوليبرالية

د. جون توفيق كرم

ترجمة: أمين الأيوبي

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

كرم، جون توفيق

زخرفة عربية من نوع آخر: الإثنية السورية ـ اللبنانية في البرازيل النيوليبرالية/ جون توفيق كرم؛ ترجمة أمين الأيوبي.

٣١٨ ص.

بيليوغرافية: ص ٢٧٩ ـ ٣٠٤.

يشتمل على فهرس

ISBN 978-9953-82-566-3

١. العرب ـ البرازيل. أ. الأيوبي، أمين (مترجم). ب. العنوان.

305.892708

العنوان الأصلي بالإنكليزية

Another Arabesque: Syrian-Lebanese Ethnicity in Neoliberal Brazil

by John Tofik Karam

(Philadelphia: Temple University Press, 2007)

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت، فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٢

الإهــداء

إكراماً لذكرى جدّتي تمار غصن صفير

يا عيوني (ميوس أوهوس)

إكراماً لذكرى جدّي توفيق صفير

يا عيوني

إلى والدتي إميليا تيريز كرم

يا روحي

إلى والدي مارون جوزيف كرم

يا قلبي

المحتويـات

القسم الأوّل
تصوّر اقتصاد سياسي

القسم الثاني
إعادة تنظيم النظام القومي

القسم الثالث
تسويق الثقافة الإثنية

كلمة شكر

حين زرتُ أقارب لبنانيين في ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢، اصطحبتُ وشقيقي ابنَ عمّ لنا وُلد في البرازيل إلى معرض محلّي للفنون التطبيقية. ركّز أخي أنظاره من بين السائحين والحرفيين المحليين على إناء متقن الصنع مزخرَف بأحجار مزيّفة. وبوجود عميل في هذا الوسط، صاح البائع: «أربعون ألف كروزيروس». ذُهل ابن عمي من مغالاته في السعر وأجبتُ البائع أنّها لا تستحق أكثر من عشرين ألفاً. وبعدما خفّضت السعر إلى نحو النصف، نفد صبر البائع حين طلبت خفضاً آخر. لكنّي أعدتُ القول «عشرون ألفاً أو أُعرض عن الشراء». سئم البائع إلحاحي في المساومة، فرضخ لطلبي لكنه قال لي: «وجهك لا يوحي أنّك برازيلي. أنت تركي». ورفع يده مقبوضة في الهواء في إشارة منه إلى بخلي منهياً حديثه بنبرة منكسرة، «بخيل». ضحكت وأخي وابن عمي بعد هذه الصفقة الناجحة، إذْ أمضى ابن عمّي وقتاً مسلّياً مجاناً، وحصل شقيقي على أناء زخرفته فريدة، وبوصفي لبنانياً أمريكياً من شمال مدينة نيويورك، تلقّيتُ درسي الأوّل بالاعتراف بي عربياً من البرازيل من دون تكلفة إضافية. لكنّ هذا الولع بالمساومة الملازم للعرب في البرازيل لم يمنع من تراكم ديون كثيرة عليّ في سحابة خمس عشرة سنة مرّت منذ تلك الصفقة.

أنا مدين لجون بورديك، وأرلين دافيلا، وجيف ليسر، وكارين روزيمبلات، وكارولين توكس، وهانز بيشلر لتعليقاتهم المفصّلة التي لا تُحصى ودراستهم النقدية لما بدأ كرسالة جامعية في جامعة سيراكوز. وكلّي أمل بأن يستحقّ هذا الكتاب كلّ الوقت والجهد الذي بذلتموه فيه. وأنا مدين لك يا بوب فوستر لاحتضانك لي تحت جناحَيك الجامعيّين الفكريَّين منذ أن تلقيت على يديك أول مقرَّر في الأنثروبولوجيا في جامعة روشيستر عام ١٩٩٢. وأنا مدين لويليام هاميل، ولورا نادر، وإيوجين نصّار، وإلى مدقّقَين لم أعرفهما في دار نشر جامعة تمبل لاقتراحاتهما القيّمة وكلماتهما المفعمة بالتشجيع التي ساعدت على أن تُؤتي هذه

المخطوطة ثمارها. وأيّ قصور في الصفحات القادمة إنما هو قصور منّي.

كما أني ممتنّ للدعم المالي الذي تلقيته من عدة مؤسسات، إذ بات إنهائي دراساتي العليا ممكناً بمنحة جامعية من جامعة سيراكوز، كما ساعدتني منحة ماكسويل للدراسات الصيفية وصندوق روزكو مارتن للمنح الدراسية على البدء بالبحث في البرازيل ولبنان. وكان لجائزة فولبرايت ـ هايز لبحوث الدكتوراه من وزارة التعليم الأمريكية دور حاسم في إتمام معظم بحثي الخاص بالبرازيل. ومكّنتني منحة سفر مكتبية من مركز الدراسات الأمريكية ـ اللاتينية من الرجوع إلى مصادر أولية وثانوية تتحدث عن الشرق الأوسطيين في منطقة أمريكا اللاتينية وحوض الكاريبي. أخيراً، أتاحت لي منحة سلطان بن عبد العزيز آل سعود لدراسات ما بعد الدكتوراه في مركز الدراسات الشرق الأوسطية في جامعة كاليفورنيا في بيركلي مجالاً رائعاً للتعرف إلى زملاء مدهشين وإكمال مشروع هذا الكتاب. وأنا ممتنّ على الخصوص لنزار الصياد، وإميلي غوتريش، وفريق العمل في مركز الدراسات الشرق الأوسطية.

لم يكن هذا الكتاب ليرى النور لولا الأصدقاء والزملاء العرب البرازيليين. ولا يمكن للكلمات أن تعبّر عن امتناني لعدد ممن شاطروني خبراتهم وأفكارهم في شأن ما يعنيه أن يكون المرء عربياً وبرازيلياً. وفي ما عدا الحالات المتعلّقة بشخصيات شعبية ومعروفة، قررت استخدام أسماء مستعارة في هذا الكتاب لأني لم أشأ كشف مواقف الأشخاص وآرائهم ولا سيّما أنهم أسرّوا إليّ بها. لكنّي أودّ التعبير عن عميق تقديري لعدد منهم، وأخصّ في شكري مغالي عبّود، وسمير عبد الحق، ومايكل الاباي، ود. سامي عرب، وفاليريا أرون، ود. صامويل أطلس، وعادل عودة، ود. سركيس جود البايع، وسلفيو بو صعب، وسيلفيا تونيتي بو صعب، وموريس كوستيم، وتيريزا سلامة خوري، وأدواردو ظاهر، وشاكر أسامة الدبس، وروبيرتو دوَيلبي، وباولو دانيال فرح، ولويز فيرناندو فورلان، وميغيل غنطوس جونيور، وإيلي غانم، ود. كلود فهد حجار، ود. ألفريدو سالم هليتو، وصادق قسيس، وأديمار خاشف، وجورج فايز خوري، ومورو فضل قربان، وريجينا هيلينا خوري، وخالد فايز محاسن، وبيرناردو بدرا ملوحي، وفيرا كاتيني مطر، ود. أنتونيو موكاشين، ود. إسماعيل رجب، ونصار رجب، وجان رزق، وشاليطا سعد، ونيكولاو سعد فِلحو، وروبيرتو صفدي، وجورج سرحان سالوماو، وجيلبيرتو عفيف صروف، وعمر عتيق صبحي، وعمر سليمان، وعادل ونسا، وساحاك فارتيريزيان، وسوزانا يزبك، ود. رياض يونس. وأنا ممتنّ أيضاً

لعدد من القادة السياسيين من أصل سوري ولبناني، منهم عبده مظلوم العضو في مجلس بلدية غارولهوس، ونبيل بندوقي، وسالم خرياطي، ومحمّد سعيد مراد الأعضاء في المجلس البلدي لساو باولو، وسلفادور خورية وجميل مراد من الجمعية التشريعية لساو باولو، وريكاردو عازار النائب الفدرالي في برازيليا.

اضطلع زملاء كثر بدور حيوي في بحثي لا بإطلاعي على تأملاتهم في الانتماء العربي والبرازيلي فحسب، بل بتعريفي بجمعياتهم الاجتماعية والدينية والخيريّة والطبّية والتجارية. وأخصّ بالشكر الجزيل كلاً من ولسون حدّاد من نادي أتلتيكو جبل لبنان، وروبنز أنوات من نادي حمص، ود. سامر فرهود من نادي مرجعيون، وأدواردو إلياس ورزق الله توما من اتحاد الهيئات العربية في الأمريكيتين (فيراب)، وروبيرتو كبريتي من النادي الرياضي السوري، وحافظ مغربي من بيت الأطفال السوري، ونايليز كابا من جمعية اليد البيضاء الخيريّة، وحسن علي شاريس من الجمعية الخيريّة الإسلامية في البرازيل، ووليد شقير من جمعية المسلمين الخيريّة ونشرتها العروبة، ود. فارس عبد المسيح من مجموعة الحكيم، ود. راوول قطيط من المستشفى السوري اللبناني، وفضلي عبد الفتّاح من الغرفة التجارية العربية البرازيلية، وفؤاد نعيم من رسالة لبنان، وكارلوس ومارسيلو مفرّج من مجلة **أورينت برس**، وجورج تامر من **جورنال دو براس**، وروزا سابوزنيك من الجمعية اليهودية. وأودّ التعبير عن امتناني لموريس سعد جونيور من يونيفينكو لأنه اصطحبني إلى عالم الشارع ٢٥ دي ماركو. وأشكر جورج حاموش لاستضافتي في براس. وأنا مدين دائماً لراوول فاخوري من مجلة **شمس** لأنه أول من عرّفني إلى التجربة العربية في البرازيل. وأدين بالشكر العميق خصوصاً لليلى شمعة التي تحمّلت مراراً عناء ترتيب أمر دعوتي إلى أكثر المناسبات تنوعاً ضمن «الجالية السورية ـ اللبنانية» وخارجها. وهي لم تجعل بحثي ممكناً وحسب، بل وجعلته ممتعاً أيضاً.

وفي سياق بحثي في البرازيل، ذهبتُ في رحلة سياحية مع شبان آخرين من أصل لبناني لمدّة شهر واحد إلى لبنان. رعت المديريةُ العامة للمغتربين التابعة لوزارة الخارجية اللبنانية هذا البرنامج الذي يسمّى «مخيّم الشباب المغترب». وأنا مدين بالشكر على أتاحة الفرصة لي للمشاركة بهذا المخيم (وقضاء وقت ممتع فيه) للمدير العام محمود جمعة، ولأحمد عاصي مدير العلاقات العامة، ولرانيا معلوف مساعدة مدير العلاقات العامة، وإيلي خشان، ولقسم العلاقات العامة، وللفريق الذي أدار المخيّم، بمن فيه فاطمة أيوب، وفادي الفار، ووليام الغجر. وأشكر أيضاً بشرى حفار وكلوديا كرم من قسم المطبوعات في وزارة السياحة

اللبنانية. وفي أثناء تلك الرحلة، أقمت صداقات متينة مع مشاركين ما زلت أعتزّ بهم. فعصابتنا التي تألفت من أكثر من ستين برازيلياً من أصل لبناني جعلت رحلتنا تجربة لا تُنسى. كما أشكر أورن، وأليكس، ودانيال، وغبريال، وليندرو، ولوكاس، وموريسيو، ومايكل، وبيدرو باولو، وغيرهم كثير، شكراً يستحقونه. وأشكر بوجه خاص أدواردو شعلان بيطار أيضاً.

وأدين ببعض من أكبر ديوني لأقربائي وأصدقاء أسرتي في ريو دي جانيرو وساو باولو. إنّه لشرف وامتياز لي أنّه يجمع بيني وبينكم قرابة الدم، أو الزواج، أو المصير، ولا أقصد بذلك طبعاً أن يبدو إطرائي كبطاقة معايدة. وأدين بالشكر لأبناء عمومتي في ريو دي جانيرو، وأخص بالذكر أنتونيو ونزاري بشارة، وبشارة نيتو وآنا بولا أبيداو، وإيزابيلا وجيف هوكر، وفيليب بشارة، لمنحي منزلاً ثانياً بالمعنى الحرفي للكلمة. عندما أكون برفقتكم، أشعر أني أقرب إلى جدّتي وإلى عالمها وعالم أشقائها وأبويها. «يا عايلة أنت حبيبتي إلى الأبد». كما كان أصدقائي المقرّبون وأقاربي في ساو باولو، وأخصّ بالذكر سيرجيو، وديانا، ودانييلا، وفابيانا، وساندرو ليكس، وهيلو وجيدس ماشادو، وأدونيس أوليفييرا، وفيليب وكارول ماشادو دي أوليفييرا، وفيرناندو ونتاليا ماشادو أوليفييرا، وسعيد، وإزابيل وجواو خوري، مصدراً لا ينضب للقوة والبهجة. ولطالما كنتم إلى جانبي منذ إقامتي الأولى في ساو باولو كطالب تبادلي في الثانوية العامة عام ١٩٩١. ربما كنا يا رفاقي لا نشترك في الدم، لكننا بلا شكّ نشترك في الروح.

إذا كانت هذه الديون أكثر من ثقيلة، فأنا أدين بغيرها بأكثر مما يمكنني سداده لجدّتي وجدّي تمار وتوفيق صفير، ولأمّي وأبي إميليا ومارون كرم، ولشقيقتي ماري تيريز كرم ماك كي، ولشقيقي جوزيف كرم، ولخالي جورج صفير، وزوج شقيقتي جون ماك كي، وشقيقته ماريان سكاو. فالحب والأزر الذي وجدته منكم جميعاً كان مطلقاً وشاملاً وتلقائياً. فعندما كنت أتيه في أفكاري (وما زلت أبدو كذلك)، وأغرق في المقالات أو الكتب، وأتشبّث بلوحة مفاتيح حاسوبي، كنتم تخرجونني دائماً، وبالقوة غالباً، من قفص الأفكار الأكاديمية التجريدية الحديدي هذا إلى عالم أنا فيه حفيد، وابن، وشقيق أصغر، وابن أخت، وأخ زوجة. وفي ضوء الأزر الذي قدمتموه إليّ بلا انقطاع وبلا قيود، لا يسعني سوى التعجب إن كان تقدير البائع في أحد شوارع ريو دي جانيرو لـ «مقاسي» صحيحاً. فهل أنا شحيح يأخذ أكثر مما يعطي؟ في حالة أسرتي، لن أجد وصفاً أقرب إلى الحقيقة من هذا الوصف.

تمهيد الطبعة العربية

منذ ما يزيد على القرن، أقام العرب صلات بين بلاد الشام والأمريكيتين الشمالية والجنوبية. وفي حالة عائلتي أنا، هاجر والدا جدتي من أمي من بلدة صربا إلى مدينة بروفيدانس (Providence) في الولايات المتحدة الأمريكية في العقد الأوّل من القرن العشرين. وهناك التقيا وتزوجا، لكن لدى سماعهما بأن البرازيل تقدّم فرصاً أكبر لأرباح أعلى، انطلقا إلى مدينة بورتو فيلهو (Porto Velho)، بالقرب من الحدود البرازيلية ـ البوليفية. وقد ربّى والدا جدتي هذان ستةً من أولادهما السبعة في ضواحي بورتو فيلهو، بمن فيهم «سِتّي» (جدتي)، التي ما كادت تبلغ العاشرة من عمرها حتى أُرسلت إلى صربا لتنشأ وتربى هناك. وبعد بضع سنوات تزوجت «ابن خالتا» (ابن خالتها) الذي كان قد هاجر إلى مدينة أوتيكا (Utica)، التي تبعد خمس ساعات إلى الشمال من مدينة نيويورك. وهناك وضعت ثلاثة أولاد، بمن فيهم والدتي، واستمرت في زيارة أشقائها وأقاربها في لبنان والبرازيل، كما كانت تستقبلهم في منزلها. وقد نقلت «سِتّي» إليّ من دون قصد، ذلك الحنين الذي يشعر به المرء بعد رحلات مغادرة كثيرة ورحلات عودة بالغة القلة. وقد انبثق كتابي من هذه الذكريات الجوالة، وأنا أنظر إلى واقع نشر هذه الطبعة العربية على أنّه معبر جديد إضافي بين «المهجر» و«المشرق».

والواقع هو أن هذه الفضاءات عَبَرَتها العائلات كما عبرها المفكرون وكتاباتهم في مطالع القرن العشرين. وكما هو معروف جيداً، أدى المهاجرون في البرازيل والأرجنتين والولايات المتحدة وفي أماكن أخرى في الأمريكيتين، دوراً نشطاً في تصور الخطوط الكفافية المستقبلية للكيان السياسي لما كان يعرف آنئذٍ بأقاليم شرق البحر المتوسط للإمبراطورية العثمانية.

وقد استخدم سعيد أبو جمرة، مؤسس **الأفكار** في ساو باولو، ووديع

واليخاندرو شامون، محررا السلام في بوينس آيريس، إضافةً إلى نعوم وسلُّوم مكرزل، صاحبَي الهدى في مدينة نيويورك، من بين آخرين، استخدموا صحفهم ومجلاتهم ودورياتهم للإعراب عن وجهات نظر متميزة، وفي بعض الأحيان متناقضة، حيال الإصلاح والأمر الواقع، وكانت وجهات النظر هذه تتقاطع مع المناظرات الجارية في بيروت والقاهرة ودمشق. وفي طرائق مشابهة، فإن الشعراء والكتّاب في «الرابطة القلمية» بقيادة جبران خليل جبران في بوسطن، ونظراءهم الأقل منهم شهرة في «العصبة الأندلسية» في ساو باولو، بمن فيهم فوزي معلوف ورشيد سليم الخوري والياس فرحات، ساهموا جميعاً على نحو فاعل في الدوائر الأدبية في هذه المدن في شرق البحر المتوسط نفسها. وهذا يقودنا إلى القول إنه، في العقود الأولى من القرن العشرين، انبثقت سلسلة من الحوارات الفكرية أقامت صلة بين «المهجر» و«المشرق».

جاءت لحظة أخرى مهمة في تاريخ هذه الصلات تحمل علامة فيليب حتّي، مؤسس «دراسات الشرق الأوسط» في جامعة برنستون، وفي الولايات المتحدة بأكملها. وفي عام ١٩٢٥، دُعي حتّي ليلقي عدة محاضرات عن التاريخ العربي بدعوة من الجالية السورية ـ اللبنانية في ساو باولو؛ وفي خلال العقود التالية، قدم مساهمةً فكريةً في الجهود الهادفة إلى تأسيس برنامج للدراسات العربية في البرازيل. وجرى بالتالي تأسيس كرسي أستاذية للغة العربية في جامعة ساو باولو (USP)، شغلها لفترة وجيزة توفيق قربان، إلى أن نُحّي عنها بسبب نقص التمويل وحالات سوء التفاهم. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل قائماً هدفُ المحافظة على برنامج للدراسات العربية في البرازيل. وبهدف إعادة تأسيس البرنامج في جامعة ساو باولو، عاد حتّي إلى المدينة عام ١٩٥١، فاستقبله مفكرون ومثقفون مثل جميل ووديع صفدي. ومع أننا لا نعرف إلى أي مدى كان حتّي يذكر السوريين واللبنانيين في البرازيل خلال محاضراته في جامعة برنستون، فإن ما لا شكّ فيه هو أنّه كان يذكر وجودهم هناك في الكتب التي ألّفها عن تاريخ العرب. ومع أن موقع حتّي الأساسي كان في الولايات المتحدة، فهو بتعاونه مع المفكرين العرب في ساو باولو، كان يقيم صلات بالبرازيل بوصفها إحدى بؤر النشاط الأساسية للوطن العربي.

تُبرز هذه الاعتبارات المسار الذي يضطلع به كتاب زخرفة عربية من نوع

آخر: الإثنية السورية ـ اللبنانية في البرازيل النيوليبرالية، الذي نُشر في الأصل بالإنكليزية في الولايات المتحدة، وتُرجم تالياً إلى البرتغالية في البرازيل، وهو الآن في طريق العودة إلى الوطن باللغة العربية في لبنان. وبإدراكي أن هذا الكتاب يتعلق بعروبتي الذاتية بقدر ما يتعلق بكونه نتاجاً لفكرة لمعت في البرازيل والولايات المتحدة، لا يسعني إلا أن أرجو أن أسير على خطى فيليب حتّي في محاوراته مع زملاء عرب في البرازيل وفي التزامه الراسخ بلبنان والوطن العربي الأوسع. وبدلاً من أن أطلق دعاوى عامة في خصوص الهوية العربية في البرازيل في الماضي والحاضر، فإنني أقدم هذه الطبعة العربية للكتاب جزءاً من حوار أوسع حول العروبة في الأمريكيتين. لا ريب أن هذا الحوار انطلق منذ أكثر من قرن على أيدي عائلات ومفكرين عبر المشرق والمهجر اللتين أشرنا إليهما آنفاً. إلا أن ما يجعل هذا الكتاب مختلفاً إلى حدّ ما عن الحوارات السابقة هو أن هذا الحوار مبني على معنى أن يكون المرء عربياً في البرازيل. وبدرجة مساوية من الأهمية، قد يكون مفيداً اتخاذ هذا الحوار نقطةَ انطلاق لإعادة النظر في مكانة البرازيل في الوطن العربي، وهو وطن أكبر كثيراً من مجموع الأقطار الاثنين والعشرين المرتبطة به في العرف المعتاد.

وكما يدلّ عنوان النسختين الإنكليزية والبرتغالية من الكتاب، فهو يهدف إلى تمحيص عملية تكثُّف الهوية العربية في البرازيل في وقت كانت السمة الغالبة فيها هي النيوليبرالية أو الليبرالية الجديدة، أو منطقيات «السوق الحرة». لكن، إذا أخذنا في الحسبان النسخة الأولى من هذا الكتاب التي جرت كتابتها في السنوات التي تلت أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة، فمن حقّ المرء أن يتساءل: «لماذا الليبرالية الجديدة؟» إن الليبرالية الجديدة، بما هي قاعدة تحليلية، ترتبط عموماً بخفض الرسوم الجمركية والتجارية، والدعوات إلى الشفافية التي تطلقها الحكومات، وتنوع مجالات الاستهلاك، وهي بذلك شدّتني لا لأظهر جانبها الإيجابي المفترض، ولا ببساطة بسبب الأشهر الثمانية عشر التي أمضيتها في البحث الفعلي في البرازيل، بل لأنها أمدتني بنوع من القوة الشرائية السياسية ـ الفكرية لتقويض حالات الحصار والاتّهام المتزايد الذي تعرض له العرب في أزمنة ما بعد ١١ أيلول/ سبتمبر.

في الأشهر والسنوات التي تلت ١١ أيلول/ سبتمبر شعرت بالأذى والإهانة

نتيجة الحصار الذي فرضته على العرب القوةُ المزدوجة لحركة مكافحة الإرهاب والتعددية الثقافية في الولايات المتحدة، ولم يكن الأمر كذلك فحسب، بل إني شعرت بالتعب من سياسات الهوية التي كان يعتنقها الكثير من العرب الذين بدوا وكأنهم يرددون المقولة نفسها، «نحن لسنا إرهابيين». في نظري، لم يكن هذا «الخطاب المضاد» كافياً للوقوف في وجه الخطاب السائد الذي كان يحيق بالعروبة وكأنها «خلية» «مختلفة» ثقافياً و«تحمل في طياتها دائماً الخطر والتهديد»، إذا جاز القول. لذلك كتبت هذا الكتاب عن العرب في البرازيل مع الشعور بنوع من الإلحاح السياسي، لأظهر للجمهور الأمريكي (من كلّ الخلفيات، بما فيها الشرق الأوسطية) بأن هناك سياسات هوية عربية لا يمكنه حصرها في متغيراته (بارامتراته) الضيقة، وبأن هناك زخرفة عربية (أرابيسك) من نوع آخر.

وكان هناك هدف آخر، هو تعظيم أهمية البرازيل، وهي دولة أكبر كثيراً مما يتخيلها الكثيرون في واشنطن عاصمة الولايات المتحدة أو حتّى في برازيليا. فمن جهة، أردت أن أسلط الضوء على أحد الجوانب التي لم تنل حظها من الدراسة في التعددية البرازيلية المعاصرة: الخطوط العربية الواضحة التي ترسم ملامح مشاريع ورغبات مدراء تجاريين وسياسيين دهاة، ناهيك عن المعلنين والمستهلكين.

بهذا المعنى، يسير كتابي في خطى رسمَتْها سلفاً أعمالٌ تاريخية نشرها مؤلّفون ناشطون من أمثال روبرت وجيفري ليسر (Jeffrey Lesser) وأوزوالدو تروزي (Oswaldo Truzzi). وعلى نحو أكثر تحديداً، كانت فكرتي هي أن أُظهر كيف أن السياسات الإثنية والوطنية تغيرت جزئياً بفعل الحركة النيوليبرالية، إذ أصبح «الاختلاف الإثني» محل ترحيب في مجالات التجارة التصديرية والأسواق المحلية ومجالات أخرى. وكما أشرت آنفاً، أنا لا أهدف إلى الدفاع عن الجانب الإيجابي المفترض للنيوليبرالية؛ بل على النقيض من ذلك، أنا أسعى إلى كشف قوتها المخاتلة المتربصة التي تعيد تكوين الدولة ـ الأمة البرازيلية المعاصرة، وبخاصة أن رعاياها وموادها الإثنية قد مُنحت الآن قدراً أكبر من الاعتراف.

وأنا أستعمل تعابير مختلفة للإشارة إلى الإثنية العربية في البرازيل، وأقرّ

بأن بعض التعابير قد تبدو غريبة بالعربية. وكما شرحت في متن الكتاب، فإن تعبير «شرق أوسطي» يظهر كعنوان عام للإشارة إلى الأشخاص من أصول شرق أوسطية. أنا شخصياً لا أحب هذا التعبير، وبالأخص نظراً إلى أصوله الغربية، لكن كان يتعين عليّ استخدامه في الطبعتين الأمريكية والبرازيلية، ومن أجل هذا ترونه ظاهراً أيضاً في النسخة العربية. وأستوحي أيضاً التعبير الآخر «سوري ـ لبناني» وأستعمله بوتيرة أكبر، كما هو واضح من عنوان الكتاب. وكما أشار جيفري ليسر وآخرون في أماكن مختلفة، فإن عبارة «سوري ـ لبناني» (Surio-libanès) هي من ابتكار المهاجرين المنحدرين من شرق البحر الأبيض المتوسط الموجودين في البرازيل.

كما استعمل تعبير «برازيلي عربي» لأنه التعبير المستخدم من جانب الجمعيات السورية ـ اللبنانية التي تطلق على نفسها هذه التسمية في ساو باولو وريو دي جانيرو. وليكن واضحاً أنّي شخصياً أرى أن السوريين واللبنانيين عرب، سواء في البرازيل أو في أي مكان آخر، وكما صرح ذات مرة رجل مسن أصله من مدينة حمص، «أن تكون عربياً هي حالة روحية. . .»

دعوني أختم بتأكيد واضح: إن الإنسيابات والحوارات التي أطلقها العرب في المهجر وفي المشرق على حدّ سواء لم تكن معزولة عن النظام العالمي قط. في العقود الأولى من القرن العشرين، كان والدا جدتي، كما كانت أفكار كتّاب المهجر، تدور في ظلال الحرب العالمية الأولى الدموية. وفي منتصف القرن العشرين، سعى فيليب حتّي وأساتذة جامعة ساو باولو إلى تأسيس برنامج دراسات عربية في الوقت الذي كانت الإنسانية تنهار في الحرب العالمية الثانية، وكانت هذه الإنسانية تُكْرَه على الانحياز مع جانب ضدّ آخر في أيام الحرب الباردة. والآن، في العقد الثاني من هذا القرن الحادي والعشرين، أقدّم «زخرفة عربية من نوع آخر» إلى الجمهور العربي في لحظة لا تقل قتامة عن تلك اللحظة، بعدما فجّرت الولايات المتحدة في العراق من خلال «حربها المستمرة على الإرهاب»، إحدى أسوأ الكوارث التي أصابت الإنسانية، وقد تُوِّجت هذه الكارثة عام ٢٠٠٣ حين أصدر مسؤول سلطة الائتلاف الموقتة للاحتلال بول بريمر (Paul Bremmer)، سلسلة من المراسيم بهدف تحرير الاقتصاد العراقي، الأمر الذي سمح ليس بحرية حركة الشركات الأجنبية فقط بل أتاح أيضاً سداد أرباحها بالكامل. لقد ولد كابوس العراق من رحم الحلم النيوليبرالي للحكومة

الأمريكية. هذا هو السياق الأعرض الذي يكتنف هذا الكتاب. وفي هذه الساعة المتأخرة، أراني أجرؤ على التنبؤ بأن النهوض المطّرد للبرازيل بعد أزمة عام ٢٠٠٨ المالية، إضافة إلى الأمل الذي بعثته ثورات العرب عام ٢٠١١، سيؤدي إلى تغيير هذا الواقع العالمي.

شيكاغو، تموز/يوليو ٢٠١٢

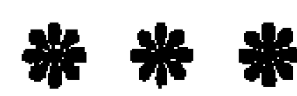
مقدمة
سياسة الامتيازات

مع اقترابي من جادّة باوليستا في وسط مدينة ساو باولو في ليلة باردة من ليالي عام ٢٠٠١، تتبّعت الملامح العامة للوجود العربي. وقد عبرت أولاً من جانب مطعم حبيب العربي للوجبات السريعة، الذي يتجاهله جماعة الاختصاص مكملين طريقهم باتجاه المطاعم السورية واللبنانية الفاخرة في أقصى الشارع، على الرغم أن سلسلة مطاعم حبيب هذه تُعِد نحو نصف كمية الصفيحة (الفطائر المحشوّة باللحم) التي تعرض في المدينة والتي تبلغ نحو ١,٢ مليون فطيرة يومياً. مضيت قاصداً «نادي حمص» على الجادّة الرئيسيّة. يُطلق على النادي اسم «بيت العرب»، وهو واحد من نحو ستة نوادٍ منتسبة إلى بلدان شرق أوسطية في هذه المنطقة. استضاف النادي في تلك الأمسية حفلاً بهياً بمناسبة العيد الوطني لسورية. وبعدما اجتزتُ البوابة الأمنية، انضممت إلى جمع عامته من العرب وفيه بعض البرازيليين غير العرب. وكان في عداد رجال الأعمال المرموقين الحاضرين جماعة من السوريين ـ اللبنانيين من أبناء الجيل الثالث أثنى عليها الرئيس كاردوسو لتدريبها المدراء التنفيذيين البرازيليين على سبل تصدير منتجاتهم إلى العالم العربي. ينتمي هؤلاء إلى الغرفة التجارية العربية البرازيلية التي يرئسها الرئيس البرازيلي ويقع مقرّها في الجهة المقابلة من الجادّة. وكان في عداد الحاضرين أيضاً عشرات الشخصيات الرفيعة وسياسيون محليون، مثل عضو في مجلس البلدية هو من الجيل الثاني من المهاجرين اللبنانيين، يرئس الاحتفال السنوي بعيد استقلال لبنان الذي تقيمه حكومة مدينة ساو باولو. وقد ضمّ الضيوف الذين استضيفوا في السنة الفائتة أطباء من أصل لبناني يعملون في المستشفى السوري ـ اللبناني، الحائز جائزة، الذي لا يبعد أكثر من مسافة مبنيين في مقابل الجادّة الرئيسيّة.

يبدو انتشار الزخارف العربية على جوانب جادة باوليستا وفي محيطها

محيّراً، فهذه الجادة في النهاية ليست مجالاً عربياً. وهي بوصفها «بطاقة بريد ساو باولو»، فهي تؤدي دور الموجّه للتجربة الليبرالية الجديدة (Neoliberal) الحالية في البلاد. وبما أن جادة باوليستا مصدر جذب لرؤوس الأموال الأجنبية المتعاظمة منذ سبعينيات القرن الماضي، فهي غدت اليوم مقرّ كيانات وطنية وعابرة للحدود تعمل في قطاعات الصناعة والتجارة والمال، مثل اتحاد صناعات ولاية ساو باولو، وبانكو إيتو، وسيتي بنك، وبنك بوسطن. ويمكن أن ترى النخب الرسمية والمهنية من البرازيل والعالم وهي تمرّ عبر عدد من مجمعات المباني الشاهقة على جانبي تلك الجادّة الثُّمانية الخطوط. وإلى جانب التجار ورجال الدولة، يلتقي الأطباء المرموقون، والمحامون، والمهندسون وأصحاب المهن الأخرى في المطاعم العالمية الفخمة وفي البارات في أحياء الحدائق «الراقية» المجاورة. كيف تسنى للعناصر والمناسبات العربية الحضور بهذا القدر من البروز وسط هذه المصالح السائدة اليوم في هذه المدينة وفي هذه الجمهورية البرازيلية؟

بعد انقضاء نحو نصف قرن على وصول آخر موجات الهجرة الكبرى، بلغ الشرق الأوسطيون مكانة لا يُعرف لها مثيل في شتى أنحاء البرازيل؛ فهم يديرون مشاريع تجارية بملايين الدولارات، ويمثلون نحو ١٠ في المئة من أعضاء مجلس بلدية ساو باولو وأعضاء المجلس الفدرالي في برازيليا، ويملكون مؤسسات إعلانية وتلفزيونية، ويؤدّون أدوار البطولة في المسلسل التلفزيوني الشهير «النسخة»، ويديرون بعضاً من أكثر المنتجعات الريفية التي ترمقها النخب الوطنية بعين الحسد.



يركّز هذا الكتاب على الاعتراف المتنامي بالبرازيليين من أصل سوري ـ لبناني في مرحلة «التحوّل النيوليبرالي». ذلك أن المبادرات «النيوليبرالية» منذ سبعينيات القرن الماضي إلى يومنا هذا، مثل تحرير السوق وخفض حجم القطاع العام وتنويع المستهلكين، وثّقت أواصر البرازيل بالنظام العالمي. وعند هذا المفترق، فرض السوريون ـ اللبنانيون من أبناء الجيلين الثاني والثالث أنفسهم بهويتهم الإثنية كشركاء في التصدير، وكسياسيين أخلاقيين، وهواة فنون متنوّعة، وشخصيات تصوغ وتعكس الدولة القومية البرازيلية في أواخر القرن العشرين ومستهلّ القرن الحادي والعشرين.

واستناداً إلى عمل مايكل أومي وهوارد واينَنْت، أزعم أن حضور الإثنية

السورية ـ اللبنانية قد تعاظم كمشروع في البرازيل. كتب واينَنت[1] «كلّ مشروع يمثّل بالضرورة مبادرة منطقية أو ثقافية هو بمنزلة محاولة. . . لبناء هوية من ناحية، ومبادرة سياسية تمثل محاولة للتنظيم من ناحية أخرى». أودّ أن أثبت أن السوريين ـ اللبنانيين من أبناء الجيلين الثاني والثالث بنوا «مشروعاً إثنياً» يتعلق بماهيّة ومكانة عالم الأعمال العربي، والسياسات، والحياة الأسرية، والتطوّر الاجتماعي والرفاهية. هذا المشروع الإثني العربي، المليء بالتناقضات والازدواجيات، ظاهر ليس في الأوضاع اليومية بالضرورة، وإنما في «الأطر المميزة» للأعمال في «الحياة العامة»[2]، مثل الحلقات الدراسية المهنية، والاحتفالات السياسية، ومآدب العشاء، وأيام العطل التراثية. هذه الممارسات المؤسسية المتمثلة بالصحف أو محطات التلفزة وغيرها من المؤسسات الإعلامية والإعلانية، هي التي توجهني في تحليلي للاعتراف بالإثنية العربية في البرازيل. وسأستخدم عبارة «زخرفة عربية» في ثنايا كتابي تعبيراً عن هذا التصميم المميّز للعروبة اليوم.

يمثّل المشروع الإثني العربي جزءاً متشابكاً من التجربة النيوليبرالية البرازيلية؛ ففي الاقتصاد المفتوح، طرح المنحدرون من أصل سوري ـ لبناني أنفسهم كمروّجين عرب للصادرات البرازيلية في أسواق الخليج العربي. وفي أثناء برنامج رعاه البنك الدولي لمكافحة الفساد خاص بحكومة مدينة ساو باولو، رعى السياسيون من أصل لبناني احتفالاً إحياءً لذكرى استقلال لبنان. وفي موضوع تنويع المستهلكين، استخدمت شخصياتٌ مرموقة من أصل سوري ـ لبناني الشعار التسويقي السائد «طعام عربي» لبناء رأسمال اجتماعي مع الضيوف من غير العرب في منتجعاتهم الريفية. حتّى إن البرازيليين من أصل سوري ـ لبناني أصبحوا هدفاً للتسويق السياحي في البلدين الأمّ سورية ولبنان. الحاصل أن الإثنية العربية امتلكت قوة لم يسبق لها مثيل في المرحلة التي سبقت حقبة الانفتاح الاقتصادي وشفافية الدولة وتنوع المستهلكين. وهذا التركيز على التكوين المبتكر للعروبة في البرازيل هو ما سمّيته زخرفة عربية «من نوع آخر» في عنوان هذا الكتاب. وإذ حرصت على إظهار اتصال الإثنية السورية ـ اللبنانية

---

(١) Howard Winant, *Racial Conditions: Politics, Theory, Comparisons* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1994), p. 139.

(٢) Iurgen Habermas, *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society* (Cambridge, MA: MIT Press, 1989), and J. Lowell Lewis, «Sex and Violence in Brazil: Carnival, Capoeira, and the Problem of Every Day Life,» *American Ethnologist*, vol. 26, no. 3 (1999), pp. 717-732.

بماضيها، أفترض أنّها مرّت بمرحلة تغيير مهمة في البرازيل «النيوليبرالية».

أولاً: الإثنية والدولة والليبرالية الجديدة

بتأطير المشروع العربي بهذه الحدود، بنيت عملي على انعطاف جديد في علم أنثروبولوجيا الإثنيات وزدت في تطويره. ذلك بأنّه منذ المقاربة البنائية التي طرحها فريدريك بارث في التعاطي مع التخوم الإثنية(٣) يتتبع علماء الأنثروبولوجيا الإنتاج التاريخي للاختلاف الإثني عن الاستعمار من الزاوية القومية(٤). واستكشف براكيت وليامز بأعقد الطرائق الممكنة كيف أعادت الجماعات المقهورة لاحقاً إنتاج نظام الإثنيات الاستعماري في تأسيس الدولة(٥)، مع أن الاستعمار نفسه انتهى رسمياً. بيد أنّه أثيرت مؤخراً أسئلة أدقّ عن الاعتراف الواسع بالإثنية في الدولة عبر شركات الإعلانات(٦) وإصلاحات السوق الحرّة(٧) وحملات الدفاع عن حقوق الإنسان(٨). وفي سياق معاينة طرائق التحول التي همّشت الإثنية في الماضي والحاضر، صرف هؤلاء المؤلّفون انتباههم نحو البروز المتعاظم للإثنية في الدولة من خلال عولمة الصور والشبكات.

يمكن تتبّع تحوّل موازٍ من خلال التعمق في دراسة الدولة والقومية. وعلى مدى العقدين الماضيَين، أطلقت نظرية بينيديكت أندرسون المبتكرة التي

---

(٣) Frederik Barth, «Introduction,» in: Frederik Barth, ed., *Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference* (London: George Allen and Unwin, 1969), pp. 9-38.

(٤) Ana Maria Alonso, «Politics of Space, Time, and Substance: State Formation, Nationalism, and Ethnicity,» *Annual Review of* Anthropology, vol. 23 (1994), pp. 379-405; Judith Friedlander, *Being Indian in Hueyapan: A Study of Forced Identity in Contemporary Mexico* (New York: St. Martin's Press, 1975); Viranjini Munasinghe, *Callaloo or Tossed Salad?: East Indians and the Cultural Politics of Identity in Trinidad* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2001); Ronald Stutzman, «El Mestizaje: An All-Inclusive Ideology of Exclusion,» in: *Cultural Transformations and Ethnicity in Modern Ecuador*, edited by Norman Whitten (Urbana, IL: University of Illinois Press, 1981), pp. 45-94, and Kay Warren, *The Symbolism of Subordination: Indian Identity in a Guatemalan Town* (Austin, TX: University of Texas Press, 1989 [1978]).

(٥) Brackette Williams: «A Class Act: Anthropology and the Race to Nation across Ethnic Terrain,» *Annual Review of Anthropology*, vol. 18 (1989), pp. 401-444, and *Stains on My Name, War in My Veins: Guyana and the Politics of Cultural Struggle* (Durham, NC: Duke University Press, 1991).

(٦) Arlene Davila, *Latinos Inc.: The Marketing and Making of a People* (Berkeley, CA: University of California Press, 2001).

(٧) Jack Shaheen, *Dreaming Equality: Color, Race, and Racism in Urban Brazil* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2001).

(٨) Kay Warren, *Indigenous Movements and Their Critics: Pan-Maya Activism in Guatemala* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998).

تتحدث عن الدولة كـ «مجتمع تخيّلي» الكثير من الأعمال والاختصاصات المختلفة(٩). بيّن أندرسون أن الدولة نشأت في العالم الجديد في الأمريكيتين وأضحت نموذجاً زُرع في أوروبا أولاً، ثمّ في أفريقيا وآسيا(١٠). وفي نقاش مبكر، زعم بارثا تشاترجي أن فكرة الدولة لم تزرعها القوى الغربية في آسيا فحسب(١١)، بل عرّفتها النخب المثقفة مدفوعة بدوافع ذاتية في ظلّ الاستعمار. لكنّ الأنثروبولوجيين ركزوا مؤخراً على كيفية تصوّر الدول من خلال سلع عالمية مثل الكوكاكولا أو البَدْوَايزَر(١٢)، والتلفزيون(١٣)، وشبكات المهاجرين(١٤). وقد أثارت هذه الدراسات طائفة جديدة من الأسئلة عن البناء التخيلي للدولة في الاقتصاد السياسي العالمي اليوم.

باقتفاء محاور التحقيق هذه، يتجاوز عملي تواريخ الإثنيات وبناء الدولة في حقبة الاستعمار وما بعدها. وكما شدّد أيْهوا أونغ(١٥)، «يتعين علينا تجاوز التحليل المُعتمد على ذكريات الاستعمار أو مخلفاته لتقييم طريقة تحوّل أنماط الهيمنة الاقتصادية والأيديولوجية... فضلاً عن كيفية... تغيّر تموضع الدول

(٩) Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (New York: Verso, 1991 [1983]).

(١٠) المصدر نفسه، ص ٤.

(١١) Partha Chatterjee, *The Nation and Its Fragments* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993).

(١٢) Arlene Davila, «El Kiosko Budweiser: The Making of a «National» Television Show in Puerto Rico,» *American Ethnologist*, vol. 25, no. 3 (1999), pp. 452-470, and Robert Foster, *Materializing the Nation: Commodities, Consumption, and Media in Papua New Guinea* (Bloomington, IN: University of Indiana Press, 2002).

(١٣) Leila Abu-Lughod, *Dramas of Nationhood: The Politics of Television in Egypt* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2005); Purnima Mankekar, *Screening Culture, Viewing Politics: An Ethnography of Television, Womanhood, and Nation in Postcolonial India* (Durham, NC: Duke University Press, 1999), and Richard Wilk, «Learning to Be Local in Belize: Global Systems of Common Difference,» in: Daniel Miller, ed., *Worlds Apart: Modernity through the Prism of the Local* (New Brunswick, NJ: Routledge, 1995), pp. 110-133.

(١٤) Linda Basch, Nina Glick-Schiller and Cristina Szanton-Blanc, *Nations Unbound: Transnational Projects, Postcolonial Predicaments, and Deterritorialized Nation-States* (Langhorne: Gordon and Breach, 1994); Jorge Duany, *The Puerto Rican Nation on the Move: Identities on the Island and in the United States* (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2002), and Nina Glick-Schiller, *Georges Woke Up Laughing: Long-Distance Nationalism and the Search for Home* (Durham, NC: Duke University Press, 2001).

(١٥) Aihwa J. Ong, *Flexible Citizenship: The Culturnl Logics of Transnationality* (Durham, NC: Duke University Press, 1999), p. 35.

تبعاً للاقتصاد السياسي العالمي أيضاً». ومع أخذ ذلك في الحسبان، أتساءل في كتابي هذا: كيف أُعيدَ تنظيم العلاقات الهرمية بين الإثنية والدولة في النظام العالمي اليوم؟ أزعم أن الإثنية لم تعد الإطار الوحيد للدولة فحسب، بل إنّها اكتست مميزات بطرائق تعكس الاتجاهات السياسية ـ الاقتصادية الواسعة وتصوغها. سأستكشف هذا التحول بتعقّب طرائق تهميش الإثنية أساساً في الأزمنة الأولى، وكيف حازت اعترافاً واسعاً في أواخر القرن العشرين ومستهلّ القرن الحادي والعشرين.

تؤكد ظاهرة الليبرالية الجديدة التي برزت حديثاً في أمريكا اللاتينية الحاجةَ إلى هذه المقاربة. تعود جذور هذه المقاربة إلى كتاب **ثروة الأمم** الفذّ لآدم سميث الذي نُشر عام ١٧٧٦. أطلق سميث في كتابه هذا عبارة «اليد الخفية»(١٦)، وهو يُعد أحد المدافعين عن السوق الحرّة وأحد نقّاد الحكومة الضخمة. وأضاف خليفته دايفيد ريكاردو في القرن التاسع عشر أنه «ينبغي ترك أمر التجارة وعقود الأجور للتنافس الحرّ والعادل في السوق»(١٧). وقد حازت أفكاره في أثناء الحرب العالمية الأولى قبولاً واسعاً في أوساط النخب الأمريكية اللاتينية في نموذج التقدّم والفلسفة الوضعية. ومن دواعي السخرية أن الليبرالية الاقتصادية استُخدمت في «رفض الهرميات الإمبريالية والتأكيد على السيادة» فضلاً عن التأكيد على اللون الأبيض وعلى الذكورة كونهما صفتين مثاليتين لفكرة المواطنة القومية(١٨).

وبفعل التأثيرات التي نجمت عن الكساد الكبير، حدث انقلاب في هذا التوجه نحو السوق الحرّة في مختلف أنحاء أمريكا اللاتينية. فمن أجل التقليل من الانكشاف للعوامل الخارجية وضمان الاستقرار، فُرضت تعريفات جمركية مرتفعة على الواردات، وتأسست الشركات العامة، وفرضت الدولة سيطرتها على أسعار الصرف. وفي سياق ذلك، نشر جون مايناردكينز كتابه **النظرية العامة للعمالة والفائدة والمال** عام ١٩٣٦ وإن كان هذا الأمر يمثّل جزءاً من

---

(١٦) Adam Smith, ***An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations***, edited by Edwin Cannan (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1976 [1776]), p. 477.

(١٧) David Ricardo, ***The Works and Correspondence of David Ricardo***, edited by M. H. Dobb and Piero Sraffa, 11 vols. (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1951 [1815]), vol. 1, p. 105.

(١٨) Nancy P. Appelbaum, Anne S. Macpherson and Karin Alejandra Rosemblatt, «Racial Nations,» in: Nancy P. Appelbaum, Anne S. Macpherson and Karin Alejandra Rosemblatt, eds., ***Race and Nation in Modern Latin America*** (Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2003), pp. 1-31.

الخطاب السياسي منذ عام ١٩١٩[١٩]. وفي تحدٍّ لمثل السوق الحرّة في الاقتصاد الليبرالي الكلاسيكي، دافع كينز عن التنمية التي تقودها الدولة. وقد أخذ مخططه التفصيلي صيغة برنامج «تصنيع بدائل الواردات» الذي يطبّقه بعض بلدان أمريكا اللاتينية في هذه الأيام. ولئن حمى نموذجُ تصنيع بدائل الواردات السوقَ المحلية ودعمها، فقد سعت المشاريع السياسية لدمج الجماعات على اختلاف أعراقها وفئاتها وأجناسها في الدولة. هكذا تطورت السياسات الحمائية بالتوازي مع الأيديولوجيات القومية في أمريكا اللاتينية.

بحلول سبعينيات القرن الماضي، شهدت بلدان القارّة بعامّة نمواً اقتصادياً كبيراً[٢٠]. وهذا التوسع ناتج جزئياً من تدفق رؤوس الأموال بمقادير كبيرة إلى أن «بلغت ذروتها عام ١٩٧٨ حين وصلت إلى ٢٢ مليار دولار»[٢١]. بدت المؤسسات المصرفية متلهفة لإقراض بلدان أمريكا اللاتينية لارتفاع موجوداتها بسبب ارتفاع أسعار النفط. لكنّ هذا التسليف انقطع عام ١٩٨٢ عقب إعلان المكسيك عدم قدرتها الالتزام بمواعيد سداد أقساط ديونها. ثم أُعلن عن إجراءات تجميد مشابهة في بلدان أخرى في أمريكا اللاتينية وخارجها في ثمانينيات القرن الماضي. وظهرت في الأفق ملامح أزمة مالية عالمية شبيهة بأزمة ثلاثينيات القرن الماضي. في هذا المناخ، تأسست مؤسستان في كنف الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية هما صندوق النقد الدولي والبنك الدولي اللذان قدما الأموال اللازمة لحماية مُقرضي المصارف وتولّيا مسؤولية إعادة هيكلة ديون أمريكا اللاتينية وفرض الشروط عليها.

وإذْ رأى صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في برنامج تصنيع بدائل الواردات وفي المبادئ الاقتصادية الكينزية أدواتٍ لا تُنتج سوى عدم الكفاءة، فقد منحا قروضاً للدول المدينة شرط اعتمادها برنامجاً اقتصادياً قائماً على مبادئ سميث وريكاردو وخليفتهما في القرن العشرين ميلتون فريدمان. سُمّي البرنامج «إجماع واشنطن»، وهو عبارة عن رزمة سياسات تضمنت إعادة الاستقرار

(١٩) John Maynard Keynes, *The General Theory of Employment, Interest, and Money* (1936) (Cambridge: Cambridge University Press, 1974).

(٢٠) Roberto Grun, «Construindo um lugar ao sol: Os judeus no Brasil,» in: Boris Fausto, ed., *Fazer a América: A imigração em massa para a América Latina* (São Paulo: Editora da Universidade de São Paulo, 1999), and Cristobal Kay, *Latin American Theories of Development and Underdevelopment* (New York: Routledge, 1989).

(٢١) Grun, Ibid., p. 73.

الاقتصادي بخفض التضخم والعجز المالي؛ وفتح الاقتصاد وخصخصة القطاع العام؛ والتوجّه نحو الخارج والتصدير[٢٢]. في البداية، حظيت هذه الإجراءات التي سُميت الإصلاحات النيوليبرالية بمؤازرة الطبقات الوسطى بعدما أفزعتها السياسات التنموية التي أشرفت عليها الدولة وبدت أنّها تحمي الصناعات الوطنية والمسؤولين الحكوميين الفاسدين. وفي سياقٍ ما عُدّ «ثورةً صامتة»[٢٣]، قلّصت عدة حكومات في أمريكا اللاتينية أعداد موظفيها، وباعت الشركات العامة، وفتحت أسواقها الوطنية بدءاً من أواسط ثمانينيات القرن الماضي إلى يومنا هذا.

لقي هذا الموقف الجديد من الليبرالية الترحاب من جانب البعض مقابل الامتعاض من جانب البعض الآخر، وجرى التعامل معه في البداية كظاهرة بنيوية في الدراسات الأمريكية اللاتينية. رأى البعض أن لا غنى عنها لإصلاح الدول والأسواق[٢٤]، وجادل البعض الآخر بأنها زادت انعدام المساواة بين الجنسين[٢٥]، والإقصاء الاجتماعي[٢٦]، والضعف السياسي والاقتصادي[٢٧]. وفي ما عُدّ مساهمةً حاسمة في هذا التحقيق، بيّن تشارلز هايل[٢٨] مؤخراً أن السياسات النيوليبرالية لا تُنكر المتطلبات الإثنية وإنما تعترف بها بصورة انتقائية لحماية العلاقات المهيمنة في

---

(٢٢) John Williamson, «Democracy and the «Washington Consensus»,» *World Development*, vol. 21, no. 8 (1993), p. 1329.

(٢٣) Duncan Green, *Silent Revolution: The Rise of Market Economics in Latin America* (London: Cassell, 1995), p. 2.

(٢٤) Peter Kingstone, *Crafting Coalitions for Reform: Business Preferences, Political Institutions, and Neoliberal Reform in Brazil* (University Park: Pennsylvania State University Press; 1999), Philip Oxhorn and Graciela Ducantenzeiler, eds., *What Kind of Democracy?: What Kind of Market?: Latin America in the Age of Neoliberalism* (University Park: Pennsylvania State University Press, 1998); Kurt Weyland: *Growth without Equity: Failures of Reform in Brazil* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1996), and «Swallowing the Bitter Pill: Sources of Popular Support for Neoliberal Reform in Latin America,» *Comparative Political Studies*, vol. 31, no. 5 (1998), pp. 539-568.

(٢٥) Florence Babb, *After Revolution: Mapping Gender and Cultural Politics in Neoliberal Nicaragua* (Austin, TX: University of Texas Press, 2001).

(٢٦) Jacquelyn Chase, ed., *The Spaces of Neoliberalism: Land, Place and Family in Latin America* (Bloomfield, Conn.: Kumarian Press, 2002).

(٢٧) Robert Gwynne and Cristobal Kay, «Latin America Transformed: Changing Paradigms, Debates and Alternatives,» in: Robert Gwynne and Cristobal Kay, eds., *Latin America Transformed: Globalization and Modernity* (New York: Arnold and Oxford University Press, 1999), pp. 2-29.

(٢٨) Charles Hale: «Does Multiculturalism Menace? Governance, Cultural Rights, and the Politics of Identity in Guatemala,» *Journal of Latin American Studies*, vol. 34, no. 3 (2002), pp. 485-524, and «Neoliberal Multiculturalism: The Remaking of Cultural Rights and Racial Dominance in Central America,» *Political and Legal Anthropology Review* (PoLAR), vol. 28, no. 1 (2005), pp. 10-19.

الدولة. وبطريقة مشابهة، بيّنتُ أن الاعتراف المتزايد بالبرازيليين من ذوي الأصول الشرق الأوسطية لا يعبّر عن وجود حدود معيّنة للمطالب (Claims) الإثنية داخل النظام النيوليبرالي فحسب بل إنّه يشير إلى مكانتهم المتعاظمة أيضاً.

على أن هذا الكتاب يختلف على أكثر من مستوى جوهري عن الدراسات العلمية التي تعاطت مع الليبرالية الجديدة من زاوية بنيوية مرتكزة على السياسة. يعتمد عملي عوضاً من ذلك على ما سمّاه جين كوماروف وجون كوماروف «ثقافة الليبرالية الجديدة»(٢٩). تؤلف هذه العبارة الصارخة جزءاً من هدف كوماروف المتمثل بتسليط الضوء على النواحي «التي لم تحظَ بتعليق» من المرحلة الراهنة، مثل «الاقتران الغريب للشؤون القانونية بقضايا الليبرالية» فضلاً عن صلتها بـ «السمات الحياتية العادية»، مثل «الأهمية المتزايدة للاستهلاك في صياغة الفرد والمجتمع والهوية»(٣٠). وبطريقة مشابهة، عاينتُ الليبرالية الجديدة بالدلالات الثقافية والمنطقية لانفتاح السوق، وشفافية الحكومة، وتنوّع المستهلكين. إن نموذج السوق المفتوحة الذي يشترطه صندوق النقد الدولي وإجماع واشنطن أعطى أهمية جديدة للصادرات الوطنية والمتطفلين عليها. كما أنّ الدفاع عن «الدولة الكفؤة» الذي يتصدره البنك الدولي أضفى صبغة سياسية زائدة على صور مكافحة الفساد والأخلاق والشفافية(٣١) ونحن نجد أن التسويق حوّل الثقافة الأخلاقية إلى سلعة، في حين صيّر التسويقُ الهادف الجماعاتِ الإثنيةَ بيئات استهلاكية. وبتفطني لثقافة الليبرالية، استطعت في عملي هذا تجسيد حضورها في سياقات وطنية محددة(٣٢).

(٢٩) Jean Comaroff and John Comaroff, «Of Totemism and Ethnicity,» in: *Ethnography and the Historical Imagination* (Boulder, CO: Westview Press, 1992 [1982]), p. 304.

(٣٠) Jean Comaroff and John Comaroff, «Millennial Capitalism: First Thoughts on a Second Coming,» *Public Culture*, vol. 12, no. 2 (2000), pp. 292-293.

(٣١) عام ٢٠٠٢، أبرمت رئيسة بلدية ساو باولو مارتا سوبليسي اتفاقية مع البنك الدولي للتحقيق في الفساد وضمان الشفافية في الحكومة المحليّة. أطلق البنكُ الدولي برنامج محاربة الفساد لضمان الشفافية السياسية في أواخر تسعينيّات القرن الماضي وأثنى عليه وزير الخزانة الأمريكي روبرت روبن الذي رأى أن «مصارف التنمية المتعدّدة الأطراف في وضع فريد في محاربة الفساد». انظر: Carlos Eduardo Lins Da Silva, «Wolfensohn é o ideó logo da mudança,» *Folha de S. Paulo* (30 September 1999), and «Rubin propõ e ataque do FMI à corrupç ã o,» *Editorial Folha de S. Paulo* (25 February 1999).

(٣٢) لا ريب أن «العنف البنيوي» للسياسات النيوليبرالية أدّى إلى عواقب كارثية أصابت أغلبية الفقراء وأبناء الطبقة العاملة في دول أمريكا اللاتينية. انظر: Paul Farmer, *Pathologies of Power: Health, Human Rights, and the New War on the Poor* (Berkeley, CA: University of California Press, 2003).

لكنّي لن أعالج في كتابي هذا البُعد للمرحلة الليبرالية الجديدة. انظر: Babb, *After Revolution: Mapping Gender and Cultural Politics in Neoliberal Nicaragua*; Suzana Sawyer, «Fictions of Sovereignty: Of =

وبالتالي، تعوّل مقاربتي للإثنية، والدولة، والليبرالية الجديدة، على التفسير الفذّ الذي اقترحه أرجون أبادوراي للتشديد على الناحية الأخلاقية في العولمة. رأى أبادوراي أن «الإثنية هي المارد الذي خرج من القمقم، وتحوّل الآن إلى قوة عالمية تزحف داخل الشقوق بين الدول والحدود وعبرها»[٣٣]. وإذْ فهم أبادوراي قوة الإثنية المتعاظمة بوصفها انعكاساً لأزمة الدولة القومية ومساهمَةً فيها، فقد حاججتُ في عملي هذا، مخالفاً فهم أبادوراي إلى حدّ ما، بأن الاعتراف المتزايد بالإثنية يظل مرتبطاً بالإطار السلطوي للدولة. وبيّنتُ أن الإثنية العربية حازت امتيازاً خاصاً في البرازيل اليوم، لكنّ هذا الاعتراف مرتبط بالسياق الوطني البرازيلي في النهاية.

ثانياً: الإثنية والدولة في البرازيل النيوليبرالية

مع أن عبارتَي «إثني» و«إثنية» تتمتعان برواج كبير في أوساط المصدّرين والسياسيين والمسوّقين في البرازيل اليوم، فهما تحملان، كما يبدو، معاني خفية في نظر أغلب المواطنين العاديين. لكن يوجد عبارتان أكثر شيوعاً هناك، هما «السليل أو الحفيد» و«السلالة أو النسب». يثير هذان المصطلحان السؤال التالي: ما هو نسبك؟ إننا نسمع في الأغلب أن هذا البلد مؤلّف من مواطنين ترجع أصولهم إلى أزيد من ثمانية ملايين مهاجر قدموا من أوروبا وشرق آسيا والشرق الأوسط[٣٤]. وفي ما يتعلق بالجماعات الإثنية، التسمية القياسية المستخدَمة هي «كولونيا» (وتعني «المستعمرة» في معناها الحرفي، و«الجالية» في معناها المجازي). وفي هذا الصدد، يُعد البرازيليون من أصل سوري ـ لبناني أشخاصاً ومؤسسات مزدوجة الإثنية تؤلف جزءاً من الجالية السورية ـ اللبنانية.

Prosthetic Petro-Capitalism, Neoliberal States, and Phantom-Like Citizens in Ecuador,» *Journal of = Latin American Anthropology*, vol. 6, no. 1 (2001), pp. 156-197; James Smith, «Buying a Better Witch Doctor: Witch-finding, Neoliberalism, and the Development Imagination in the Taita Hills, Kenya,» *American Ethnologist*, vol. 32, no. 1 (2005), pp. 141-158, and Sandy Smith-Nonini, «Health «Anti-Reform» in El Salvador: Community Health NGOs and the State in the Neoliberal Era,» *Political and Legal Anthropology Review*, vol. 21, no. 1 (1998), pp. 99-113.

وبالنظر إلى المؤلّفات الكثيرة التي تحدّثت عن هذه النقطة، أشعر أن الأحرى اليوم التساؤل عن سبب بقاء الليبرالية الجديدة مذهباً مهيمناً في أمريكا اللاتينية على تأثيراتها المجحفة في حق عامة المواطنين. ولكي نتخطّى الليبرالية الجديدة، يتعيّن علينا فهم كيف ترسخت في المقام الأوّل.

(٣٣) Arjun Appadurai, *Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1996).

(٣٤) Fausto, ed., *Fazer a América: A Imigração em massa para a América Latina.*

زاد استخدام عبارة الإثنية كوحدة تحليلية في الدراسات التي تتناول قضية الهجرة في البرازيل، وبخاصة في تسعينيات القرن الماضي(٣٥). وبالتركيز على المهاجرين بوصفهم مزارعين مستأجرين للأرض، أو عمالاً في المصانع، أو باعة متجوّلين، قصر هؤلاء المؤلفون دراساتهم لموضوع الإثنية على المجال الاجتماعي ـ الاقتصادي والبنيوي؛ ثم جرى مؤخراً التعامل مع الإثنية بالتلازم مع السياسات الثقافية لبناء الدولة. على سبيل المثال، تساءل جيفري ليسر في كتابه **التعامل مع الهوية القومية**(٣٦) عن كيفية صياغة المهاجرين غير الأوروبيين والمهاجرين غير الأفارقة إثنيةً مزدوجة من أصل أجنبي من خلال وسائل رمزية في الدولة. وبالتركيز على الحقبة الممتدة بين أواسط القرن التاسع عشر وستينيات القرن العشرين، توصّل ليسر إلى استنتاج مفاده أن الإثنية «أصل مستتر» ـ «مهيمن» لكنه «لم يحظَ بالاعتراف بعد» ـ في البرازيل المعاصرة(٣٧). وأنا مدين في عملي للتحليل التاريخي الذي قدّمه ليسر ومعوّل عليه في استكشاف كيف أصبح الأصلُ المستتر بارزاً اليوم.

حازت الإثنيةُ الاعتراف في أثناء ما أسمّيه اللحظة أو التجربة النيوليبرالية. وفي ما يختص بالبرازيل، بُدئ بتأسيس هيكلية الليبرالية الجديدة في سبعينيات القرن الماضي، لكنّ ثقافتها لم تبرز إلا في ثمانينيات ذلك القرن. في ذلك الوقت، أسست النخبُ المهنية مؤسساتٍ فكرية ليبرالية جديدة سُمّيت «المؤسسات الليبرالية»(٣٨). كما أعيد النظر في سياسات الهجرة التي تتبعها الدولة

---

(٣٥) Roberto Grun, «Construindo um lugar ao sol: Os judeus no Brasil,» in: Ibid., pp. 353-381; Boris Fausto, «Um balanço da historiografia da imigração para o Estado de São Paulo,» *Estudios Migratorios Latinoamericanos*, vol. 8, no. 25 (1993), pp. 415-440; Michael Hall, «Italianos em São Paulo (1880-1920),» *Anais (Museu Paulista)*, vol. 29 (1979), pp. 201-215; Jose de Souza Martins, «A Imigração Espanhola para o Brasil e a formacao da força-detrabalho na economia cafeeira: 1880-1930,» *Revista de Historia*, vol. 121 (1989), pp. 5-26; Christopher Reichl, «Stages in the Historical Process of Ethnicity: The Japanese in Brazil,» *Ethnohistory*, vol. 42, no. 8 (1995), pp. 31-62; Giralda Seyferth, *Imigração e cultura no Brasil* (Brasilia: Editora UnB, 1990), and Oswaldo Truzzi, *Patricios: Sirios e libaneses em sao Paulo* (São Paulo: Editora Hucitec, 1997).

(٣٦) Jeffrey Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil* (Durham, NC: Duke University Press, 1999).

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٤.

(٣٨) Denise Gros, «Institutos liberais, neoliberalismo e politicas publicas na Nova República,» *Revista Brasileira de Ciencias Sociais*, vol. 19, no. 54 (2004), pp. 143-160, and William Nylen, «Selling Neoliberalism: Brazil's Instituto Liberal,» *Journal of Latin American Studies*, vol. 25 (1993), pp. 301-311.

لتأمين مدراء تنفيذيين عابرين للحدود وعمالة رخيصة[٣٩]. وفي أثناء انتخابات عام ١٩٨٩، أصبحت عبارة النيوليبرالية أو الليبرالية الجديدة واحدة من مفردات المناقشات العامة. دافع فيرناندو كولور دي ميلو الضيّق الأفق آنذاك عن الليبرالية الجديدة بوصفها الترياق للفساد الذي زُعم أنّه ناجم عن القطاع الحكومي الضخم في العقود السابقة. ووعد معتمداً في ترشحه للانتخابات الرئاسية على «برنامج يدعم الليبرالية»[٤٠]، بفصل الموظفين الحكوميين الفاسدين من وظائفهم وبإنهاء العمل بالسياسات الحمائية التي وفرت غطاءً للصناعات المحلية المحظية. تولّى كولور بوصفه «صائد الأمراء» سدّة الرئاسة عام ١٩٩٠، وألغى التعريفات الجمركية عام ١٩٩١، ثمّ لاذ بالفرار بعدما وُجّهت إليه تهم بالفساد وتعرّض للتوبيخ عام ١٩٩٢. والتزم الرئيسان فيرناندو هنريكي كاردوسو (١٩٩٤ ـ ٢٠٠٢) ولويز أناسيو «لولا» دا سيلفا (٢٠٠٣ ـ حتّى كتابة هذه السطور)، فضلاً عن رئيسة بلدية ساو باولو مارتا سوبليسي (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٤) منذ ذلك الحين باتفاقات مجدَّدة أو مُبرَمة مع صندوق النقد الدولي ومع البنك الدولي تدعم نموذج السوق الحرّة وبرامج الحكم الشفاف في البرازيل[٤١].

بيّنتُ في كتابي أنّه استُهين بالإثنية العربية في الأزمنة الأولى، لكنّها حازت اعترافاً متزايداً في زماننا الحاضر. على سبيل المثال، كانت النخب البرتغالية البرازيلية تحطّ من شأن الشرق الأوسطيين في النصف الأوّل من القرن العشرين لأنهم تجار مخادعون بالفطرة جمعوا ثروات ضخمة لكنهم لم ينفعوا الأمّة بشيء[٤٢]. لكنّ المفهوم الشائع اليوم عن الذكاء التجاري الذي يتحلّى به العرب

---

(٣٩) Roseli Galleti, «Migrantes Estrangeiros No Centro de São Paulo: Coreanos e bolivianos,» in: *Emigracao e imigração internacionais no Brasil contempordneo*, coord. Neide Lopes Patarra, 2nd ed. (São Paulo: Fundo de Populacao das Nacoes Unidas, 1996), pp. 133-143, and Teresa Sales and Maria Do Rosario R. Salles, *Politicas Migratorias: America Latina, Brasil e brasileiros no exterior* (Sao Carlos: Editora UFSC, 2002).

(٤٠) Maureen O'Dougherty, *Consumption Intensified: The Politics of Middle-Class Daily Life in Brazil* (Durham, NC: Duke University Press, 2002), p. 117.

(٤١) في أثناء المدّة الرئاسية للولا بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٥، التزم الاتفاقات الموقّعة مع البنك الدولي ومع صندوق النقد الدولي. لكنه أعلن في أواخر آذار/ مارس ٢٠٠٥ أن البرازيل لن تجدّد واحدة من الاتفاقات التي وقّعها سلفه فيرناندو هنريكي كاردوسو مع صندوق النقد الدولي، على الرغم من استمرار العمل بالاتفاقات الأخرى مع ما يسمّى المؤسسات العالمية المتعدّدة الأطراف.

(٤٢) Mintaha Alcuri Campos, *Turco Pobre, sírio remediado, libanês rico: A trajetória do imigrante libanês no Espirito Santo* (Vitoria: Instituto Jones dos Santos Neves, 1987); John Tofik Karam, «A =

بالسليقة بات محلّ ثناء المصدّرين البرازيليين في «السوق الحرّة». زد على ذلك أن الصورة الأخلاقية التي ينشدها السياسيون من أصل لبناني حظيت بترحاب رسمي في مجلس بلدية مدينة ساو باولو في أثناء حملة إعلامية لمحاربة الفساد. وقد حرصتُ في الفصلين الأوّل والثاني على إظهار أن الإثنية العربية حازت نفوذاً شعبياً كبيراً لجهودها التي لم يُعرف لها مثيل في التصدير ولدورها في المساءلة الأخلاقية لدولة الاقتصاد الحرّ والشفافية في البرازيل.

لا ريب أن أغلب البرازيليين من أصول شرق أوسطية يزعمون أنهم لم يعانوا التمييز طوال حياتهم تقريباً وأنهم «مندمجون» في البلاد. على أنّه يتعين فهم هذه المزاعم في سياق علاقتها بفكرتين وطنيتين برازيليتين هما «المزيج» و«الديمقراطية العِرْقية» اللتين كان جيلبيرتو فريري أول من احتفى بهما في عمله حول تطور الحضارة البرازيلية[٤٣] زعم فريري أن تمازج الأجناس الهندية والأفريقية والبرتغالية في البرازيل أوجد مجتمعاً مختلطاً «خلق توازناً بين صور التنافر العِرْقي»[٤٤]. ومع أن الباحثين وثّقوا حالات تدلّ على التمييز العِرْقي في البرازيل منذ خمسينيات القرن الماضي[٤٥]، فإن الفكرة السائدة اليوم هي أن التمييز العِرْقي كان طفيفاً. لكنّ علماء الاجتماع اختلفوا منذ مستهلّ تسعينيات القرن الماضي إذا كان هذا الوضع من خصائص التاريخ البرازيلي[٤٦]، أم أنّه يخدم الهيمنة العِرْقية[٤٧]. ولحسم هذا

= Cultural Politics of Entrepreneurship in Nation-Making: Phoenicians, Turks, and the Arab Commercial Essence in Brazil,» *Journal of Latin American Anthropology*, vol. 9, no. 2 (2004), pp. 319-351, and Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil*.

(٤٣) تجدر الإشارة إلى أن فريري لم يصغ العبارة الفعلية «الديمقراطية العِرقية»، لكنه كان أوّل من احتفى بـ «الانسجام العِرقي» المزعوم في البرازيل. انظر: Antonio Sergio Alfredo Guimaraes, «Racial Democracy,» in: *Imagining Brazil*, edited by Jesse Souza and Valter Sinder (New York: Lexington Books, 2005), pp. 119-140; Gilberto Freyre, *Casa grande e senzala* (Rio De Janeiro: Jose Olympio Editora, 1977 [1933]), and Friedlander, *Being Indian in Hueyapan: A Study of Forced Identity in Contemporary Mexico*.

(٤٤) Freyre, Ibid., p. 126.

(٤٥) Fernando Henrique Cardoso and Octavio Ianni, *Côr e mobilidade social em Florianópolis* (São Paulo: Companhia Editora Nacional, 1960); Carlos Hasenbalg, *Discriminação e desigualdades racias no Brasil* (Rio de Janeiro: Graal, 1979), and Charles Wagley, ed., *Race and Class in Rural Brazil* (Paris: United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization, 1952).

(٤٦) Pierre Bourdieu and Louis Wacquant, «On the Cunning of Imperialist Reason,» *Theory, Culture and Society*, vol. 16, no. 1 (1999), pp. 41-58, and Peter Fry, «O Que a cindarela negra tem a dizer sobre a «política racial» no Brasil,» *Revista USP*, vol. 28 (1995), pp. 122-135.

(٤٧) George Reid Andrews, *Blacks and Whites in São Paulo, Brazil: 1888-1988* (Madison: University of Wisconsin Press, 1991); Donna Goldstein, *Laughter Out of Place: Race, Class, Violence, and* =

الجدال، أشرتُ في الفصل الثالث إلى أن المفهوم الوطني للديمقراطية العِرْقية أعيد بناؤه اليوم في نموذج مستقى من السوق: إما أنّه اعتراه ضعف في التصور الإحصائي بوجود تباين بين «السود» و«البيض» وإما أنّه تأكد بالقصص التي تُحكى عن الحراك الاقتصادي لـ «الإثنيات» (مثل العرب). وبالمثل، بيّنتُ في الفصل الرابع أن المفهوم القومي للخليط احتفظ بأهميته في الحياة العامة لكنه خرج من مفردات سياسة الهجرة التي تتبعها الدولة في مسألة الإنتاجية الاقتصادية. في كلتا الحالتين، لم تتم الاستعاضة من تعريفات السوق وإنما أعيد صوغ الانتماء الوطني.

تتجلى إعادة التنظيم الحالية للعِرْق والإثنية بأبهى صورها في الصناعة الثقافية البرازيلية. فقد عاين ريناتو أورتيز في عمله **التقاليد البرازيلية الحديثة** (١٩٨٨)، كيف تبلورت الهوية القومية البرازيلية عبر توسّع وسائل الإعلام المسموعة والمكتوبة من أربعينيات القرن الماضي إلى سبعينياته[٤٨]. أشار أورتيز إلى أن «شيئاً قد تغيّر» في البرازيل في أثناء هذه الحقبة؛ وهي ملاحظة يمكن أن تكون وصفاً للتطورات التي حدثت منذ تسعينيات القرن الماضي إلى يومنا هذا. لكنّ الصناعات الثقافية ساعدت، مع بعض الاختلاف، على صنع هويات عِرْقية وإثنية لا على صنع الهوية الوطنية فقط. وعلى امتداد هذه المحاور، بدأ العمل البحثي في التشكيلات العِرْقية والإثنية البرازيلية إزاء السلعة الثقافية للعِرْق الأسود ـ بما في ذلك الموسيقى الراقصة والموسيقى الإيقاعية ـ التي انتقلت من أوروبا إلى الولايات المتحدة[٤٩]، فضلاً عن وسائل الإعلام التجارية في البرازيل، مثل مجلة راكا التي تستلهم من الأمريكيين السود في الولايات المتحدة ونجمة البوب الشقراء سوكسا[٥٠]. وعلى النقيض بعض الشيء من تشديد هذه الأعمال على إعادة إنتاج الهرميات السابقة، ركزتُ في الفصلين

Sexuality in a Rio Shantytown (Berkeley, CA: University of California Press, 2003), and Michael = Hanchard, *Orpheus and Power: The Movirnento Negro of Rio de Janeiro and São Paulo, Brazil, 1945-1988* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994).

(٤٨) Renata Ortiz, *A moderna tradição brasiletra: Cultura brasileira e indústria cultural* (São Paulo: Editora Brasiliense, 1988).

(٤٩) Derek Pardue, «Blackness and Periphery: A Retelling of Hip-Hop Culture of São Paulo, Brazil,» (Ph.D. Dissertation, University of Illinois, Urbana-Champaign, 2004), and Livio Sansone, *Blackness without Ethnicity: Constructing Racein Brazil* (New York: Palgrave Macmillan, 2003).

(٥٠) Suely Kofes [et al.], «Gênero e raça em revista: Debate com os editores da revista Raça Brasil,» *Cadernos Pagu*, nos. 6-7 (1996), pp. 241-296, and Amelia Simpson, *Xuxa: The Mega-Marketing of Gender, Race, and Modernity* (Philadelphia: Temple University Press, 1993).

الخامس والسادس على طريقة إعادة ترتيب النظام التقليدي بين الإثنية العربية والدولة البرازيلية جزئياً على هيئة «ثقافة عربية» وتحويلها إلى سلعة، وتحويل «الجالية العربية» إلى نافذة استهلاكية في سوق الثقافة البرازيلية اليوم.

ثالثاً: زخرفة عربية من نوع آخر: وصف للشعوب من دون نعوت

يتوجه عملي أيضاً بالخطاب إلى مناظرة دامت عقدين حول المؤلّفات الأنثروبولوجية. وفي أثناء «أزمة التمثيل» التي بدأت رسمياً عام ١٩٨٦ واستمرّت إلى نهاية تسعينيات القرن الماضي، اشتملت أعمال نقدية معيّنة على تحويل الثقافة إلى واقع محسوس وعلى أقلمة مرجعيّة الباحث/المؤلّف. في هذا المناخ، بدا أن علم توصيف الشعوب (الإثنوغرافيا) بحاجة إلى تأهيل. عاين جورج ماركوس ومايكل فيشر أولاً «الإثنوغرافيا التجريبية»[٥١]، ثمّ صاغتْ دوريني كوندو «الإثنوغرافيا ما بعد الحداثية»[٥٢]، كما تأملتْ شارلوت أُول دايفيز في «الإثنوغرافيا الانعكاسية»[٥٣]. ومع أن قلة من الباحثين رغبوا آنذاك في هجر الإثنوغرافيا، فقد سعى الأنثروبولوجيون إلى إعادة صوغ الإثنوغرافيا بحيث تتجاوز الأطر التقليدية وتخرج من دائرة الكتابة السطحية عن الثقافة.

في هذه الأثناء، تحوّل جايمس كليفورد وجورج ماركوس، محرّرا كتاب **كتابة الثقافة**، وهو الذي مثّل بداية الأعمال النقدية، من عالِمَين في عصر ما بعد الحداثة إلى مُنظِّرين لظاهرة الشتات العابرة للحدود[٥٤]؛ فنشر كليفورد مقالة ممتازة عن الشتات[٥٥] ضمّها لاحقاً إلى كتابه **طرق: السفر والترجمة في أواخر القرن العشرين**[٥٦]، وطرح ماركوس موضوعاً عن طرائق «البحث العابر

(٥١) George Marcus and Michael Fischer, *Anthropology as Cultural Critique: An Experimental Moment in the Human Sciences* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1986).

(٥٢) Dorinne Kondo, *Crafting Selves: Power, Gender, and Discourses of Identity in a Japanese Workplace* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1990).

(٥٣) Charlotte Aull Davies, *Reflexive Ethnography: A Guide to Researching Selves and Others* (New York: Routledge, 1999).

(٥٤) James Clifford and George Marcus, eds., *Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography* (Berkeley, CA: University of California Press, 1986).

(٥٥) James Clifford, «Diaspora,» *Cultural Anthropology*, vol. 9, no. 3 (1994), pp. 302-338.

(٥٦) James Clifford, *Routes: Travel and Translation in the Late Twentieth Century* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1977).

للحدود»[٥٧]، وضمّه لاحقاً إلى كتابه **الإثنوغرافيا في السرّاء والضرّاء**[٥٨]. ولو عدنا بالنظر إلى الوراء لتبين أنّه من اللائق التأكيد أن نقد الأعراف الأنثروبولوجية التي صوّرت «الشعوب والثقافات» قاد إلى دراسات عابرة للحدود وعالمية. وفي النتيجة باتت الأنثروبولوجيا في تسعينيات القرن الماضي أكثر اهتماماً بتتبّع الشعوب والأشياء الملموسة في عمليات أوسع نطاقاً من «الكتابة عن الثقافات».

على أن هذا الاتجاه الحالي هو موضع نقد دائم لعدم التفاته إلى التقليد الأنثروبولوجي الشمولي. وكخطوة في مرحلة ما بعد إعادة التقييم، رتّبتُ فصول هذا الكتاب الستة للإفصاح عن الوجوه المتنوعة لحياة البرازيليين العرب كوحدة مترابطة تُعنى بالتجارة، والسياسة، والمهن الحرّة، والزواج، والنوادي الرياضية، والسياحة. وإذْ هدفتُ إلى إظهار كثافة الحضور العربي في البرازيل، يتناوب مضمون كلّ فصل بين المفاهيم الذاتية التاريخية والحالية للعرب البرازيليين وبين الممارسات المؤسسية، مصوراً التصورات الفكرية المتغيرة للأمة وللدولة البرازيلية، والاتجاهات والنماذج المتغيرة للنظام العالمي. وبذلك أريد أن يكون كتابي دراسة إثنوغرافية بلا نعوت. وهو يشير إلى تزايد بروز الإثنية في الدولة اليوم عبر مشاطرة الناس كفاحهم الوطني، وأحلافهم، ومشاعرهم المختلطة.

رابعاً: عرب الأمريكيتين بالأرقام والأسماء

في سياق الحديث عن كُنْه العروبة في الأيديولوجيات القومية والأجندات الاقتصادية ـ السياسية في الشق البرازيلي من النظام العالمي، يبرز هدف طبيعي لهذا العمل وهو إعادة توجيه دراسة العروبة خارج إطار الشرق الأوسط وأوروبا والولايات المتحدة. وفي هذا الصدد، أردت من التركيز على البرازيليين من أصل سوري ـ لبناني لفت الانتباه إلى زخرفة عربية من نوع آخر في العالم اليوم. بيد أنّه لتسليط الضوء على خاصية هذا القوام البرازيلي للعروبة، عرضت في كتابي مقارنات موجزة لأوضاع العرب في الأمريكيتين، وبخاصة في الولايات المتحدة.

قُدِّر عدد الوافدين من الشرق الأوسط، الذين جاء معظمهم مما يسمى اليوم سورية ولبنان، إلى الأمريكيتين بأكثر من ٣٠٠٠٠٠ مهاجر في الحقبة

---

(٥٧) George Marcus, «Ethnography in/of the World System: The Emergence of Multi-Sited Ethnography,» *Annual Review of Anthropology*, vol. 24 (1995), pp. 95-117.

(٥٨) George Marcus, *Ethnography through Thick and Thin* (New York: Routledge, 2000).

١٨٧٠ ـ ١٩٣٠(٥٩). ومع انتشار هؤلاء المهاجرين بمعدلات متساوية في أنحاء الأرجنتين والبرازيل والولايات المتحدة(٦٠)، أثبتوا وجوداً مذهلاً كباعة متجولين بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، وكانت تلك صفتهم وشاع الاستهزاء بهم لذلك على مدى عدة عقود تالية(٦١). ففي البرازيل، نظم الشاعر كارلوس دروموند دي أندرادي قصيدة عام ١٩٤٥ قال فيها:

«وُلد الأتراك باعةً
حاملين تحفاً رخيصة في علب
من باب إلى باب
. . .
إذا فتحوا العلبة، من سيقاوم الرغبة في الشراء؟
إنّها رخيصة، رخيصة، اشترِ الآن
وادفع ثمنها لاحقاً! اشترِ الآن»(٦٢).

---

(٥٩) سعيد حمادة، النظام الاقتصادي في سورية ولبنان (بيروت: الجامعة الأميركية في بيروت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٣٦)؛ Charles Issawi, ed., *The Economic History of the Middle East, 1800-1914* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1966), and Kemal Karpat, «The Ottoman Emigration to America,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 17 (1985), pp. 175-209.

(٦٠) بقي عدد المهاجرين السوريين واللبنانيين إلى الولايات المتحدة في حدود ١٣٠,٠٠٠ مهاجر بين سبعينيّات القرن التاسع عشر وثلاثينيّات القرن العشرين. انظر: Michael Suleiman, ed., *Arabs in America: Building a New Future* (Philadelphia, PA: Temple University Press, 1999), p. 2.

وبلغ ١٠٧,٠٠٠ مهاجر في البرازيل خلال المدّة نفسها. انظر: Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil.*

وبلغ ١٠٨,٠٠٠ في الأرجنتين من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٥٠. انظر: Gladys Jozami, «The Return of the «Turks» in 1990s Argentina,» *Patterns of Prejudice*, vol. 30 (1996), p. 28.

كما هاجر شرق أوسطيون بأعداد أقل إلى دول أمريكية لاتينية وكاريبية أخرى.

(٦١) في بيونس آيريس، يُقال إن ٥٣ في المئة من العرب القاطنين مارسوا بيع التجوال أو اشتغلوا في مؤسسات مهنية صغيرة. انظر: Ignacio Klich, «Criollos and Arabic Speakers in Argentina: An Uneasy Pas de Deux, 1888-1914,» in: *The Lebanese in the World: A Century of Emigration*, edited by Albert Hourani and Nadim Shehadi (London: I. B. Tauris, 1992), p. 273.

وفي مدينة نيويورك، اشتغل أكثر من ٥٠ في المئة من السكان العرب في تجارة السلع. انظر: Lucius Hopkins Miller, *Our Syrian Population: A Study of the Syrian Communities of Greater New York* (San Francisco: Reed, 1969 [1905]), p. 11, and Akram Khater, *Inventing Home: Emigration, Gender, and the Middle Class ill Lebanon, 1870-1920* (Berkeley, CA: University of California Press, 2001), p. 74.

(٦٢) نقلاً عن: Andre Castanheira Gattaz, «História oral da imigração libanesa para o Brasil, 1880-2000,» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 2001), p. 15.

وبالمثل، تظهر شخصية بائع متجوّل سوري في الولايات المتحدة في مسرحية «خُضراً تنمو الزنابق» (Green Grow the Lilacs) للين ريغز(٦٣). وحين حوّل رودجرز وهاميرستاين المسرحيةَ إلى مسرحية أوكلاهوما الموسيقية عام ١٩٤٣، أصبحت الشخصيةُ علي حكيم «الفارسيّ»(٦٤). واليوم، لا تزال ذكرى بيع التجوال حاضرة بقوة في الصورة الشعبية للعرب في البرازيل، لكن استُعيض منها بصورة «العربي السيئ الدوّار» النمطية في الولايات المتحدة(٦٥).

يتفّق المؤرّخون على أن عامّة المهاجرين من الشرق الأوسط وصلوا إلى البرازيل في مستهلّ القرن العشرين(٦٦). هاجر هؤلاء، الذين جاء معظمهم من سورية ولبنان المعاصرَين، إلى البرازيل بين عامي ١٨٨٠ و١٩٦٩(٦٧). لكن بدءاً من سبعينيات القرن الماضي، يظهر أن من يصلون إلى البلاد سنوياً هم في حدود ٥٠٠ إلى ٧٠٠ مهاجر فقط، عامتهم من جنوب لبنان وفلسطين(٦٨). وعلى الرغم من ضآلة هذه الأعداد، تحدثت التقاريرُ الإخبارية والمتاحف التي تؤرّخ الهجرة عن وجود ٦ إلى ١٠ ملايين مواطن من أصل سوري ولبناني في البرازيل المعاصرة(٦٩). والسؤال هو كيف تكاثرت أعداد جماعة

---

(٦٣) قدّم صاحب مدوّنة في مدينة تولزا في ولاية أوكلاهوما تفسيراً لافتاً للنظر ومقبولاً ظاهرياً للشخصية التي اخترعها الكاتب لين ريغز، وهو أن المهاجرين الذين قدموا من بلدة مرجعيون في جنوب لبنان كانوا باعة متجوّلين في أثناء فورة بيع الأراضي في أوكلاهوما. لكنهم أسّسوا في نهاية المطاف كنيسة سان أنتوني الأرثوذوكسية في تولزا. وكان سول بايوث أحد مؤسسي الكنسية، ثمّ أصبح صديقاً لريغز الذي جعله «قالباً» لشخصية في قصته. انظر: Lynn Riggs, *Green Grow the Lilacs* (New York: Samuel French, 1931).

وانظر أيضاً: <http://orthodox-okie.blogspot.com/2004_10_31_orthodox-okie_archive>.

(٦٤) Sandra Baringer, «Oklahoma! and Assimilation,» *Proceedings of the Modern Language Association*, vol. 113, no. 3 (1998), p. 452.

(٦٥) Jack Shaheen, *The T.V. Arab* (Madison: Bowling Green State University Press, 1984).

(٦٦) Gattaz, «História oral da imigração libanesa para o Brasil, 1880-2000;» Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil*, and Truzzi, *Patricios: Sirios e libaneses em sao Paulo*.

(٦٧) Lesser, Ibid., p. 8.

(٦٨) هذا هو تقديري المبني على مناقشات مع مسؤولين في دائرة الهجرة في ساو باولو ومع صحافيين برازيليين عرب. تجدر الإشارة أيضاً إلى أن هؤلاء الصحافيين متفقون على أن العدد المقدَّر للمهاجرين تراجع كثيراً بين سبعينيّات القرن الماضي وتسعينيّاته.

(٦٩) يصحّ أن توصف الأعداد المذكورة هنا بأنها «تقريبية». وتؤكد صحيفة *Journal da Tarde* وجود «٦ ملايين لبناني وأبنائهم» في جميع أنحاء البرازيل. انظر: Tatiana Vicentini, «Colôniaá rabe teme retaliaç ã o dos EUA,» *Journal da Tarde*, 18/8/2001, p. 24.

وتحدثت صحيفة *Folha de S. Paulo* عن وجود «٩ ملايين مهاجر وأبنائهم» انظر: «Brasil recebeá rabes desde o século 19,» *Folha de S. Paulo* (14 December 1997), p. 29.

إثنية من ٢٠٠٠٠٠ نسمة إلى ٦ ملايين نسمة في غضون قرن؟

لا ينبغي تجاهل هذه الإحصاءات بحجة أنّها بيانات خاطئة، بل يجب دراستها كحقائق اجتماعية. ونسوق في هذا الصدد مثالاً في مقالة عن الشرق الأوسطيين نشرتها المجلة الأسبوعية **فيجا**[٧٠]. «قدّر» كاتب المقالة عددَ المواطنين من أصل سوري ـ لبناني الذين يعيشون في البرازيل اليوم بسبعة ملايين مواطن[٧١]. ولم يكد يمضي شهر على نشر المقالة حتّى سألني لبناني من الجيل الثاني (يملك شركات إعلانات) إن كنت قرأتها من قبل. ثمّ أضاف: «أنا من قدّم أغلب هذه المعلومات». يراودني إحساس بأنه وآخرين ذكروا مثل هذه التقديرات في مقابلات أُجريت في سياق إعداد تقارير إخبارية أو بحوث أكاديمية[٧٢] والحقيقة هي أن الشرق الأوسطيين الذين يتمتعون بحضور استثنائي في الدوائر المهنية والسياسية بالغوا في تقدير أعدادهم كوسيلة لتعزيز مكانتهم في الأمّة البرازيلية.

حتّى إن هذه المزاعم الرقمية حازت مزيداً من الشرعية في التداول العام كما تجلّى في مقالة عن الحياة الاجتماعية نشرتها في مجلة *Folha de S. Paulo* عام ٢٠٠١ التي تصدر يوم الأحد تحت عنوان «وجهنا العربي». جاء في المقالة أن «المهاجرين وذرّياتهم الذين يعيشون في البرازيل يقدّرون بنحو ١٠ ملايين مهاجر، وهم من الجنسيتين اللبنانية (٧ ملايين) والسورية (٣ ملايين) أساساً». واعتماداً على هذه المقالة، نشر متحف الهجرة ميموريال دو إميغرانتي في ولاية

= ومؤخراً، ذكرت صحيفة *Revista da Folha* أنّه يوجد «٧ ملايين مهاجر لبناني» و«٣ ملايين مهاجر سوري وأبنائهم في البرازيل». انظر: Yuri Débora, «O nosso lado Arabe,» *Revista da Folha* (23 November 2001), p. 8.

وفي إشارة إلى هذا المصدر، ذكرت صحيفة *Memorial do Imigrante* في ساو باولو أنّه يوجد «٧ ملايين مواطن من أصل لبناني و٣ ملايين مواطن من أصل سوري في البرازيل».

(٧٠) Flavia Varella, «Patrícios, dinheiro, diploma e voto: A saga da imigração arabe,» *Veja* (4 October 2000), pp. 122-129.

(٧١) المصدر نفسه.

(٧٢) استخدم زملائي الحسابات نفسها غالباً. وفي أحد المواقف التي لا تُنسى، ذكر عبده؛ وهو مدير ثري يعمل في القطاع السياحي، أن أحد زملائه أعرب عن شكوكه ذات مرّة في أعداد السكان. أضاف عبده: «لكنّ القنصليات هي من يجمع هذه البيانات». لذلك طرحتُ السؤال على موظف في القنصلية اللبنانية في ساو باولو. وبعدما سمعت أن ٧ ملايين لبناني يقيمون في البرازيل، طرحت سؤالاً عن مصدر هذا الرقم. غاب الموظف بضع دقائق، وعاد ومعه كتاب عن مطبخ المهاجرين في البرازيل عنوانه: Carlos Roque, *Correntes de imigrantes e inveções culinárias*, Centenario do Brasil; no. 5 ([n.p.]: Do Autor, 2000). قلّبَ الصفحات إلى أن وصل إلى الفصل الذي يتحدّث عن لبنان وأشار إلى سطرين في النصّ تحدّث عن وجود «٧ ملايين منحدّر من لبنان في البرازيل» من دون إشارة إلى مرجع.

ساو باولو هذه الإحصاءات في معرض عن الهجرة اللبنانية عام ٢٠٠٢. وفي ترجمة لتزايد حضور الإثنية العربية، صوّرت هذه الأرقام المنحدرين من الشرق الأوسط بأنهم يمثلون نحو ٥ في المئة من سكان البرازيل.

ومن أجل المقارنة نعرض لمحة موجزة ذات دلالات عن أعداد الشرق الأوسطيين في الولايات المتحدة. فقد قدم نحو ١٣٠٠٠٠ مهاجر من سورية ولبنان المعاصرَين إلى الولايات المتحدة بين سبعينيات القرن التاسع عشر وثلاثينيات القرن العشرين[(٧٣)]. كما هاجر إلى الولايات المتحدة أكثر من ٢٥٠٠٠٠ شرق أوسطي منذ عام ١٩٦٧[(٧٤)]، قدم معظم هؤلاء من بلدان الخليج العربي ومصر والعراق والأردن ولبنان وفلسطين. بيد أن إحصاءً لعدد السكان وتقديرات مشابهة للأمريكيين المقيمين في الولايات المتحدة من أصل عربي انتُقدت من جانب ناشطين وباحثين خلال العقدين الماضيين كونها «متدنّية»[(٧٥)]. وهناك تقدير أدقّ، وإن لم يُدعَّم بسند، يشير إلى أن عددهم وصل اليوم إلى ٢,٥ مليون مواطن[(٧٦)]. يعكس واقعُ التقدير المتدني لأعداد الشرق الأوسطيين في الولايات المتحدة مقابل تقديرها المرتفع في البرازيل «خفاء» العرب التاريخي في الولايات المتحدة[(٧٧)] وما أصفه بأنه بروز متعاظم لهم في البرازيل.

يُطلَق على الشرق الأوسطيين في البرازيل أسماء أو توصيفات كثيرة، مثل توركو (تركي)، وسيريو (سوري) وليبانيز (لبناني)، وسيريو ـ ليبانيز (سوري ـ لبناني)، وأرابي (عربي) وأرابي برازلييرو (عربي برازيلي). ما تجدر الإشارة إليه هنا هو مدى غموض هذه النعوت وتداخلها، أسوة بالمصطلحات العِرْقية والإثنية الأخرى في البرازيل[(٧٨)] على سبيل المثال، كوني من أصل شرق أوسطي، أُلقَّب

(٧٣) Suleiman, ed., *Arabs in America: Building a New Future*, p. 2.

(٧٤) Gregory Orfalea, *Before the Flames: A Ouest for the History of Arab Americans* (Austin, TX: University of Texas Press, 1988).

(٧٥) Kim Schopmeyer, «A Demographic Portrait of Arab Detroit,» in: Nabeel Abraham and Andrew Shryock, eds., *Arab Detroit: From Margin to Mainstream* (Detroit, MI: Wayne State University Press, 2000), pp. 61-92, and John Zogby, *Arab America Today: A Demographic Profile of Arab Americans* (Washington, DC: Zogby International, 1990).

(٧٦) Suleiman, ed., *Arabs in America: Building a New Future*, p. 2.

(٧٧) Nadine Naber, «Ambiguous Insiders: An Investigation of Arab American Invisibility,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 23 (2000), pp. 37-61, and Therese Saliba, «Resisting Invisibility: Arab Americans in Academia and Activism,» in: Suleiman, Ibid., pp. 304-319.

(٧٨) وجد الأنثروبولوجيون أولاً أن الحديث عن استخدام البرازيليين عشرات التسميات التي تدلّ =

بـ «التركي» و«اللبناني» و«السوري ـ اللبناني» و«العربي». ولو عدنا إلى التاريخ، لتبين لنا أن عبارة «تركي» صاغها رجال الدولة البرازيليون لتصنيف المقيمين مدداً قصيرة من حمَلَة وثائق السفر الصادرة عن السلطنة العثمانية من أواخر القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى[(٧٩)] وبعد تأسيس سورية ولبنان ككيانين جغرافيَّين ـ سياسيَّين تحت الانتداب الاستعماري الفرنسي في عشرينيات القرن الماضي، أضيفت فئتا السوريين واللبنانيين إلى قوائم الأسماء المحفوظة لدى دائرة الهجرة البرازيلية[(٨٠)]. ومع ذلك شاع استخدام عبارة «تركي» في أوساط خاصة البرازيليين وعامّتهم منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى وقتنا الحاضر للإشارة إلى الأشخاص ذوي الأصول الشرق الأوسطية. تجدر الإشارة إلى أن هذه التسمية عُدّت تهكمية في الأزمنة التي سبقت ذلك. لكنّ الشرق الأوسطيين يزعمون اليوم أن عبارة «تركي» ليست تحيّزية بل هي «مداعبة» أو إعراب عن «تودد»، وهو ما يعكس الأيديولوجيا القومية للديمقراطية العِرْقية.

من الناحية الاصطلاحية، كان السوريون واللبنانيون هم من صاغوا عبارة «السوري ـ اللبناني» واستخدموها، وهي عبارة «تضمنت تلميحاً ضمنياً إلى الانتماء البرازيلي»[(٨١)]. بيد أن استخدام عبارة «عربي» آخذ في التزايد أيضاً. على سبيل المثال، يشدِّد برازيليون من أصول سورية ـ لبنانية يُشرفون على الغرفة التجارية العربية البرازيلية (CCAB) صراحة على هُويتهم العربية أمام العملاء البرازيليين (غير العرب) المهتمين بتصدير منتجاتهم إلى الأسواق العربية

= على تمييز عِرقي مشكوك فيها بالكامل. انظر: Marvin Harris, *Patterns of Race in the Americas* (New York: Walker, 1964); Conrad Kottack, *Assault on Paradise: Social Change in a Brazilian Village* (New York: Random House, 1983), and Wagley, ed., *Race and Class in Rural Brazil*.

وعلى النقيض من ذلك، أشار روجر سنجيك إلى أن التسميات الكثيرة للأعراق لا تشير إلى ما سمّاه هاريس «تعظيم الغموض». انظر: Marvin Harris, «Referential Ambiguity in the Calculus of Brazilian Racial Identity,» *Southwestern Journal of Anthropology*, vol. 14, no. 4 (1970), pp. 1-14, and Roger Sanjek, «Brazilian Racial Terms: Some Aspects of Meaning and Learning,» *American Anthropologist*, vol. 73 (1971), pp. 1126-1143.

ويؤكّد عملي وجود قدر من الغموض «لا تعظيم الغموض» في التصنيفات العِرقية والإثنية.

(٧٩) خلال الحقبة نفسها، كان أغلب الشرق الأوسطيين الذين أقاموا مدداً قصيرة من المسيحيين، لكن كان فيهم مسلمون ويهود مغاربة أيضاً. وأشار ليسر إلى أن إحدى أوائل موجات المهاجرين الشرق الأوسطيين إلى البرازيل ضمّت يهوداً قدِموا من المغرب في أواخر القرن التاسع عشر. انظر: Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil*, pp. 45-47.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٨.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٤٢.

الخليجية بوجه خاص. وبالمثل، قُدّمت سلسلة مطاعم حبيب للوجبات السريعة «العربية» إلى الزبائن بسحر عربي واضح، مع أن أغلب البنود المدرجة في قوائم طعامها مستمدّ من المطبخ «السوري ـ اللبناني». حتّى إن كولونيا أرابي (الجالية العربية) غدت «سوقاً مستهدَفة» في إعلانات خطوط الطيران المدني. ويعكس رواجُ عبارة «عربي» ثقافةَ الانفتاح الاقتصادي وتنوع المستهلكين في البرازيل.

إن سياسة تسمية الشرق الأوسطيين في تاريخ الولايات المتحدة ذات دلالات أيضاً. فعلى غرار المهاجرين الشرق الأوسطيين الذين قدموا إلى البرازيل، صُنّف المهاجرون الشرق الأوسطيون الذين حطّوا رحالهم في الولايات المتحدة بأنهم «أتراك» إلى أواخر القرن التاسع عشر[٨٢]. وبقيت العبارة تُستخدم بنية تحقير «السوريين ـ اللبنانيين» إلى أواسط القرن. لكنّ أصول هذا الوصف طواها النسيان اليوم. فالأمريكيون من أصل عربي يعرّفون أنفسهم ويصفهم الآخرون بأنهم «أمريكيون عرب» أو «شرق أوسطيون»، ويُعرَّفون بجنسياتهم الأصلية كذلك (مثل «الجنسية اللبنانية»). على أن المفكرين أشاروا إلى أن صوغ تسميات، مثل «عربي» و«فلسطيني»، مرتبطة بصورة غير مباشرة دائماً باليهود الأوروبيين[٨٣]. وفي الولايات المتحدة، لا بدّ من أن يأتي حديث المرء عن «العرب» في سياق الإشارة إلى اليهود الأوروبيين. فعلى العكس من استخدام تسمية «العربي» في الاقتصادات العِرْقية والوطنية البرازيلية، يعكس تعريفُ السياسة الأمريكية لـ «العرب» الأيديولوجيا العِرْقيةَ للقومية الأمريكية والمحاباة التاريخية للنزعة الاستعمارية اليهودية الأوروبية في السياسة الخارجية الأمريكية.

استخدمتُ في هذا الكتاب عبارة «برازيلي من أصل شرق أوسطي»، و«متحدر من الشرق الأوسط»، و«شرق أوسطي» كمصطلحات تحليلية ثقافية موضوعية في الحالات التي يشار فيها إلى «الشرق الأوسطيين». واستخدمتُ التسميات «سوري» و«لبناني» و«سوري ـ لبناني» و«عربي» و«تركي» بحسب النصّ أو السياق العملي. كما استخدمتُ عبارة «عربي» وبرازيلي عربي. وسبب

(٨٢) عام ١٨٩٩، أضيفت «سورية» كبلد مولد في إحصاءات الهجرة الأمريكية، ولم يُضَف لبنان إلا عام ١٩٤٩. انظر: Helen Hatab Samhan, «Not Quite White: Race Classification and the Arab-American Experience,» in: *Arabs in America: Building a New Future*, p. 216.

(٨٣) Joseph Massad, «Palestinians and the Limits of Racialized Discourse,» *Social Text*, vol. 11, no. 1 (1993), pp. 90-112, and Therese Saliba, «Resisting Invisibility: Arab Americans in Academia and Activism,» in: Suleiman, ed., *Arabs in America: Building a New Future*, pp. 304-319.

ذلك أنّها مفردات دأبتْ على استخدامها المجلاتُ التي ينشرها العرب أو تُنشر لهم، مثل العروبة(٨٤) والنور، وكارتا دو ليبانو(٨٥)، وشمس، وأورينت إكسبرس. إكسبرس. واستشعاراً منّي بأن عملي هذا منشور آخر يتحدث عن العرب في البرازيل، جعلتُ لنفسي مكاناً محدوداً مميَّزاً ومسؤولاً بين المؤلّفين والمحرِّرين الآخرين الذين يوثّقون أوضاع الجالية ويشاركون في أنشطتها وفي تمثيلها.

خامساً: البرازيلية العربية على الرغم من أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر

من حقّ المرء أن يسأل: «هل لا تزال أوجه التباين بين العرب في البرازيل والعرب في الولايات المتحدة على حالها عقب أحداث ١١ أيلول/سبتمبر؟» راقبتُ في الأشهر الأخيرة من بحثي في ساو باولو في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وأنا لا أكاد أصدّق التقاريرَ الإخبارية التي تحدثت عن التدقيق في العرب والمسلمين وحبسهم في زنزانات انفرادية بالولايات المتحدة. فبالنظر إلى التحامل على الشرق الأوسطيين والمسلمين في الولايات المتحدة سابقاً، بدا هذا العنف مأسوياً ولكن متوقَّعاً. لكنّي صُدمتُ فعلاً بالتغطية الإخبارية لصلات إرهابية مزعومة عابرة للحدود لشرق أوسطيين في مدينة فوز دي إغوازو البرازيلية القريبة من باراغواي والأرجنتين في ما يسمّى المثلث الحدودي. وبعد مرور بضعة أسابيع على أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر، زعمتْ محطة بي بي سي، وصحيفة نيويورك تايمز ووكالات أنباء عالمية أخرى أن السلطات الدولية والمحلية تراقب الجوالي الشرق الأوسطية المقيمة في المثلث الحدودي بحثاً عن أشخاص يُشتبَه في أنهم إرهابيون(٨٦) وفي أواخر أيلول/سبتمبر، تحوّلت

(٨٤) مع أن العروبة هي مجلة صادرة عن الجمعية الخيريّة الإسلامية في ساو باولو، فهي تَصِفُ نفسها بأنها عربية بالمعنى الأشمل للكلمة (مع أن المدراء الرئيسيين فيها هم من اللبنانيين). وهي تصدر باللغتين البرتغالية والعربية. والنشرات الأخرى تصدر باللغة البرتغالية.

(٨٥) مجلة رسالة من لبنان (*Carta do Líbano*)، ويُعرف عن رئيس تحريرها نعيم فؤاد انحيازه إلى قضايا اللبنانيين المسيحيين. لكن بتوجيه الصحيفة إلى جمهور لبناني عامته من المسيحيين، لا يوازي نعيم بين السياسة والعروبة ولكن، يسعى إلى احتلال موقع فيها.

(٨٦) «Argentina, Paraguay, Brazil Step Up Search for «Terrorists» in Tri-Border Area,» BBC Monitoring Service (United Kingdom) (15 September 2001), and Larry Rohter, «Terrorists Are Sought in Latin American Smugglers' Haven,» *New York Times*, 27/9/2001.

استندت هذه التقارير وتقارير أخرى لم تتأكّد صحتها إلى تغطية إخبارية أمريكية وأوروبية سابقة قرنت الجوالي العربية بخلايا إرهابية في منطقة فُوز دو إيغواسيو.

هذه الصلات الموهومة إلى موضوع رئيسي في نشرات الأخبار الرئيسيّة التي تبثّها الشبكة التلفزيونية العالمية غلوبو في البرازيل. وما أثار انتباهاً خاصاً عثور القوات العسكرية الأمريكية على صورة فوتوغرافية لشلالات فوز دو إيغواسيو في معسكر تدريب للقاعدة في أفغانستان(٨٧) ومع تسليط وسائل الإعلام العالمية والوطنية الضوء على هذا «البرهان» المزعوم، بدا أن العرب الذين يعبرون الحدود الوطنية في الأمريكيتين يمكن أن تشملهم «الحرب» التي تشنّها الولايات المتحدة «على الإرهاب».

تلقّت الغرفة التجارية العربية البرازيلية في الأسابيع الأولى التي سادت فيها الشكوك في ساو باولو عقب هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر (فضلاً عن القنصلية السورية في المبنى نفسه) بلاغاً عن وجود قنبلة. وأرجئت مناسبة حكومية رسمية لتكريم الهجرة والثقافة العربيتين في مدينة غوارولْهوس القريبة. وأُجريت مقابلات مع المهاجرين اللبنانيين الذين قدموا إلى البلاد حديثاً ويديرون متاجر في شارع ٢٥ دي ماركو في وسط المدينة في شأن هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر وأذيعت في نشرات أخبار الساعة الثامنة. حتّى إن صديقة مقرّبة تُدعى ليلى لم ترسل ابنتها إلى المدرسة لمدّة يومين خشية أن يلحقها أذى من زملائها في الصف أو حتّى من معلّميها. وبعد أكثر من سنة من البحث في شؤون العرب في البرازيل، تنتابني مخاوف من إعادة تشكيل الجالية السورية ـ اللبنانية على نحو مباغت وفقاً للتصورات الوطنية الأمريكية للشرق الأوسطيين. وتساءلتُ بقلق، هل ستكون هناك قطيعة بين البرازيليين من أصول سورية ـ لبنانية وبين الأنماط التاريخية والحالية للإثنية العربية في البرازيل؟ وهل شملتْهم فجأة السياساتُ الشرق الأوسطية التي تلازمت في الولايات المتحدة مع هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر وترسّخت قبلها؟

وإنعاشاً للذاكرة كي لا نتعجّل تكهّن كيف سيكون العالم بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، قالت ليلى «أنا [كنت] قلقة حقاً، إلى أن بدأ عرض المسلسل التلفزيوني». بدأ عرض المسلسل «أو كلون» (النسخة) كما كان مقرّراً، لكن في سياق لم يكن ليتصوّره المموّلون، وموزّع الأدوار، والجمهور. وكما سيأتي في الفصل الرابع، تدور أحداث المسلسل حول «العشق الممنوع» بين فتى برازيلي

(٨٧) انظر مثلاً: «Casa usada pela Al Qaeda tinha foto que seria das cataratas do Iguaçu,» *Folha de S. Paulo* (16 November 2001).

يُدعى لوكاس، وفتاة مغربية مسلمة ترعرعت في البرازيل تُدعى جايد. صُوِّرت مشاهد المسلسل في البرازيل والمغرب، وأطال المنتجون أول أجزائه الثلاثة ليتضمن نحو ٢٠٠ حلقة بعدما كانت أقل من ١٠٠ حلقة. وسعياً لاستغلال الحوادث العالمية الصاخبة (بما في ذلك الأعمال الانتقامية التي استهدفت العرب في الولايات المتحدة)، أعاد أباطرة شبكة غلوبو الإعلامية كتابة أحداث المسلسل ليكون وسيلة لتعريف الشعبَ البرازيلي بالعالم العربي ـ الإسلامي. وفي أثناء العرض الأوّل للمسلسل التلفزيوني، نُقل عن غلوريا بيريز كاتبة السيناريو قولها «نحن بحاجة إلى القول لا للتحامل، وإلى وقف إذكاء هذا الجهل، وإلى تثقيف عامّة الناس. هناك إرهاب في سائر البلاد وبين جميع الشعوب، والمسلمون شعب مثلنا»[٨٨] وعلى الرغم من هذه المزاعم، أطلق المسلسل «أو كلون» موجة استهلاكية للسلع الثقافية «الشرق الأوسطية». وكما سيأتي في الفصل الخامس، راجت دروس تعليم الرقص الشرقي والعباءات «المغربية»، فضلاً عن منتجات أخرى، في الأوساط الشعبية البرازيلية. بهذا المعنى، أثارت هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر قلقاً في نفوس البرازيليين العرب، لكن كما ذكرت ليلى، «إلى أن بدأ عرض المسلسل التلفزيوني»[٨٩].

وفي غضون أسابيع، نشرت مجلّة فولها دي ساو باولو التي تصدر يوم الأحد قصة بعنوان «برازيل العرب» في ٢٣ أيلول/ سبتمبر، وهي قصة غلافية تتحدث عن الثقافة العربية وعن هجرة العرب إلى البرازيل. بدأت القصة بالعنوان الفرعي: «وجهنا العربي: الإرث البرتغالي والهجرة السورية ـ اللبنانية رسّخت تأثير الثقافة العربية في اليوميات البرازيلية». وجاء بعد العنوان «أن تأثير الثقافة العربية ماثل في فنّ الطبخ، والموسيقى، والأزياء، واللغة البرتغالية». ونُشرت عدة مقالات شرحت أسباب انتشار الإسلام في جميع أنحاء البرازيل والعالم، والمبادئ الرئيسيّة المذكورة في القرآن الكريم، ومساهمات العرب في البرازيل. ووصفت مقالة الثقافةَ العربية بأنها «مستهَلكة بكل ما في الكلمة من معنى» في ولاية ساو باولو. جاء في المقالة: «بحسب نقابة الفنادق، والمطاعم، والبارات،

---

(٨٨) Rodrigo Dionisio, «Muçulmanos ganham destaque em «O Clone»,» *Folha de S. Paulo* (23 September 2001).

(٨٩) لا أعني بذلك الاستهانة بتأثيرات هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر. لكن بالنظر إلى حقيقة أن أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ومسلسل «النسخة» عُرضا على المحطة التلفزيونية في البرازيل، لا ينبغي أن نفاجأ بأنه كان للمسلسل التلفزيوني تأثير مشابه في الجمهور العادي.

وما شابه في ساو باولو. . . نحو ٢٥ في المئة من الوجبات التي تقدَّم يومياً في مطاعم مدينة ساو باولو مستمَدَّة من المطبخ العربي»[٩٠]. ووصفت مقالات إخبارية أخرى الأسلوبَ المعماري المغربي في مدينة ساو باولو، والجذور المغربية لعدد من الكلمات المستخدمة في اللغة البرتغالية، و«أطفال شارع ٢٥ دي ماركو» الذين أصبحوا مصممي أزياء دوليين، فضلاً عن مساهمة أبناء العرب في الموسيقى الشعبية البرازيلية (MPB). وفي المقالة الافتتاحية الأخيرة التي تحدثت عن فنّ الطبخ، استحضر الناقد في مجال الغذاء جوسيمار ميلو كلمات جيلبيرتو فريري كتابه **الأسياد والعبيد: دراسة في تطوّر الحضارة البرازيلية**[٩١]: «إن أغلب ما في الشخصية البرازيلية ليس أوروبياً، ولا محلياً، ولا حتّى ثمرة احتكاك مباشر بأفريقيا السوداء. . . إنّه نابع إلى حدّ كبير من الإرث المغربي الذي لا يزال حاضراً في الحياة الخاصة للبرازيليين من أيام الاستعمار». وفي سياق التشديد على «الطابع العربي» في هذه الحكاية الوطنية عن البرازيل بعد ١١ أيلول/ سبتمبر، خلَص ميلو إلى «أننا جميعاً عرب إلى حدّ ما».

ترافقت هذه الإشارات الدقيقة إلى «مزيج» العروبة في البرازيل مع مزاعم شعبية واضحة بالديمقراطية العِرْقية. من ذلك أنّه نُظّمت «مسيرة من أجل السلام» في SAARA، وهي تعبير يختصر الأحرف الأولى لمنطقة (وجمعية) تجارية في وسط المدينة في ريو دي جانيرو، وذلك رداً على كلّ من هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر وأعمال العنف المستمرّ بين الإسرائيليين والفلسطينيين. مثّلت المسيرة موضوع نشرة أخبار الساعة الثامنة على شبكة غلوبو في ٢٥ أيلول/ سبتمبر، وقيل إن اختيار SAARA مكاناً للمسيرة كان مقصوداً، لأنها منطقة «تقليدية» للتجارة العربية واليهودية في ريو دي جانيرو. وذكر مقدمو نشرة الأخبار أن العرب واليهود «عاشوا معاً» في الحيّ نفسه منذ مستهلّ القرن العشرين، وأن الصراع الوحيد بينهم كان حول الأسعار والزبائن فقط. وختم مقدمو النشرة تعليقاً على صور لتجار في منتصف أعمارهم شابكي الأيدي والأرجل: «البرازيل بلد التسامح». وبذلك، اتخذ المفهوم البرازيلي للديمقراطية العِرْقية غاية مبتكرة أيديولوجية وربما تقدّمية في عالم أعمال العنف والانتقام.

تجلّى سيناريو مختلف في السياق الأمريكي بالولايات المتحدة. ففي غمرة

(٩٠) Débora, «O nosso lado Arabe,» p. 8.

(٩١) Freyre, *Casa grande e senzala*

المخاوف من إمكان تحويل كلّ من يُتصوَّر أنّه عربي أو مسلم إلى كبش محرقة لأحداث ١١ أيلول/ سبتمبر، أطلقت وسائل الإعلام حملة لإطلاع الشعب عموماً على الإسلام وعلى الوطن العربي، بما في ذلك البرامج الوثائقية المذاعة على نظام البثّ العام[٩٢]، وطُرِح مئة سؤال وجواب عن «الأمريكيين العرب» على الموقع الإلكتروني لديترويت فري برس، ومقالة افتتاحية نشرتها نيويوركر[٩٣]، فضلاً عن أمور أخرى. وأصدر مكتب المدعي العام الذي كان يرئسه جون أشكروفت عدة دعوات إلى احترام المسلمين، والعرب، والآسيويين الجنوبيين. وبعد يومين وحسب من هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، جاء في إحدى هذه الدعوات أن «أي تهديد باستخدام العنف أو التمييز ضدّ الأمريكيين العرب أو المسلمين المنحدرين من جنوب آسيا... لا يُعدّ خطأ وغير أمريكي فحسب، بل إنّه غير قانوني وسيتم التعامل معه بناء على ذلك»[٩٤]. وفي الوقت عينه، كان هؤلاء العرب والمسلمون أنفسهم هدفاً لمراقبة مكتب التحقيق الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية في الولايات المتحدة، وجرى تغليف الفوارق العربية والإسلامية بالأيديولوجيا الأمريكية متعددة الثقافات.

ينبغي أن تشير هذه المقارنة القصصية بين العرب في البرازيل وإخوانهم في الولايات المتحدة إلى أن هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، وما تلاها من أحداث ليست قوة مُجانِسة تجعل العرب في الأمريكيتين مشمولين بـ «الحرب» التي تشنّها الولايات المتحدة «على الإرهاب» والسياسات المشابهة. وفي حين لا يزال العرب والمسلمون في الولايات المتحدة يُعرَّفون ويُعزَّلون بموجب التعددية الثقافية الأمريكية، يظلّ العرب والمسلمون في البرازيل موضع تقدير من خلال مفهومَي «الخليط» و«الديمقراطية العِرْقية» الوطنيَّين البرازيليَّين. وهذا لا يشير إلى احتواء العرب بالمشاريع الوطنية فحسب[٩٥]، بل يُظهر أن أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر وما تلاها من تأثيرات عززت، إلى الآن على الأقل، مقومات العروبة المميزة تاريخياً ضمن الإطارين القوميَّين الأمريكي والبرازيلي.

---

(٩٢) Sally Howell and Andrew Shryock, «Cracking Down on Diaspora: Arab Detroit and America's War on Terror,» *Anthropological Quarterly*, vol. 76, no. 3 (2004), p. 455.

(٩٣) Andrew Shryock, «New Images of Arab Detroit: Seeing Otherness and Identity through the Lens of September 11,» *American Anthropologist*, vol. 104 (2002), p. 918.

(٩٤) وزارة العدل الأمريكية، نقلاً عن: Howell and Shryock, Ibid., p. 744.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ٤٥٥.

سادساً: كيف تكون عربياً في ساو باولو؟ ملاحظات مبعثرة

يعتمد هذا الكتاب على دراسة استغرقت ثمانية عشر شهراً في مدينة ساو باولو امتدت من حزيران/ يونيو إلى آب/ أغسطس ١٩٩٩، ومن أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠ إلى كانون الأوّل/ ديسمبر ٢٠٠١. استقرّ في هذه الولاية أكثر من نصف مهاجري الشرق الأوسط الذين قدموا إلى البرازيل بعد الحرب العالمية الثانية(٩٦)، ويمثّل أبناؤهم دوائر واسعة النفوذ اليوم في المدينة نفسها(٩٧) أجريت في سياق الدراسة ثمانياً وعشرين مقابلة رسمية، منها أربع وستون مقابلة مع رجال وواحدة وعشرون مقابلة مع سيدات. هذا التباين بين الجنسين عائد إلى هيمنة الرجال على الشبكات المهنية. وأجريت خُمس هذه المقابلات (١٩ مقابلة من أصل ٨٥) مع مهاجرين من غير العرب (عرّف هؤلاء عن أنفسهم بأنهم من أصول ألمانية، وإيطالية، ويهودية، وبرتغالية، وإسبانية، فضلاً عن أشخاص سمر البشرة يمثّلون خليطاً منهم)(٩٨). وبناء على مجموع البطاقات التعريفية التي كانت في حوزتي، أجريت اتصالات بنحو ٢٥٠ فرداً في ما وصفه ريناتو روزالدو «المخالطة العميقة»(٩٩).

تركّز بحثي في وسط مدينة ساو باولو على ناحيتين: شارع ٢٥ دي ماركو الذي أمسى موطن التجار العرب في أواخر القرن التاسع عشر وموطن المهاجرين البرازيليين الذين قدموا من المناطق الشمالية الشرقية في أواخر القرن العشرين، و«قصر أنشيتا» الذي يضم مقار الفرع التنفيذي لحكومة المدينة. ومع توسّع بحثي في اتجاه أفنيدا في باوليستا وأحياء غاردينز وبارايزو ومويما، ركّزت على عدة

---

(٩٦) على الرغم من الكثافة الكبيرة للجالية العربية في ولاية ساو باولو، فإن حضورها الصغير في الولايات الريفية مثل ماتو غروسو وغواياس مهم إحصائياً لأن هذه المناطق استقبلت موجات قليلة من المهاجرين. انظر: Manuel Diegues, *Imigração, urbanização e industrialização* (Rio de Janeiro: Instituto de Estudos Pedagologicos, 1964); Gattaz, «Historia oral da imigração libanesa para o Brasil, 1880-2000,» and Maria Lucia Mott, «Imigração arabe, um certo oriente no Brasil,» in: *Brasil: 500 Anos de Povoamento* (Rio De Janeiro: IBGE, 2000), pp. 190.

(٩٧) ذكر مؤخراً أن «مليون مهاجر وأبنائهم يعيشون بمدينة ساو باولو، انظر: Ericka Sallum, «O Que seria do nosso cardápio sem eles?,» *Veja Sã o Paulo* (5 February 2003).

(٩٨) لا ريب أن المنحدرين من الشرق الأوسط ليسوا الوحيدين في التكوين العام للانتماء العربي. وبوصفي باحثاً، احتجت إلى التحدّث إلى برازيليين من خلفيات متنوّعة يستهلكون الانتماء العربي أو يسوّقونه في الحياة العامة ويتفاعلون مع البرازيليين العرب في الشؤون التجارية والزوجية والترفيهية.

(٩٩) نقلاً عن: James Clifford, *Routes: Travel and Translation in the Late Twentieth Century* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997), p. 56.

مواقع، مثل الغرفة التجارية العربية البرازيلية والمؤسسات التي تُعنى بالتصدير القريبة منها، والعيادات الطبّية، ومكاتب محاماة وهندسة عائدة إلى مهنيين شرق أوسطيين، وأربعة نوادٍ ترفيهية سورية لبنانية، ومطاعم تُبرز «الثقافة العربية». وفي حزيران/ يونيو ٢٠٠١، رافقتُ برازيليين من أصل لبناني في رحلة سياحية إلى لبنان معتمداً على مسوحات سابقة لدى أربع وكالات سفر محلية. وقد برزت هذه المناسبات والإعلانات أو حظيت بتغطية أربع مجلات أو صحف يديرها عرب كنت قد جمعتها بين تشرين الأوّل/ أكتوبر ٢٠٠٠ وكانون الأوّل/ ديسمبر ٢٠٠٣.

بدأت رحلة تعلّم ما يعنيه أن يكون المرء عربياً في البرازيل حين سافرت إلى ساو باولو لإعداد بحث تمهيدي لأطروحتي في حزيران/ يونيو ١٩٩٩. وما زلت أذكر اليوم الذي أعقب وصولي حين أجريت اتصالات من مبنى شاهق لأحد الأصدقاء قريب من وسط المدينة. وافق شخص واحد على لقائي، وهو رئيس تحرير مجلة **شمس** التي تُعنى بالجالية العربية. عرض عليّ أفكاره المتعلّقة بالجالية في ذلك الأسبوع الأوّل، فتطرّق إلى المناسبات المزمع إقامتها في النوادي، ويسّر لي التحدّث إلى بعض المدراء المهنيين. وأصبحت هذه التأملات، والمواعيد، والإحالات مقدمتي الرسمية للتجربة العربية في البرازيل. في تلك الأيام وكذلك في الأشهر التالية، كان يُظَنّ بي خطأ بين الحين والآخر حتّى إني أحسست إنّني صحافي أجرى مقابلات أو محادثات قصيرة مع مهنيين وأقوم بتغطية لقاءاتهم وأمسياتهم. وبوجود كرّاسة مذكرات سريعة في جيبي، وجدت نفسي غير مرّة إلى جانب صحافيين آخرين، من إثنيات وقوميات متنوعة، أدوّن مقتطفات سريعة من خطابات طويلة وأشارك في محادثات مشوّقة.

وخلال الأشهر الأولى التي أمضيتها في بحثي، صرت أتردد أسبوعياً إلى مناسبات مؤسسية لم تكن لقاءات مهنية وحلقات دراسية وتجارية فحسب، بل كانت احتفالات سياسية وتجمعات ثقافية أيضاً. اعتقدتُ في البداية أن هذه الحفلات قد تمثّل أداة منهجية تتيح لي فرصة الاجتماع بشرق أوسطيين وبناء علاقات معهم، وكنت محقاً في ذلك. لكن بعد أشهر أربعة أمضيتها في حضور ثلاث مناسبات رسمية أو أربع أسبوعياً، بدا لي أن «أطر التواصل الاجتماعي المميّزة» هذه مهمة في حدّ ذاتها(١٠٠). فقد كان الشرق الأوسطيون ينفقون الكثير

(١٠٠) Lewis, «Sex and Violence in Brazil: Carnival, Capoeira, and the Problem of Every Day Life,» p. 717.

من الوقت والجهد في تنظيم هذه التجمعات والتردد إليها. لذلك، اعتمد أغلب عملي على أوصاف هذه المناسبات العامة، وكيفية تنظيمها ومن القائم بذلك، وما قيل وفُعل في شأنها في أوساط الجالية وفي الأوساط البرازيلية العامة.

لكنّي لم أكتفِ بأداء دور أنثروبولوجي ومصوّر فوتوغرافي صحافي في ساو باولو. تبلورت لديّ فكرة هذا البحث أثناء زيارتي لأقاربي في بيليم دو بارا عام ١٩٩٧. ومن خلال القصص التي سمعتها من أفراد الأسرة في الولايات المتحدة وفي البرازيل، عرفت أن جدتي وُلدت ونشأت في شمال البرازيل، وأنها كريمة زوجين لبنانيّين مهاجرَين. لكنّي لم أعرف أن أباها (والد جدّي) توُفي ودُفن هناك. وقد اصطحبني وشقيقي إلى مثواه عمٌّ أكنّ له حبّاً جمّاً. وتحت شمس محرقة في رابعة النهار، دخلنا مقبرة فيها شواهد قبور مهيبة زُيّن كلّ منها بصور فوتوغرافية باللونين الأسود والأبيض للراقدين فيها. وفجأة، أشار عمّنا إلى ضريح مسودّ تعلوه صورة صغيرة بيضوية الشكل مثبّتة في قطعة من الخزف. ذُهلت وشقيقي من الصورة التي تعلو السطح الخرساني المتشقق. كانت نسخة صغيرة عن صورة كبيرة مثبّتة في أعلى خزانة في غرفة نوم جدتنا في شمال ولاية نيويورك: كانت صورة أبيها. حدّقنا في الصورة التي بدت مألوفة جداً وفي هذا المكان النائي.

هذه القصة واحدة من حكايات السِّيَر الذاتية التي استخدمتها في البحث الذي أجريته عام ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١. ولكوني من أبناء الجيل الثالث وابن أسرة أمريكية لبنانية لها صلات بأقرباء لها في ريو دي جانيرو أوثق من صلاتها بوطنها الأمّ لبنان، أردت من حكاية زيارة المقبرة التأكيد على صلة بحثي بالبرازيل. لكن حين أستحضر الماضي، لا أتذكر من هذه الروايات سوى قصص التنقل بين دول الأمريكيتين والشرق الأوسط[١٠١]، حيث أعاد الزملاء رواية قصص تشتت أُسَرها، وعادت واجتمعت بأقاربها بعد تلقّيها مكالمات أو رسائل غير متوقعة، فضلاً عن قوة «الأصل». وعلى حدّ وصف امرأة مسنّة من الجيل الثاني، الجذور تتحدث بصوت عالٍ. بالنسبة إلى نظرائي، قصتي لا تقيم

(١٠١) مع أن المهاجرين الذين قدموا إلى البرازيل في خمسينيّات وستينيّات وسبعينيّات وثمانينيّات القرن الماضي تحدّثوا عن روابط أُسَريّة لها صِلة بسورية ولبنان، مال أبناء الموجات الأولى من المهاجرين إلى الحديث عن التشتت الأسري في أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية. ويذكر عدد صغير، ولكن مهمّ، من البرازيليين العرب من أبناء الجيلين الثاني والثالث، أن أقارب بعيدين استقرّوا في دول مختلفة في جميع أنحاء الأمريكيتين، لكنّ هذه الروابط الأسريّة لا تتجلّى إلا في المكالمات الهاتفية أو الرسائل، وسرعان ما تتبدّد في حكايات أسرهم عن الهجرة إلى البرازيل.

الدليل على القومية البرازيلية وإنما على العروبة الشتاتية. وعلى نحو غير مقصود إلى حدّ ما، أصبح موقعي كباحث موقع ابن عرب في الأمريكيتين(١٠٢).

حرصت على الإشارة إلى أصول من أقابلهم كأبناء ريف أو أبناء عمومة. وربما بسبب كنيتي (وربما بسبب جبهتي البارزة وبشرتي البيضاء الشاحبة)، لم تكن عروبتي المسألة الأهم، وإنما وضعي كشخص وُلد وتعلّم في الولايات المتحدة(١٠٣) شدّد أصدقائي وأقاربي عند تقديمي للآخرين في مقابلات ودّية ورسمية على أني أمريكي. وكنت أضيف في كلّ مرّة عبارة «لسوء الحظ» في محاولة ساخرة لتوضيح موقفي السياسي، وبخاصة عندما توحي الجنسية الأمريكية بالشوفينية(١٠٤) ورداً على ذلك، كان معارفي الجدد يسألونني: «لماذا؟» ومع أني دأبت على انتقاد السياسة الخارجية الأمريكية، بدا لي أن أبناء الطبقتين العليا والمتوسطة الذين عرفوا الولايات المتحدة من خلال السياحة لم يبلغوا هذا الحدّ من النفور. في الواقع، مثّلت جنسيتي الأمريكية في الغالب أهم مزيّة لكسب ثقة رجال الأعمال والمهنيين الليبراليين. على سبيل المثال، لم أكن أحصل على مقابلات أو دعوات لحضور مناسبات في البداية إلا بعد إثبات انتسابي إلى جامعة أمريكية بواسطة بطاقة تعريف أو رسالة ممهورة بشعار الكلّية باللغة الإنكليزية. وقال لي أصدقاء مقرّبون على سبيل النصيحة: «قل إنك أمريكي لأن للأمريكيين أسلوبهم في أداء كلّ عمل على الوجه الصحيح».، تلقى الجنسية الأمريكية، بطريقة تنمّ عن الهيمنة، احتراماً في الطبقات العليا في المجتمع البرازيلي.

على أن «خيوط التعريف المكشوفة أو المخفية هذه» لم تكن تمثل في أي لحظة(١٠٥) إلا ناحية واحدة وحسب من البحث. وهناك بُعْد آخر متصل بما

---

(١٠٢) تبدو عبارة «أنا ابن عرب» غريبة على الناطقين باللغة العربية (وخصوصاً خارج لبنان) وذلك عائد أساساً إلى استخدام الشتاتيين لها. لكنّ عبارة «أنا من أصل عربي» الصحيحة لغوياً تبدو منمّقة في آذان أبناء الجيلين الثاني والثالث الذين لم يتعلّموا لغتهم الأمّ بصورة منتظمة.

(١٠٣) دعني أضفْ أن وضعي كأحد أبناء الجيل الثالث موكول إلى البرازيليين العرب من أبناء الجيلين الثاني والثالث، مع أن المهاجرين الجدد كانوا يحسبونني أحياناً «أقرب إلى أن أكون أمريكياً». كما أعرب هؤلاء المهاجرون عن رغبة في عيش «حياة أفضل» مزعومة في الولايات المتحدة.

(١٠٤) مع اقتراب بحثي من نهايته، أشار صديق من الجيل الثاني في محادثة ودّيّة على كأس من الجعّة إلى أن هذا التموضع الذاتي يقوّي الصور السلبية للولايات المتحدة. وهو يرى أنّه كان حرياً بي التشديد على انتمائي الأمريكي للتقليل من تمثيلها المهيمن والمبيِّض في البرازيل. أجبته وأنا آمل أن ذلك يساهم في تنظيف صورة الإمبراطورية. لكنّي لم أعُد واثقاً من ذلك بعد تذكّري تلك الحادثة.

(١٠٥) Kirin Narayan, «How Native Is a «Native» Anthropologist?,» *American Anthropologist*, vol. 95 (1993), p. 673.

وصفته لورا نادر (١٩٧٢) بـ «تعلّم كلّ شيء»[١٠٦]. ذلك بأن للميل إلى التزيّن والمخالطة أهمية كبيرة في حياة العرب والدوائر المرفّهة (وهي القاعدة وليست الاستثناء في البرازيل). وتبيّن من البداية أن قمصاني الرسمية، وسراويلي غير الرسمية، وأحذيتي العادية لن تكفي لأنه كان يتفوّق عليّ دائماً على نحو لا علاج له رجال آخرون ببزات زرق داكنة وربطات عنق، إضافة إلى الأحزمة والأحذية المنسجمة معها[١٠٧] رددتُ على ذلك بمحاولة تغيير هندامي وارتداء ثياب مشابهة مع توابعها. ومن المستلزمات الأخرى بطاقات العمل، فطلبتُ بعضاً منها من جامعة شمال ولاية نيويورك، وتعلمتُ في النهاية كيف أقدّم نفسي وأبادل بطاقتي ببطاقة من أتحدّث إليه. ونصحني أحد الأصدقاء قائلاً: «احتفظ دائماً ببطاقات عمل في جيب سترتك».

وكما يشير هذا الصراع مع اللباس والديكور، تبين أن تجربتي مع الثقافة الطبقية في البرازيل أصعب من معايشة السياسات الإثنية أو الوطنية. فعلى النقيض من الأنثروبولوجيين الذين يتبنّون مواقف سائدة اجتماعياً واقتصادياً من موضوعات البحث المتعلّقة بطوائف المهمشين في المجتمع، أصبحت بوصفي أنثروبولوجياً جزءاً من الطبقة الوسطى المفتقرة إلى الطمأنينة، وبالتالي منفتحاً على برازيليين برجوازيين من خلفيات متنوعة. وقد دفعتني تجربة الخضوع الطبقي الشخصية هذه إلى تحسين مهاراتي وعرضي للموضوعات الإثنوغرافية الغنية في أكثر الأوضاع الرسمية وغير الرسمية تنوعاً. ونظراً إلى عجزي عن الإفادة من القوة المادّية التي يستخدمها أنثروبولوجيون «يدرسون موضوعات متخصصة محددة»، أُرغمت على الاتكال على رأسمالي المعنوي الخاص، والأهم من ذلك الاعتماد على سماحة الزملاء الذين اقتطعوا أوقاتاً من برامج أعمالهم الحافلة للاجتماع بي لعدة ساعات. بهذا المعنى، كان هذا البحث الراقي درساً لا غنى لأنثروبولوجي صغير عنه في عالم المحترفين والشخصيات المرموقة. وهذا ما سيتجلى في الحلقات الدراسية التي يديرها عرب مقتدرون للترويج للصادرات وهو الموضوع الذي سأناقشه الآن.

---

(١٠٦) Laura Nader, «Up the Anthropologist-Perspectives Gained from Studying Up,» in: Dell Hymes, ed., *Reinventing Anthropology* (New York: Pantheon Books, 1972), pp. 284-311.

(١٠٧) لم أكن الشخص الوحيد الذي لاحظ ذلك. ذلك بأن زميلاً لي في قطاع الاتصالات أشار إلى أنّني بحاجة إلى تلميع مظهري لأنه توقّع أن أقابل رجال أعمال وأصحاب مهن حرّة.

القسم الأوّل

تصوّر اقتصاد سياسي

الفصل الأوّل

من منبوذين إلى شركاء في دولة الصادرات

توافق اثنا عشر من الصناعيين المرموقين من أصل سوري ـ لبناني على تأسيس غرفة تجارة عام ١٩٥٢. في البداية، أرضت الغرفةُ التي مُوّلت من الثروات التي جنتها أُسر الأعضاء من سوق النسيج البرازيلية غرورَ مجتمعهم الراقي في البرازيل وفي الوطن الأم. واليوم باتت حلقةُ النخب السورية ـ اللبنانية التي تعمل تحت اسم الغرفة التجارية العربية البرازيلية مكلَّفة مهمة الترويج للصادرات وللمصدرين البرازيليين في «العالم العربي».

حتّى إن الغرفة التي تظهر بانتظام في تغطية الأخبار الاقتصادية نالت ثناء الرئيس البرازيلي فيرناندو هنريكي كاردوسو (١٩٩٤ ـ ٢٠٠٢)؛ ففي عام ٢٠٠١، شكر كاردوسو الغرفة، التي لا يزال يديرها برازيليون من أصل سوري ـ لبناني، لتحقيقها «طفرة كبيرة في تجارة البرازيل مع العالم العربي». سنعاين في هذا الفصل، من خلال التركيز على التركيبة التاريخية للغرفة التجارية العربية البرازيلية ومشروعها الحالي، التلازمَ بين السوريين ـ اللبنانيين وبين التجارة في نموذجي الاقتصاد الوطني البرازيلي: النموذج الحمائي (الذي استمرّ منذ ثلاثينيات القرن الماضي إلى سبعينياته)، والنموذج الليبرالي (من سبعينيات القرن الماضي إلى وقتنا الحاضر). وإذا كانت النخب البرازيلية استغلت الميلَ الفطري المزعوم للشرق الأوسطيين إلى مزاولة التجارة في مساءلة أبناء الإثنية العربية في النموذج القديم، فقد حاز هذا الميل اعترافاً أكبر في البرازيل اليوم وهو طالما يوظَّف في التصدير. ولئن استمرّ التشكيك في الشرق الأوسطيين الذين يزاولون تجارة الاستيراد في الدولة البرازيلية،

فقد حاز مدراء الغرفة التجارية العربية البرازيلية من أبناء الإثنية العربية اعترافاً أكبر بوصفهم شركاء في تصدير المنتجات البرازيلية إلى «العالم العربي».

كما ذكرنا في المقدمة، أقرّت النخبُ الوطنية والحكومية في البرازيل بمزايا التصدير التي بشّر بها «إجماع واشنطن»؛ فقد رأت هذه النخب أن التصدير يجذب سيلاً آمناً من رؤوس الأموال الأجنبية، وهو ما يؤدي إلى تحرير البلاد من عمليات التداول التي تتّسم بالمضاربات ويعوّض من تكلفة الواردات اللازمة للتنمية[1] ومع أن التصدير ليس ظاهرة جديدة في البرازيل، فهو يُعاد توجيهه اليوم إلى غير وجهات أوروبا والولايات المتحدة، أي إلى الأسواق «غير التقليدية» أو الأسواق «الناشئة»، مثل الشرق الأوسط[2]. وفي هذا السياق، لجأ رجال الأعمال والنخب الحكومية البرازيلية إلى غرفة التجارة التي يديرها مسؤولون من أصل سوري ـ لبناني للمساعدة على الترويج للصادرات البرازيلية ليس في سورية ولبنان، وإنما في أسواق تدرّ أرباحاً أكبر في بلدان الخليج العربي وشمال أفريقيا.

بمعاينة التصدير كمصطلح ثقافي وحقيقة اجتماعية، يجاري هذا الفصل تحولاً طرأ حديثاً على الدراسات العابرة للحدود. ذلك بأن المنظّرين الأوائل عارضوا بطرائق تحليلية التحولات الوطنية والعابرة للحدود[3] في حين كانوا يحاجّون إما عن سقوط نموذج الدولة القومية وإما عن بقائه. في المقابل، عاينت الدراسات التي نُشرت بعد ذلك التكوين المشترك للقوى الوطنية والقومية

---

(١) على الرغم من الأساس المادي للتصدير في البنية التحتية المستوردة، فهو يُنظر إليه على أنه ضمان لثروة البلاد في السوق العالمية. يقول أحد المصدّرين البرازيليين: «لكي تستورد البرازيل المعدّات والتقانة، عليها أن تزيد صادراتها. . . فهذا سيضمن لها الإحساس بمزيد من الأمن». لا ريب في أنه قد يُنظر إلى الصادرات المصنّعة باستخدام معدات أو تقانات مستورَدة على أنه انسياب عالمي منفصل، وحتى «عشق للإنتاج». انظر: Arjun Appadurai, *Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1996).

الواضح أن النخب الحكومية والمهنية البرازيلية تعترف بهذا التداخل، لكنها ترى أن الفرصة متاحة لبناء اقتصاد وطني في الأزمنة العالمية من خلال التصدير.

(٢) انظر: Clóvis Rossi: «Governo quer parceria com «baleias»,» *Folha de S. Paulo* (13 November 2001), p. 10, and «Itamaraty aposta em exportações para emergentes,» *Valor Econômico* (9 April 2002), p. 6, and Celso Lafer, «Parcerias no Oriente,» *Folha de S. Paulo* (18 August 2002), p. 2.

(٣) Appadurai, Ibid., and Linda Basch, Nina Glick-Schiller and Cristina Szanton-Blanc, *Nations Unbound: Transnational Projects, Postcolonial Predicaments, and Deterritorialized Nation-States* (Langhorne: Gordon and Breach, 1994).

والعابرة للحدود[٤]. عاين هذا النهج الجديد في التحقق كيف تعمل مكونات الدولة والأيديولوجيات القومية على «تكييف الأنشطة التي تمثل النزعة العابرة للحدود فتحرّكها وتصوغها من دون إضعافها بالضرورة»[٥]. ويُظهر تركيزُ هذا الفصل على التصدير كيف تصوغ التركيباتُ الإثنية والحكومية والوطنية العملياتِ العابرة للحدود وتقوّيها.

دأب مدراء الغرفة التجارية العربية البرازيلية والمسؤولون الحكوميون في البرازيل، فضلاً عن رجال الأعمال البرازيليين وأقطاب الإعلام داخل البرازيل وخارجها، على وصف هذا التقارب بين القوى الإثنية والحكومية والوطنية، بأنه بارْسيريا (شراكة). ولئن كان يجري استكشاف مفهوم «الشراكة» بالنسبة إلى التحول الأخير نحو الشركات الخاصة التي تموّل البرامج الحكومية الخاصة بالإنتاج الفنّي في الولايات المتحدة[٦]، فإننا نسعى في هذا الفصل لمعاينة هذا المفهوم في إطار العلاقات الهرمية المتغيرة بين الإثنية والدولة في البرازيل المعاصرة. فبعدما كان يُنظَر إلى الشرق الأوسطيين باحتقار بوصفهم منبوذين اقتصادياً وأصحاب متاجر ماكرين، فقد حاز هؤلاء الاعتراف بوصفهم شركاء للنخب الوطنية والحكومية في البرازيل. ذلك بأنهم تعاونوا في صوغ نموذج اقتصادي مبتكر للبلاد: «أو برازيل إكسبوزْترادور» (البرازيل بلد التصدير). وفي سياق إعادة النمذجة هذه، لاقت النزعة التجارية المزعومة للعرب في ظلّ ظروف معيّنة، وهم عنصر طالما عُرف بمكانته الهامشية في البلاد، ترحاب النخب البرازيلية التوّاقة إلى التصدير.

أولاً: التجارة ذات الطابع الإثني وحماية الاقتصاد الوطني

لدى تصوّر الموجات الأولى للهجرة السورية ـ اللبنانية، يعيد عدد من الأحفاد اليوم سرد حكاية مواطنَين سوريَّين استقرّا في ساو باولو في مستهلّ

(٤) Pheng Cheah and Bruce Robbins, eds., *Cosmopolitics: Thinking and Feeling beyond the Nation* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1998), and Saskia Sassen, «Spatialities and Temporalities of the Global: Elements for a Theorization,» in: Arjun Appadurai, ed., *Globalization* (Durham, NC: Duke University Press, 2001), pp. 260-278.

(٥) Louisa Schein, «Importing Miao Brethren to Hmong America: A Not-So-Stateless Transnationalism,» in: Pheng Cheah and Bruce Robbins, eds., *Cosmopolitics: Thinking and Feeling beyond the Nation* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1998), p. 164.

(٦) George Yudice: «Civil Society, Consumption, and Governmentality in an Age of Global Restructuring,» *Social Text*, vol. 45 (1995), pp. 1-25, and «The Privatization of Culture,» *Social Text*, vol. 59 (1999), pp. 17-34.

تسعينيات القرن التاسع عشر هما أسد عبد الله ونجيب سالم. افتتحا متجراً للبيع بالتجزئة في الشارع الذي بات يسمّى اليوم رُوا ٢٥ دي ماركو وسط المدينة. وهناك قصة مشابهة أخرى تحكي عن الإخوة يافت الذين قدموا إلى البرازيل في العقد نفسه وافتتحوا مصانع للنسيج في مطلع العقد الثاني من القرن الماضي. عملت مؤسسات عبد الله وسالم، وأبناء أسرة يافت في مشاريعهم المزدهرة على بيع منتجاتهم لمواطنيهم الذين كانوا يسوّقونها بدورهم في ضواحي المناطق الحضرية والريفية على حدّ سواء.

مثّل الشرق الأوسطيون في مرحلة مبكرة عام ١٨٩٣، نسبة ٩ في المئة من الباعة المتجوّلين وفقاً لإحصاءات مدينة ساو باولو(٧). وفي عام ١٩٠٧، أظهرت الإحصاءات وجود ٣١٥ مؤسسة مهنية يملكها شرق أوسطيون، أغلبها متخصص في صناعة الألبسة والمنسوجات. وبحلول عام ١٩٢٠، بلغ عدد مصانعهم متوسطة الحجم ٩١ مصنعاً في مدينة ساو باولو. وفي هذا الصدد، يرى العالم الاجتماعي كلارك نولتون أن السوريين واللبنانيين انخرطوا في «الصناعات التي تتطلب رؤوس أموال ضئيلة، بحيث يقدر المرء على تأسيس مصنع صغير يعمل فيه أربعة عمال أو خمسة في غرفة مستأجرة، مستخدماً مكائن خياطة مستعملة»(٨). بيد أن الميدان الذي برع فيه الشرق الأوسطيون في النهاية كان التجارة بالجملة. ففي عام ١٩٣٠، امتلك السوريون ـ اللبنانيون «٤٦٨ متجراً للبيع بالتجزئة من أصل ٨٠٠ متجر مسجّل، وامتلكوا ٦٧ متجراً للبيع بالجملة من أصل ١٣٦ متجراً» في المدينة(٩). تركزت هذه التجارة التي أدارها الشرق الأوسطيون في الشارع ٢٥ دي ماركو وسط مدينة ساو باولو على الخصوص.

وفي عام ١٩١٣، تداعت شخصيات من عائلات عبد الله وسالم ويافت إلى عقد لقاء تحضيري لـ «غرفة التجارة السورية». كان المتحدث الرئيسي في تلك المناسبة نعمة أكبر أشقاء يافت. بدأ حديثه بالقول «إن التجارة هي أعظم تجسيد للإنسان، وأهم العوامل التي أوجدها لتنمية النسيج الاجتماعي وتنشيطه

(٧) Charles Knowlton, *Sírios e libaneses em São Paulo* (São Paulo: Editora Anhembi, 1961), p. 23, and Oswaldo Truzzi, *Patricios: Sirios e libaneses em sao Paulo* (São Paulo: Editora Hucitec, 1997).

(٨) Knowlton, Ibid., p. 143.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

وتطويره»[١٠]. كان هذا التمجيد للتجارة إرضاءً للذات، وبخاصةٍ عند النظر إلى المؤسسات المهنية التي امتلكتْها أسرة يافت. لكنه تجلى أيضاً بالجهود التي بُذلت لرفع مكانة التجارة التي كانت وضيعة في ذلك الحين، فضلاً عن سمعة «الأتراك» الذين عُدّوا تجسيداً لها. وختم كلمته بالقول: «ستكون الغرفة منارة تنير درب كلّ تاجر سوري وتوجّهه، من البائع المتجول الذي يحمل صندوقاً في يده إلى تاجر الجملة. . . بهذه الطريقة، سنؤسس قاعدة عمليات للكبير والصغير وسنكون قادرين على التطوّر»[١١]. عُدّت غرفة التجارة السورية، التي بشّرت بكيان «البرازيليين العرب» اليوم، كياناً خاصاً يرمي إلى إفادة التجارة التي أدارها العرب في البرازيل في مستهلّ القرن العشرين.

لكنّ ثناء يافت على التجارة لاقى آذاناً صمّاء، لأن النخب البرازيلية رأت أن البرازيل بلد زراعي يمكنه تصدير المطاط والكاكاو والبنّ وبخاصة إلى أمريكا الشمالية وأوروبا[١٢]. وهم نظروا إلى يافت ورفاقه الشرق الأوسطيين بوصفهم «أتراكاً» دهاة بالفطرة جمعوا ثروات عظيمة من الأعمال التجارية البسيطة. وفي هذا الصدد، قال الكاتب الشهير جواو دو ريو «يوجد في تلافيف كلّ عقل مشرقي ميول إلى جني المال»[١٣] كما وصف ألفريدو أليس جونيور «السوري» بأنه «تاجر بالفطرة. . . قادر على المقايضة بروحه والحلف بأنه لم يجنِ قرشاً واحداً»[١٤].

---

(١٠) Nami Jafet, *Ensaiose Discursos* (São Paulo: Editora SA., 1947), p. 302.

(١١) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

(١٢) Warren Dean, *The Industrialization of São Paulo, 1880-1945* (Austin: University of Texas Press, 1969); Thomas Holloway, *Immigrants on Land: Coffee and Society in São Paulo, 1886-1930* (New York: Routledge Press, 1980); Verena Stokke, *Coffee Planters, Workers, and Wives: Class Conflict and Gender Relations on São Paulo Plantations, 1850-1980* (New York: St. Martin's Press, 1988), and Barbara Weinstein, *The Amazon Rubber Boom* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1983).

(١٣) «الشرقيون» هنا تعني اللبنانيين المسيحيين الموارنة الذين شاهد خواو دو ريو قداديسهم. جواو دو ريو هو الاسم المستعار لباولو باريتو، وهو كاتب معروف في ريو دي جانيرو في مستهلّ القرن العشرين. انظر: Joao do Rio [Paulo Barreto], *As Religioes do Rio* (Rio de Janeiro: Editora Companhia Nacional, 1928), p. 168.

(١٤) يذكر ليسر أن أليس كان حفيد رجل في الجيش الأمريكي الجنوبي، فرّ من الولايات المتحدة إلى البرازيل بعد هزيمة الجيش في الحرب الأهلية الأمريكية، وانخرط على غرار أبيه في السياسة البرازيلية وأصبح كاتب مقالات عن أشخاص متنوّعين استقروا في ساو باولو. انظر: Jeffrey Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil* (Durham, NC: Duke University Press, 1999), p. 64, and Alfredo Ellis, Jr., *Populacoes Paulistas* (São Paulo: Companhia Editora Nacional, 1934), pp. 65-66.

وبالمثل، قال غويلهرم دي ألميدا، الذي كان معلّقاً في ثلاثينيات القرن الماضي: «ما هي وصفة إعداد التركي (الديك الرومي)؟ خُذ رجّاجة عصير فواكه من شارع ٢٥ دي ماركو وضع فيها سورياً، وعربياً، وأرمينياً، وفارسياً، ومصرياً وكردياً ثمّ رجّها جيداً فيخرج لك التركي»[١٥] كان يُظَنّ بالأتراك في شارع روا ٢٥ دي ماركو بخاصة أنهم ميّالون بالفطرة إلى أن يكونوا باعة متجولين وتجاراً.

كما ساد اعتقاد بأن العرب أيضاً يستخدمون ذكاءهم التجاري الفطري في جمع الثروات الشخصية على حساب الدولة البرازيلية التي يُتصوَّر أنّها زراعية. من الأمثلة على ذلك أن أحد المشاركين في اجتماع الجمعية الوطنية للزراعة علّق بالقول: «علينا كذلك فعل كلّ شيء لوضع العراقيل أمام هجرة السوريين الذين يستغلّون الزراعة كما الطفيليات، مع أنّهم أبعد ما يكونون من تقديم الفائدة إليها، في خدمة ادعائهم الكاذب بأنهم رجال أعمال»[١٦]. وكتب هيربرت ليفي أحد أكثر المجاهرين بانتقادهم الهجرة السورية: «إن الهجرة التي تحتاج إليها البلاد هي هجرة العمال الزراعيين، أما السوريون فهم غير مصنّفين في عداد هذه الفئة»، فهم «متفرّغون للتجارة ولأعمال المضاربة»؛ مشيراً إلى أن «السوريين ليسوا» في عداد السبعمئة ألف عامل زراعي المحصيين في ساو باولو[١٧]. كما انتقد الخبيرُ في علم الأجناس والسياسي المشهور إدغار روكيتي بينتو[١٨]، الباعةَ المتجولين الشرق الأوسطيين. ففي خروج عن موضوع كتابه الذي تحدّث فيه عن التاريخ الطبيعي لمنطقة الأمازون الكبرى، قال:

«الأتراك يتجولون في كلّ مكان. إنّهم يوجدون لأنفسهم مكاناً، ويبحثون عن عملاء في كلّ الزوايا. ومن بين آلاف الأتراك الذين تستقبلهم البرازيل

---

(١٥) يرى ليسر في هذه الملاحظة دليلاً على قدرة المعلّق على تمييز الفوارق الإثنية بين الأتراك. وأنا أرى أنه يظهر أثر التجارة، الذي تجلى في «صانع شراب الكوكتيل في شارع ٢٥ دي ماركو» في معنى التركي وخصوصاً في ساو باولو. نقلاً عن: Jeffrey Lesser, «(Re) Creating Ethnicity: Middle Eastern Immigration to Brazil,» *Americas*, vol. 53, no. 1 (1996), p. 58.

(١٦) Sociedade Nacional de Agricultura, *Imigração: Inquérito promovido pela Sociedade Nacional de Agricultura* (Rio de Janeiro: Villani e Barbero, 1926), p. 359.

(١٧) نقلاً عن: Amarilio Junior, *As vantagens da imigração syria no Brasil* (Rio de Janeiro, [n. pb.], 1935), pp. 39-42.

(١٨) الذي نقل عنه ليسر بعض الاقتباسات. انظر: Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil*, p. 53.

سنوياً، ليس فيهم ولو مئة منتِج [زراعي]. في هذه البلاد، لا وجود للعمال الأتراك في الأرياف، ومع ذلك، ليس في سائر أنحاء البلاد عنصر أجنبي أكثر انتشاراً منهم. ففي قلب ماتو غروسو في الأمازون، وفي ميناس غيرياس في العاصمة، تعيش جموع غفيرة من التجار الأتراك. لكن بحكم غموضهم المألوف، يُفرض عليهم إقامة علاقات مع البرازيليين، وهم يعيشون موزّعين على نحو مثالي تبعاً لأعراقهم، وأعرافهم، وطرائقهم في فعل الأمور. لا أحد يعرف على وجه اليقين كيف يصفون أنفسهم، ومن أين جاءوا، والدِّين الذي يدينون به. إنّهم يعيشون بعضهم مع بعض، وهم محلّ تجاهل البرازيليين بخاصة. . . لكنّ ليس من الإنصاف إنكار الخدمات الأساسية التي يوفرها هؤلاء الباعة المتجولون للسكان في المناطق الداخلية. إنّها هجرة تؤدي في الوقت الحالي مهمة نافعة، لكنّها لم تجلب معها ولو قدراً ضئيلاً من التقدّم»[١٩].

إذا كان روكيتي ـ بنتو أقرّ بـ «الفائدة الأولية» للأتراك، فالواضح أن التجارة الجوّالة لم تملك قيمة تضمن لها مكاناً في الدولة البرازيلية الزراعية. وهو يرى أن التجار الأتراك ليسوا سوى منبوذين.

بيد أن التجارة والصناعة شهدت في العقود القليلة التالية نمواً استثنائياً في البرازيل؛ فبعدما كان نصيب الإنتاج الصناعي من الناتج المحلّي الإجمالي ٢١ في المئة عام ١٩٠٧ وكذلك عام ١٩١٩، بلغ نصيبه ٤٣ في المئة من الناتج المحلّي الإجمالي عام ١٩٣٩[٢٠]. وفي حين راوحت معدلات نمو القطاع الزراعي بين ٠,٥ في المئة و٣ في المئة سنوياً في أربعينيات القرن الماضي وخمسينياته، توسّع الإنتاج الصناعي بمعدلات سنوية فاقت العشرة في المئة في ثلاثينيات ذلك القرن، ليتراجع قليلاً، إلى ٥ في المئة، في مستهلّ أربعينيات القرن نفسه، ثمّ يرتفع مرّة أخرى إلى ما يقرب العشرة في المئة عام ١٩٦١[٢١]. مثّل بناء مجمّع المنشآت المعدنية فولتا ريدوندا بين ساو باولو وريو دي جانيرو رمزاً لفجر دولة الصناعيين والبروليتاريين. وبوصول المجمّع إلى قدرته التشغيلية

---

(١٩) Edgar Roquette-Pinto, *Rondonia*, 3rd ed. (Rio de Janeiro: Editora Companhia Nacional, 1935), p. 81.

(٢٠) Maria Antoineta Leopoldi, *Política e interesses na industrialização brasileira: As associações industriais, a política econômica e o Estado* (São Paulo: Paz e Terra, 2000), p. 69.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٣١، و Werner Baer, *The Brazilian Economy: Growth and Development*, 4th ed. (Westport, Conn.: Praeger, 1995), pp. 49 and 81.

الكاملة، فهو مثّل نموذجاً لدولة برازيلية لم يعد يُنظر إليها بأنها زراعية وحسب، بل دولة صناعية نشطة كبرى أيضاً.

في هذا المنعطف التاريخي واصل السوريون ـ اللبنانيون ترقّيهم من باعة متجولين إلى مالكين في ساو باولو. ففي عام ١٩٤٥، مثّل البرازيليون الذين يحملون أسماء عائلات شرق أوسطية ٢٧ في المئة من أصحاب المؤسسات العاملة في قطاع غزل والنسيج الذي يصنّع القطن والحرير والرايون والصوف والكتان (١١٢ مؤسسة من أصل ٤١٣). وقد مثّلت تلك المؤسسات ٤٠ في المئة من مجمل المؤسسات العاملة في قطاع حياكة الرايون وحده (٩٠ مؤسسة من أصل ٢١٥). افتُتحت هذه المشاريع كلها تقريباً في أواسط ثلاثينيات القرن الماضي، وهذا أمر يعود جزئياً إلى الحوافز التجارية والصناعية التي وفّرها الرئيس البرازيلي غيتيوليو فارغاز[٢٢]، الذي وضع سياسة حمائية لرعاية مصالح الطبقات التجارية والصناعية في المدن (المؤلّفة بمعظمها من المهاجرين)، ففُرضت بموجب هذه السياسة تعريفات جمركية مرتفعة على الواردات، وهو ما أفاد صناعة المنسوجات الوطنية بدءاً من ثلاثينيات القرن الماضي. وقد ناهزت التعريفات الجمركية المفروضة على المنسوجات المستوردة ٢٨٠ في المئة في أواخر الستينيات، الأمر الذي ساهم في زيادة عدد مصنّعي المنسوجات والألبسة وتجار الجملة[٢٣]، الذين طوروا شبكات إنتاج وتوزيع، فكان تجار الجملة يشترون اللفائف النسيجية ثمّ يبيعونها لمنتجي الألبسة. وفي ستينيات القرن الماضي، مثّلت عائدات مئات من أصحاب المتاجر في شارع ٢٥ دي ماركو نحو ٦٠ في المئة من أرباح البيع بالجملة في قطاع النسيج في البرازيل[٢٤].

ومن خلال هذه الشبكة، حاز الأتراك قدراً من الاحترام الملتبس في البلاد. فمن ناحية، أشادت بهم النخب الإعلامية على تحويلهم شارع ٢٥ دي ماركو إلى «جادّة عامة لعمل تجاري مميّز»[٢٥] وهذا ما دفع مؤرخ المدن

(٢٢) Stanley Stein, *The Brazilian Cotton Manufacture: Textile Enterprise in an Underdeveloped Area, 1850-1950* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1957), p. 137.

(٢٣) Joel Bergsman, *Brazil· Industrialization and Trade Policies* (New York: Oxford University Press, 1970), p. 137, and Peter Evans, *Dependent Development: The Alliance of Multinational, State, and Local Capital in Brazil* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979), p. 133.

(٢٤) «Comércio atacadista desaparece da cadeia têxtil,» *Gazeta Mercantil* (25 August 2000).

(٢٥) «As ruas e sua história: A Rua Vinte e Cinco de Março,» *A Nação*, 9/10/1963.

غابريال ماركيز إلى الدعوة إلى تسمية هذا الشارع «شارع السوريين ـ اللبنانيين. . . فهو متداخل إلى حدّ بعيد مع مفترق طرق في ساو باولو. . . ومع محيطه الاقتصادي النشط»(٢٦). وأشار ماركيز في موضع لاحق إلى أن طريق «الكبّة النيّة» القديم بات يمثّل «ازدهار باوليستا ويجسد قدرة أناس موحّدين وأقوياء»(٢٧)من ناحية أخرى، وصفت تقاريرُ إخبارية المنطقةَ بأنها مرتع للأنشطة المالية غير النظامية. وفي هذا السياق وصفت مقالة كيف أن فريقاً مؤلفاً من أربعين مفتشاً من مصلحة الضرائب «عاينوا آلاف الإيصالات المالية، وفتحوا مئات الرزم، وصادروا كميات كبيرة من البضائع في عملية. . . أُطلق عليها اسم «جسّ نبض التجارة»»(٢٨). و«بناء على ذلك، مُدح السوريون ـ اللبنانيون وشارع ٢٥ دي ماركو «لوظائفهم التجارية» وشُكّك فيهم لأنشطتهم المالية المشبوهة.

تغيّر واقع البرازيليين الشرق الأوسطيين كثيراً بين أواخر القرن التاسع عشر وستينيات القرن العشرين. وبعدما كانت منزلة الباعة المتجولين المهاجرين وضيعة كونهم منبوذين اقتصادياً في دولة عُدّت زراعية حتى ثلاثينيات القرن الماضي، فقد حاز هؤلاء احتراماً ملتبساً بحلول أواسط القرن ليس لترقّيهم الاجتماعي بوصفهم ملاكاً وصناعيين فقط بل للانعطاف الذي سلكه الاقتصاد الوطني البرازيلي نحو التجارة والصناعة أيضاً. لكنّ الهوى التجاري المزعوم للشرق الأوسطيين بقي يُستغلّ من جانب المعلّقين النخبويين في التشكيك بمكانة الإثنية العربية في الدولة البرازيلية.

ثانياً: النظم الأُسرية تؤسس الغرفة

عام ١٩٥٢ اجتمع نحو عشرة من رجال الأعمال الذين جمعوا ثروات في شارع ٢٥ دي ماركو ثمّ في سوق النسيج المزدهرة، للبحث في إعادة تأسيس

(٢٦) Gabriel Marques: «Rua Vinte e Cinco de Março: O rio das sete voltas,» *Folha da Noite* (2 May 1957); «Rua Vinte e Cinco de Março: As chácras recuaram,» *Folha da Noite* (3 May 1957); «Rua Vinte e Cinco de Março: O outro Harun Al-Rachid,» *Folha da Noite* (6 May 1957), and *Ruas e tradições de São Paulo: Uma história em cada rua* (São Paulo: Conselho Estadual de Cultura, 1966).

(٢٧) Gabriel Marques: «A velha rua do quibe cru. I,» *O Estado de S. Paulo* (12 June 1960), and «A velha rua do quibe cru. II,» *O Estado de S. Paulo* (19 June 1960).

الكبّة النيّئة مزيج من لحم الضأن المفروم والبرغل ويفضّل تناولها مع أوراق النعنع والبصل الأخضر الطازج. ليس من قبيل المصادفة أن أشهى طبق كبّة تناولته في ساو باولو كان في مطعم في منطقة شارع ٢٥ دي ماركو.

(٢٨) «Comandos' fiscais em acao na 25 de Marco,» *O Estado de S. Paulo* (28 June 1960).

غرفة التجارة السورية واللبنانية. أقيمت مناسبة التأسيس في مقرّ إحدى المؤسسات المهنية التي تملكها أسرة يافت، أعني مينيراساو جيرال دو برازيل. نصّت لائحة الأهداف الأصلية للغرفة على تعزيز الروابط التجارية بين البرازيل والشرق الأوسط وعلى «الاتحاد والتعاون بين عناصر الإنتاج والاستهلاك بين أعضاء [الغرفة التجارية العربية البرازيلية] المنتشرين في جميع أنحاء الأراضي الوطنية [البرازيلية] الشاسعة»(٢٩). وفي العقود القليلة التالية، هيمن على رئاسة الغرفة وعلى مجلس إدارتها أعضاء ينتمون إلى ثلاث أُسر سورية ـ لبنانية واسعة النفوذ هي أسرة يافت، وأسرة عبد الله، وأسرة شحفي.

تولّى اثنان من أبناء أسرة يافت من الجيل الثاني، هما نجيب وإدواردو، الرئاسةَ الأولى والثانية في ثلاث دورات من عام ١٩٥٣ إلى عام ١٩٥٨. استمدّ الشابّان نفوذهما المادي والمعنوي من النجاح الرأسمالي الباهر الذي حققه جيل المهاجرين السابق. وكما أشرنا آنفاً، قدِمت أسرة يافت إلى البرازيل في أواخر القرن التاسع عشر، وافتتحت متجراً لبيع المنسوجات بالجملة باسم نعمة يافت (احتراماً للشقيق الأكبر). وإلى جانب استثمار الإخوة يافت الخمسة في الاستيراد، انخرطوا في القطاع الصناعي وأسسوا مصانع يافت للغزل والنسيج والطباعة عام ١٩٠٦. ومع توسيع مجمّع أسرة يافت الصناعي في العقود التالية، زاد عدد العاملين فيه على ٣٠٠٠ عامل في أواسط ثلاثينيات القرن الماضي(٣٠). هكذا أصبحت أسرة يافت أوسع الأُسر ثراءً في «الجالية» في النصف الأوّل من القرن العشرين، فأسست حياً بأكمله هو مجمّع إبيرانغا الذي ضمّ منشآتها الصناعية ومبانيها السكنية. لكن يبدو أن جزءاً من الرأسمال الأولي للإخوة يافت كان مصدره «نعمةٌ غير متوقعة جلبتْها عمليات الاستيراد: ذلك بأن كمية من الأنيلين (صبغ النيل) طلبتها المؤسسة قبل الحرب العالمية الأولى احتوت على صفرين زائدين على المطلوب بحيث بلغت كمية الصبغ المستورَد مئة ضعف الكمية اللازمة وقت ارتفاع سعر الأنيلين»(٣١). وفي العقود القليلة التالية، توسّعت استثمارات أسرة يافت ومؤسساتها عمودياً وانخرطت في قطاعات التعدين والصيرفة والنقل فضلاً عن قطاعات أخرى في الاقتصاد

---

(٢٩) نقلاً عن: Câmara de Comercio Arabe Brasileira, *Camara de Comércio Arabe Brasileira* (São Paulo: CCAB, 1998), p. 30.

(٣٠) Basilio Jafet, *A Supremacia Reconhecida* (São Paulo: Editora Esphinge, 1935), p. 11.

(٣١) Dean, *The Industrialization of São Paulo, 1880-1945*, p. 31.

البرازيلي. وربما انعكاساً لإعلان أسرة يافت إفلاسها في ستينيات القرن الماضي، لم يرئس أي من أعضائها مجلسَ إدارة الغرفة التجارية العربية البرازيلية منذ ذلك الحين.

خلف أبناءَ أسرة يافت أحفادُ أسد عبد الله ذائع الصيت الذي هاجر إلى البرازيل عام ١٨٩٥. في الواقع، تولّى ثلاثة من أبناء أسرة عبد الله من الجيل الثاني رئاسة الغرفة في خمس دورات بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٤، وبين عامي ١٩٧٧ و١٩٨٠. وكما ذكرنا سابقاً، كان الجدّ الأوّل عبد الله بائعاً متجولاً في ضواحي ساو باولو في أواخر القرن التاسع عشر، فافتتح مخزناً للبيع بالجملة مع ابن عمه نجيب سالم في مطلع القرن العشرين، وانتهى به الأمر إلى امتلاك وبناء حي باركوي ساو جورج بأكمله في مدينة ساو باولو. وذكر نجله نبيه أسد عبد الله (الذي ترأس الغرفة التجارية العربية البرازيلية بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦٠) أن والده وظّف نصف أرباح مؤسسة النسيج في العقارات «الدواع دينية» بدءاً بعام ١٩١٢، ولا سيما في وسط مدينة ساو باولو. ويقال إن الوالدَ شرح لأحد شركائه مازحاً: «يا ابن عمي، تبلغ تكلفة المتر من الريبون الألماني المستورد ٣٠٠ دولار، بينما تبلغ تكلفة المتر من هذه الأرض ٢٤٠ دولاراً، وهو لا ينفد ولا يبلى؛ وأفضل منه طريق الحافلة الكهربائية قبالة شارع سيلسو غارسيا» في وسط ساو باولو[٣٢]. وفي النصف الأوّل من القرن العشرين، ساعد هذا النهج الاستثماري أسرةَ عبد الله على امتلاك نحو مليون متر مربع في متنزّه ساو جورج الذي بيعت ساحة الألعاب الرياضية فيه لاحقاً إلى كورينثيانز، اتحاد كرة القدم البرازيلي للمحترفين الحالي. وهكذا اعتمد عدد من التجار والصناعيين السوريين ـ اللبنانيين استراتيجيةَ الاستثمار في العقارات، وإن على نطاق اضيّق[٣٣].

وبعد أبناء أسرة أسد، ترأس راغب شحفي الغرفة ثلاث دورات من عام ١٩٦٥ إلى عام ١٩٧٠، وتولّى نجله لورنسو شحفي منصب الرئيس مرتين بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٦. أسس الوالد الذي هاجر من حمص شركة راغب شحفي

---

(٣٢) Betty Greiber, Lina Maluf and Vera Mattar, *Memórias de tmigração: Libaneses e sírios em São Paulo* (São Paulo: Discurso Editorial, 1998), p. 38.

(٣٣) انظر: John Tofik Karam, «A Cultural Politics of Entrepreneurship in Nation-Making: Phoenicians, Turks, and the Arab Commercial Essence in Brazil,» *Journal of Latin American Anthropology*, vol. 9, no. 2 (2004).

للنسيج وطورها. لكنّ نجله لورنسو هو الذي حوّل الشركة إلى أكبر سلسلة متاجر أقمشة بالجملة في البرازيل في الحقبة الممتدة بين أواخر سبعينيات القرن الماضي ومطلع تسعينياته. يكمن سرّ نجاحه في تخزين كميات ضخمة من البضائع التي أنتجتها مصانع أخرى بينما كان هامش ربح البيع بالجملة يتّسع مع ارتفاع نسبة التضخم في تلك الحقبة. على سبيل المثال، كان أبناء أسرة شحفي يشترون مئات آلاف الأمتار من الأقمشة من المصانع الوطنية، ثمّ يودعونها في مخازنهم، ليرتفع ثمنها لأن مؤشرات الأسعار العامة كانت ترتفع كلّ شهر نظراً إلى ارتفاع معدلات التضخم التي راوحت بين ١٠٠ و٢٧٠٠ في المئة في السنة[٣٤]. وحين كانت الأقمشة تباع لتجار البيع بالتجزئة بعد أشهر، كانت تساوي إضعاف الثمن الذي بذله أبناء شحفي في شرائها. وخلال تلك الحقبة، شاع بين التجار استخدام إستراتيجية جني الأرباح عن طريق التخزين وإن على نطاق أضيق.

لكنّ الانفتاح الاقتصادي عام ١٩٩١ والاستقرار النقدي عام ١٩٩٤، أدّيا إلى وقف تزايد قيمة الأقمشة التي يبيعها أبناء شحفي، فراحت المستوردات الآسيوية والمنتجات التي يروّجها المصنعون الوطنيون إلى تجار البيع بالتجزئة مباشرة تباع بسعر أدنى. وبعد خسارة نحو ١٧ مليون دولار عام ١٩٩٧ وحدها، أغلقت مؤسسة شحفي للأقمشة أبوابها. لكنّ الأُسرة لم تخسر كلّ شيء لأنها كانت قد استثمرت عائدات عقدين في العقارات في المدينة وفي البلاد بعامة. لجأت الأُسرة إلى بيع عقارات وجنت من جرّاء ذلك عشرات الملايين من الدولارات، فضلاً عن تأجير المحال بقيمة أقل من قيمة إعادة بيعها (في محيط شارع ٢٥ دي ماركو)، ولم تعد العائلة إلى بيع الألبسة بالجملة، وآثرت بدلاً من ذلك العمل في سوق العقارات كونه مصدر ثروتها. وفي الإمكان تلمّس نفوذ عائلة شحفي المستمرّ في حقيقة أن باولو عطا الله صهر لورنسو شحفي ترأس الغرفة من عام ١٩٩٨ إلى عام ٢٠٠٢[٣٥].

بتوجيه من هذه الأُسر الثلاث ذات الأصل السوري ـ اللبناني، اعتمدت الغرفة بصورة شبه حصرية على سخاء هذه الأسر في تمويل أنشطتها في المجتمع

(٣٤) Maureen O'Dougherty, *Consumption Intensified: The Politics of Middle-Class Daily Life in Brazil* (Durham, NC: Duke University Press, 2002), p. 63.

(٣٥) ترأس والد عطا الله الغرفة ولايتين من سنة ١٩٧١ إلى سنة ١٩٧٤.

الراقي في خمسينيات القرن الماضي وستينياته. وذكر أحد المدراء الحاليين أن الغرفة انخرطت في تلك الحقبة «في مزيد من الأنشطة الثقافية، فكانت تستقبل السفراء، وتعقد المؤتمرات. كانت في الواقع على اتصال دائم بالمجتمع». وبفضل مدراء غرفة التجارة السورية واللبنانية الذين تشابكت حيواتهم مع سوق الملبوسات ومع الاقتصاد البرازيلي، أتاحت الغرفةُ لرجال الأعمال الناجحين من أصل سوري ـ لبناني مؤسسةً مكّنتهم من التواصل مع جمعيات الجالية العربية في ساو باولو، ومع الجماعات المهنية والاجتماعية البرازيلية، فضلاً عن الدبلوماسيين والأعيان الزائرين من العالم العربي. ففي عام ١٩٦٦ فقط، زار الغرفةَ مسؤولون رسميون من لبنان والأردن ومصر وسورية[٣٦].

تعكس التعديلات التي طرأت على الاسم الفعلي للغرفة الدورَ المتعاظم للبلدان العربية. من ذلك أن الوحدة بين سورية ومصر تحت اسم الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ واندماج العاملين في السلك الدبلوماسي التابع للبلدين في البرازيل استحوذ على اهتمام مدراء الغرفة الذين كان لا يزال عامّتهم من أصل سوري ـ لبناني، وكانوا مهتمين بتوسيع «العلاقات بالبلدان العربية». فالتقوا في العام نفسه، بالقنصل العام للجمهورية العربية المتحدة في البرازيل واعتمدوا اسم «الغرفة التجارية العربية البرازيلية»[٣٧]. لكن بعد الإعلان عن الجمهورية العربية السورية عقب انفراط عقد الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١، اعتُمد اسم «الغرفة التجارية السورية البرازيلية»[٣٨]. لم يكن استخدام هذه اللغة من قبيل المصادفة، فالروابط بالحكومة السورية كانت وثيقة إلى حدّ أن الغرفة حين اشترت مقرها الجديد في أفينيدا باوليستا وانتقلت إليه عام ١٩٦٥، تبرّع راغب شحفي رئيس الغرفة بحيّز من البناء كمكتب للقنصلية السورية العامة. ولم يُعتمَد الاسم النهائي «الغرفة التجارية العربية البرازيلية» إلا عام ١٩٧٥. في ذلك الوقت، سعى مدراؤها لإقامة علاقات بسفارات البلدان العربية في البرازيل، منها سفارات ليبيا والعراق والجزائر ومصر والعربية السعودية والمغرب[٣٩]. وكان الدافع طمع الغرفة في الحصول على خدمات

(٣٦) Câmara de Comercio Arabe Brasileira, *Camara de Comércio Arabe Brasileira*, p. 38.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٣٧-٣٨.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٤١-٤٢.

دبلوماسية مستقبلية والعمل كهمزة وصل في التجارة العربية ـ البرازيلية.

بتوجيه من أقطاب صناعة الألبسة السوريين ـ اللبنانيين، حصلت الغرفة التجارية العربية البرازيلية على التمويل اللازم من عام ١٩٥٢ إلى عدة عقود تالية من ثروات أسرهم أساساً التي كانت قد جمعتها من صناعة الألبسة التي ازدهرت في البرازيل آنذاك، وسخروها في خدمة غاياتهم الاجتماعية والثقافية الخاصة في البرازيل وفي الوطن العربي.

ثالثاً: الغرفة التجارية العربية البرازيلية، وشارع ٢٥ دي ماركو، وتدفق الأموال العابرة للحدود

بعد نشوب أزمة النفط عام ١٩٧٣، لجأت الدولة والنخب المهنية البرازيلية إلى الغرفة على نحو متزايد لتُعينها في الشؤون الدبلوماسية والقضايا المتعلّقة بالتصدير مع الوطن العربي. استفسرت الحكومة البرازيلية عن سبل خفض العجز التجاري بين البرازيل والبلدان العربية المصدّرة للنفط، واستفسر المدراء التنفيذيون البرازيليون عن سبل التصدير إلى العالم العربي. ومع بروز هذا الاهتمام، خضعت الغرفة التجارية العربية البرازيلية نفسها لإعادة هيكلة مالية وتنظيمية شاملة. وفي عام ١٩٧٤، بدأت بفرض أجور مقابل الخدمات التي تطلبها الحكومات والمؤسسات البرازيلية والعربية. وحصلت من الدولة البرازيلية في الوقت عينه على صفة رسمية كونها مؤسسة «لا تبغى الربح». وباتت الغرفة، التي كانت تعتمد على تمويل مديريها السابقين المنحدرين من أصول سورية ـ لبنانية، تجني أموالاً بطريقة غير مباشرة من رؤوس الأموال ومن البضائع التي تتدفق بين الحكومات والمؤسسات المهنية العربية والبرازيلية. ولم تتوقف خزائن الغرفة التجارية العربية البرازيلية وأنشطتها عن النمو منذ ذلك الحين.

في تسعينيات القرن الماضي، تألف نحو ثلاثة أرباع الصادرات البرازيلية السنوية إلى البلدان العربية، التي كانت تقدر بعدة مليارات من الدولارات، من المنتجات الغذائية (مثل لحوم الدجاج المجمدة)، والمواد المعدنية، والسكر، وألياف الألومنيوم، وحبوب البنّ غير المحمّص. وتستمدّ الغرفة أغلب عائداتها من الشهادات التي تمنحها للصادرات البرازيلية إلى الشرق الأوسط. يقول منشور حديث للغرفة: «لا تسلّم السفاراتُ العربية في البرازيل التوثيقَ القنصليَ لوثائق

التصدير إلا بعد الحصول على شهادة من الغرفة التجارية العربية البرازيلية». وقبل إرسال وثائق التصدير إلى السفارات العربية في البرازيل، يتعين أن تمرّ عبر مكاتب الغرفة في مبانيها الشاهقة. وهكذا، مع تزايد الصادرات البرازيلية إلى البلدان العربية، تهيئ الغرفةُ الشروط التي تكفل بقاءها. ولا ريب أن عملاءها البرازيليين يبرّرون «حاجات الغرفة إلى عائدات تضمن بقاءها»، غير أن إجراءات توثيق السلع المصدَّرة توفر للغرفة دخلاً يزيد على رأس المال اللازم لتمويل أنشطتها وبرامجها، مثل البعثات التجارية البرازيلية إلى العالم العربي، فضلاً عن عقدها حلقات دراسية عن «سبل التصدير إلى البلدان العربية» للمصدّرين البرازيليين المحتملين (سنناقش هذا الموضوع في موضع لاحق).

في زياراتي العرَضية للغرفة أذكر بيار تماماً، الأمين العام للغرفة التجارية العربية البرازيلية، الذي يوقّع شهادات المنشأ الخاصة بالمنتجات البرازيلية المراد تصديرها إلى الشرق الأوسط. أثبت بيار، الذي كان يمسك بقلم في يده لتوقيع الوثائق، ويدخّن سيجارة تتدلى من فمه، ويثبّت سماعة الهاتف بين خده وكتفه انتظاراً لمكالمة هاتفية مهمة، وعالم أنثروبولوجيا متحمس جالس أمامه، أثبت أنه أستاذ في خدمة أكثر العملاء تنوعاً. قال لي شارحاً: «ما تجنيه الغرفة إنما تجنيه من التوثيق، من الوثائق التي أوقّعها هنا». ضمِنت هذه الممارسة في الأعمال المكتبية وجود الغرفة التجارية العربية البرازيلية وعززت صورتها كـ «شريك» للمصدرين البرازيليين أنفسهم، إذ رأى هؤلاء المصدّرون أن التشريعات الخاصة بالمستحضرات الطبّية والمنتجات الغذائية معقدة وأن الغرفة تقدّم المساعدة التقنية اللازمة لتطبيقها. وبالمثل، شرح عميل (غير عربي) المسألة فقال «كلّ المستندات الخاصة بالتصدير تمرّ عبر الغرفة للتحقق منها، والغرفة تقدّم لك كلّ دعم ممكن في الترجمة وتطبيق التشريعات اللازمة... إنّه عمل مهم». وكما سنبين لاحقاً بمزيد من التفصيل، حاز أعضاء الغرفة التجارية العربية البرازيلية الذين ينحدرون من أصول سورية ـ لبنانية اعترافاً أكبر من خلال التداول العابر للحدود لرؤوس الأموال والسلع بين البرازيل والوطن العربي.

في مقابل ذلك، عاش التجار في سوق بيع الأقمشة بالتجزئة في شارع ٢٥ دي ماركو تجربة مختلفة تماماً في الاتجاه التحرري الجديد للسوق البرازيلية. برز هؤلاء خلال الحقبة الحمائية التي عاشها الاقتصاد الوطني، وبالتالي بدأت شبكة الإنتاج والتوزيع التي تطورت بين المصنّعين، وتجار البيع بالجملة، ومنتجي الألبسة/تجار البيع بالتجزئة، بالتفسخ في مستهلّ سبعينيات القرن

الماضي. في تلك المرحلة، بدأت مصانع النسيج المحلية ببيع منتجاتها إلى صنّاع الألبسة وإلى تجار البيع بالتجزئة مباشرة، متجاوزة بذلك تجار البيع بالجملة الذين امتلكوا أغلب المؤسسات في شارع ٢٥ دي ماركو. وقد أدت خطوة خفض التكلفة هذه إلى تسريع الانفتاح الاقتصادي في مطلع تسعينيات القرن الماضي(٤٠). وفي حين مكّنت هذه السياسة صناعةَ النسيج المحلية من الانتعاش، ناهيك عن البقاء، فهي في المقابل سددت ضربة قاضية لتجار بيع النسيج بالجملة في البلاد.

بعدما كان تجار بيع الأقمشة بالجملة يتصدّرون شبكة توزيع المنسوجات بالجملة في البلاد بأسرها، رأى أحد التجار المتشائمين أن ستة منهم فقط تمكنوا من البقاء في شارع ٢٥ دي ماركو(٤١). وفي إطار الإعلان عن هذا التحوّل، ذكرت مقالة صحافية عام ١٩٩٣ أن «المتاجر في المنطقة التقليدية في ٢٥ دي ماركو بدأت بالتحول إلى وكالات ضخمة لشركات إيطالية وأمريكية شمالية وكورية وصينية»(٤٢). يعرف بيتو (Beto) تمام المعرفة هذا المدّ المتعاظم للواردات كونه رئيس الجمعية التجارية لمنطقة ٢٥ دي ماركو. إنّه أحد أبناء الجيل الثالث من السوريين ـ اللبنانيين الذي أسس شركة لاستيراد الألبسة بُعَيد الانفتاح الاقتصادي عام ١٩٩١. قدّم إليه والده اللبناني رأس المالَ اللازم ومكتباً صغيراً للبدء بالمشروع في مبنى تملكه الأُسرة في محيط شارع ٢٥ دي ماركو. واليوم، تستورد مؤسسة بيتو بعامّة أقمشتها من كوريا الجنوبية، وتدير عشرين موظفاً في مستودعها الكائن في ٢٥ دي ماركو، وتشرف على أربعين تاجراً متعاقداً معها في أنحاء البلاد. إضافة إلى ذلك، تملك أسرة بيتو خمسة أو ستة مبان كاملة (تتوافر فيها عدة متاجر) في المنطقة. ونظراً إلى الخلفية المهنية لهذه

(٤٠) مع أن الرئيس فيرناندو كولور دي ميلو أوقف العمل بالسياسات الحمائية عام ١٩٩١، لم تسمح قيمة العملة الوطنية للمدراء باستيراد كميات كبيرة. لكن مع استقرار النظام النقدي عام ١٩٩٤، زادت معدلات الاستيراد بمعدلات أسّية.

(٤١) «Comercio atacadista desaparece da cadeia têxtile,» *Gazeta Mercantil* (25 August 2000).

(٤٢) Wanise Ferreira, «25 de Março vira pólo de importados: Lojas de armarinhos e distribudores de aviamentos impotam a maipria dos produtos oferecidos,» *O Estado de S. Paulo* (2 April 1993).

ومؤخراً، سُمّيَت منطقة ٢٥ دي ماركو المكان الرئيسي للحصول على عباءات ونظّارات شمسية وأحذية تنس مقلّدة. انظر: Fátima Fernandes, «Piratas roubam mer-cado de empresas e U.S. $10 bi do país,» *Folha de S. Paulo* (3 September 2000), and Paulo Viera and Fernando Souza, «Piratas tomam a rua dos micreiros,» *Veja São Paulo* (11 October 2000).

الأسرة، فقد ذكر بيتو أنّه «في أي متجر تدخله اليوم في ٢٥ دي ماركو . . . تمثّل البضائع المستوردة نصف ما هو معروض فيه على الأقل». وأضاف:

«يجري إمداد الاقتصاد المحلي بالكثير من البضائع المستوردة من الخارج. ويمكن أن تجد الكثير من المتاجر التي تبيع منتجات مستوردة من دول آسيوية كالصين مثلاً، مثل الهدايا والألعاب. وعندما تدخل متجراً لبيع الحليّ غير الثمينة، ستجد أن عدداً منها مستورد من الخارج. وحين تدخل متجراً لبيع الألبسة، تجد الأمر نفسه. لذلك، تعتمد التجارة هنا اليوم على الاستيراد».

انتقل عدد من التجار في ٢٥ دي ماركو من بيع الألبسة وأدوات الزينة المنتجة محلياً إلى ملء رفوف متاجرهم بالبضائع المستوردة، مثل الألبسة وأحذية التنس، والحليّ الرخيصة، والألعاب، وحتّى المعدات الإلكترونية.

توضح شركة يملكها أبناء عمومة من الجيل الثاني من السوريين ـ اللبنانيين، واسمها كينغ أوف أكسيسوريز (ملك قُطَع الزينة) هذا التحول من البيع بالجملة إلى تجارة البيع بالتجزئة في ٢٥ دي ماركو. تحدّث أحدهم ويدعى رودولفو عن تقلّص أرباح بيع الأوشحة والأزرار والمنتجات الأخرى بالجملة في سبعينيات القرن الماضي إلى أن وصلت إلى أدنى مستوى لها في مستهلّ التسعينيات. فبعد أن كانت المصانع المحلية التي تنتج هذه السلع تمدّ تجارة رودولفو، باتت تبيعها للزبائن مباشرة. لذلك، لجأ رودولفو إلى استيراد ٨٠ في المئة من مخزونه من إيطاليا والصين والولايات المتحدة وبلدان أخرى. حتّى إنّه قام وشركاؤه بتحويل مبناهم المؤلّف من أربعة طوابق إلى متاجر تبيع بالتجزئة، إذ بعدما كان المبنى مستودعاً لبيع الملبوسات بالجملة، فهو يضم الآن محالّ يرتادها متسوقون من الطبقتين الوسطى والدنيا.

يقع مكتب والد رودولفو وعمّه في الطابق الثاني؛ وفي سياق عملية التجديد، أطلق عليه رودولفو اسم ميموريال دا ٢٥ دي ماركو (إحياءً لذكرى المهاجرين السوريين ـ اللبنانيين في منطقة ٢٥ دي ماركو). يضم المكتب غرفتين فسيحتين تعرضان بأبّهة صوراً فوتوغرافية بالأبيض والأسود، وأثاثاً عتيقاً، وتجهيزات مكتبية قديمة. وتظهر على الجدران كتابات نثرية وشعرية تحكي التواريخ المشتركة للتجار السوريين ـ اللبنانيين في ٢٥ دي ماركو. فبعد أن غادروا أراضي السلطنة العثمانية «ناقلين تاريخاً عمره خمسة آلاف سنة من أجل العطاء والبيع»، يُحتفَى بالسوريين ـ اللبنانيين بوصفهم الباعة المتجولين الذين كانوا «رواد

الحضارة» في البرازيل. كُتب على إحدى اللافتات «انتشرّ السوريون ـ اللبنانيون في المناطق الداخلية، وافتتحوا المتاجر في كلّ مستوطنة». حوّلوا شارع ٢٥ دي ماركو إلى «أكبر مركز لبيع الأقمشة، والملبوسات وأدوات الزينة بالجملة». وبعد أن ترفّع أبناء المهاجرين عن منزلتهم الهامشية في الأيام الأولى، استعاضوا منها بهذه الذكرى ومجدوها في أواخر تسعينيات القرن الماضي فقط، ولا سيما عندما أعيد تصميم مستودع قديم للبيع بالجملة ليكون متجراً يرتاده المتسوقون. وفي ضوء ذلك، عكس بناء الماضي الريادي للسوريين ـ اللبنانيين تحوّلَ المنطقة إلى مركز تجاري لبيع الألبسة المستوردة بالمفرق بعد تحرير الاقتصاد البرازيلي[٤٣].

أضحت منطقة ٢٥ دي ماركو، على الرغم من هذا المشروع الذي يسعى لترسيخ الماضي الشرق الأوسطي للتجارة الصغيرة فيها، مركزاً ذائع الصيت، أو سيئ السمعة في نظر البعض، للبضائع المستوردة الرخيصة، والمنتجات المزيفة التي تحمل أسماء ماركات شهيرة، وحتّى لمؤسسات صناعية أجواؤها الصحية متردّية. إنها في الواقع دكاكين استغلالية تستغل العمال في ظروف صعبة لا تتوافر فيها الشروط الصحية الملائمة لعمال هم في الأغلب من المهاجرين الوافدين من الصين وتايوان وكوريا. وتورد تقارير صحافية برازيلية تقديرات تشير إلى «وجود ٢٥٠٠ مؤسسة تجارية كورية في ساو باولو، تمثّل محال بيع الملبوسات ٩٠ في المئة منها»[٤٤]. تزامن تراجع عدد مصانع النسيج المحلية مع افتتاح مؤسسات استغلالية لا تتوافر فيها ظروف عمل صحّية يملكها كوريون،

---

(٤٣) يمكن زيادة تسليط الضوء على هذه المكانة المميزة لماضي العرب في ساو باولو بإجراء مقارنة مع تاريخ الأميركيين العرب في مدينة نيويورك. على سبيل المثال، كانت جادة أتلانتك في بروكلين محلّ إقامة أسر سورية-لبنانية ارتبطت معايشها في مستهل القرن العشرين بمؤسسات النسيج الصغيرة في شارع واشنطن بمنهاتن. وابتداءً من سبعينيات القرن الماضي، حلّ مهاجرون أردنيون وفلسطينيون ويمنيون محلّ الأسر السورية ـ اللبنانية. انظر: Gregory Orfalea, *Before the Flames: A Quest for the History of Arab Americans* (Austin, TX: University of Texas Press, 1988), pp. 224-225.

وفي ضوء ذلك، الظاهر أن الانتماء العربي لجادة أتلانتك في بروكلين تبلور على يد المهاجرين الذين قدموا إليها في أواخر القرن العشرين، لا بترقّي الأمريكيين العرب من أبناء الجيلين الثاني والثالث. وعلى الرغم من أن المهاجرين الذين قدموا مؤخراً، وعامّتهم من لبنان، يديرون بعض المحال الصغيرة في شارع ٢٥ دي ماركو، فإن برازيليين عرباً من الجيلين الثاني والثالث يديرون عرض صور الانتماء العربي في المتاحف الخاصة وفي الاجتماعات المهنية.

(٤٤) Simone Buechler, «Enacting the Global Economy in São Paulo, Brazil: The Impact of Labor Market Restructuring on Low-Income Women,» (Ph.D. Dissertation, Columbia University, New York, 2002), p. 349.

وزُعم أنّها أنتجت «واحداً من بين كلّ ثلاثة» أثواب بيعت بالتجزئة عام ١٩٩٨. وما زاد من تفاقم الوضع انتشار نحو ٧٠٠٠ بائع، يسمُّون كاميلوس، في شوارع وسط مدينة ساو باولو(٤٥). يعرض هؤلاء الباعة على طاولاتهم في الأغلب أكثر البضائع تنوعاً، مثل الألبسة، والحليّ المزيفة، والأقراص الموسيقية المدمجة المقرصنة، والتحف الرخيصة، قبالة المتاجر المزدحمة المتخصصة في بيع بضائع مشابهة.

وسواء أكان الباعةُ في الشوارع وأصحابُ المتاجر في الشارع ٢٥ دي ماركو من أصل شرق أوسطي أم من أصل شرق آسيوي أم من شمال شرق البرازيل، يحصل هؤلاء على بضائعهم عبر الاستيراد. لكنّ الزبائن البرازيليين ومندوبي الدولة الماليين يعدّون هذه البضائع «غير شرعية»، ويزعمون أنّها تُهرَّب إلى البرازيل عبر باراغواي. والواقع أنه حين أُغلقت الحدود موقتاً بين البرازيل وباراغواي في مطلع عام ٢٠٠١، فرغت رفوف المتاجر وطاولات الباعة في الشوارع على حدّ سواء من البضائع(٤٦)ونظراً إلى هذه الصلات المتصوَّرة والحقيقية بين المستوردات وشارع ٢٥ دي ماركو، فقد شهدت الحقبة الممتدة بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠١ عدة مداهمات أو عمليات تفتيش واعتقال منتظمة مباغتة، سُمّيت الحملات المفاجئة(٤٧). وفي سياق ذلك، صُودرت

---

(٤٥) ساق هذه الأرقام مسؤولون في أمانة سرّ الإدارات الإقليمية، والوحدات دون مستوى البلدية التابعة لمجلس بلدية مدينة ساو باولو.

(٤٦) Michele Oliveira, «Bloqueio no Paraguai afeta negócios na Rua 25 de Março,» *Gazeta Mercantil* (26 September 2001).

جاء في المقالة إن «إغلاق جسر الصداقة» الذي يصل فوز دو إغواسيو بسيوداد ديلب إستي بباراغواي «أثر سلباً في منطقة شارع ٢٥ دي ماركو في وسط المدينة، إذ إن هذه المنطقة التي تعرض منتجات مستوردة تعاني نقصاً في السلع المعروضة».

(٤٧) للاطلاع على عدد كبير من الحالات التي غطّتها الصحافة، انظر: Alesandra Zapparoli, «Vaivém sem fim: Prefeitura faz nova tentativa de tirar os camelôs da região da 25 de Março,» *Veja São Paulo* (11 August 1999); Valéria Rossi, «Blitz anticamelô toma 25 de Março de madrugada: Para evitar a montagem das barracas, 350 fiscais e guardas civis chegaram à rua às 4 horas,» *Jornal da Tarde*, 30/5/2000; Bárbara Souza, «Guardas e camelôs confrontam-se no centro: Ação na Ladeira Porto Geral deixou vários feridos por golpes de cassetete,» *O Estado de S. Paulo* (7 October 2000); José Gonçalves Neto, «Região da 25 de Março é alvo de blitz: Fiscalização atingiu comércio for-mal e também os ambulantes da região,» *O Estado de S. Paulo* (12 October 2000); Meire Furuno, ««Camelôdromo» da 25 segue intocável: Enquanto a Barão de Itapetiniga está livre dos ambu- lantes, eles continuam ocupando a Rua 25 de Março,» *Jornal da Tarde*, 20/1/2001, and Liliana Ciardi, «Blitz tira camelôs da Rua 25 de Março,» *Jornal da Tarde*, 24/3/2001.

بضائع تزن أكثر من طنّ في بعض الأحيان لأنها من دون إيصالات ووثائق ضريبية مناسبة، لا من باعة الشوارع فقط بل من أصحاب المتاجر أيضاً. حتّى إن فريقاً من المفتشين زار مقرّ بيتو إرضاءً لباعة الشوارع ولنظرائهم المستأجرين الآسيويين في الأغلب. وعلى الرغم من التباهي بماضي السوريين ـ اللبنانيين الريادي الأسطوري، هناك حدود للاعتراف بالهوية الإثنية لشارع ٢٥ دي ماركو اليوم في الدولة النيوليبرالية.

أصبحت الغرفة التجارية العربية البرازيلية مرتبطة بتدفق الرساميل والبضائع العابرة للحدود في الوقت الراهن بقدر ما هي متلازمة مع الاستيراد والتصدير في الاقتصاد الوطني البرازيلي. وبالتالي، إذا كان التحول الاقتصادي في سبعينيات القرن الماضي أفاد مدراء الغرفة، فهو عاد بنتائج مختلطة على التجار في الشارع ٢٥ دي ماركو. هذا التنافر بين البرازيليين من أصل سوري ـ لبناني يشير إلى تغيرٍ في الهرمية بين الإثنية والدولة لا إلى الاستمرارية فقط في البرازيل المعاصرة.

رابعاً: شركاء وطنيون، وحكوميون، وإثنيون في «برازيل التصدير»

مع رفع العمل بسياسة حمائية استمرّت ستين عاماً، جرى تبنّي سياسة الانفتاح الاقتصادي في البرازيل وما رافقها من خفض التعريفات الجمركية على البضائع المستوردة وإزالة الحواجز التجارية، لكن بطريقة جذرية إلى حدّ أن المصنّعين وصفوها بالسياسة «الصدمية». وسواء في ميدان مستحضرات التجميل، أو في الموادّ الطبّية، أو في السلع الغذائية، حكى هؤلاء تجارب مشابهة انطوت على مواجهة مفاجئة مع المنافسة العالمية في مطلع تسعينيات القرن الماضي. وفي هذا الصدد، ذكرت دانييلا، وهي مديرة تنفيذية في شركة تبيع مستحضرات تجميل، أن الشركات الثلاث المنافسة لشركتها آلت إلى تسع شركات عام ١٩٩٢ فقط؛ فعن طريق استيراد منتجات ذات شهرة عالمية من وكلاء من شرق آسيا، لم تجد عدة شركات استيراد جديدة صعوبة في بيع سلعها بأسعار أدنى من أسعار السلع التي تنتجها شركتها. وأضافت دانييلا: «مع الانفتاح الاقتصادي، خسرنا حصة كبيرة من السوق هنا، لذلك يتوجب عليك التصدير والبحث عن أسواق جديدة». ويشرح أدواردو أيضاً، وهو مدير تنفيذي في شركة تصنّع تجهيزات طبّية، أن اللاعبين العالميين الكبار من الولايات المتحدة وأوروبا

دخلوا السوق المحلية بمنتجات أرخص ثمناً وأكثر تطوراً تقانياً. وأضاف أدواردو: إذا كانت التجربة صدمة، «فإن قطاعنا يبحث عن أسواق محتملة على المستوى العالمي ليكون معولماً أيضاً». وبعد أن تجاوز المدراء التنفيذيون في الشركات البرازيلية طوفان البضائع المستوردة الرخيصة والمنافسة الذي جلبه الانفتاح الاقتصادي، اعتمدوا إستراتيجيات «معولمة» تركز على التصدير.

ولحثّ الطبقة البرجوازية في البلاد على تصدير نسبة كبيرة من بضائعها أو منتجاتها، أسست الدولة البرازيلية عدة وكالات وبرامج في أواخر تسعينيّات القرن الماضي؛ وقد حظيت هذه المنظمات الحكومية التي تركز على التصدير بالترحاب في الدوائر التجارية لاستخدامها ألفاظاً مختصرة مثل أبيكس (وكالة ترويج الصادرات) وبرويكس (برنامج حوافز التصدير). قال لويز فورلان، رئيس ساديا، متدبّراً في كيفية «إيقاظ» هذه الوكالات «روحَ التصدير» لدى النخب الصناعية البرازيلية:

«لم تكن البرازيل دولة مصدرة تقليدياً. لذلك كان على هذه الوكالات، التي وُجدت لهذا الغرض أصلاً، إيقاظ روح التصدير لدى الشركات الصغيرة والمتوسطة الحجم، وتثقيفها ومساعدتها، وإتاحة المعلومات لها في الوقت نفسه: من هي الدول التي ستستورد منها؟ وما هي المنتجات التي تحتاج تلك الدول إليها؟»[٤٨].

وبعد ذلك، أشاد هذا المدير التنفيذي المهم، وهو لا يكاد يستطيع إخفاء ابتهاجه بآفاق صناعة وطنية مدفوعة برغبة في التصدير تؤججها الوكالات الحكومية، بالرئيس فيرناندو هنريكي كاردوسو لتحويله البرازيل إلى دولة مصدّرة.

شدّد فورلان أيضاً على الشّراكات بين الوكالات الحكومية التي تركز على التصدير وبين غرف التجارة الدولية. تجدر الإشارة هنا إلى أنّه يوجد في ساو باولو اليوم نحو عشرين غرفة تجارة «دولية» تطلب العون المؤسسي من الدولة ومن القوى المهنية في بلدانها الأمّ. يدير هذه الغرف مهاجرون أو أبناء

(٤٨) ساديا هي أكبر شركة منتجة للدواجن في البرازيل. تمثّل صادراتها نحو ثلث التجارة مع الوطن العربي. وفورلان هو صديق لمدراء الغرفة التجارية العربية البرازيلية. دعني أشير أيضاً إلى أن فورلان رُشّح لتولّي وزارة الصناعة والتنمية في الحكومة الفدرالية التي ترأسها حزب العمال في عهد الرئيس لولا.

مهاجرين، وأبرزها الكيانات الأمريكية والعربية والإيطالية والروسية. ويرى فورلان أن هذه الغرف «تقدّم خدماتها للمؤسسات المهتمة. . . وهي على اتصال في الوقت عينه بالسلطات البرازيلية التي تتطلّع إلى زيادة حجم المبادلات التجارية بين الدول». ويُنظر إلى شراكة التصدير هذه بين القطاع العام والقطاع الخاص في البرازيل نظرة إيجابية في عناوين الصحف الرئيسيّة. ترى الصحف في هذه الشراكة عموماً وسيلة تتيح دفقاً مستمرّاً لرؤوس الأموال الأجنبية، وبالتالي توفر قاعدة مستقرّة للتنمية الوطنية في الاقتصاد العالمي.

في تسعينيات القرن الماضي، رسمت الغرفة التجارية العربية البرازيلية، كونها إحدى «غرف التجارة الدولية» تلك، لنفسها صورة كيان لا يبغى الربح مدفوع بالرغبة في التصدير. وهي تُصْدِر اليوم «شهادات منشأ» للصادرات البرازيلية المتوجهة إلى الشرق الأوسط، وتخطط لإيفاد بعثات تجارية مؤلّفة من شخصيات رسمية ونخب مهنية برازيلية إلى الوطن العربي، وتمثّل البرازيل في المعارض الدولية التي ترعاها دول عربية، وتنظّم حلقات دراسية لتدريب النخب البرازيلية على أسلوب التعامل التجاري مع البلدان العربية. وبخلاف غرف التجارة التي تنشد فتح السوق البرازيلية أمام صادرات دولها الأمّ وخدماتها، سعت الغرفة التجارية العربية البرازيلية لإبراز نفسها كياناً مكرساً أساساً (لا حصراً) لتصدير السلع والخدمات البرازيلية إلى الشرق الأوسط:

«تعمل الغرفة بطريقة مستقلة بالكامل، عوضاً عن تمثيل المصالح الخارجية في البرازيل، وتتجه أساساً إلى التصدير في انسجام تام مع غايات الحكومة وغايات الاقتصاد البرازيلي»[٤٩].

أعادت الغرفة طرح نفسها في الظاهر بأنها غرفة تعمل في الأساس على زيادة الصادرات البرازيلية إلى الشرق الأوسط. وسعت لتأمين دور لها كشريك إثني في الاقتصاد الوطني البرازيلي المدفوع برغبة في التصدير.

يقال من الناحية المؤسسية إن الغرفة تمثّل «همزة الوصل» بين البرازيل والوطن العربي. وفي عام ١٩٩٢، حصلت على اعتراف رسمي من جامعة الدول العربية، ولاحقاً من جانب غرفٍ تجارية مشابهة، بأنها مروّج اقتصادي. على أن العلاقات المؤسسية التي أقامتها الغرفة مع الدولة البرازيلية لم تتحوّل

---

(٤٩) Câmara de Comercio Arabe Brasileira, *Camara de Comércio Arabe Brasileira*, p. 50.

إلى شراكة إلا عام ٢٠٠٠ بهدف زيادة وعي كوادر النخب المهنية البرازيلية بأهمية التصدير إلى «الوطن العربي». وقد انضمت الغرفة إلى وكالة ترويج الصادرات أبيكس الحكومية الفدرالية البرازيلية على الخصوص في شراكة مكّنتها من الترويج لأنشطتها المتنوعة، سواء أكانت بعثات تجارية أم معارض دولية أم حلقات دراسية تناقش موضوع التصدير، كأنشطة تحظى «برعاية الدولة البرازيلية». وكما سنبيّن بمزيد من التفصيل في موضع لاحق في هذا الفصل، وصف مسؤول في أبيكس الحلقات الدراسية التي تُعقد تحت عنوان «كيف تصدّر إلى الوطن العربي» بأنها جلسات تدريبية للمدراء التنفيذيين البرازيليين على الأنماط الاقتصادية والثقافية السائدة في الوطن العربي. حتّى إنه يجري عرض شعار الغرفة التجارية العربية البرازيلية، الذي يأخذ شكل هلال ملوّن بألوان العلم البرازيلي الثلاثة الأخضر والأصفر والأزرق، إلى جانب شارات الوكالات الفدرالية البرازيلية.

لقد أكد مدراء الغرفة التجارية العربية البرازيلية من خلال عملهم كجسر عبور بين البرازيل و«الوطن العربي»، على أصولهم السورية ـ اللبنانية التي تمثل العروبة بمعناها الأوسع. نضرب على ذلك مثالاً بتفسير بيار، البرازيلي السوري من الجيل الثالث الذي شغل منصب الأمين العام للغرفة منذ عام ١٩٩٨، والذي سبقت الإشارة إليه، في قوله: «أنا سوري ابن سوري، لكنني عربي. وحين يسألونني هل أنت لبناني، أقول لا، أنا عربي، أنا من أصل عربي. لذلك لا حقيقة لما يسمّى. . . الدول القطرية. إنّها الأمّة العربية الجامعة». وقد مثّلت هذه العروبة العامة العنصر الأساسي للروابط المؤسسية التي تجمع الغرفة التجارية العربية البرازيلية بالمنظمات التجارية والحكومية في الوطن العربي. على سبيل المثال، يُشترط في الروابط الرسمية بجامعة الدول العربية أن يكون أعضاء المديرية التنفيذية في الغرفة من أصل عربي كما هو مذكور في ميثاق الغرفة المنقّح في ثمانينيات القرن الماضي[٥٠]. وفي هذا الصدد، رأى مشارك قديم في الغرفة أن «أصول» رؤسائه ومدرائه تتيح للمدراء التنفيذيين البرازيليين فرص النجاح في الوطن العربي. وقد فتح امتدادُ هذا الطابع البرازيلي العربي إلى العالم العربي أسواقاً للمصدّرين البرازيليين.

على أن هذا الطابع العربي يتمايز عن ملامحه السابقة التي سادت في

---

(٥٠) المصدر نفسه، ص ١٥ ـ ١٨.

خمسينيّات القرن الماضي. كانت الغرفة «السورية واللبنانية» قد غيّرت اسمها آنذاك فأصبح «الغرفة العربية البرازيلية»، انعكاساً للذروة التي بلغتها القومية العربية بإقامة اتحاد دام ثلاث سنين بين سورية ومصر باسم الجمهورية العربية المتحدة. لكنّ الطابع العربي للغرفة اليوم يرجع إلى التغيرات الاجتماعية الاقتصادية داخل البرازيل وخارجها. فبعدما حولت الغرفةُ تركيزها الأوّل عن سورية ولبنان بحلول ثمانينيات القرن الماضي، باتت أكثر تفاعلاً مع دول الخليج الغنية بالنفط. في الواقع، تمثّل هذه الدول بوجه عام النواحي التي تتجه إليها الصادرات والمصدّرون البرازيليون، إلى حدّ أنّه في إعادة توجيه الغرفة التجارية العربية البرازيلية اعتُمد كلياً على «عائدات النفط العربي» في الاقتصاد العالمي. ذلك بأن منطقة الخليج العربي استحوذت في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته على أكثر من نصف صادرات البرازيل المتجهة إلى الشرق الأوسط[٥١] بناء على ذلك، وجّهت الغرفةُ في كتيباتها وحلقاتها الدراسية وبعثاتها المصدّرين البرازيليين إلى البلدان العربية التي أشير إليها بـ «دول الفائض»[٥٢]. ولم تتم الإشارة إلى العربية السعودية، والكويت، والإمارات العربية المتحدة وغيرها بأنها دول عربية شقيقة بل وُصفت بأنها أسواق يمكنها «امتصاص» الصادرات البرازيلية. بهذه الطريقة، وسّع البرازيليون من أصل سوري ـ لبناني انتماءهم العربي نحو منطقة الخليج بمنطق السوق، الأمر الذي عكس الأجندات الوطنية البرازيلية لا الأجندات السورية أو اللبنانية بالضرورة.

جذب هذا النزوع العربي القوي بعضَ العملاء البرازيليين من أصل شرق أوسطي. من الأمثلة على ذلك السيد شهيد، وهو رجل أعمال فلسطيني من أبناء الجيل الثاني، يعمل في مجال الاتصالات. عقب خسارته إيراداته بعد عام ١٩٩١، أعرب عن اهتمامه بالتصدير إلى الوطن العربي. علّل شهيد اهتمامه بأن المستوردين في الوطن العربي سيؤثرون منتجات أشقائهم العرب المقيمين في البرازيل. وشدّد على أن النزوع العربي قوة محرّكة. وكم كانت مفاجأة شهيد كبيرة حين تجاهلته الغرفة. طلب إليّ الاستعلام من الغرفة التجارية العربية البرازيلية عن عدم التفاتها لطلباته. أسرّ لي مدير في الغرفة في وقت لاحق بأن

(٥١) في عام ١٩٩٨، استحوذت منطقة الخليج العربي على ٨٥٠ مليون دولار من مجموع ١,٧ مليار دولار من السلع والخدمات التي صدّرتها البرازيل إلى منطقة الشرق الأوسط.

(٥٢) Câmara de Comercio Arabe Brasileira, *Almanaque* (São Paulo: CCAB, 1989), pp. 28-30.

حضور «شركات الاتصالات الآسيوية» قوي في سائر الشرق الأوسط وأن شهيد لن يصل إلى نتيجة ولو ساندته الغرفة. نقلتُ الرسالة إلى شهيد الذي لم يكن في وسعه سوى السؤال عن الغاية من الغرفة التجارية العربية البرازيلية: «لكن ألا يجدر بالغرفة مساعدتنا [نحن العرب]؟» لا يزال شهيد يحضر المناسبات التي تقيمها الغرفة آملاً بأن تسنح له فرصة للتصدير في المستقبل. يتبين من ذلك أن الإثنية العربية ازدادت قوة لكن بطرائق لا صلة لها بالتفاعل الحقيقي بين الأشخاص الذين يعرّفون عن أنفسهم بأنهم عرب.

وبالتالي، يعكس النزوع العربي للغرفة التجارية العربية البرازيلية منطق السوق الذي يحدد الانتماء اليوم. فلدى مدراء الغرفة مصلحة في تحرّك رؤوس الأموال بين البرازيل والشرق الأوسط وإن لم تكن منظمة تبتغي الربح. نضرب مثالاً على ذلك بقصة مشاركَين من سورية ولبنان كانا في عداد بعثة تجارية أُرسلت إلى منطقة الخليج عام ٢٠٠٠، وطُلب إليهما الانضمام إلى مجلس إدارة الغرفة. كان أحدهما يعمل في مجال الاستثمار المصرفي والآخر في صناعة اللاكتوز (سكر الحليب). ومن خلال إبرام صفقات أثناء تلك البعثة التجارية، استطاعا كذلك الحصول على عضوية مجلس الإدارة في الغرفة. وفي مثال آخر نشير إلى بشّار، وهو صاحب وكالة سياحة مرموقة في ساو باولو، انضم إلى مجلس الإدارة قبل بضع سنين. وهو يقيم معارض في البرازيل منذ ذلك الحين للترويج للسياحة في مصر والجزائر. قال لي بشّار: «هذا هو مجال عملي داخل الغرفة». لكنه شارك عام ٢٠٠١ في لجنة تروّج للسياحة في البرازيل في «سوق السفر العربية» في دبي، وهو معرض سياحي دولي. وذكرت نشرة إخبارية للغرفة في وقت لاحق أن «المناسبة كانت مؤاتية إلى حدّ بعيد لإبرام الصفقات إلى درجة أن أحد العاملين في قطاع السياحة في البرازيل تعاقد على تسيير أربع رحلات جوية [من الإمارات العربية المتحدة إلى البرازيل]»[٥٣]. وبالتالي حصد مدراءُ الغرفة التجارية العربية البرازيلية والاقتصاد الوطني البرازيلي منافعَ الانتماء العربي.

يمكن الإشارة إلى مفارقة بالحديث عن غرفة التجارة الأمريكية العربية في الولايات المتحدة. تأسست الغرفة على يدّ مجموعة من رجال الأعمال الأمريكيين العرب في منطقة ديترُويْت الكبرى، التي سعت لتكون «عصب

(٥٣) «Turismo em alta,» *Câmara Árabe Notícias*, vol. 1, no. 2 (2001).

التجارة بين الشرق الأوسط والولايات المتحدة، كحال ميامي في التجارة مع أمريكا الوسطى والجنوبية»[٥٤] وفي مسعى لامتلاك تأثير في تجارة تقدّر بنحو ٥٥ مليار دولار بين الولايات المتحدة والأسواق العربية، عقدت الغرفة «المنتدى الاقتصاديّ الأمريكي ـ العربي» الأوّل في نوعه في ديترويت في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣. وكان في عداد المشاركين الألف الذين دفع كل منهم نحو ثلاثة آلاف دولار كرسوم للمشاركة، كولن باول ومسؤولون حكوميون أمريكيون، والأمير سعود الفيصل وأمراء خليجيون آخرون، فضلاً عن مدراء أمريكيين من شركة إنتل، وبوينغ، وإكسون موبيل[٥٥]. هدفَ المنتدى الذي حظي بتغطية إعلامية في جميع أنحاء البلاد، إلى التركيز على العلاقات السوقيّة بين القوى الأمريكية والعربية، لكنّ السياسة ظلّت حاضرة[٥٦]. وإذا كان الناشطون العرب الأمريكيون العاديون عابوا على المنتدى حصريته وارتباطه بالمصالح الأمريكية، صرّحت السلطات الأمريكية بأنه يهدف إلى نشر «الديمقراطية» من خلال «اقتصاد السوق الحرّة». لذلك، سعى رجال الأعمال العرب الأمريكيين إلى إبراز إثنيتهم كمنطق سوقي ضمن الإطار الوطني والعابر للحدود، لكنهم بقوا مكبّلين بأجندة الولايات المتحدة الخاصة بنشر «الديمقراطية» في العالم. وكحال نظيرتها البرازيلية، تسعى غرفة التجارة الأمريكية ـ العربية إلى عقد شراكات بين الولايات المتحدة والدول والمؤسسات التجارية العربية، لكن لا يسعها سوى المشاركة في الهيمنة الأمريكية.

خامساً: تمثيل الشّراكة العربية ـ البرازيلية في (دولة) التصدير

في المقابل، يجري تمثيل الشّراكات بين النخب الإثنية والحكومية والوطنية في البرازيل بالحلقات الدراسية التي تقيمها الغرفة التجارية العربية البرازيلية بعنوان «سبل التعامل التجاري مع البلدان العربية» و«التصدير إلى البلدان العربية». تُعقد هذه الحلقات الدراسية المنسقة منذ أواسط تسعينيات القرن الماضي مرة كلّ شهرين في جميع أنحاء البرازيل مستقطبة ٥٠ إلى ١٢٠

(٥٤) Tom Walsh, «Mideast's Future to Take Shape in Detroit,» *Detroit Free Press* (29 September 2003).

(٥٥) «Key Players in the U.S.-Arab Economic Forum,» *Detroit Free Press* (29 September 2003).

(٥٦) Tom Walsh, «Arab Leaders' Dialogue Ia All about Power, Politics,» *Detroit Free Press* (29 September 2003).

رجل أعمال ممّن يعملون في مؤسسات برازيلية وعامتهم من غير العرب. وباتت الحلقات الدراسية التي تُعقد تحت عنوان «التصدير إلى البلدان العربية» بالاشتراك مع أبيكس تحظى بتغطية إعلامية في المجلات المهنية البرازيلية، ولا سيّما **غازيتا ميركانتيل**(٥٧) وهذا وصف لاثنتين من هذه الحلقات الدراسية كانت لي فيهما مشاركة شخصية عامي ١٩٩٩ و٢٠٠١(٥٨).

لدى دخول قاعة الحلقة الدراسية المزدحمة بالمشاركين الذين يرتدون بزات داكنة اللون، يتلمس المشاركون وعامتهم من الرجال بارتباك بطاقات الأسماء المسلمة لهم من أمينات السرّ. وُضعت بكل عناية على المقاعد المئة والعشرين ملفات مليئة بالكراريس التي تتحدث عن المعارض الدولية المقبلة وعن البعثات التجارية. قرأها المشاركون بتأنٍّ، ثمّ عدّلوا وضع بطاقات الأسماء على طيات ستراتهم، ونظروا إلى ساعاتهم الذهبية لحظة افتتاح الحلقة الدراسية. وبعد التعريف بالمتحدثين في الحلقة من الغرفة العربية والحكومة الفدرالية البرازيلية الذين جلسوا إلى الطاولة الأمامية، عُرض موجز عن الأنشطة التي شاركوا في رعايتها. استهلّ باولو عطا الله رئيس الغرفة حديثه بالقول: «دور الغرفة التجارية العربية البرازيلية هو زيادة حجم التجارة بين البرازيل والبلدان العربية». ولخدمة هذا الغرض، أضاف عطا الله، يوجد لدى «الغرفة العربية» فروع في مارانهاو، وباهيا، وغواياس، وبرازيليا، وجنوب البرازيل، فضلاً عن الفروع الدولية مثل المركز التجاري البرازيلي في الإمارات العربية المتحدة. وحرص عطا الله على الإشارة إلى أن الحكومة البرازيلية تموّل جزءاً من أنشطة المركز التجاري بدبي. وبذلك، جرى التعريف بالغرفة التجارية العربية البرازيلية

---

(٥٧) «Seminário ensina a exportar para Mercado árabe,» *Gazeta Mercantil* (Santa Catarina) (15 August 2000); «Industria cearense chama atencao de paises do oriente,» *Gazeta Mercantil* (Ceara) (11 September 2000); «Comercio exterior: Consorcio mineiro de confeccoes mira Mercado árabe,» *Gazeta Mercantil* (Minas Gerais) (9 October 2000); «ZF pode conquistar Mercado árabe,» *Gazeta Mercantil* (Amazonas) (9 April 2001); «Fiemt e Apex promovem encontro sobre exportacao para paises arabe,» *Gazeta Mercantil* (Mato Grosso) (30 May 2001), and «Seminário discute perspective de comércio,» *Gazeta Mercantil* (Goias) (20 June 2001).

تشير هذه المقالات إلى مدى اعتراف النخب المهنية والإعلامية في جميع أنحاء البرازيل بقيادة غرفة التجارة العربية البرازيلية. وكما أشار رئيس أحد الاتحادات التجارية في منطقة الأمازون، «لدينا فرص كبيرة في الحيز المفتوح مع غرفة التجارة العربية في الخارج».

(٥٨) إضافة إلى هذه الحلقات الدراسية، تستضيف غرفة التجارة العربية البرازيلية عروضاً شهرية في مقرّها في ساو باولو عن موضوعات تجارية متنوعة لكيانات تابعة ومدراء تنفيذيين ومسؤولين حكوميين.

ككيان يمدّ جسور التواصل بين جميع المناطق في البرازيل والوطن العربي.

ثمّ قدّم عطا الله مسؤولَين من وزارة الشؤون الخارجية البرازيلية كانا يقفان إلى جانبه أمام الحضور. شدَّد الأوّل على أن الحكومة البرازيلية خططت لمضاعفة حجم صادرات البلاد عام ٢٠٠٠ من خلال وكالة الترويج للصادرات (أبيكس) التي أُسست حديثاً، وذُكر أن أبيكس «برؤيتها العصرية جداً» تمثّل إحدى «نقاط التطوّر الرئيسيّة» لدى إدارة الرئيس فيرناندو هنريكي كاردوسو التي تسعى لتحويل البرازيل إلى «دولة مصدّرة عظمى في الاقتصاد العالمي». أحد «الشركاء» الرئيسيين في تحقيق هذا الهدف هو الغرفة التجارية العربية البرازيلية. وقد تباهى هذا المسؤول الحكومي قائلاً: «قلّة هي الغرف التجارية التي تملك المعرفة التي تملكها هذه الغرفة. إنّها تجمع رجال الأعمال من جميع أنحاء البرازيل لتصدير منتجاتهم إلى الوطن العربي». وختم حديثه بقوله «أنا أحيّي مبادرة الغرفة التجارية العربية البرازيلية الخاصة بتأسيس مقرّ لها في دبي». وهذا مثال على كيفية حيازة الغرفة الاعتراف بأنها شريك للدولة البرازيلية اليوم.

وفي عام ٢٠٠١، أعقب الملاحظات التي أدلى بها المسؤول الحكومي عرضٌ قدّمه الأمين العام للغرفة بيار، الذي ألقى، بعد دعوته إلى اعتلاء المنصة، كلمة استغرقت عشرين دقيقة تحدّث فيها عن خصائص «السوق العربية». وبعد عرض للمزايا الاقتصادية الرئيسيّة للشرق الأوسط، منها الحواجز الجمركية ومعدلات النمو، عرض بيار خريطة وقال «إنّها ليست دقيقة لكن المراد منها إعطاؤكم فكرة وحسب عن البلدان التي تؤلف السوق العربية». وفي إشارة إلى «منطقة البحر المتوسط» التي تضم لبنان وسورية وفلسطين، ذكر بيار أن «أغلب المهاجرين الذين قدموا إلى البرازيل» جاؤوا «من هذه البلدان العربية»، مع أنّه أشار بعد ذلك إلى تلك المنطقة بأنها «تكتنفها المخاطر». ثمّ تحوّل إلى الخليج العربي وبيّن أنّه يتمتع «بثاني أكبر حركة تجارية بعد هونغ كونغ مباشرة». وبعدما حدد مكان بلده الأمّ سورية على خريطة «السوق العربية»، سلّط الضوء على الإمكانيات الاقتصادية لمنطقة أخرى. وبهذه الطريقة، جمع بين الوجه العربي الظاهري للمدراء السوريين ـ اللبنانيين في الغرفة الذين جاؤوا من الطرف الغربي لـ «السوق العربية» وبين أطرافها الشرقية حيث الخليج العربي. بالانتقال من الوطن الأمّ السوري أو اللبناني إلى «الحركة التجارية الأكبر» في منطقة الخليج، يعكس امتداد هذا النزوع العربي وجهة الصادرات البرازيلية في الوطن العربي.

كُرّس قسط وافر من الحلقة الدراسية للحديث عن «الثقافة العربية» على أمل تيسير التعامل المتبادل بين المدراء التنفيذيين البرازيليين والعرب. على سبيل المثال، أثارت مناقشة بيار «للخصائص الثقافية لرجال الأعمال العرب» في الحلقتين الدراسيتين اللتين عُقدتا عامي ١٩٩٩ و٢٠٠١ شهية الحضور البرازيلي لتدوين الملاحظات[٥٩] وجرى التأكيد بخاصة على «أهمية الثقافة العربية». ففي عام ١٩٩٩، أشار بيار إلى أن العرب يستمتعون «بالعلاقات الشخصية» عند إبرام الصفقات التجارية، وأن «العرب يحبّون المساومة، لذلك يفضّل توفير قدر من الخصم وخفض السعر قليلاً». وفي عام ٢٠٠١، عرض صيغة مشابهة لكنّها أكثر بريقاً لصورة «المستورد العربي» الذي وصفه بيار بأنه «يحبّ الإحساس بالأهمية. إنّه يحبّ الوثوق بالشريك وهو مستعد فعلاً للمساومة. إنّه يهوى التفاوض، وتقديم القهوة ومناقشة سعر البضاعة، . . . ويحبّ الإحساس بالنصر في مسألة السعر». في هذه العبارات، أسقط مدراءُ الغرفة التجارية العربية البرازيلية الصورةَ التاريخية للعرب في البرازيل بأنهم تجار حاذقون على الوطن العربي نفسه. لكنهم عززوا بفعلهم ذلك دورهم كشركاء للمدراء التنفيذيين البرازيليين يعرفون في الظاهر كيفية المقايضة والتفاوض على الطريقة التي لا يتقنها غير العرب.

لم تمرّ الملاحظات التي أشارت إلى قدرة رجال الأعمال على المساومة في منطقة الخليج العربي مرور الكرام لدى عملاء الغرفة البرازيليين (غير العرب). فقد أشار موريس، رئيس قسم العلاقات الدولية في اتحاد صناعات مقاطعة ساو باولو، إلى أن الفطنة التجارية الفطرية شائعة في جميع أنحاء أوروبا لا في أوساط العرب في البرازيل والشرق الأوسط فقط. وتعليقاً على مهارات العرب التجارية في وطنه الأمّ رومانيا، ردد موريس القول المأثور «عربي واحد يضاهي سبعة رومانيين». وأدلى أدواردو، المدير التنفيذي لشركة تصنّع معدات طبّية الذي تحدثنا عنه آنفاً، بتعليق مشابه إذ قال: «يملك العرب مهارات تجارية بالفطرة، أوّلها التفاوض». وإعراباً عن إعجابه «بالمدراء التنفيذيين ذوي المؤهلات العالية» الذين التقى أدواردو بهم في أثناء البعثة التجارية التي أرسلتها

(٥٩) لكن يتعين أن نضيف أن بيار نفسه تحدث عن «الافتقار» إلى الانتماء العربي في حياته الخاصة. وحينما كنّا نستخدم المصعد معاً في يوم من الأيام، سألني بكل هدوء عن قدرتي على التحدث باللغة العربية. أجبته «أتحدث العربية لكني لا أتقنها جيداً». علّق بيار بالقول: «على الأقل يمكنك التحدث بالعربية». وفي نبرة تنمّ عن حسرة أضاف «فقدتُ تلك الناحية من الثقافة». وعلى الرغم من اعترافاته الشخصية، قدّم بيار نفسه (وقدّمه آخرون) على أنه خبير عام في الثقافة العربية في الحلقات الدراسية «التصدير إلى العالم العربي».

الغرفة التجارية العربية البرازيلية إلى الخليج العربي، تحدّث عن العرب في البرازيل بمزيد من التفصيل فقال:

«عرفنا ونحن في سنّ الطفولة أنّه لا بدّ من أن يكون التاجر فرداً من المجتمع، يتاجر دائماً بالألبسة، والمنسوجات، والموادّ الغذائية التي تباع في المتاجر. إن الجالية العربية موجودة في هذه المنطقة دائماً. ونحن في البرازيل نرى أن ثقافة المهاجر [العربي] هذه حاضرة يومياً».

وجد المدراء التنفيذيون البرازيليون الذين درسوا «كيف تمارَس التجارة» في الخليج العربي أنّه من البديهي أن يتمتع العرب الخليجيون بالسليقة التجارية نفسها التي يتمتع بها نظراؤهم العرب البرازيليون.

من جهة أخرى ذكرت المديرة التنفيذية لشركة تصنيع مستحضرات التجميل دانييلا، التي سبقت الإشارة إليها أيضاً، والتي شاركت في البعثة التجارية نفسها إلى الخليج العربي، أنّها كانت مهيأة «لكسب ثقة» المدراء التنفيذيين العرب وأنها تزودت بفراشي شعر كُتب على مقابضها بالعربية «من أجل طفلك»، معربةً عن إعجابها بحيلتها التجارية في التعامل مع الثقافات المتعددة، التي تحققت بمساعدة في الترجمة من جانب الغرفة التجارية العربية البرازيلية. أضافت دانييلا: «أعمل على الإحاطة بثقافتهم». لكنّ ذلك لم يحلّ دون مواجهتها صعوبة في التعامل المهني مع المدراء التنفيذيين العرب، فعلّقت على تجاربها مع «العرب» قبل البعثة التجارية وبعدها بالقول:

«سمعنا الكثير عن سعة إطلاع العرب على طرائق مزاولة التجارة. أنت تطلب خصم السعر، لكنّ العربي يصرّ على الرفض. فهو لا يريد الإذعان. يقول الناس «سيأخذ العرب منك كلّ ما في استطاعتهم أخذه». يمكنك في شارع ٢٥ دي ماركو سماع عبارة مثل هذه: «سيدتي، سأبيعك هذا الغرض بسعر بخس! أنا أبيعه بسعر متدنٍ يا سيدتي [يقول سنيورا (سيدتي) بلكنة عربية قابضاً يده]». لكنني عندما رأيت حسن الضيافة في العربية السعودية، ومآدب الغداء، والسيارات التي تنتظرك في المطار، والثياب التي يرتدونها... يتضح لك أمر آخر. الضيافة من سمات العرب... لكن التعامل التجاري معهم صعب مع حسن ضيافتهم».

واجهت دانييلا صعوبات في إبرام الصفقات مع المدراء التنفيذيين العرب، ممن حضروا المعارض التجارية التي أقامتها الغرفة التجارية العربية البرازيلية في

الشرق الأوسط، على الرغم من حسن ضيافتهم. لكنّها أكدت أنّها استمتعت برحلتها على الرغم من عدم إبرامها صفقات، وعلمت أن الشرق الأوسطيين يُشتهرون «بحسن الضيافة» لا «بعملهم الجادّ» فقط.

في أواخر تسعينيات القرن الماضي، لم يكن أدواردو ودانييلا سوى اثنين من عدة آلاف من رجال الأعمال البرازيليين الذين شاركوا في الحلقات الدراسية التي عقدتها الغرفة التجارية العربية البرازيلية عن سبل التصدير إلى الشرق الأوسط. وعقب عودتهما من بعثة تجارية استغرقت عشرة أيام في عدد من دول الخليج العربية، دُهشا لعِظم الأرباح التي تدرّها الصفقات التجارية(٦٠) وهما على منوال المشاركين الستة الآخرين الذين أجريتُ مقابلات معهم، أعربا عن إعجابهما «بدور» الغرفة التجارية العربية البرازيلية في هذه الجولة التجارية، مستفيدَين على الخصوص من توزيع الغرفة كتيّباً عن آداب التعامل يشرح «المستحبّات والمحظورات» الثقافية، ومن تنظيمها معارض تجارية «شرّعت الأبواب» أمام المدراء التنفيذيين البرازيليين للاجتماع بالمستوردين العرب و«التعامل» معهم(٦١) شرح أدواردو ذلك بقوله:

«حين تسافر إلى دولة ما من المهم أن تعرف شخصاً يفتح لك الأبواب. وهذا هو الدور الذي تؤديه الغرفة [العربية]. فهي تقيم علاقات بهذه الدول كونها جزءاً من مجتمعها. . . لذلك فهي قادرة على فتح قنوات الاتصال وتيسير المعاملات التجارية. . . إنّها عميل مهم يوفر قناة الاتصال بين البرازيل والمجتمع العربي».

---

(٦٠) منذ عام ١٩٩٨، ترأست غرفة التجارة العربية البرازيلية نحو عشر من هذه البعثات إلى منطقتي الخليج العربي وشمال أفريقيا. ويقال إن هذه «البعثات التجارية» التي شاركت في رعايتها وكالة الترويج للصادرات التابعة لوزارة العلاقات الخارجية بدءاً من عام ٢٠٠٠ «تتيح للمدير التنفيذي الفرصة للاجتماع مباشرة بشاري المنتجات و/أو موزّعها. وتتولّى الغرفة التجارية اللبنانية البرازيلية أمر المسائل اللوجستية نيابة عنك وعن مؤسستك». يُعتنى بالمسائل اللوجستية للبعثات التجارية بالتعاون مع غرف تجارة عربية تابعة لها ومع السفارات البرازيلية. من خلال نشر إعلانات في المجلات والصحف المحلية، فضلاً عن توزيع كتيبات تصف الشركات البرازيلية، تعمل الغرفة التجارية العربية البرازيلية على ضمان مشاركة المدراء العرب في عدد من «الشؤون التجارية» وفي المناسبات الأخرى ذات الصلة.

(٦١) هناك أعراف وعادات كثيرة «ينبغي أخذها في الحسبان» بحسب الكتيّب الصادر عن الغرفة التجارية العربية البرازيلية عند التفاوض على صفقات تجارية مع مدراء عرب. على سبيل المثال، لا ينبغي إظهار أسفل الحذاء لأنه إساءة وقحة في منطقة الخليج. ولا ينبغي بالمثل استعمال اليد اليسرى لأنها تُعد ملوَّثة. ونتيجة لمشاركة سيدات في البعثة، يتعين عليهنّ وضع غطاء على رؤوسهن في الأماكن العامة طوال الوقت.

وصف المدراء التنفيذيون البرازيليون الغرفةَ التجارية العربية البرازيلية بأنها «مشرّعةُ أبوابٍ» الأسواق العربية. وبعدما وفّرت «قناةَ اتصال» بين البرازيل والشرق الأوسط، أشاد المصدّرون البرازيليون بها «لدورها» كشريك لا ككيان منبوذ.

تحدّث لويز فورلان، رئيس «ساديا» الذي طلبت شركته بالمثل معونة الغرفة في عمليات تصدير مشتقات الدواجن الناجحة إلى الشرق الأوسط، عن الوضع الحالي للاقتصاد الوطني ومكانة الغرفة فيه:

«لطالما كان الاقتصاد البرازيلي اقتصاداً منغلقاً جداً... وكان [التصدير] في منتهى الصعوبة؛ فهو كان علماً بحدّ ذاته. ومع انفتاح الاقتصاد الآن، حدث تجديد لأدوار الغرف التجارية، فنشط عدد من هذه الغرف بقوة، والغرفة العربية من أكثرها نشاطاً، وهي جمعت بين المدراء التنفيذيين في عدد من القطاعات، وآزرت إرسال بعثات تجارية إلى الخارج في الوقت عينه... إنّه لعمل مثير للإعجاب ذلك الذي قامت به الغرفة العربية في السنين الأخيرة ولا تزال، من حيث توحيد مصالح الجميع، لكنّها تتبنّى موقفاً ميالاً إلى البرازيل في الوقت نفسه».

مع فتح اقتصاد كان مغلقاً يوماً، تطلّعت النخب التجارية إلى الغرف التجارية «الدولية» «لتيسير» تصدير البضائع الوطنية إلى الخارج. وكما ذكر مدير تنفيذي مرموق، لا تزال الغرفة التجارية العربية البرازيلية من أكثر تلك الغرف «إثارة للإعجاب».

ومع التوسع نحو أطراف الخليج شرق الوطن العربي، حظيت إثنية مدراء الغرفة التجارية العربية البرازيلية التي ازدادت بروزاً باعتراف المسؤولين الحكوميين أيضاً. على سبيل المثال، أقيم عام ٢٠٠١ حفل عشاء في الذكرى السنوية الخامسة عشرة للغرفة حضره الرئيس كاردوسو وشكر الغرفة فيه على الدور الذي تضطلع به في «الصادرات البرازيلية التي تتزايد باستمرار»[٦٢]. بنبرة صادقة قال الرئيس:

«حدثت طفرة كبيرة في تجارة البرازيل مع العالم العربي. وحكومتي ترى

(٦٢) «Câmara Árabe comemora seu cinquentenário,» *Câmara Árabe Notícias*, vol. 2, no. 7 (2002), p. 3.

في تلك الجالية حليفاً مهماً بل حليفاً لا يمكن الاستغناء عنه في زيادة صادراتنا وتنويعها. . . يتوجب عليّ القول إننا ندين بالشكر للجهود التي تبذلها الغرفة التجارية العربية البرازيلية والجالية العربية. ولا يبقى لي سوى شكر الغرفة مرة أخرى، والجالية العربية من خلال وساطتها، على كلّ ما يفعلونه لرفع اسم البرازيل عالياً»[٦٣].

بعدما كان يُحَطّ من شأن «العرب»، والغرفة التجارية العربية البرازيلية و«الجالية العربية» ضمناً، بوصفهم منبوذين، فهم باتوا يُعدُّون الآن «حليفاً لا يمكن الاستغناء عنه» للدولة والأمة البرازيلية.

وبالمثل، أشادت دورثيا ورنيك مديرة أبيكس، بالغرفة لدورها «القيادي» في أوساط المدراء التنفيذيين البرازيليين[٦٤] قالت بكثير من الإطناب: «كان مشروع الغرفة العربية ناجحاً لقدرتها على تعبئة مدراء تنفيذيين من قطاعات شديدة التباعد لا للنتائج الملموسة التي حققتها على صعيد زيادة الصادرات وحسب بعدما فاقت نسبتها ٥٠ في المئة هذا العام». حتى إن السكرتير العام للعلاقات الخارجية لدى الرئيس كاردوسو قال: «أنا أعترف بأن أحد أجلّ أعمال الغرفة التجارية العربية البرازيلية تبنّيها موقفاً رائداً يقوم على مساندة المصدّرين البرازيليين بطريقة بنّاءة في دخول الأسواق العربية»[٦٥] وبالتالي، حازت الغرفة و«الجالية العربية» في سياق إعادة الهيكلية الليبرالية الجديدة للاقتصاد الوطني اعترافاً أكبر «كشريك» في البرازيل المعاصرة.

كان الشرق الأوسطيون الذين زُعم امتلاكهم قدرة فطرية على المساومة محلّ تحقير أو تشكيك في البرازيل منذ أواخر القرن التاسع عشر. ولا تزال آراء الناس بالمستوردين من أصل سوري أو لبناني في منطقة ٢٥ دي ماركو مختلطة إلى اليوم حيال إجلال النخب البرازيلية وغيرها لهم. لكنّ تمايز الغرفة التجارية العربية البرازيلية في المقابل جعلها تحتل مكانة مميّزة. وبعدما كان يُنظر إلى الغرفة في خمسينيات وستينيات القرن العشرين على أنها مؤسسة يشغل فيها

(٦٣) «O Jantar dos 50 Anos,» *Chams*, vol. 11, no. 120 (September 2002).

(٦٤) «Bate-Papo com Dorthéa Werneck: Projeto CCAB-APEX e exportações brasileiras,» *Câmara Árabe Notícias*, vol. 1, no. 4 (2001), p. 8.

(٦٥) «Discurso do Secretário-Geral das Relações Exteriores, Embaixador Osmar Chohfi,» A Palavra Internacional do Brasil.

أقطابُ صناعة النسيج السوريين واللبنانيين فراغهم، أُعيدت هيكلة الغرفة في أواخر ذلك القرن. كافح مدراؤها الحاليون من أبناء الجيلين الثاني والثالث من المهاجرين السوريين ـ اللبنانيين لمساعدة المدراء التنفيذيين البرازيليين على تصدير منتجاتهم إلى بلدان الخليج العربي وشمال أفريقيا. بناء على ذلك، حاز مروّجو الصادرات الجدد من أصل سوري ـ لبناني اعترافاً أكبر كشركاء حقيقيين للنخب البرازيلية، لا بسبب ميولهم التجارية المزعومة، بل لمزيّتهم المتصوَّرة في تصدير المنتجات الوطنية.

أشرت في هذا الفصل إلى أن التحول الذي لا جدال فيه (وإن لم يكن قطعياً ولا نهائياً) في العلاقات الهرمية بين الإثنية العربية والأمة البرازيلية بدأ في سبعينيات القرن الماضي مع التحرر الجديد للاقتصاد الوطني المتصوَّر والانفتاح الاقتصادي الرسمي عام ١٩٩١. خلال تلك الحقبة، بات يُنظر إلى التصدير على أنّه رافد للتنمية في البرازيل وسند لأجندتها الوطنية في العالم المعولم. وبموجب هذا التحول الفكري، تحالفت النخب الحكومية والوطنية البرازيلية مع الإثنيات العربية «الحاذقة» على أن تكون الطليعة في تصدير المنتجات البرازيلية ليس إلى سورية ولبنان وحسب، بل إلى الأسواق التي تدرّ أرباحاً أعظم في الخليج العربي وشمال أفريقيا.

الفصل الثاني

الإثنيات والأخلاق
وشفافية الإصلاح في الدولة

تصدّر الحديث عن مهارة العرب المزعومة عناوين الأخبار أيضاً في فضيحة فساد لطخت سمعة بلدية ساو باولو عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٠. فبعدما علت أصوات المواطنين العاديين، والدوائر المهنية والإعلامية للمطالبة بحوكمة «أكثر شفافية»، أضحى أعضاء مجلس بلدية المدينة المنحدرون من الشرق الأوسط نموذج الفساد في التحقيقات الصحافية لوسائل الإعلام الشعبية. وفي مسعى لإبراز صورة مغايرة لصورتهم كأبناء إثنيات فاسدة، احتفل أعضاء مجلس بلدية المدينة الشرق الأوسطيون مرّة ثانية بالذكرى السنوية لاستقلال لبنان في مبنى مجلس بلدية ساو باولو. عبّر هؤلاء السياسيون المطالبون بتحقيق العدالة في الشرق الأوسط عن الوجه الحقيقي للإثنية العربية في حكومة برازيلية تخضع اليوم لعملية إصلاحية شفافة.

يركّز هذا الفصل، الذي يستطلع البُعد الأخلاقي للمشروع الإثني العربي، على السياسيين وعلى كبار الإعلاميين، وعلى الأشخاص العاديين من أصل شرق أوسطي في سياق فضيحة الفساد التي تورّط فيها مجلس بلدية ساو باولو. غرضي هو فهم طريقة تزايد بروز الإثنية العربية في صور الفساد التي نقلتها وسائل الإعلام البرازيلية وفي الطرح الأخلاقي للبنك الدولي. وفي سياق تبيان طريقة اتهام وسائل الإعلام الوطنية السياسيين من أصول شرق أوسطية بالفساد، حاججتُ بأنهم استغلوا مناسبة الاحتفال باستقلال لبنان في كسب اعتراف أخلاقي لوجودهم بوصفهم أبناء إثنية عربية يتعاطون الشأن العام.

أكدتْ هذه المناسبة، التي خدمت كمنبر لإطلاق التصريحات الأخلاقية، على مساءلة أبناء الإثنية العربية في البرازيل ضمن إطار برنامج لمكافحة الفساد رعاه البنك الدولي.

يمكن فهم هذه العناصر الرئيسيّة للانتساب الإثني على الوجه الأمثل من خلال ما يصفه أخيل غبطة بالدولة المتصوَّرة(١).

في سياق استكشاف طريقة تشكّل الدولة من خلال البيانات التي تذيعها وسائل الإعلام وممارسات الموظفين من أصحاب الرتب المتدنّية والقرويين، يجادل غبطة «بأنه يتبين أن الحديث عن الفساد يصبح ساحة أساسية يمكن من خلالها تصور الدولة والمواطنين والمنظمات الأخرى». ويضيف: «عوضاً من معالجة الفساد كونه أحد أوجه الاختلال الوظيفي في المؤسسات العامة، أرى أنّها آلية تتكون الدولة من خلالها بطريقة غير مباشرة»(٢). وبعيداً عن إلغاء سلطة الدولة، تمثّل وسائلُ الإعلام والتعليقات العامة التي تتناول الفساد الوجودَ المنطقي لهذه السلطة في الحياة العامة. وبغرض مناقشة هذا الأمر، نقترح في هذا الفصل طريقة بلاغية لتصوّر الدولة: الشفافية. وكما أشار تود ساندرز وهاري ويست، حازت الشفافية رواجاً عالمياً في أوساط المنظمات الدولية(٣)، والحكومات، والجماعات الإعلامية. في هذه البيئة، يمكن للدولة التي كانت تستحوذ على السلطة على مرّ التاريخ، بإقناعها الأفراد «برؤية» كيف أنّها حسّنت أحوالهم(٤)، أن تحقق ذلك الآن بادّعاء إمكان «سبْرها» من جانب طائفة من الجهات والكيانات العالمية فقط. تتحدى المطالبة بالشفافية ومزاعم توافرها التي يُعبَّر عنها من خلال الحديث عن الفساد، سلطةَ الدولة اليوم وتعيد تشكيلها.

ومع أن الشكوك في وجود فساد والتصريحات التي تتحدث عن الشفافية

---

(١) Akhil Gupta, «Blurred Boundaries: The Discourse of Corruption, the Culture of Politics, and the Imagined State,» *American Ethnologist*, vol. 22, no. 2 (1995), pp. 375-402, and Akhil Gupta and James Ferguson, eds., *Anthropological Locations: Boundaries and Grounds of a Field Science* (Berkeley, CA: University of California Press, 1997).

(٢) Gupta, Ibid., p. 376.

(٣) Todd Sanders and Harry G. West, «Power Revealed and Concealed in the New World Order,» in: Harry G. West and Todd Sanders, eds., *Transparency and Conspiracy: Ethnographies of Suspicion in the New World Order* (Durham, NC: Duke University Press, 2003), pp. 1-35.

(٤) James Scott, *Seeing Like a State: How Certain Schemes to Improve the Human Condition Have Failed* (New Haven, CT: Yale University Press, 1998).

ليست بأمر جديد في البرازيل، فقد بات تصويرها الرمزي أكثر بروزاً في الدولة المتصوَّرة في أواخر القرن العشرين. وقد أدّت وسائل الإعلام، التي دخلت عهداً جديداً مع الانفتاح الديمقراطي في البلاد في ثمانينيات القرن الماضي، ولا سيّما الصحف وشبكات التلفزة، دوراً مهماً في نقل الحملات الانتخابية وزيادة الوعي السياسي وهجاء الحكومة(٥). كما أدّت وسائل الإعلام دوراً حاسماً بتغطيتها الشراكة بين البنك الدولي وحكومة مدينة ساو باولوا «لأكثر شفافية» في الظاهر، بإبراز الخطوط الكفافية الحالية للدولة البرازيلية المتصوَّرة. وعلى نحو غير مبرمج أو منظم، يجري الطعن بالدولة بواسطة مطالب الشفافية ويعاد تكوينها من خلالها.

على أن التساؤل في هذا الفصل عن «المعنى الحقيقي للشفافية» على حدّ تعبير ساندرز وويست يعني طرح هذين السؤالين: «ما الذي يمكن زعمه في النهاية حين تُوصف ممارسة السلطة بأنها شفافة؟ وماذا يُستشَف من الشفافية، وبالتالي ما هو الأمر الذي تكشفه؟»(٦). شهدت النخبُ، التي «ترى من خلال» التلفزيون أو الصحف، على بلوغ الفساد مستويات غير مسبوقة. رأى اليساريون أنّ ذلك هو حصيلة الليبرالية الجديدة المتسرّعة في البلاد. لكنّ المحافظين رأوا فيه دليلاً على فاعلية الإصلاح النيوليبرالي هذا. وعلى الرغم من وجهتي النظر المتعارضتين هاتين، «يرى» الجانبان أن «كشف» الفساد يجعل الدولة «أكثر شفافية». لكننا سنبين في هذا الفصل أن الشرق الأوسطيين حُسبوا فاسدين دون غيرهم في هذه الشفافية. وباستخدام خطاب البنك الدولي، سعى المسؤولون لزيادة شفافية الدولة لكنهم احتاجوا إلى تغيير مسار الاتهامات باستشراء الفساد. وبعدما أدى التشويش على منطق السلطة الغرض منه، أظهر مصطلحُ الفساد الطابعَ العربي المزعوم للفساد في الحياة العامة.

وبالتالي، تُظهر هذه الحادثة أن تمتع البرازيليين من أصول شرق أوسطية

---

(٥) Marcos Otavio Bezerra, *Corrupção: Um estudo sobre poder público e relações pessoais no Brasil* (Rio de Janeiro: Reiume-Dumara, 1995); Jose Eduardo Cardozo, *A mafia das propinas: Investigando a corrupção em São Paulo* (Sao Paulo: Editora Fundacao Perseu Abramo, 2000), and Chico de Gois, *Segredos da máfia: Os bastidores do escandalo que abalou sao Paulo* (São Paulo: Publisher Brasil, 2000).

(٦) Todd Sanders and Harry G. West, «Power Revealed and Concealed in the New World Orderm» in: Harry G. West and Todd Sanders, eds., *Transparency and Conspiracy: Ethnographies of Suspicion in the New World Order* (Durham, NC: Duke University Press, 2003), pp. 1-35.

ببروز متزايد لا ينفي وجود حدود لمزاعمهم التي يسوقونها من خلال التحوّل في العلاقات الهرمية بين الإثنية والدولة القومية. لكنّ تحمّل أعضاء مجلس البلدية من أصل لبناني عبءَ المساءلة الأخلاقية الأكبر لم يحملهم على التستّر على إثنيتهم بل تولّوا في المقابل مسؤولية تنظيم مجلس البلدية احتفالاً بذكرى استقلال لبنان. وأصبحت هذه المناسبة، كغيرها من المناسبات الخاصة بجوالٍ إثنية معيّنة، مقنّنة في إدارة مجلس بلدية ساو باولو. في الواقع، ترعى أمانة سرّ العلاقات الدولية في بلدية ساو باولو، التي أسستها رئيسةُ مجلس البلدية مارتا سبليسي عام ٢٠٠٠، المناسبات الرسمية للجوالي في المدينة لا العلاقات بالمؤسسات الدولية مثل البنك الدولي فقط. ومع أن المناسبات ذات الطابع الشرق الأوسطي تمثّل جزءاً من كثافة الحضور الإثني في مجلس بلدية المدينة، فهي تخدم في صرف الريبة بوجود فساد بعيداً من الدولة المتصوّرة.

أولاً: الصلات السياسية السابقة وأزمة الفساد الحالية

بعد تخرّج أبناء وأحفاد تجار سوريين ـ لبنانيين متواضعين من معاهد تعليمية محترمة بعد المرحلة الثانوية بدءاً بثلاثينيات القرن الماضي، غدوا في وضع مناسب لشغل الفراغ السياسي الذي نشأ بعد نظام الجمهورية الثانية بقيادة الرئيس البرازيلي غيتيوليو فارغاس. وقد ساعدت المرحلة التي وُصفت بأنها «تجربة ديمقراطية»(٧) في السنين التي تلت تنحيّ الرئيس، على إشراك المهاجرين وأبنائهم في غمرة تهميش «النخب السياسية التقليدية»(٨). وجد أوزوالدو تروزّي أن «واحداً وأربعين سياسياً متميّزاً من أصل سوري ـ لبناني» من ساو باولو شغلوا مناصب على مستوى البلدية، والولاية، والفدرالية بين عامي ١٩٤٥ و١٩٦٦(٩). والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن السوريين ـ اللبنانيين استحوذوا بين عامي ١٩٦٢ و١٩٦٦ على ١٠ في المئة من العدد الإجمالي للنواب المنتخبين في ساو باولو على مستوى الولاية وعلى ١٧ في المئة من عدد النواب على المستوى

(٧) Thomas Skidmore, *Politics in Brazil, 1930-1964: An Experiment in Democracy* (New York: Oxford University Press, 1967).

(٨) Boris Fausto [et al.], *Imigração e politica em sao Paulo* (São Paulo: Editor IDESP/Sumaré, 1995), p. 26.

(٩) Oswaldo Truzzi, «Sirios e libaneses em São Paulo: A anatomia da sobre-representacao,» in: Boris Fausto, ed., *Imigração e politica em Sao Paulo* (São Paulo: Editora IDESP/Sumare, 1995), pp. 27-69.

الفدرالي[10]. وقد استمرّ هذا «التمثيل الزائد» للشرق الأوسطيين في الحلبة السياسية في أواسط القرن طوال حقبة الحكم العسكري التي امتدت عقدين وبعد العودة إلى الحكم الديمقراطي في البرازيل في أواخر القرن العشرين[11].

جاء النجاح الانتخابي المبكر لبعض الوجوه ثمرة مسار مهني ليبرالي (كما سيأتي بيانه في الفصل الثالث). فقد حصل السوريون ـ اللبنانيون من خرّيجي الجامعات على مناصب في الحكومة من خلال مهن المحاماة أو الطبّ أو الإعلام. مثّل المحامون أو المذيعون الإعلاميون أو الأطباء ثلثي الشخصيات العربية الواحدة الأربعين التي انتُخبت وأعيد انتخابها لشغل مناصب على مستوى كل من المدينة والولاية والاتحاد الفدرالي في ساو باولو بين عامي ١٩٤٥ و١٩٦٤[12]. على سبيل المثال، انتُخب أنيس حيدر لتولّي مناصب على مستوى المدينة وعلى مستوى الولاية بين عامي ١٩٤٠ و١٩٥٢، ويسود الاعتقاد أنّه «انتُخب في الأساس لكونه محامياً» لجمعية صيدلية[13]. وبالمثل، ضمن نيكولاو توما، الذي انتُخب لشغل مناصب متنوعة بين عامي ١٩٤٧ و١٩٦٨، حياةً سياسية مديدة لعمله سابقاً مذيعاً رياضياً في محطة راديو ريكورد طوال ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي[14]. وعبر الانخراط في المهن الحرّة،

---

(١٠) المصدر نفسه، ص ٩٥، اللافت للنظر أن الحضور العربي المهمّ في الحلبة السياسية البرازيلية في أواسط القرن العشرين أشار إليه من جديد خبير سياسي بعد نحو خمسين سنة في صحيفة فولها دي ساو باولو، إذ أشار ريكاردو ريسوبيرو عام ١٩٩٩ إلى أنه «سمع» عام ١٩٦١ أو ١٩٦٢ «الراحل إميليو كارلوس [كريبلوس، وهو سياسي سوري لبناني] يتحدّث عن وجود أكثر من خمسين عضواً في ما سمّاه «كتلة الجمهورية العربية المتحدة» في المجلس الوطني [البرازيلي]». انظر: Ricardo Ricupero, «Patrícios, mascates, e deputados,» *Folha de S. Paulo* (29 August 1999).

وبامتداح الصعود السياسي للريفيين السوريين ـ اللبنانيين، جاءت تعليقات ريسوبيرو في الوقت المناسب لأنه في اليوم نفسه نشرت الصحيفة مقالات عن «مافيا» مرتبطة في أذهان الشعب بالعرب، انظر: Otavio Cabral, «Escândalos perseguem vereadores pela cidade;» «Vereadores paulistanos sao vistos com desconfianca apos escandalos,» and «Desgaste nao evita nova candidature,» *Folha de S. Paulo* (29 August 1999).

وبعد أن ذاع صيت العرب بالذكاء الاقتصادي في البرازيل في مستهل القرن العشرين، اقترنت هذه السمعة بالفساد السياسي في أواخر تسعينيات ذلك القرن.

(١١) يشهد عدد من الأشخاص بالميول اليمينية السائدة في أوساط الجالية. لكن تبيّن لي أن لدى السياسيين السوريين-اللبنانيين أتباعاً متنوعين في معسكري اليمين واليسار، مع أن الظاهر أن العناصر اليمينية هي الأكثر نجاحاً في حشد دعم الجالية الانتخابي والمالي. انظر: Truzzi, Ibid., p. 95.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(١٣) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٣٩.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٣٦-٣٨.

تمتعت الإثنيات في أواسط القرن بحضور تاريخي في السياسة على مستوى البلدي والولاية والاتحاد الفدرالي.

بهذه الطريقة، بدأ أنطونيو سليم خرياطي ـ النائب عن ولاية ساو باولو ـ حياته العامة في ستينيات القرن الماضي. أدار في البداية عيادة طبّية صغيرة متخصصة في أمراض الأنف والأذن والحنجرة في بلدة ريفية في ساو باولو. وحكى نجل السياسي الشهير (سيئ السمعة)، وهو أيضاً عضو في مجلس بلدية ساو باولو حالياً، أن والده:

«كان الطبيبَ الوحيد المتخصص في الأنف والأذن والحنجرة في المنطقة بأسرها. اهتم بالجميع بدءاً بصاحب أكبر مزرعة في المنطقة وانتهاءً بأفقر مزارعيها. كان يردد القول إنه حاز النجاح لقيامه بأعمال خيّرة في حياته رجاء «ثواب الله». وحين يقول الناس [الفقراء]: «أيها الطبيب، لا يمكننا سداد أتعابك». [كان يجيب]: «لا بأس». [وكانوا يجيبونه]: »سيثيبك الله على ما صنعت». وبما أنّه سمع الكثير من دعاء «سيثيبك الله على ما صنعت» فقد عاش عمراً طويلاً وكان الطبيب الوحيد هناك. حقاً. كان الجميع يستشيرونه وكان يعالج الجميع».

بعدما أسدى خرياطي خدمات متنوعة إلى خواص الناس وعامتهم بوصفه راعياً اجتماعياً في مجال الطبّ، سنحت له فرصة سياسية كبيرة في مطلع ستينيات القرن الماضي حين طُلب إليه حشد الدعم لمرشّح في الانتخابات النيابية على المستوى الفدرالي، تمكن هذا الطبيب اللبناني من تأمين عدد لا يقل عن ألفي صوت. وخلال العقد نفسه، قرّر خرياطي تنظيم حملته الانتخابية الخاصة لنيل مقعد في مجلس النواب بالولاية، ولم ينظر إلى الوراء بعد ذلك. وطوال مسيرته السياسية التي امتدت ثلاثين عاماً، تحولت ديونه الطبّية المجازية التي كانت له في ذمة الناس إلى رصيد سياسي. واليوم، استفاد ابنه من هذا النفوذ الاجتماعي في نيل مقعد في مجلس بلدية ساو باولو.

يُظهر اللبنانيُّ من الجيل الثاني باولو سليم معلوف، وهو أسوأ أبناء الريف سمعة في السياسة البرازيلية، مساراً مماثلاً. وُلد في ساو باولو من أب لبناني مهاجر وأمّ من أسرة لبنانية ثرية أخرى. تلقّى تعليمه في كلّية ساو لويس وحصل في وقت لاحق على شهادته في الهندسة المدنية من جامعة ساو باولو. يذكر الصحافي موريسيو بولز في كتابه **المعلوفية** أن معلوف أمّن نفوذاً سياسياً

من خلال صداقة حميمة جمعته بالجنرال كوستا أي سيلفا في نوادي سباق الخيل في خمسينيات القرن الماضي. عيّن الجنرال كوستا أي سيلفا بوصفه رئيس الولاية في السنوات الأولى للدكتاتورية (١٩٦٧ ـ ١٩٧٩) معلوفَ الشاب رئيساً لبلدية ساو باولو. وفي السنين الثلاثين التالية، شرع معلوف في الاضطلاع بعمله كسياسي واسع الحيلة، أو داهية على حدّ قول البعض. حاز سمعة سيئة بوجه خاص أثناء السباق إلى منصب حاكمية ساو باولو عام ١٩٧٨. في ذلك الحين، تجاهله الرئيس الجنرال إرنستو غيزيل (١٩٧٦ ـ ١٩٨٠) واختار مرشّح «أرينا»، الحزب السياسي للنظام الدكتاتوري. وفي هذه الأثناء، زار معلوف شخصياً أغلب مندوبي الحزب أرينا الثمانمئة المخوَّلين اختيار مرشّح الحزب. و«في يوم انعقاد المؤتمر»، يضيف الصحافي بولز، «رحّب معلوف بجميع مندوبي أرينا كلّ باسمه... كان يعرف أسماء مدنهم وزوجاتهم وأولادهم» أيضاً[١٥]. وفي أواخر عام ١٩٧٨، انتخبت الجمعيةُ التشريعية في ساو باولو معلوف حاكماً. وكما فعل معلوف، ضمن العرب نجاحهم بإقامة صلات سياسية مع النظام الاستبدادي في البرازيل.

ومع ذلك، حصل معلوف على كثير من الدعم في أوساط من يوافقه شعبويته المعلوفية. فمنتقدوه وأتباعه على حدّ سواء يقولون إن معلوف يسرق لكنّه يُنجز ما ينبغي إنجازه. ويشير بولز إلى أن معلوف واصل شعبوية أديمار دي باروس، وهو شخصية بارزة في أول عملية لإعادة الديمقراطية إلى البلاد (١٩٤٥ ـ ١٩٦٤). صيغت عبارة يسرق لكنه يُنجز ما ينبغي إنجازه في الأصل للإشارة إلى باروس، ولا سيّما في نزاعه مع جانيو كوادروس على حاكمية ساو باولو عام ١٩٥٤. وبينما تميّز باروس بالشعار «يسرق لكنّه يُنجز ما ينبغي إنجازه»، فاز كوادروس في الانتخابات بعدما وعد بإزالة الفساد[١٦]. من زاوية تاريخية، ورث معلوف صورةَ السياسي الماكر عن الأديمارية، أي الشعبوية التي اعتمدها أديمار دي باروس.

اكتسبت هذه القوى المؤثرة السابقة عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٠ قوة مبتكرة في

---

(١٥) Mauricio Puls, *Folha Explica: O Malufismo* (São Paulo: Folha de São Paulo, 2000), pp. 33.

(١٦) كان شعار حملة جانيو كوادروس مكنسة صغيرة، وكان يُقصد بها أنه سيستعملها «الكنس» الفساد الذي يُفترض أنه متفشّ في المؤسسة السياسية في ساو باولو. ومع أن كوادروس فاز في الانتخابات وأتمّ ولايته، فقد جُرّد من حقوقه السياسية غداة وصول العسكريين إلى الحكم عام ١٩٦٤.

ما يسمّى مافيا السمسرات التي تورّطت فيها حكومات سابقة وحاليّة لمدينة ساو باولو. ففي مقابل الانقياد التشريعي لرئيس البلدية، مُنح أعضاء مجلس البلدية صلاحية تعيين مدراء الوحدات الفرعية الإدارية المحلية التابعة للبلدية (التي تسمى الإدارات الإقليمية). وتبيّن في الحالات التي جرى التحقيق فيها أن محاسيب مختارين قدّموا رُشى إلى ناخبيهم عبر تجاوز قوانين أو تقديم خدمات حكومية. أعيدت السمسرات التي جُمعت من جماعات مختلفة ـ وخصوصاً من الباعة المتجولين في الشوارع والمؤسسات التجارية ـ إلى أعضاء مجلس البلدية الذين صوّتوا لمقترحات رئيس البلدية والمؤسسة اليمينية(١٧). وقد أتاحت سياسة ردّ الجميل هذه لرئيس البلدية الحصول على أغلبية في مجلسها وأتاحت لأعضائه آلية إدارية لحشد الدعم الانتخابي وطرح المصالح الذاتية على الجماهير الناخبة. وبعد ضمان النجاح السياسي، مالت الصحافة على نحو متزايد إلى وصف تقنين الصلات الشخصية هذا بـ «الفساد».

ذاع الحديث عن مافيا السمسرات حين فضح أحدُ الباعة في الشوارع سياسياً برازيلياً لبنانياً معروفاً في مطلع عام ١٩٩٩ لتتحول القصة بعد ذلك إلى دراما ممارسة الحكم في المقالات الصحافية وفي التقارير التلفزيونية طوال عام ٢٠٠٠. وفي سياق التأثير في وحدة «سي» الإدارية البلدية وسط مدينة ساو باولو (إدارة سي الإقليمية)، زُعم أن حنّا غريب العضو في مجلس البلدية (من الحزب التقدّمي البرازيلي PPB) أمر باغتيال هذا البائع الذي كال له هذه الاتهامات المدمّرة. كان هناك الكثير من القضايا التي تُؤرق غريب، منها أنّه أرغم الباعة المتجولين في الشوارع على دفع رُشى مقابل السماح لهم باتخاذ أماكن ثابتة على الأرصفة وفي الشوارع من دون صفة قانونية. ومن دواعي السخرية أن غريب حصل على مبالغ مالية من مؤسسات تجارية لإبعاد الباعة المنتشرين في الشوارع من المنطقة. حصل غريب وأعضاء آخرون في مجلس البلدية على ملايين الدولارات بموجب مخطط الابتزاز هذا، لكنّ المؤسسة

---

(١٧) على حدّ تعبير كبير المحققين في مجلس البلدية، أتاحت مافيا السمسرات لأعضاء المجلس «اقتراح اسم وكيل سياسي طامح للمنصب في مقابل تولي مسؤولية «دعم» رئيس البلدية، و«الموافقة» على مشاريع القوانين التي تُطرّح على [الهيئة] التشريعية»، انظر: Jose Eduardo Cardozo, *A máfia das propinas: Investigando a corrupção em São Paulo* (Sao Paulo: Editora Fundacao Perseu Abramo, 2000), p. 34.

المثير في الأمر أن كاردوزو حصل على أغلب الأصوات من بين سائر مرشحي البلدية في الانتخابات البلدية سنة ٢٠٠٠. وأصبح نائباً فدرالياً منذ ذلك الحين (بعد فوزه في جولة الانتخابات عام ٢٠٠٢).

اليمينية أوقفت التحقيقات وسمحت بإدانة ثلاثة أعضاء في مجلس البلدية فقط هم فيسنتي فيسكومي وخوسي إزار وحنّا غريب. ولم تُلصَق تهمة الفساد على أساس إثني إلا بإزار وغريب في العناوين الرئيسيّة لشبكات الإعلام.

ظلّت الشكوك في تدبير مكائد تخالف الأصول المرعية في مجلس البلدية تؤرق أعضاء الحزب التقدّمي البرازيلي. في الواقع، انتمى إلى هذا الحزب ثمانية عشر عضواً من أعضاء مجلس البلدية الثلاثين الذين ساندوا رئيس المجلس في مقابل السيطرة على الوحدات الإدارية التابعة للمجلس. حتّى إن «العرّاب» باولو معلوف تورّط حين أصابت تهمُ الفساد خليفتَه الذي اختاره بنفسه، رئيس البلدية سيلسو بيتا (١٩٩٧ ـ ٢٠٠٠). وبوصف بيتا ابن معلوف في العماد السياسي في وقت من الأوقات، فقد انتُخب عام ١٩٩٦ بدعم من معلوف[١٨]. يومها تعهد العرّابُ السياسي في الحزب التقدّمي البرازيلي عبر الصحف ومحطات التلفزة والمحطات الإذاعية: «إذا لم يكن بيتا رئيس بلدية جيداً، فلا تنتخبوني بعد الآن». لكنّ الالتماسات الرسمية التي طالبت بمواصلة التحقيقات الرسمية مع أعضاء مكتب رئيس البلدية (وتوبيخ بيتا)، قوبلت بالرفض بضغط من الحرس القديم اليميني في غرف مجلس البلدية.

غير أن نجاح القوى الموالية للمؤسسة الرسمية لم يزد التغطية الإعلامية إلا قوة. وبعد إقفال سابق لأوانه للتحقيقات الرسمية، وزّعت المحطات الإذاعية أوراقاً لاصقة كُتب عليها «ساو باولو لا تستحقّ أعضاء فاسدين في مجلس بلديتها»، و«أنا خجول من أعضاء مجلس بلدية ساو باولو». وبالمثل، لفتت مجلّة **فولها دي ساو باولو** الانتباه إلى اسم كلّ عضو في مجلس البلدية وإلى انتمائه السياسي وسجله التشريعي ممن صوّتوا ضدّ التحقيقات الأخلاقية وجلسات المحاكمة[١٩]. كما ربطت تقارير إخبارية أخرى أزمة حكومة مدينة

---

(١٨) أدلت ريبكا رايخمان بتعليق مقتضب على مساندة باولو معلوف لسيلسو بيتا، أوّل رئيس بلدية أسود لساو باولو. دعني أضيف أن الصحافة والشخصيات الكرتونية السياسية تهجو معلوف التركي كونه «أب» بيتا البرازيلي الأسود. انظر: Rebecca Reichman, ed., *Race in Contemporary Brazil* (University Park: Pennsylvania State University Press, 1999), p. 17.

(١٩) «A intenção de voto para a CPI das regionais,» *Folha de S. Paulo* (9 February 1999); «Quem votou contra a CPI,» *Folha de S. Paulo* (24 February 1999); «Veja como votaram os «mandantes» das regionais,» *Folha de S. Paulo* (25 February 1999); «Como devem votar os vereadores na CPI da oposição,» *Folha de S. Paulo* (2 March 1999); «Veja como seu vereador deve votar,» *Folha de S. Paulo* (18 May 1999); «Veja como seu vereador deve votar,» *Folha de S. Paulo* (20 May 1999); «Como votaram =

ساو باولو بـ «تصنيف الفساد العالمي» الصادر عن منظمة الشفافية الدولية غير الحكومية[٢٠]؛ وإذْ تفرّدت مقالة واحدة في الإشارة إلى تحسّن تصنيف البلاد منذ عام ١٩٩٥، فقد حرصت على القول إن «عدم ظهور البرازيل في أسوأ مركز في التصنيف سببه إجراء المسح قبل الفضائح التي هزّت غرف مجلس بلدية ساو باولو»[٢١]. وفي سياق التشهير بصلة أعضاء مجلس المدينة بالفساد ومركز البلاد في تصنيف دولي للفساد، تحدثت الصور التي نشرتها وسائل الإعلام عن حكومة مدينة ساو باولو غير الأخلاقية وطعنت فيها. ومع أن الشكوك في وجود فساد ظهرت سابقاً في التاريخ البرازيلي، فقد ردد المفهومُ العالمي للشفافية صدى هذه الحادثة وضخّم حجمَها.

حظيت اللبنانية من الجيل الثاني في مجلس البلدية مريم عطية بحضور كبير في التغطية الإعلامية لحكومة المدينة. وبوصفها المسؤولة الرئيسيّة في لجنة تحقيق خاصة، فهي مثّلت الصوت الحاسم الذي نجّى بيتا (وعرّابهما السياسي) من تحقيقات مطوّلة. وعقب «الحفظ» السابق لأوانه لإجراء كان سيُتّخذ في حقّ رئيس البلدية، حازت عطية سمعة سيئة كونها متواطئة في الإبقاء على هذا الوضع غير القانوني. وبعدما زعمت عطية عدم كفاية الأدلة لإدانة رئيس البلدية ومجلس المدينة، نعتتْها التغطية الإعلامية بالفساد، حتّى إنّها اعترفت بالقول «إنّها... شعرت كما لو أن مجرماً ختم على جميع الصحف»[٢٢].

وهكذا انسحبت عطية، على غرار عدد من زملائها، من الحزب التقدّمي البرازيلي الذي ينتسب إليه معلوف في أواخر عام ١٩٩٩ وانضمّت إلى حزب الحركة الديمقراطية البرازيلية الذي ينتمي إلى يمين الوسط. نشير أيضاً إلى أن عطية هي التي رعت مناسبة الاحتفال بعيد الاستقلال اللبناني في غرف مجلس بلدية ساو باولو.

= os vereadores de São Paulo,» *Folha de S. Paulo* (21 May 1999); «Como votaram os vereadores de São Paulo,» *Folha de S. Paulo* (27 May 1999); «Como votaram os vereadores de São Paulo,» *Folha de S. Paulo* (28 May 1999); «Os vereadores que enterraram a CPI,» *Folha de S. Paulo* (29 May 1999); «Como votaram os vereadores de São Paulo,» *Folha de S. Paulo* (4 June 1999); «Como votaram os vereadores na prorrogação da CPI por apenas três dias,» *Folha de S. Paulo* (5 June 1999), and «Como votaram os vereadores de São Paulo,» *Folha de S. Paulo* (9 June 1999).

(٢٠) «Brasil é 45° no ranking mundial da corrupção,» *Folha de S. Paulo* (27 October 1999).

(٢١) «Brasil melhorou pouco desde 1995,» *Folha de S. Paulo* (27 October 1999).

(٢٢) «Mudança de discurso,» *Folha de S. Paulo* (3 February 1999).

ثانياً: الاحتفاء بالأخلاقيات اللبنانية، في مجلس مدينة ساو باولو

بعدما تصدّر الشرق الأوسطيون عناوين الأخبار الرئيسيّة في فضيحة فساد بُثّت وقائعها في جميع أنحاء البرازيل، نظّمت عطية احتفالاً بعيد استقلال لبنان في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر. نُظِّم الاحتفال بذكرى استقلال لبنان أول مرّة عام ١٩٩٩، ثمّ نُظِّم احتفال آخر عام ٢٠٠٠ بُعَيد فوز رئيس بلدية المدينة الحالي في الانتخابات البلدية. وعلى الرغم من إدراج عدد من هذه الاحتفالات التي تخصّ أكثر من أربعين جماعة إثنية رسمياً في قائمة مناسبات حكومة مدينة ساو باولو، فقد شدَّد هذا الاحتفال اللبناني بوجه خاص على الأخلاق. وفي ما يلي وصف إثنوغرافي لهذا الحفل الباذخ الذي أقيم في سالاو نوبري (قاعة النبلاء) التابعة لغرف مجلس بلدية ساو باولو.

بعد تسلّمي دبّوساً صغيراً على شكل خريطة لبنان ومزيناً بعلمه، وقّعت اسمي بقلم ذهبي في سجلّ مجلَّد في الطابق الثامن في مبنى غرف مجلس البلدية في وسط مدينة ساو باولو. وبعدما قدّم إليّ فريقُ الاستقبال المبالغ في الاحترام كوباً من الشمبانيا، أمسكتُ الكوب النحيل المزيَّن بالأرزة، رمز لبنان الوطني. وكما الفقاعات التي تفور في الكوب والألوان التي يشعّ بها الدبّوس المثبَّت على طيّة سترتي، توهّج الطابق الثامن برجال يرتدون سترات ناعمة وساعات ذهبية، ونساء يرتدين ملابس مزخرفة وحلّياً لامعة. وكانت تتلألأ ثريات قاعة النبلاء أثناء عرض فيلم عن المواقع السياحية في لبنان، في الوقت الذي كان الأعضاء الكبار في السنّ في الحشد الكبير - الذين لم يختلطوا بالناس الذين اكتظّت بهم ردهة القاعة المجاورة - يراقبون الاحتفال ويطلقون الكثير من صيحات «أوه» و«آه».

ضم الحضور عدداً من أعيان الجالية اللبنانية والسورية، بما في ذلك شخصيات دينية وأعضاء في كونغرس الولاية ودبلوماسيون (من بلدان شرق أوسطية وأوروبية)، ورعايا أغلبهم من الجيل الثاني أو الثالث ينتمون إلى نحو خمسين جمعية اجتماعية وسياسية تخدم الجالية العربية في ساو باولو. أُعلنت أسماؤهم و«سُجّلت» في المحضر العام. وقد استمرّت المناداة بأسماء الأفراد والهيئات المهمة خمس عشرة دقيقة في بداية الاحتفال. حتّى إنّه قُرئ عدد لا بأس به من البرقيات والرسائل التي بعثت بها «شخصيات شهيرة» بصوت مرتفع

وقوبلت بالتصفيق. وبعد تهنئة كلّ من رئيسة بلدية المدينة على مبادرتها وتهنئة ضيوفها المحترمين من الجالية اللبنانية في عيد استقلال وطنها، شدَّد نائب فدرالية وحاكمٌ ليس في عداد الحضور على أن المشاركين «يفخرون بأنفسهم كونهم من أصل لبناني». وفي الوقت الذي كانت الأسماء اللبنانية تتصدّر عناوين الأخبار الرئيسيّة التي تتحدث عن الفساد، جاهر المشاركون في الجلسة الاحتفالية بأسمائهم الإثنية باعتزاز واضح.

بعد عزف النشيدين اللبناني والبرازيلي، دعا رئيسُ التشريفات عضوَ مجلس البلدية مريم عطيةَ إلى اعتلاء المنصة في الدقائق العشر التالية. شكرت عطية أولاً الحضور مشاركتهم في الاحتفال بعيد الاستقلال اللبناني. وقالت «إننا نشيد اليوم ببعض المنحدرين من أصل لبناني المميَّزين في ساو باولو وفي البرازيل». وسواء أكانوا باعة متجوّلين أم أطبّاء، ورجال أعمال أم قضاة، وفنّانين أم رياضيين، أضافت عطية، فهم «تميّزوا» في جميع المهن. وختمت كلمتها بنبرة قوية بالقول «إن وجود لبنان حقيقة ثابتة في الأمة [البرازيلية] التي احتضنتنا بحنان». وبناء على ذلك، لم يكن الاحتفال بعيد استقلال لبنان في ساو باولو شأناً «لبنانياً» فقط، بل كان لبنانياً في الأمة البرازيلية أيضاً.

شدَّدت عطية على الحضور القوي «لأحفاد اللبنانيين» في الدولة البرازيلية. في الواقع، جلس اثنان من رجال الدولة الفدراليين المؤثرين من أصل لبناني إلى جانبها إلى الطاولة الأمامية. وفي إيماءة إلى ميشيل تامر، رئيس مجلس النواب الفدرالي وقتئذٍ، ابتسمت وأشارت إلى أن نجل (أحد المهاجرين) اللبنانيين يحتلّ ثالث أقوى منصب في البرازيل. تبسّم تامر الذي ينتسب إلى حزب الحركة الديمقراطية البرازيلية أيضاً، بعد سماعه الإشادة بإثنيته. ثمّ التفتت عطية بالنصح الودي إلى السناتور بيدرو سيمون من ريو غراندي دو سول، وكان مرشحاً له حظوظ في الانتخابات الرئاسية المزمعة عام ٢٠٠٢. وفي حين أشارت التغطية الصحافية إلى العرب بأنهم سياسيون فاسدون في ساو باولو، كانت إثنيتهم محلّ ثناء من خلال مشاركة أعضاء برازيليين في الكونغرس الفدرالي في هذا الاحتفال الصوري بعيد استقلال لبنان.

أشارت عطية في نهاية حديثها إلى وطنها الأمّ لبنان. وفي تلميح إلى الحرب الأهلية الدامية التي عصفت بلبنان خمس عشرة سنة، بيّنت أن «اللبنانيين وأحفادهم يمكنهم الحديث عن الجراح المادية والمعنوية المحفورة في جسم

لبنان». وحتّى اليوم، أضافت عطية، لا يستطيع لبنان الاحتفال «باستقلاله الحقيقي الموجود على الورق فقط». ونظراً إلى أن نحو نصف سكان لبنان يعانون الفقر، وأن اقتصاده متعثّر، و«أمنه» مفروض من جانب «طرف ثالث» (سورية)، فقد باتت «سيادة بلد الأرز» مهددة. أضافت عطية الخلوقة أن لبنان يتمتع، على الرغم من هذه التحديات، «بثروة روحية وبشرية» ورثها عن الفينيقيين. وشدّدت على أن «اللبنانيين وأحفادهم» الذين ورثوا «الإيمان، والعزيمة، والجرأة للتعبير عن المُثل والحبّ والصبر» سيبقون شامخين في مطالبتهم بتحقيق «العدالة» وسط عدد كبير جداً من «المصاعب». وفي الختام، ناشدت اللبنانيين «جدوداً» و«أحفاداً» بالقول: «إننا مكلفون بمهمة عظيمة... مهمة مواصلة مشروع الفينيقيين الجبار الذين اكتشفوا العالم والقارّات، وكافحوا دفاعاً عن ثقافتنا وحلمنا بالحرّية». وبذلك صوّرت عطية الاحتفال باستقلال لبنان بأنه صراع من أجل العدالة والسيادة.

وبعد إشادة القنصل اللبناني في ساو باولو بمساهمات اللبنانيين في البرازيل، دُعي خمسة عشر لبنانياً برازيلياً (أربعة عشر رجلاً وامرأة واحدة) كلٌ على حدة إلى الصف الأمامي في قاعة النبلاء؛ اثنان منهم فقط مجنّسون، والباقون إما من أبناء المهاجرين وإما من أحفادهم. وبعد ذلك تلا رئيسُ التشريفات باعتزاز اسم كلّ واحد منهم، وقرأ نبذة موجزة عن الضيف المبجّل مسلّطاً الضوء على المراكز الاقتصادية أو المناصب السياسية التي شغلها كل منهم سابقاً أو يشغلونها حالياً في البرازيل (لا في لبنان). كما ذُكرت أسماء المدن الأصلية لآبائهم أو أجدادهم. بدا أن المحتفى بهم ليسوا على اتصال بوطنهم الأمّ، لكنّ المديح أضفى أصالة على المناسبة السياسية نفسها. وبعد منح كلٍ من المكرَّمين درعاً على شكل خريطة لبنان زُينت بعلمه الذي هو «على شكل شجرة أرز في خط أبيض يتوسط خطين أحمرين)، وقفوا لالتقاط الصور وسط تصفيق الجمهور. شكر كلّ منهم والدَيه وأسرته ومريم عطية العضو في مجلس بلدية المدينة، وأعرب عن اعتزازه «بكونه برازيلياً يعيش في الدولة البرازيلية» لا عن اعتزازه «بجذوره أو أصوله، أو نسبه» اللبناني فقط. وقد أُشير غير مرّة إلى أن البرازيل «ليست غريبة» عن مناسبة الاحتفال بعيد استقلال لبنان. ففي النهاية، أُثني على النخب الإثنية لإنجازاتها الاقتصادية والسياسية في البرازيل لا في لبنان.

كان التشديد على الحضور اللبناني في البرازيل أقوى في الكلمتين اللتين ألقاهما عضوا الكونغرس الفدرالي في نهاية الاحتفال. اعتلى السيناتور بيدرو

سيمون المنصّة التي غادرها رئيس التشريفات. واستخدم فصاحته وحماسته التي اشتُهر بها وتحدّث في الحضور طوال أكثر من عشر دقائق. وفي إحدى لمحاته العاطفية، قال: «هناك أناس يعتقدون أن الشعب البرازيلي. . . حتّى إنّه ظهر في العناوين الرئيسيّة. . . أشخاص يميلون إلى الفساد». وفي إشارة إلى فضيحة الفساد التي لطّخت مجلس بلدية ساو باولو، أعطى السيناتور رداً لا صلة له بأول كلامه حين شدّد على أن «الشعب البرازيلي شعب عظيم» لأنه خليط من أفراد «بيض، وسود، وهنود، وهنود مختلطين، وبرتغاليين، وإيطاليين، وألمان، وعرب، [و] لبنانيين»[٢٣]. وأردف قائلاً: «لقد اندمجنا في ما نسمّيه العِرْق البرازيلي. ومن خلال هذا العِرْق البرازيلي ننظر إلى الشعب اللبناني على أنه أحد أكبر المساهمين في هذا العِرْق». وبذلك نأى سيمون بأبناء اللبنانيين عن مشهد الفساد وأعاد إشراكهم في الحكاية الوطنية التي تتحدث عن الخليط العِرْقي[٢٤]. وقد تكررت الإشادة باندماج اللبنانيين في البرازيل في التغطية الصحافية اللاحقة.

كان ميشيل تامر، رئيس مجلس النواب آنذاك (الذي يناظر مجلس النواب الأمريكي) آخر ضيف محتفى به يُدعى إلى المنصّة. بدأ تامر، الذي ينتسب إلى حزب يمين الوسط السياسي نفسه الذي ينتسب إليه السيناتور سيمون ومريم عطية، بذكر إحصاءات تشيد بأشقائه الإثنيين السياسيين. أشار تامر عرَضاً إلى أن «١٠ في المئة من أعضاء مجلس النواب أصولهم لبنانية». وفي تلميح إلى هذا الحراك السياسي المتصاعد، توجّه إلى الحضور أمامه بأسئلة بلاغية:

«ما هو البلد الذي سمح لمريم عطية بأن تكون عضواً نشطاً في مجلس بلدية. . . ؟ ومن سمح لبيدرو سيمون، الحاكم السابق لريو غراندي دو سول، وسيناتور الجمهورية، بأن يكون مرشحاً لرئاسة الجمهورية؟ ومن سمح لتياتيّ متواضع [أحد سكان تياتو بولاية ساو باولو، ويشير بذلك إلى نفسه] بالوصول

---

(٢٣) اللافت للنظر أنه لم يكن لليهود حضور في هذا «المزيج». تجدر الإشارة أيضاً إلى تفريق سيمون بين العرب واللبنانيين، على الرغم من ميل عطية إلى الجمع بين التسميتين.

(٢٤) كما ذكرتُ في المقدمة، كان المزيج العِرقي محل انتقاد القومية البرازيلية منذ أن نشر جيلبيرتو فريري كتابه *Casa grande e senzala*، انظر: Gilberto Freyre, *Casa grande e senzala* (Rio de Janeiro: Jose Olympio Editora, 1977 [1933]).

والمثير في الأمر أن الرأي السائد في البرازيل في مستهلّ القرن العشرين هو أن الأُسر العربية تحبّذ الزواج من داخل جماعتها. واليوم، يشدّد المسيحيون العرب على «اندماجهم» مع أنهم يختارون شركاء حياتهم من الجالية غالباً. وسنتطرّق إلى هذه المسألة بالتفصيل في الفصل الرابع. انظر: Thomas Skidmore, *Black into White: Race and Nationality in Brazilian Thought* (New York: Oxford University Press, 1974).

إلى برازيليا ويصبح رئيساً لمجلس النواب؟ ما هو البلد الذي كان سيسمح بذلك عدا البرازيل؟»

وفي إشارة إلى ارتقاء النخب السياسية اللبنانية «الفاعل» و«المتواضع في دولة البرازيل المباركة»، حدد تامر لنفسه ولزميليه مكاناً في دولة وأمة أخلاقية مزعومة. وختم كلمته، بالإشارة إلى أنّه ينبغي لِكُلّ فرد أن «يحمد الله لأنه منحه أبوين لبنانيّين أنجباه في البرازيل».

وفي حين دُفع ذلك الـ «لبنان» في الشرق الأوسط إلى خلفية المشهد، مجّد المحتفى بهم والحضور بلبنانيي البرازيل. وقد تجلّى الباعث المادي على هذه الحيل حين ابتعد تامر من المنصّة لإفساح المجال لعطية لاختتام الحفل. خاطبت النائب، والسيناتور، والبرلمانيين الآخرين، في نبرة «تغلبها العاطفة» في الظاهر بالقول «أشكر لكم قدرتكم على تغيير هذا المجلس، الذي أصبح منذ مدّة من الزمن هدفاً لانتقادات صحافة لا تُظهر سوى جانبه السيئ». لقد اجتمع حشد من السياسيين اللبنانيين تحت أنظار وسائل الإعلام لإظهار مكانتهم القويمة أخلاقياً في الدولة البرازيلية.

ثالثاً: تلوين الفساد في دولة الشفافية المتصوَّرة

نافست السلطاتُ غير العربية التي ادعت الشفافية في التغطية الإعلامية عضوَ المجلس البلدي مريم عطية في سعيها إلى إظهار اللبنانيين في مظهر أخلاقي. على سبيل المثال، أعلن أحد المعيَّنين في الإدارة البلدية خطوات للحدّ من «السمسرات» المتفشية وقال، «أريد تطبيق الشفافية في العمل [أي في التحقيق]»(٢٥) وطالب عضو في مجلس البلدية ينتمي إلى يمين الوسط «بالتحلّي بالشفافية وتسهيل جميع أنواع التحقيقات. لا يمكن وضعي في كيس مبتذل ويقال إني زعيم منظمة إجرامية»(٢٦) وبالمثل، قطع سيلسو بيتا علاقاته بمعلوف وأقصى المدراء المعيَّنين، وهو ما «سيوفر مزيداً من الشفافية في التحقيقات» بحسب قوله(٢٧). حتّى إن محاميه أشار إلى أن «بيتا كان رهينة المعلوفية منذ

---

(٢٥) «Fiscais passam por novo rodõzio,» *Folha de S. Paulo* (27 January 1999).

(٢٦) Gonzalo Navarrete, «Governistas resistem a CPI,» *Folha de S. Paulo* (9 February 1999).

(٢٧) Lilian Christofoletti, «Prefeito afasta administrador que não foi indiciado,» *Folha de S. Paulo* (6 March 1999).

سنين، وأنه سيُظهر بعد انعتاقه منها شفافيةً في إدارته ويساعد على القضاء على آفة الفساد الحقيقية هذه التي اجتاحت المدينة»(٢٨). وعملت هذه المزاعم التي تتحدث عن الشفافية على تغيير مسار تغطية الفساد في عناوين الأخبار الرئيسيّة في البلاد.

جرى التأكيد بالمثل على الأخلاق وعلى الشفافية في انتخابات عام ٢٠٠٠، فتبنّى السياسيون الطامحون في معسكرَي اليمين واليسار على حدّ سواء مواقف تدافع عن الأخلاق وعن الشفافية. وفي حين ادّعى المرشح لرئاسة البلدية باولو معلوف أنّه ضحية اتهامات بالضلوع في الفساد، حقق حزبُ العمال انتصارات ساحقة بمظهره المستقيم أخلاقياً. كانت المرشحة الفائزة برئاسة البلدية مارتا سبليسي حديثة عهد في السياسة (مع أنّها متزوجة من سيناتور)، وهي التي انتُقدت بوصفها مثالاً على حزب عمال وردي اللون. وبعدما عملت سبليسي مقدمة لبرنامج حواري تلفزيوني، حازت شهرة كطبيبة نفسانية تعالج الموضوعات الجنسية التي توصف شعبياً بالسكسولوغا. والأهم من ذلك أن سبليسي ضمنت الفوز نظراً إلى موقعها على أطراف المؤسسة الرسمية وإلى مناشدتها الطبقة البرجوازية والطبقة العاملة عدم تصديق ما يُنسَب إليها من تهم الفساد وإلى الجاذبية التي كانت لها تجاه الطبقة البرجوازية والطبقة العاملة التي خاب أملها من الفساد المستشري في المؤسسات. وفي الكلمة التي ألقتها غداة انتصارها، قالت رئيسة البلدية الجديدة: «هناك التزام واحد يمكنني إعلانه: الشفافية المطلقة»(٢٩). وفي إشارة إلى كلمة حساسة مشابهة، تحدّث أيقونة معسكر اليسار فري بيتو عن «الثورة الأخلاقية» لناخبي ساو باولو على مؤسسة فاسدة كان مثالها الأعلى البرازيلي اللبناني باولو معلوف(٣٠).

بيد أن التصويت لمصلحة سبليسي لا يكاد يمكن وصفه بأنه ثورة؛ فهي

(٢٨) «Pitta era refém de esquema malufista, afirma advogado,» *Folha de S. Paulo* (5 April 1999).

(٢٩) Fábio Zanini and Sílvia Corrêa, ««Sim, a dona Marta é do PT», diz eleita,» *Folha de S. Paulo* (30 October 2000).

(٣٠) Frei Betto, «A rebelião ética,» *Folha de S. Paulo* (5 November 2000).

وبوصف بيتو أحد ممثلي الكنيسة الكاثوليكية (مع أنه لم يوسَّم كاهناً)، انخرط في مساعدة المعارضين على الفرار من البرازيل في السنين الأولى للدكتاتورية في البلاد. سُجن عام ١٩٦٩ ثم أُطلق سراحه بعد نحو أربع سنين، وكانت له يد في صوغ نظرية التحرير اللاهوتية، وفي تأسيس اتحاد العمال المتحدين (CUT)، وتأسيس حزب العمال (PT).

تمسكاً بالتزامها الأخلاقي تجاه «سكان ساو باولو»، فاوضت على «شراكة» مع البنك الدولي في أول شهر تلا انتصارها الانتخابي[٣١]. فتحت هذه الشراكة، التي أُطلق عليها بحقّ برنامج الحوكمة الجيدة ومحاربة الفساد، تحقيقاً في الفساد المستشري في حكومة مدينة ساو باولو[٣٢]. بدأت الشراكة حين التقت سبليسي وجورج ماتوسو، رئيس أمانة سرّ العلاقات الدولية الجديد في حكومة المدينة، بمسؤولين في البنك الدولي في العاصمة الأمريكية واشنطن في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠. وليس من قبيل المصادفة أن البرنامج الذي بلغت تكلفته مليون دولار ركّز أولاً على الوحدات الإدارية في المدينة التي فاحت منها رائحة الفساد قبل نحو سنتين من الانتخابات[٣٣]. تقرّر التحقيق مع نحو ثلاثة آلاف مسؤول في المدينة «لرسم مخطط» لما وصفته رئيسة البلدية نفسها بـ «شبكات الفساد» في المؤسسة السياسية في ساو باولو[٣٤]. لكن برنامج مكافحة الفساد هذا كان أبعد من أن يكون فريداً في نوعه كما أشار من أثنى عليه، بل كان شبيهاً ببرامج أخرى طُبّقت في بعض بلدان أمريكا اللاتينية وأفريقيا. وفي مسعى لتحصين الدولة «الكفؤة» في مختلف أنحاء العالم، مثّلت حملة محاربة الفساد جزءاً من محاولة من جانب البنك الدولي للتركيز على النواحي الإنسانية والاجتماعية للعولمة عوضاً من التركيز البحت على المسائل التجارية والصناعية الذي يعتمده إجماع واشنطن[٣٥]. وقد ساعد حديث البنك الدولي عن الإصلاح القائم على مكافحة الفساد والتغطية الإعلامية الوطنية على إعادة تأليف حكومة

---

(٣١) Thomas Traumann, «Prefeita eleita Marta Suplicy recebe oferta de pesquisa do Banc Mundial,» *Folha de S. Paulo* (16 November 2000); Joao Batista Natali, «Bird quer programa anticorrupção: Instituição estudo financiar projecto de transparencia na prefeitura,» *Folha de S. Paulo* (12 November 2000); «Parceria contra corrupção,» *Jornal da Trade* (17 March 2001), and Mauriciao Moraes, «Marta quer parceria com o Bird para combater corrupção em São Paulo,» *O Estado de S. Paulo* (16 March 2001).

اللافت أن حزب العمال (الذي تنتمي إليه مارتا سبليسي) نأى بنفسه تقليدياً عن إقامة علاقات بمنظمات نيوليبرالية مثل البنك الدولي.

(٣٢) Marcus Lopes, «Bird vai mapear focus de corrupção em SP,» *O Estado de S. Paulo* (17 March 2001).

(٣٣) «Pesquisa sobre corrupção vai ouvir servidor,» *Folha de S. Paulo* (8 May 2002).

(٣٤) «Prefeita diz que fez convênio para combater a corrupção,» *Folha de S. Paulo* (13 March 2002).

(٣٥) «Rubin propoe ataque do FMI a corrupção,» *Folha de S. Paulo* (25 February 1999); Marcio Aith, «FMI propoe humanizer a globalizacao,» *Folha de S. Paulo* (29 September 1999), and Carlos Eduardo Lins da Silva, «Wolfensohn e o ideologo da mudanca,» *Folha de S. Paulo* (30 September 1999).

مدينة ساو باولو. وعلى الرغم من أن شعار «كنس الفساد» طُرح في أواسط القرن الماضي فإن مفهوم الشفافية زاد في الاقتصاد العالمي المعاصر وقوى من أثر العولمة.

وبعدما بات الحديث عن الشفافية اللغة التي تتحدث بها حكومة المدينة، اقترنت إثنية السياسيين من أصول سورية ـ لبنانية بالفساد في الإعلام السائد. ولم تعد الشخصيات في مشهد مافيا السمسرات تُصوَّر عام ١٩٩٩ و٢٠٠٠ بأنها شخصيات سياسية كاذبة وحسب، بل تصوَّر كشخصيات عربية فاسدة. وقد جرى تصوير فساد العرب، المشحون بالعبارات الطنّانة والهجاء، من خلال تلميحات جارية إلى سلسلة مطاعم حبيب للوجبات السريعة «العربية»، فضلاً عن «الطعام العربي» مثل التبّولة والكبّة والبابا غنّوج وحتّى الصفيحة(٣٦). وفي هذا السياق، منح سياسي محنّك «جوائز» لأكثر الشخصيات مقتاً عند الناس في ساو باولو، وقدّم «جائزة حبيب» لباولو معلوف. وكتب في مطلع عام ١٩٩٩:

«جائزة حبيب من نصيب باولو بعلوف. وبعد واحدة من تلك السنين التي تحوّل فيها أحد طلبات رئيس البلدية إلى خبز بيتا (خبز عربي) المرّ المذاق [في إشارة إلى سيلسو بيتا] وتحوّلت التبّولة إلى كبّة نيئة، وكل ما ينقص المواطن الكريم هو افتتاح كاديا [كلمة تعني سلسلة وتعني السجن في الوقت نفسه] (من دون تورية) للمأكولات العربية وإعطاء رخصة لتعاويذه التي تُصيب جميع معارضيه بالسرطان»(٣٧).

ومع الترابط بين الفساد والمأكولات الشرق الأوسطية، بما في ذلك خبز البيتا والتبّولة والكبّة، أصبح باولو موضع سخرية لمساندته حكومة المدينة التي يرئسها سيلسو بيتا التي ورّطت ساو باولو في أسوأ فضائح الفساد في تاريخها.

وفي غضون الشهور القليلة التالية عام ١٩٩٩، وجّه معلّق اجتماعي آخر

---

(٣٦) سنتحدث عن سلسلة مطاعم حبيب للوجبات السريعة التي يُسوَّق لها بأنها صاحبة امتياز في تقديم المأكولات العربية، وعن تنامي شعبية «المطبخ الشرق الأوسطي» في الفصل الخامس. لكن يكفينا القول إن تسمية «عربي» الفعلية تُستخدَم في الإشارة إلى ما يسمى المطبخ «الشرق الأوسطي» في الولايات المتحدة. ربما يفسّر انتشارُ المأكولات العربية في البرازيل المعاصرة سببَ استخدام الطعام، وليس معلماً آخر من معالم الإثنية مثل الملابس أو اللغة، في ربط الانتماء العربي بالفساد.

(٣٧) Bustavo Ioschpe, «Aos vencedores as batatas: Os piores de 1998,» *Folha de S. Paulo* (11 January 1999).

انتقاداً مشابهاً لعدد من الشخصيات التي تورّطت في مافيا السمسرات؛ ففي زاوية صحفية بعنوان «عزيزي غابي» كتب أحد القراء الذي ربما كان قارئاً وهمياً منزعجاً:

«خيراً فعلت

أدليتُ بصوتي مؤخراً لمعلوف وبيتا وغريب وفيسكومي. هل سأخلَّد في نار الجحيم، أم أني سأستحقّ رحمة إلهية؟ هل لدي أمل بأن يُصفَح عنّي وكيف ذلك؟

ـ كبّة مقلية في زيت يغلي».

ورداً على هذه الرسالة، كتب هاجِ سياسي:

«عزيزتي السنيورة سلسلة مطاعم حبيب،

أخشى أنّه سينزل بكِ العقابُ نفسه الذي نزل بسكان مدينة ساو باولو الذين وقعوا في الخطيئة عينها: إدانة وحكم بالعيش في مدينة بشعة وقذرة ورذيلة»[٣٨].

على الرغم من ذكر شخصيتين سياسيتين غير عربيتين في فضيحة الفساد (سيلسو بيتا، وهو برازيلي متميّز أسود البشرة[٣٩]، وفيسنتي فيسكومي وهو من أصل إيطالي)، صبغ الحديثُ عن المأكولات الشرق الأوسطية (الكبّة المقلية) والإشارة إلى سلسلة مطاعم حبيب للوجبات السريعة الفسادَ بإثنية باولو معلوف وحنّا غريب. أي أن الفساد اقترن بالجذور العربية في ساو باولو لا بسواد البشرة ولا بالأصول الإيطالية.

على أن وسائل الإعلام لم تكن المصدر الوحيد للانتقادات؛ ففي حزيران/يونيو ٢٠٠٠، نظّم اتحاد موظفي المصارف تظاهرة احتجاجية وزّع فيها الأعضاء ثلاثة آلاف قطعة صفيحة (فطائر شرق أوسطية محشوّة باللحم المفروم) قبالة مكاتب مجلس بلدية المدينة. فبعدما استشاط هؤلاء المواطنون غضباً لعدم توبيخ سيلسو بيتا، خليفة باولو معلوف الذي اختاره بنفسه، تظاهروا معبّرين عن

(٣٨) Barbara Gancia, «BEM FEITO,» *Folha de S. Paulo* (25 April 1999).

(٣٩) رفض بيتا في بداية حياته السياسية التعريف عن نفسه بأنه أسود (ربما لعدم تعاطفه مع حركة السود المنتمية إلى معسكر اليسار). لكنّه اعترف بسواد بشرته حين جلبت إدارته على نفسها انتقادات متزايدة.

سخطهم بتحوير عبارة عامّة معناها الحرفي «ستُصبح قطعة بيتزا» أي «لن تؤول إلى شيء». وبحسب ما قاله أحد المنظّمين، بما أن التظاهرة نُظّمت خصيصاً للعرب واللبنانيين، فستتحول الفضيحة إلى صفيحة لا إلى «بيتزا»[٤٠] وعلّق الصحافي على الحدث بالقول:

«عوضاً من تقديم البيتزا، ارتدت جماعة مؤلّفة من خمسين موظفاً مصرفياً أزياءً عربية وقدّموا قطع الصفيحة إلى الأشخاص المارّين أمام مبنى البلدية احتجاجاً على رفض محاكمة رئيس البلدية سيلسو بيتا وتوبيخه. وقال رئيس اتحاد موظفي المصارف إن إبدال البيتزا بالصفيحة سببه أن «باولو معلوف، عرّاب بيتا، هو من أصل لبناني»»[٤١].

وبتغطية أعضاء النقابة رؤوسهم بالكوفيات ووعدهم بأن تشارك راقصة شرقية في المناسبة، تغاضوا عن خلفيات السياسيين الآخرين المتورّطين في الفضيحة وجسّدوا الجذور العربية بوصفها آفة الفساد في حكومة المدينة.

الأمر المشوّق هو أن أشدّ الانتقادات التي وُجّهت إلى السياسيين الشرق الأوسطيين جاءت من النخب الإعلامية المنتمية إلى يسار الوسط والتي عرّفت نفسها بأنها «من أصل لبناني». على سبيل المثال، كان خوسيه سيماو الذي اشتُهر بكتابته مقالة يومية في **فولها دي ساو باولو**، قاسياً في حديثه الساخر والمبطّن أحياناً عن فساد رفاقه «الأتراك». كتب سيماو منتقداً انتساب باولو معلوف إلى الحزب التقدّمي البرازيلي ذات مرّة: «بما أنّني لبناني، يمكنني القول إن الحزب التقدّمي البرازيلي يعني بروبيناس بروس بريموس، ها ها ها»[٤٢] (Prominas Pros Brimos, Hahaha)، بمعنى «سمسرات لأبناء العم». وهو بذلك يتلاعب بصعوبة التفريق بين الحرف P والحرف B في اللفظ لدى المتحدثين باللغة العربية، إذ إنهم ربما يلفظون كلمة Primo التي تبدأ بالحرف P، وتعني ابن العم، كما يلفظون كلمة Brimo. كما مازح سيماو القراء في

(٤٠) استخدم معلّق سياسي آخر التلاعب على الألفاظ في مقولة البيتزا في حديثه عن معلوف مشيراً إلى أنه «مع أن كل شيء هنا ينتهي به الحال إلى أن يكون طبق بيتزا، سيكون السيد.. . ومجلس بلديته (الذي أساء حكمه) طبق الكبّة الاستبدادي العسير على الهضم»، انظر: Celso Luiz Prudente, «Casa Grande x Senzala,» *Folha de S. Paulo* (13 September 2000).

(٤١) «Protesto troca pizza por esfiha,» *O Estado de S. Paulo* (21 June 2000).

(٤٢) José Simão, «Uêba! Melô a CPI e fiquemo sem Grana Garib!,» *Folha de S. Paulo* (11 June 1999).

مقالات أخرى بقوله إن باولو معلوف سيستغل تسليط الأضواء عليه في كتابة سيرة ذاتية ونشرها تحت عنوان «مينها فيدا إي أوما إسفيرا أبيرتا» (حياتي فطيرة مفتوحة محشوة باللحم)[٤٣]. عبر هجاء لسان العرب ومأكولاتهم، سلّط هذا الصحافي الذي عرّف عن نفسه بأنه لبناني، الضوءَ في الصحف الوطنية على الطابع الفاسد للإثنية الشرق الأوسطية.

نال حنّا غريب نصيبه من الاستهزاء بطرائق مُبدعة مشابهة، فبيّن سيماو في النصّ المقتبَس أدناه أن خروج غريب القسري من حلبة السياسة أدى إلى إبداله بسياسي اسمه وديع حلو الذي صادف أنّه شرق أوسطي هو الآخر:

«انتباه! إنّه السيرك التركي في سامبا [ساو باولو]. «كاش غريب» يغادر وبديله هو وديع حلو؟ هل خرج أحد الأتراك ليدخل آخر؟ وكما قال أحد أصدقائي: «استعاضوا من الكبّة بالصفيحة؟ الأمر أشبه بشعار كُلْ بقدر ما تستطيع في سلسلة مطاعم حبيب! ها ها ها! لقد انتهت [فضيحة الفساد] بصفيحة لا بيتزا»»[٤٤]!.

باستخدام المأكولات العربية وعبارة الأتراك الشائعة، بيّن المعلّقُ اللبناني الدائرة الفاسدة لحنّا غريب وحتّى لبديله وديع حلو (الذي لا صلة له بفضيحة الفساد هذه).

وفي سياق متصل، أكّد أرنالدو جبور، وهو كاتب محنّك مشهور آخر يكتب في **فولها دي ساو باولو** ويظهر لمدد قصيرة على شبكة «غلوبو» التلفزيونية[٤٥]، على الجذور العربية المزعومة للفساد وعلى الدور الخانع للجذور السوداء. قدّر أن مافيا السمسرات التي تخضع لإدارة سيلسو بيتا أول رئيس بلدية أسود لساو باولو يشرف عليها باولو معلوف وأتراك آخرون. قال مازحاً في سياق تهجّمه على السياسيين الشرق الأوسطيين واصفاً إيّاهم بـ «مافيا أكَلة بابا غنّوج تنسلّ

---

(٤٣) José Simão, «Buemba! Buemba! Na Globo abunda Pita,» *Folha de S. Paulo* (16 March 2000).

(٤٤) في ذلك الوقت، كان غريب قد خرج من مجلس البلدية (في مسعى لتجنّب التحقيق) واحتلّ مقعده في جمعية ولاية ساو باولو الذي ناله في انتخابات عام ٢٠٠٠. لذلك، أورد وديع حلو اسم غريب في جمعية الولاية، انظر: José Simão, «Grana Garibi Turcocircuito em Sampa!,» *Folha de S. Paulo* (1 July 1999).

(٤٥) يَظهر الكاتب البارع والشخصية العامة جبور أسبوعياً في برنامج إخباري مسائي تبثّه شبكة غلوبو التلفزيونية في الساعة الثامنة. كما يشارك في برامج تلفزيونية كابلية مثل ماناتن كونكشن تُبَثّ على محطة تلفزيونية تابعة لشبكة غلوبو. ونشير إلى أن أغلب مشاهديه من الطبقتين الوسطى والعليا.

الطحينة على ذقونهم»، إن رئيس البلدية الأسود «سيتحول إلى كبّة في أيادي الأتراك». كان سيلسو بيتا خادماً أسود «وضعه» معلوف «مكانه» بالتعاون مع شبكة الصفيحة التي جنت أرباحاً طائلة من مخطط السمسرة[٤٦]. أُشير إلى سواد بشرة سيلسو بيتا كونها تجسّد موقعه التابع بالنسبة إلى الأتراك الذين يفوقونه دهاءً. أشار جبور إلى أنّ السود هم الخدم، فإن العرب هم الأسياد في «بيت» الفساد «الكبير»[٤٧] وبتصوير سواد بشرة بيتا بأنها منسجمة مع دور تابع في التعاملات الحكومية الشائنة، تلازمت الأصول العربية لغريب ومعلوف وآخرين مع الفساد نفسه. وفي إشارة وجيزة إلى خلفية جبور «التركية»، قال:

«رأينا عرباً نهمين يتزعمون مخططات لتبييض الأموال. إن عصابة الأتراك بأسرها (وأنا أيضاً) تأكل الصفيحة وبابا غنّوج وتحوّل ساو باولو إلى مغارة علي بابا»[٤٨].

بإشارة جبور إلى المأكولات الشرق الأوسطية وأسطورة علي بابا نفسه، شدّد على الجذور العربية للفساد، وعلى تمايزه الإثني في الوقت نفسه.

سُلّطت الأضواء عام ١٩٩٩ و٢٠٠٠ على الأتراك في سياق مبتكر، إذْ تحوّل الدهاء الفطري للبرازيليين من أصول شرق أوسطية من الاقتصاد إلى السياسة. استُغلّ فساد الأتراك الذي تحدثت عنه وسائل الإعلام من خلال الحديث عن المأكولات الإثنية في صرف الانتقادات بعيداً من الهيكل الإداري لحكومة مدينة ساو باولو السابقة والحكومة اللاحقة. ادّعى القادة السياسيون على اختلاف مشاربهم في التغطية الصحافية تحلّيهم بالشفافية في الوقت الذي رُبط الفساد بالإثنية العربية. ولم تتحمّل الهيكلية الإدارية لحكومة مدينة ساو باولو التي اكتسبت شرعية من خطاب البنك الدولي عن مكافحة الفساد عبء المساءلة، بل تحملها كبش فداء صُبغ بطابع إثني. لكن يتعين القول إن بعض السياسيين من أصول شرق أوسطية تورّطوا في تعاملات سياسية شائنة. على أن تمايزهم الإثني كان في النهاية محلّ الاتهام بالفساد في الحياة العامة.

---

(٤٦) Arnaldo Jabor: «Temos de beber desta lama luminosa e vital,» *Folha de S. Paulo* (4 April 2000), and «Corrupção global vai do angu até o FBI,» *Folha de S. Paulo* (2 May 2000).

(٤٧) تشكل هذه التشبيهات التي تشير إلى الفارق العِرقي والإثني أساس مقالة برودنتي التي أشرنا إليها آنفاً، انظر: «Casa Grande x Senzala,» *Folha de S. Paulo* (13 September 2000).

(٤٨) Arnaldo Jabor, «Pitta ficou com os lábios roxos e a boca seca,» *Folha de S. Paulo* (21 March 2000).

يوجد بعض أوجه الشبه بين هذه الحادثة ومشكلات تورّط فيها سياسيون «أتراك» آخرون في أمريكا اللاتينية مثل كارلوس منعم، الرئيس السابق للأرجنتين، وعبد الله بوكرم، الرئيس السابق للإكوادور. وفي طرائق مشابهة، جرى تصوير كلّ من هؤلاء السياسيين بأنهم «تجسيد لمنافاة العقل وتهديد للديمقراطية والحضارة»[(٤٩)]. واستدلّ الصحافيون بـ «الجذور اللبنانية» على الخصوص لبوكرم «في تعليل فساده»[(٥٠)]. وأسوة بمريم عطية (كما سيأتي لاحقاً)، تمتع بوكرم بشخصية شعبية من خلال مروحة واسعة من وسائل الاتصال بالجماهير، بما في ذلك قرص مدمج موسيقي[(٥١)]. لكنّ منعم وبوكرم لم يركّزا على الإثنية في العبارات الأخلاقية لنظرائهم اللبنانيين في الإصلاح الشفاف للحكم في البرازيل.

على أن سياسات «الأتراك» المعتمدة على وسائل الاتصال الجماهيري في أمريكا اللاتينية مغايرة للدعاية التي تحيط بسياسات الأمريكيين العرب في الولايات المتحدة. وكما ذكرتُ من قبل، يقوم الاعتراف بـ «الأصول العربية» في الولايات المتحدة على الصلة بالاستعمار اليهودي الأوروبي[(٥٢)]. في الحقيقة، أظهرت الشخصياتُ العامة الأمريكية العربية أن أنشطتها ـ سواء أكان المراد منها تنظيم أوضاع الجالية العربية أم التأثير في السياسة العامة ـ تعاني رقابة لصيقة من جانب الجماعات الأمريكية المناصرة لإسرائيل في الولايات المتحدة وأنها موضع ذمّها غالباً في الكونغرس[(٥٣)]. وعلى عكس العرب المقيمين في أمريكا اللاتينية، تبقى مشاركة الأمريكيين العرب في السياسات

---

(٤٩) Carlos de la Torre, «Neopopulism in Contemporary Ecuador: The Case of Bucararn's Use of the Mass Media,» *International Journal of Politics, Culture, and Society*, vol. 12, no. 4 (1999), pp. 555-571; Gladys Jozami, «The Return of the «Turks» in 1990s Argentina,» *Patterns of Prejudice*, vol. 30 (1996), and Lois J. Roberts, *The Lebanese in Ecuador: A History of Emerging Leadership* (Boulder, CO: Westview Press, 2000).

(٥٠) De la Torre, Ibid, p. 566.

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) Joseph Massad, «Palestinians and the Limits of Racialized Discourse,» *Social Text*, vol. 11, no. 1 (1993), pp. 90-112, and Therese Saliba, «Resisting Invisibility: Arab Americans in Academia and Activism,» in: Michael Suleiman, ed., *Arabs in America: Building a New Future* (Philadelphia, PA: Temple University Press, 1999), pp. 304-319.

(٥٣) Helen Hatab Samhan, «Not Quite White: Race Classification and the Arab-American Experience,» in: Suleiman, Ibid., pp. 209-226, and John Zogby, *Arab America Today: A Demographic Profile of Arab Americans* (Washington, DC: Zogby International, 1990).

المحلية الأمريكية متأثرة (ومهمَّشة) بطرائق تعكس العالمَ العربي في السياسة الخارجية الأمريكية.

رابعاً: الصراع الأخلاقي والعار الإثني في الحياة العامة

لا شكّ في أن مريم عطية حرصت على الترويج لتصريحاتها المتعلّقة بالأخلاق منذ الاحتفال بذكرى استقلال لبنان. أشرفت العضو في مجلس البلدية على الترويج لهذا الاحتفال في مجلتين تهتمّان بالجالية السورية ـ اللبنانية، هما **شمس** و**كارتا دو ليبانو**، وتوزعان معاً أكثر من خمسة عشر ألف نسخة في مختلف أنحاء البرازيل[٥٤]. جاء في مقالة نشرتها مجلة **شمس**: «بتنظيم احتفال لا تشوبه شائبة، مجّدت عطية عضو المجلس البلدي قوةَ الشعب اللبناني». وأضافت: «إذا كانت الأمسية احتفاليةً، فهي لم تخلُ من لحظات تأمّل في العملية السلمية في الشرق الأوسط التي تُعد مسألة حاسمة في تنمية البلدان العربية». وبعد عرض مقتطفات من خطاب عطية، صوّرت المجلتان المناسبة بأنها تصبّ في خانة النضالات المحقّة التي يخوضها لبنان والوطن العربي. بهذه الطريقة، صوّرت تغطيةُ الصحافة الإثنية الشرقَ الأوسطيين، الذين اقترنت صورهم بالفساد في وسائل الإعلام السائدة، بأنهم أصحاب قيم أخلاقية.

ظهرت عطية في عشرات الصور الفوتوغرافية على صفحات المجلتين في كلّ عدد أيضاً. وجاء في العنوان الرئيسي المكتوب بالخط الأحمر على غلاف مجلة **شمس**: «مريم عطية تكرّم أبناء اللبنانيين»[٥٥]. وظهرت فوق العنوان صورة فوتوغرافية كبيرة لعطية بوجهها المُشرق وفستانها الأخضر الفاتح، إلى جانب صورة للعلم اللبناني في المشهد الجيوسياسي للبلد. كما ظهرت في صور ملوّنة في الصفحات الداخلية لمجلة **كارتا دو ليبانو** (التي تصدر باللونين الأبيض والأسود في العادة)، فضلاً عن ثماني عشرة صورة فوتوغرافية للأفراد المكرَّمين مع عطية وهي تعانقهم. ومن خلال عرض صور فوتوغرافية لعطية تفوق عدد

---

(٥٤) «A data celebrada na Câmara Municipal de São Paulo;» «Palavras de Myryam Athie,» *Chams*, vol. 10, no. 100 (January 2001); «Câmara Municipal de São Paulo homenageia descen- dentes libaneses: A vereadora Myryam Athiê organiza e discursa para 300 convidados,» *Carta do Libano*, vol. 6, no. 55 (November 2000).

(٥٥) اللافت للنظر أن الغلاف باللغة البرتغالية لم يستخدم عبارة «أبناء اللبنانيين» وإنما «المنحدرون من لبنان،» مع شَرطة. انظر: Samhan, Ibid, and Zogby, Ibid.

العباراتِ التي اقتُبست من خطابها، ساعدت التغطيةُ الإعلامية الإثنية على إبراز مظهرها القويم.

وبغرض الإفادة من الصحافة البرازيلية، دبّرت عطية أمر نشر وقائع الاحتفال بعيد استقلال لبنان في نشرة يملكها عرب لكنّها توزَّع على نطاق واسع، وهي **جورنال دو براس**(٥٦). تغطي هذه النشرة، التي تصدر مرّة كلّ أسبوعين ويقرأها الذين يتسوقون في مقاطعة براس أو يعملون فيها، الأخبارَ والمناسبات من المكان نفسه الذي اتُّهم فيه حنّا غريب بأبشع التهم المتعلّقة بالفساد والذي فاحت منه رائحة الشكوك في مريم عطية نفسها. اعتمدت عطية على علاقاتها الجيدة برئيس تحرير الصحيفة ومالكها الوحيد في تغطية المناسبة على صدر صفحة كاملة بعنوان «لبنان: خمسة وسبعون عاماً من الاستقلال»، وجاء فيها: «بمبادرة من مريم عطية العضو في مجلس البلدية المعاد انتخابه، رعت غرف مجلس بلدية ساو باولو أمسية خاصة... احتفالاً بعيد استقلال لبنان». ونقلت الفقرة الختامية مقتطفات من دفاع عطية المحقّ عن وطنها الأمّ لبنان، نقلت الصحيفة عن عطية قولها: «إن بلد الأرز وأطفاله يصرخون من أجل تحقيق العدالة، والسيادة الكاملة، والاستقلال». وبتصوير عطية إلى جانب أعضاء في الكونغرس الفدرالي، أضفى التصميمُ الكتابي والمرئي للمقالة هالةً أخلاقية على سيدة سياسية وعلى جماعة إثنية تلطخت صورتها بالفساد في عناوين الأخبار على المستوى الوطني.

على أن المساعي الرامية إلى تطهير اسم العرب من العار لم تقتصر على الصحف الإثنية وصحف الجوار، إذ شاركت في تغطية الاحتفال بعيد استقلال لبنان «ريدي باندييرانتيس»، رابع أكبر شبكة تلفزيون في البرازيل. وليس من قبيل المصادفة أن تكرم عطية مؤسسها البرازيلي اللبناني من أبناء الجيل الثاني بعد وفاته «لعمله الرائد» في تطوير الإعلام الوطني. وبعدما دعت عطية ابنته إلى قبول التكريم والجائزة، استطاعت تأمين تغطية الشبكة التلفزيونية القوية لنشاطها. وفي أثناء الاحتفال، صوّر القائمون على التصوير تناول الطعام والأوضاع البهية التي بُثّت على شاشات «باندييرانتيس» في مقطع استغرق أربع دقائق في عرض أخبار منتصف الليل يوم ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠.

(٥٦) «Libano, 57 anos de Independência,» *Jornal do Brás* (25 November- 15 December 2000).

بدأ العرض بمشاهد لشخصيات دينية ودبلوماسية ووطنية في مظاهر أنيقة، وقال المعلّق إن «مجلس بلدية ساو باولو كرّم اللبنانيين وأبناءهم المميَّزين في البرازيل». وأشار صوت ذلك الرجل إلى أن مؤسس شبكة راديو وتلفزيون «بانديرانتيس» كان أحدهم. وصوّر البرنامج كريمة المؤسس الكبرى التي ذكرت أن أباها «شخص كرّس حياته بأسرها للدمج بين الأعراق في البرازيل، [كان] رجل [التلفزيون] والراديو. وقد نال جائزته لهذا السبب». وانتقلت الكاميرا سريعاً لتصوير بيدرو سيمون وميشيل تامر، رجلَي الدولة الفدراليين اللذَين كانا في عداد الحضور؛ وذكر المعلّق أنهما كانا في عداد من كُرّم في المناسبة أيضاً. قال سيمون «أبناء اللبنانيين [وقفة]. إنّهم يتميّزون بخاصية مميّزة جداً. إنّهم مندمجون في البرازيل، ويعرّفون أنفسهم بانتمائهم إلى البرازيل، وهم يعشقون البرازيل». وبعد إدراج العرب والإطراء عليهم في سياق الأيديولوجيا الوطنية البرازيلية القائمة على المزيج العِرْقي وعلى الديمقراطية، خلَص المعلّق إلى أن «من كتب قائمة المكرّمين اللبنانيين هي مريم عطية عضو المجلس البلدي». ابتسمت عطية وقالت «كان للبنان مساهمات كثيرة في بناء البرازيل... لقد صدّر لبنان شخصيات عظيمة إلى هذا البلد». وبالتالي، بعد تصوير العرب بأنهم مواطنون فاسدون في وسائل الإعلام السائدة، قدّموا أنفسهم في هالة أخلاقية في الأمّة البرازيلية «المختلطة عِرْقياً».

لكنّ الإعلان عن مناسبة الاحتفال بعيد استقلال لبنان لم يحجب العار والإحباط الذي شعرت به الجالية على نطاق أوسع في التغطية الإعلامية المتزامنة لمافيا السمسرات. شرح عدد من الفنّانين، وأصحاب المهن الحرة، ورجال الأعمال كيف أن فضيحة الفساد لطّخت اسم الجالية وعيّرته. أشارت مارسيا، وهي نحّاتة، إلى صعوبة مطالعة الصحف حين تفجرت فضيحة الفساد في الصحافة لأن الاسم «سيظهر وسترى الأسماء الأخيرة العربية لجميع هؤلاء الأشخاص الذين يجري تصويرهم بأنهم فاسدون». وذكر فلاديمير، وهو مهندس، أن الأسماء الشرق الأوسطية برزت ببساطة من بين سائر الأسماء الأخرى. إن تركيز الإعلام على العرب المتورّطين في الفساد «أخجل الجالية» إلى حدّ بعيد، بحسب المهندس المعماري ريكاردو، إلى درجة أنّه ينبغي تأليف «لجنة أخلاق داخلية» ضمن إطار الجالية لمنع التشويه الإعلامي. حتّى إن شخصية مرموقة أقامت من قبل مناسبة لتكريم المهنيين البرازيليين اللبنانيين،

أشارت بسخرية إلى أن «كلّ مهنة ستحظى بتمثيل سوى مهنة السياسة». وتلخيصاً لما شعر به عدد من أبناء الجالية، قال التاجر بيتو الذي يعمل في شارع ٢٥ دي ماركو:

«أنا منزعج بعد معرفتي أن شخصيات عربية كثيرة تشتغل في السياسة، . . . وتفتعل المشكلات. تتحدث الصحف عن عمليات سرقة، وتورد أسماء متورّطين في الفضيحة، في السرقة. وبالتالي يجري الحديث عن العرب، الذين يُوصفون أحياناً بأنهم أذكياء، وهو ما يعني أن الكثير من العرب المشتغلين في السياسة تحوّلوا إلى لعنة. حتّى إننا نخشى أحياناً انتخاب عربي آخر لكي لا يقوم بعمل خاطئ، لأنه سيلطّخ اسم الجالية».

بعد شعور الشرق الأوسطيين العاديين بالإرباك لرجحان تورّط أشقائهم في فضيحة الفساد، أشدّ ما أزعجهم هو توريط اسم الجالية في هذه الفضيحة على الرغم من تعبير عطية الصادق عن الهوية الإثنية في الاحتفال بالعيد الوطني اللبناني.

استخدم السياسيون الذين أيّدوا التحقيق الأخلاقي في أنشطة مجلس البلدية لغة مشابهة في الإشارة إلى الجذور العربية وإلى مخطط السمسرة، فصرّح عضو في المجلس من تيار يمين الوسط بأنه «يجري تثبيط معنويات الجالية من دون وجه حقّ. . . لأنها تعاني أمراً لا يجدر أن تعانيه». وشدّد على أن اللبنانيين، والعرب عموماً، ليسوا أقلّ ولا أكثر فساداً من الجماعات الإثنية الأخرى، مع أن اسمهم مرتبط بالفضيحة. وأشار مندوب من حزب العمال بصورة أوضح إلى أن الفضيحة «أحدثت صدمة حقيقية للجالية. . . لأنها ربطت [السوريين ـ اللبنانيين] بالمتورّطين [السياسيين الفاسدين] المنتمين إلى الجالية». وأضاف: إن أندية الجالية التي يتردد إليها السياسيون المتهمون تلطّخت بذنب فسادهم. حتّى إن نائباً فدرالياً يوافق اسمُه الأخير اسمَ أحد أعضاء مجلس البلدية المدانين قال إن «بعض الشخصيات» في حلقة المافيا «الموصومة بالفساد هي من أصل لبناني أو سوري. . . لقد شوّهوا اسمنا». وتأسّف هذا النائب الفدرالي الذي تربطه علاقة بعيدة بالعضو المذنب في البلدية لتورّط اسمي الأُسرة والجالية في هذه الفضيحة.

لا يرى أبناء الجالية هؤلاء، سواء أكانوا من ذوي المهن الحرة أم رجال أعمال أم نخباً سياسية، أن تلك الحملة متحاملة أو عِرْقية بالضرورة. في

الواقع، الشخصيتان الوحيدتان اللتان شجبتا التغطية الإعلامية للفساد كونها «متحاملة» هما سياسيان من يمين الوسط سبق أن تورّطا في هذه الفضيحة. في المقابل، رأت أغلبية أبناء الجالية أن الفضيحة والتغطية الإعلامية مثّلتا مصدر إزعاج. على سبيل المثال، علّق المهندس المعماري ريكاردو على ذلك قائلاً: «نشعر بقدر من الانزعاج. حين تتحدث عن العرب هذه الأيام، تجد أنّه يُنظَر إليهم بقدر من عدم الثقة». لكنّ فلاديمير يرى أن الحذر في التعاطي مع العرب «غيرة وحسد وتهكم على الأشخاص، وليس تحاملاً». وعلل ذلك بأن هذه «الغيرة» وهذا «الحسد» برز خصوصاً حين تهكم زملاؤه على أبناء بلده في دعوى الفساد. ذكّرهم بأن برازيليين من خلفيات متنوعة متورّطون في الفضيحة أيضاً وقال في ردّه على ذلك «تبّاً، وماذا عن أبناء بلدك؟» ذلك بأن صورة الفساد العربي في المجتمع الراقي ليست عبئاً على نمط حياة مريح فقط. وكما سنبين في الفصل التالي، يعكس تشديدُ الشرق الأوسطيين على الطابع غير العنصري للتغطية الإعلامية مفهومَ الديمقراطية العِرْقية - بمعنى أنّه لا يوجد تمييز عِرْقي أو أنّه يوجد في أضيق الحدود - في البرازيل.

عوضاً من شجب التقارير الإعلامية بوصفها عِرْقية، عاب أبناءُ الجالية على أشقائهم السياسيين توريطَهم الأخلاقي للجالية في التغطية الإعلامية. من ذلك أن حسن، وهو طبيب، زعم أن «كلّ ذلك [تلطيخ اسم العرب] ذنب معلوف». وباستخدام اللغة نفسها، قال فلاديمير: «اللوم كلّه يقع على معلوف». وبطريقة مشابهة، أنحى عدد من المراقبين باللائمة على حنّا غريب وعلى غروره المعروف. وأعرب مواطنون آخرون عن تعاطفهم مع مريم عطية بل وعن إشفاقهم عليها، وهي التي تورّطت في هذه القضية المثيرة للجدل أيضاً. وردّد صدى هذه المشاعر كذلك محافظون وإثنيون من المحافظين والتقدّميين على حدّ سواء لشعورهم بالإحباط أو بالخجل مما بدا أنّه فساد القيادة السياسية العربية. وبقبولهم الضمني بأن الجذور العربية تجسّد الفساد، امتدح هؤلاء المواطنون الديمقراطيةَ العِرْقية وأعربوا عن إيمانهم بها. يتبين مما تقدّم أن الشرق الأوسطيين أنفسهم تأثروا سلباً بتصوير الفساد العربي في حين زعمت حكومةُ المدينة تحلّيها بالشفافية.

وفي تعبير عن هذه التوترات بين الإثنيات، اتخذت القيادة غير الرسمية للجالية إجراءات لإبرام أحلاف جديدة مع اليسار الصاعد. وخلال أحد لقاءاتي مع محرّر مجلّة يدعى ريكاردو، اتصل به مدير نادٍ سوري وسط المدينة عبر الهاتف.

حذّر ريكاردو زميله من إرسال دعوة رسمية إلى نمر، وهو عضو في مجلس البلدية سوري الأصل من حزب العمال نأى بنفسه حتّى ذلك الحين عن الجالية، لحضور مناسبة في النادي. وأعرب هذا المتطفل عن شكوكه في التحالف مع «يساري». لكنّ ريكاردو أكّد أن نمر لا يكنّ حقداً لـ «البرجوازية»، وأصرّ على أنّه لم يُدع ببساطة إلى المشاركة في أنشطة الجالية مقللاً بذلك من أهمية «غربة» هذا السياسي المنتمي إلى حزب العمال. ووجه ريكاردو نصيحة بقوله «من المهم دعوة نمر لأنه يستطيع تأدية دور صلة الوصل بين الجالية و[رئيسة مجلس البلدية] مارتا سبليسي». وختم المحرّر حديثه بالقول إن دور الوساطة هذا لن «يقوّي مركز الصبي وحسب، بل سيفيد الجالية أيضاً. . . وسيُفرح والده كثيراً». نال ريكاردو ما أراد، لأنه بدءاً من عام ٢٠٠٠، صرتُ أرى نمر في المناسبات التي تعقدها الجالية (التي وصفها لي نمر من قبل بأنها «مضمار اليمين»). توحي هذه الاتصالات الشخصية أن القادة العاديين اتخذوا إجراءات عملية لتقريب «جماعتهم الإثنية» من القوى السياسية المهيمنة.

خامساً: تقنين الحضور الإثني في التمثيل السياسي

على الرغم من الفشل في إقناع الناخبين الشرق الأوسطيين العاديين، تشير الكلمة التي ألقتها عطية والصور الفوتوغرافية التي التُقطت لها إلى ترسيخ حضور الإثنية في حكومة مدينة ساو باولو. على سبيل المثال، اقترح حنّا غريب قبل إدانته بتهمة النصب تشريعات لها غايات إثنية واضحة وتمكّن من تمريرها أحياناً[٥٧]. فرغبة في استجداء الدعم الانتخابي والمالي من الجالية، جعل «عيد استقلال سورية» و«عيد استقلال لبنان» في عداد مناسبات بلدية ساو باولو عام ١٩٩٥[٥٨]. في الواقع، أشارت مقالة في مجلة شمس غطت وقائع الاحتفال بعيد الاستقلال في نادٍ ترفيهي عام ١٩٩٧ إلى أن غريب «هو من صاغ

(٥٧) هناك بضع حالات معنية خصوصاً بالجالية العربية، منها: Lei Número 11.889, 28 de setembro de 1995, «Institui o «Dia da República Árabe Síria» no âmbito do Munici-pio de São Paulo,» Projeto de Decreto Legislativo 0071 (Ano 1997); «Dispõe sobre a outorga da Medalha Anchieta ao Presidente da Rep-14blica Libanesa, Exmo. Sr. Elias Hraoui,» Projeto de Lei, Número 0696 (Ano 1997); «Declaram Cidades-Irmãs Amman e São Paulo, Lei Número 116/1998,» Institui no calendário oficial do Municipio de São Paulo, o «Dia da Rua Vinte e Cinco de Março e Adjacências,» Projeto de Lei Número 0188 (Ano 1998), and «Declaram Cidades-Irmãs Tel Aviv e São Paulo».

(٥٨) «Diário Oficial do Municipio,» São Paulo, Lei Número 11.741 (6 de abril de 1995).

مشروع القانون الذي أدرج العيد الوطني اللبناني في روزنامة البلدية»(٥٩).

يتبيّن إذاً أن القانون الذي اقترحه العضو المدان في البلدية سابق لتشريع اقترحته عطية، ويُزعم أنّه جعل عيد استقلال لبنان مناسبةً يُحتفل بها في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٩(٦٠). وإذْ رفضت عطية التحدّث إليّ، يبدو أن هناك سببين لزعمها أنّها صاحبة اقتراح إقامة هذا الاحتفال: الأوّل هو صلة غريب المباشرة بالفساد، وأي إشارة إليه بأنه «أب القانون» ستشوّه التعبير الأخلاقي للإثنية العربية في تلك المناسبة؛ والثاني هو أن عطية لم تضمن منصب عضو بديل في مجلس البلدية إلا في الانتخابات البلدية عام ١٩٩٦. لكنّ خسارة غريب حظوته عام ١٩٩٩ ضمنت لعطية مقعداً دائماً في مجلس البلدية، ومكّنتها من الاستعانة بالدوائر الانتخابية التي استجدى غريب نفسُه دعمَها، بما في ذلك الجالية السورية ـ اللبنانية. وأي تلميح إلى غريب كان سيقوّض مصالحها الشخصية في كونها المسؤولة المفترضة عن مناسبة حملت آمالاً بتغطية إعلامية إيجابية. وقد سعت عطية، بإعادة صوغ القانون الذي أرسى يوم عيد استقلال لبنان مناسبةً رسمية باسمها الخاص، لتطهير سمعة الجالية العربية التي تلطّخت بفضيحة الفساد، ولالتماس دعم الجالية الانتخابي والمالي وهو الأهم.

أمام طرح عطية نفسها أمّ القانون الذي استحدّث مناسبة الاحتفال بعيد استقلال لبنان، يوضح سجلّها التشريعي غاياتها السياسية. من ذلك أن مشاريع القوانين أو القوانين التي أجازها مجلس البلدية واقترحتها عطية تتضمن تغيير أسماء طرق عامة تكريماً لقادة محليين (من العرب ومن غيرهم)(٦١)، والإعلان عن اتفاقية توأمة بين ساو باولو ومدن كبرى أخرى دولية (غير عربية)(٦٢)،

---

(٥٩) «Monte Líbano,» *Chams*, vol. 7, no. 64 (January 1998).

(٦٠) «Institui no âmbito do município de São Paulo, o dia 22 de novembro como sendo o dia comemorativo da independência do Líbano,» Projeto de Lei Número 00543 (Ano 1999); «Diário Oficial do Município,» São Paulo, Lei Número 13.000 (7 de junho de 2000).

(٦١) هناك أمثلة كثيرة منها: «Denomina Rua Moacir Facundes, o logradouro no bairro Fazenda Aricanduva, Distrito da Cidade Líder,» Projeto de Lei Número 00193 (Ano 2001); «Altera denominação de praça pública.,» Projeto de Lei Número: 00345 (Ano 2000); «Altera denominação da Avenida Indianopólis para République Árabe Síria,» Projeto de Lei Número 00396 (Ano 2001), and «Altera denominação da Rua Valdemar para Rua Giuseppe Garibaldi,» Projeto de Lei Número 00454 (Ano 1998).

(٦٢) «Declara 'Cidade Irmãs' Monte San Giacomo e São Paulo,» Projeto de Lei Número 00368 (Ano 2000).

واعتماد أيام احتفالية رسمية في مجلس البلدية(٦٣) وفي هذا السياق، اقترحت عطية ثلاثة عشر قانوناً على الأقل من بين القوانين الثمانية والعشرين لعام ٢٠٠١ وقامت بوظائف رمزية استهدفت جماهير ناخبة معيّنة وممولين محتملين للحملات الانتخابية(٦٤)، فكان الصوت الانتخابي الشرق الأوسطي أحد الأصوات الناخبة لها. بيد أن تقنين الإثنية هذا لم يكن حكراً على عطية ولا على آخرين ظهرت أسماؤهم في دعاوى الفساد.

من الأمور الشائعة في أنشطة وجهاء الجالية من أعضاء المجلس البلدي ما كان للشرق الأوسطيين من الجيلين الثاني والثالث من سيَر مشابهة، تمثلت طوال تسعينيّات القرن الماضي باقتراح أو إجازة قوانين لتغيير أسماء طرق عامة، وبالتبرّع بعقارات عامة لجمعيات «خيريّة» سورية ولبنانية، وإبرام اتفاقات توأمة مع مدن كبرى دولية أخرى(٦٥) على سبيل المثال، أعيدت تسمية عدد من المتنزّهات العامة في مدينة ساو باولو إما تكريماً لنخب سورية ـ لبنانية في البرازيل وإما إجلالاً لمدن في الوطن العربي قدم منها مهاجرون. كما جرى اقتراح اتفاقات توأمة مع عمّان وبيروت ودمشق أو تحوّلت إلى قوانين في غرف مجلس بلدية ساو باولو. كانت هذه الأنشطة الرسمية، التي تُوجت دائماً بمناسبات راقية أو افتتاح مؤسسات، حيوية في نظر السياسيين لاكتساب سمعة طيبة والتملّق لنيل الدعم الانتخابي والمالي من دائرة الناخبين الإثنية.

عكس ترسيخُ الإثنية العربية في مجلس البلدية «حكومة إعادة الإعمار»

---

(٦٣) «Institui no âmbito do município de São Paulo, o dia 6 de junho como sendo o dia da mulher progressista,» Projeto de Lei Número 00424 (Ano 1998); «Institui no âmbito do município de São Paulo, o dia 22 de novembro como sendo o dia comemorativo da independência do Líbano,» Projeto de Lei Número 00543 (Ano 1999), and «Institui a comemoração annual do dia internacional da mulher,» Resolução Número 00001 (Ano 2000).

(٦٤) أشار صديق كان ناشطاً في الدوائر السياسية إلى اشتهار مريم عطية بتعاملها مع العملاء/ الزبائن. حتى إنه دسّ يده في جيبه في إيماءة إلى تلك السياسات. وفي ضوء ذلك، كُرّمت مجموعة من الرجال الذين ساعدوا على تمويل حملة إعادة انتخاب عطية التي تكللت بالنجاح في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٠ بوصفهم «رواداً» في ذكرى استقلال لبنان في تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١.

(٦٥) «Denomina Praça do Islã no Bairro do Paraíso,» Projeto de Lei no. 0894 (Ano 1995); «Denomina Praça Salim Abeid no Bairro do Paraíso,» Lei No: 12239 (28 de março de 1996); «Declara «Cidades Irmãs' Beirute e São Paulo,» Projeto de Lei no. 0158 (Ano 1996); «Denomina Praça Marjeyoun no Bairro de Paraíso,» Lei no. 13.029 (18 de julho de 2000), and «Declara «Cidades-Irmãs» Damasco e São Paulo,» Lei no. 12.886 (7 de outubro de 1999).

النيوليبرالية في ساو باولو. وكما ذكرنا سابقاً، أسست رئيسةُ البلدية مارتا سبليسي أمانةَ سرّ العلاقات الدولية التابعة لإدارة البلدية ما إن فازت في الانتخابات عام ٢٠٠٠. كما أقامت أمانة السر، إضافة إلى تعهّدها الشراكة مع «المنظمات المتعددة الأطراف»، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والمنظمات غير الحكومية الدولية، روابطَ رسميةً مع «ثلاثين جالية إثنية» في مدينة ساو باولو، فضلاً عن إقامة علاقات بقنصليات البلدان الأمّ لتلك الإثنيات وسفاراتها والكيانات الأخرى التابعة لها. يلخّص الموقع الإلكتروني للمجلس البلدي «الدور الإستراتيجي» الذي تصورتْه أمانة السرّ لنفسها بالتالي:

«مع مجيء العولمة وتسارع المبادلات التجارية الدولية، باتت المدن الكبرى مثل ساو باولو تضطلع بدور إستراتيجي في صياغة تعاون لا مركزي على المستوى المحلي... إن الطابع الإقصائي للعولمة قوّى دور المدن كجهات داعية محتملة إلى سياسات بديلة مثل السياسات الاجتماعية وإشراك المواطنين... وإلى إنشاء مؤسسات دولية أخرى أقل تنافسية وأكثر تنظيماً واتحاداً وعدلاً»(٦٦).

بالحديث عن العدالة، وعن الأخلاق ولو ضمناً، يجري تصوير أمانة السرّ بأنها وسيط مؤسسي يؤمّل بأن يُحسِّن، أو يصحح على الأقل، التأثير السلبي لقوى العولمة في المدن الكبرى مثل ساو باولو.

تُقدّم أمانة سرّ العلاقات الدولية على الخصوص خدمات خاصة إلى الجوالي المتنوعة. على سبيل المثال، دشّنت أمانةُ السرّ بوابة إلكترونية على الإنترنت بعنوان «ساو باولو: مدينة الألف شعب». يعكس العنوانُ «الأولوية» التي توليها إدارةُ سبليسي للدعاية، علماً أنها أنفقت أصلاً ٨٢,١ في المئة من موازنتها السنوية العامة المخصصة للدعاية خلال الشهور الثلاثة الأولى من عام ٢٠٠٢(٦٧). يوجد في الموقع الموجَّه إلى ثلاثين جماعة إثنية في ساو باولو كمّ هائل من المعلومات التي تحتفي وتعرض تواريخ وأحياء وخصائص جوالٍ ترجع

---

(٦٦) انظر الموقع الإلكتروني لـ Secretaria Municipal de Relações Internacionais, <http://www2.prefeitura.sp.gov.br/secretarias/relacoes_internacionais/organizacao/0001>.

(٦٧) Marcus Lopes, «Marta: Prioridade para publicidade,» *Jornal da Tarde* (27 March 2002), C3.

جذورها إلى أوروبا وأمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا والشرق الأوسط. كما يعرض الموقع إضافة إلى توثيق العدد الكبير من اتفاقات التوأمة التي أبرمتها مدينة ساو باولو مع المدن الكبرى الأخرى في العالم(٦٨)، لائحةً بـ «التواريخ الرسمية وتواريخ مناسبات» تُشيد بالجوالي الإثنية والعِرْقية في ساو باولو. وفي هذا السياق، كُرّم نحو عشرين «شعباً» بتحديد هذه الأيام الاحتفالية. من ذلك أن «يوم لبنان» يحين في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر، بعد أيام كلّ من ألمانيا وهنغاريا والنمسا و«الجالية الأفريقية البرازيلية» في تشرين الأوّل/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر. وأضحت هذه «المناسبات الاحتفالية» وسيلة يتوجّه أعضاءُ المجلس البلدي ورئيسته من خلالها إلى الناخبين ذوي المشاعر الإثنية أو العِرْقية وينشدون دعمهم.

بناء على ما تقدّم، لم تكن مشاركة رئيسة البلدية مارتا سبليسي ورئيس أمانة سرّ العلاقات الدولية جورج ماتوسو، في مناسبة الاحتفال بعيد استقلال لبنان عام ٢٠٠١ من قبيل المصادفة؛ فبوصفهما ممثلَين للحكومة المحلية، اعترفا بالجوالي الإثنية الناخبة طمعاً في استمالتها. بناء على ذلك، مثّل احتفال الحكومة المحلية بالإثنيات الشرق الأوسطية اعترافاً من جانب الحكومة بها وبحدود تأثيراتها في الأحلاف السياسية المهيمنة وخطاباتها، وهو ما يشير إلى إعادة إنتاج وإعادة تنظيم هرمية القوى الإثنية وقوة الدولة القومية اليوم. وقد وضعت هذه الإثنيات، على الرغم من استغلالها ككبش فداء بوصفها عناصر فاسدة في الحياة العامة، مشروع قيادة إثنية تعكس وترسّخ إثنية القوة السياسية وأخلاقها على نطاق واسع في البرازيل النيوليبرالية.

جادلنا في هذا الفصل بأن حضور الإثنية العربية تعاظم من خلال الحديث عن الفساد والأخلاق في ساو باولو. مثّلت فضيحة الفساد عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٠ تحدياً للمؤسسة المحافِظة وآذنت بتأسيس إدارة تنتمي إلى يسار الوسط برئاسة

---

(٦٨) انظر: <http://ww2.prefeitura.sp.gov.br//milpovosespecial/index_especial.htm>.

وبالتباهي «بوجود أكثر من أربعين قانوناً بلدياً يسمّي مدناً بأنها شريكات لساو باولو»، تشرح مقالة على الإنترنت أن هدف رئاسة البلدية هو «التعاون الدولي». جاء في المقالة: «تتعامل رئيسة البلدية مع الموضوع بتأنٍّ مبرمة اتفاقات مهمة. . . تزعى المصالح المشتركة للأطراف المعنيين. وفي هذا الصدد، ربما تصبح الجوالي ذات الأصول الأجنبية حليفات مهمات على صعيد إطلاق عمليات تعاونية والمحافظة على ديناميتها. وأحد معايير تحديد الشريكات المحتملات (المدن التوأم). . . إمكان إشراك الجوالي التي تتحدر من تلك المناطق» ضمن مدينة ساو باولو.

مارتا سبليسي. وبعدما عمد المسؤولون في مجالس البلدية المنصرفة والآتية إلى استخدام خطاب الشفافية، الذي أضفى عليه برنامج البنك الدولي لمكافحة الفساد صبغة شرعية، قُرن التباين الإثني للسياسيين ذوي الأصول الشرق الأوسطية بالفساد في التغطية الإعلامية. ولجأ هؤلاء السياسيون الذين صُوِّروا بأنهم فاسدون أخلاقياً في عناوين الأخبار على المستوى الوطني، إلى طرح مشروع المعرفة الحقَّة بالانتماء اللبناني والعربي داخل غرف مجلس بلدية ساو باولو. لكنّ تصريحاتهم التي تحدثوا فيها عن المُثُل الأخلاقية أخفقت في إقناع وسائل الإعلام وأبناء الإثنية العاديين الذين أقرّوا بوجود فساد عربي مزعوم. وحين ننظر إلى الاحتفال بالعيد الوطني اللبناني في سياق وجهات النظر المتنافرة هذه، تُظهر المناسبةُ اعترافاً أكبر بالانتماء العربي، وتُظهر أيضاً آفاقه المحدودة في حكومة مدينة ساو باولو التي قوي طابعها الإثني.

القسم الثاني

إعادة تنظيم النظام القومي

الفصل الثالث

الأتراك في نموذج السوق للديمقراطية العِرْقية

رأينا في الفصلين السابقَين أن عبارة «التركي» هي تسمية عامة لـ «الشرق الأوسطي» المقيم في البرازيل. استخدمت النخبُ البرازيلية هذه العبارة في الأصل في مستهلّ القرن العشرين لتحقير المهاجرين كونهم منبوذين اقتصادياً. لكنّ التجار السوريين ـ اللبنانيين الذين رفضوا هذا التصنيف الوضيع سعوا لتبوُّؤ منزلة أفضل عبر إرسال أبنائهم إلى معاهد تعليمية خاصة لتلقي العلوم بعد المرحلة الثانوية. استمرّت هذه الإستراتيجية الجيليّة الرامية إلى الترقّي الاجتماعي في سياقات مشابهة في الخارج (بالسفر إلى الولايات المتحدة غالباً). وقد بقي العمال السوريون ـ اللبنانيون غير الحرفيين يُسمّون في هذا السياق الحالي أتراكاً، لكنهم باتوا يمثّلون فئة مستقلة وإن عُدّ الوصفُ «مداعبة» أو «تهكماً».

ونظراً إلى أهمية هذا التحوّل، نتساءل في هذا الفصل عن سبل إبراز الإثنية السورية ـ اللبنانية من خلال لغة السوق والأيديولوجيا العِرْقية. طرأ تحول على علاقة الشرق الأوسطيين بفئة الأتراك في سياق الترقي الاجتماعي من خلال نموذجَي الاقتصاد البرازيلي: التصنيع الحضري في سبعينيّات القرن الماضي وإعادة هيكلة الصناعات غير الحرفية بعد ذلك. ومع أن الشرق الأوسطيين رأوا في عبارة «تركي» وصفاً تحقيرياً في النظام «المركنتيلي» في أوساط القرن العشرين، فقد شدّد أبناؤهم على معناها المنزّه عن التمييز في المهن الحرّة في يومنا الحاضر. ومن خلال التطوّر السوقيّ، اكتسب السوريون ـ اللبنانيون من ذلك الحين وصف التركي باستخدام اللغة الوطنية للديمقراطية العِرْقية. وتعبيراً عن الحنين إلى الماضي الإثني للباعة المتجولين، عرّف الشرق الأوسطيون

أنفسهم، كما عرّفهم الآخرون، بأنهم أتراك في هذا السياق الجديد في مهن حرّة تبدو أرقى لكنّها تشهد منافسة متنامية.

وبالانتباه إلى هذا الاعتراف الإثني بالشرق الأوسطيين غير الحرفيين في نموذج الديمقراطية العِرْقية الحالي، سنتطرّق في هذا الفصل إلى العلوم التي تُعنى بالأعراق، والفئات، والأيديولوجيا في البرازيل. وإذْ عَدّت المؤلّفاتُ الرائدة الأولى العِرْقَ نتاج تركيبة اقتصادية(١)، مالت الأعمال اللاحقة إلى عدّ العِرْق القوةَ الفصلَ في الحركية الاقتصادية(٢). لكنّ الأنثروبولوجي بيتر وايد دعا في مقاربة أكثر توازناً إلى النظر إلى «كُلّ من علم الاقتصاد وعلم السياسة والعِرْق والإثنية على أنها تؤثر بعضها في البعض الآخر، عوضاً من إفراد واحد أو إثنين منها على أنهما العاملان المقرِّران». وعملاً برؤى وايد، عاينتُ القوى المحرّكة بين الإثنية وحركية السوق والأيديولوجيا العِرْقية «من خلال وسط الثقافة»(٣).

اختيرت المهن الحرّة لضمان الحصول على منزلة أعلى وآمن مادّياً في أواسط القرن، لكنّها عادت على أصحابها بمنزلة ورواتب تتدنّى باستمرار اليوم. في هذا السياق، زيّن المهنيون من أصل شرق أوسطي الذين يتنقلون في السلّم الاجتماعي صعوداً وهبوطاً ماضي بيعَ التجوال، بما في ذلك تسمية التركي. تطور هذا الإعجاب المستجد بما كان يُعَد منزلة وضيعة مع التمثيل العام للمنحدرين من أصل سوري ـ لبناني في روايات هوراشيو ألجِرْز التي تحكي الترقي من مصافّ الباعة المتجولين إلى مصافّ خرّيجي الجامعات. وعلى النقيض من الإثنيات التي رفضت في أواسط القرن الماضي تسمية «تركي» كونها تسمية يراد منها التحقير، يتماهى أصحابُ المهن الحرّة اليوم مع هذه التسمية على أنّها تعبير عن «الاهتمام» و«عدم التمييز».

---

(١) Florestan Fernandes, *The Negro in Brazilian Society* (New York: Columbia University Press, 1969), and Marvin Harris, *Patterns of Race in the Americas* (New York: Walker, 1964).

(٢) George Reid Andrews, *Blacks and Whites in São Paulo, Brazil: 1888-1988* (Madison: University of Wisconsin Press, 1991); Michael Hanchard, *Orpheus and Power: The Movirnento Negro of Rio de Janeiro and São Paulo, Brazil, 1945-1988* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994), and France Winddance Twine, *Racism in a Racial Democracy: The Maintenance of White Supremacy in Brazil* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1998).

(٣) Peter Wade, *Race and Ethnicity in Latin America* (London: Pluto Press, 1997), p. 112.

تشير هذه النعوت إلى الهيمنة المستمرّة للديمقراطية العِرْقية لكن في سياق مبتكر. بيد أن البيانات الإحصائية التي تعكس صور عدم المساواة بين ما يسمّى «البيض» و«السود» تطعن في هذه «الأسطورة» القومية في صورة انتقادات يوجهها الأشخاص العاديون، ووسائل الإعلام والدولة[٤]. لكنّي أؤكد في هذا الفصل أن لغة السوق قوّضت الأيديولوجيا القومية وأكدتها أيضاً. صوّر الأتراك أنفسهم وصوّرهم الآخرون على أنهم خرّيجو جامعات يترفعون عن الجذور التجارية على المستويين العددي والشعبي. ومع التشديد على الوجود النادر للمحاباة في المهن الحرّة اليوم أو عدم وجودها على الإطلاق، حاز الشرق الأوسطيون اعترافاً إثنياً في ما أحسبه إعادة صياغة سوقية للأيديولوجيا القومية للديمقراطية العِرْقية.

أولاً: تصوّر الترقّي في السلّم الاجتماعي في مستهلّ القرن العشرين

زادت أهمية المهن الحرّة والتعليم الجامعي على نحو غير عادي في أربعينيات القرن الماضي مع توسّع الفئات الحضرية والصناعية، ويعود الفضل جزئياً في ذلك إلى برنامج توطين الصناعة الذي رعته الدولة في عهد غيتوليو فارغاس. وبالتالي، تطورت فئة جديدة من المهنيين غير الحرفيين داخل إدارة الدولة والمنظمات المهنية وقطاعات الخدمات ذات الصلة في المناطق الحضرية الوليدة. وكما أشار المؤرّخ برايان أوينسبي[٥]، تألفت فئة المهن الحرّة أساساً في النصف الأوّل من القرن العشرين من أبناء أصحاب المحال والصناعيين وأحفادهم. فبعد التخرّج في الجامعات، توافرت للأطباء والمحامين والمهندسين والخبراء الآخرين فرصة غير مسبوقة للترقّي في نظام اجتماعي حال على مرّ تاريخه دون ذلك.

---

(٤) لا ريب في أن المظالم حقيقية جداً. لكن ما ينبغي الإقرار به هو أن التباينات المادية لا تعني بالضرورة إمكان إنكار «الديمقراطية العِرْقية» كونها أشبه بستار دخاني. وقد أظهر جون بيورديك مهارة بملاحظته أن معاناة السيدات السوداوات التميز العرقي في مكان العمل لا تعني إنكارهنّ مُثل الديمقراطية العرقية. لكن ما أردتُ قوله في هذا الفصل أنه ينبغي عد الإحصاءات الاقتصادية التي شكّكت في الديمقراطية العِرقية بأنها حقيقة «اجتماعية ثقافية». انظر: John Burdick, *Blessed Anastacia: Women, Race, and Popular Christianity in Brazil* (New York: Routledge, 1998).

(٥) Brian Owensby, *Intimate Ironies: Modernity and the Making of Middle-Class Lives in Brazil* (Stanford, CT: Stanford University Press, 1999), p. 91.

وعلى الرغم من جمع الشرق الأوسطيين ثروات مادية، فإن الترقي إلى منزلة أسمى لم يكن متصوَّراً من دون تعليم الأبناء؛ فقد رأى عدد من الآباء المهاجرين أن الحصول على شهادة جامعية هو شرط للرفاهية الاقتصادية والرقيّ الثقافي للبنين والبنات. من الأمثلة على ذلك سامي الذي تجاوز السبعين من العمر بعدما أمّن تكاليف الدراسات الجامعية لأبنائه الستة في المحاماة والطب وعلم الاجتماع. قال سامي: «إن الأب العربي يقتطع من مأكله وملبسه، ولا يتوانى عن فعل أي شيء لتعليم أبنائه. [أراد] المهاجر [العربي] أن يمتلك أولاده جذوراً قوية، وأن يكونوا أصحاب مهن حرّة وكرامة وثقافة».

وفي هذا الصدد، لاحظ أوزفالدو تروزّي نمطاً تعليمياً مذهلاً لدى المهاجرين والأُسر السورية ـ اللبنانية من الجيل الثاني؛ فقد وجد أن أكثر من نصف عدد عيِّنة مُنتقاة من حملة الشهادات الجامعية الشرق الأوسطيين من كلّيات الطب والحقوق والمعاهد التقنية كانوا حتى عام ١٩٥٠ أبناء مهاجرين اشتغلوا في التجارة أو الصناعة(٦). قال تروزّي «إن رؤية الابن خريجاً جامعياً «تنقّي الدم» الأصيل»، لأن أبناء الجيل الثاني «سيزاولون مهناً تتميز بقيمة ذاتية أكثر شمولاً ومعرفة حقيقية مقارنة بالتجارة»(٧). وعلى المنوال نفسه، سعت جماعات إثنية أخرى، مثل اليهود واليابانيين(٨)، لامتلاك مزيد من الشرعية بتبني إستراتيجية مزاولة المهن الحرّة. لكن ما يميّز الشرق الأوسطيين هو المدلول التاريخي للنزعة التجارية.

بعد الترقّي في سلّم المهن الحرّة، تباهى أبناء الجيل الثاني بتضحيات آبائهم في سبيل تعليمهم. يقول رفاييل، وهو محام انتقل إلى مضمار السياسة يهوى استعمال الصور البلاغية: «كان اللبناني بائعاً متجولاً، لكنه لم يشأ أن يكون ابنه كذلك. فإذا كان يحمل جذع شجرة في يده، أراد أن يمسك ابنه قلماً بيده، أليس كذلك؟ . . . تلك كانت رغبة أساسية». وأعاد آخرون التشديد على أهمية الشهادة الجامعية. وقال الطبيب سمير: «كلّ أب لم يحصّل علماً في حياته، أراد، من جملة ما أراد لأبنائه، أن يحصلوا على شهادات دراسية. كانت

---

(٦) Oswaldo Truzzi, *Patricios: Sírios e libaneses em Sao Paulo* (São Paulo: Editora Hucitec, 1997), pp. 125-126 and 244-247.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٨) Jeffrey Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil* (Durham, NC: Duke University Press, 1999).

الشهادة الدراسية ضرورة فعلاً». ورددت فاليريا، وهي خرّيجة جامعية أكبر سناً أصبحت ربّة منزل اليوم، صدى العبارات نفسها تقريباً، وقالت «أراد جميع الآباء إرسال أبنائهم إلى الجامعات». وخلصت إلى أن الأصالة يمكن أن توفر للأجيال الشابة حياة أفضل. وبات يُنظر إلى مهن الأبناء الذين يزاولون مهناً تعتمد على شهادات تعليمية أمّن نفقاتِها آباءٌ زاولوا التجارة على أنّها انفصال رمزي للأبناء عن آبائهم.

على أن الشهادات الجامعية والمهن الحرّة كانت في أواسط القرن العشرين مقتصرة على الهندسة والمحاماة والطبّ. وفي ذلك يقول المهندس فلاديمير، وهو لبناني من الجيل الثاني: «التحقتُ بالكلّية عام ١٩٥٨، أي قبل ثلاث وأربعين سنة. . . وكانت المهن الحرّة وقتئذٍ هي المحاماة والهندسة والطبّ». وهو على سعادته بمهنته يعزو خياره دراسة الهندسة لـ «عدم ميله» إلى الطبّ أو المحاماة. هذا الاختيار المقيَّد للمهن ملاحَظ في حالة أسد أيضاً، وهو من الجيل الثاني كذلك. يحكي أسد الذي أصبح اليوم محامياً ناجحاً، أنّه التحق بكلّية الطبّ أولاً، لكنّه تركها بعدما عاين جثة إنسان؛ فالتحق ببرنامج لتدريس القانون. لكنّ الشكوك لا تزال تساور هذا الشاب الذي يواصل العمل في متجر أبيه لبيع الألبسة في شارع ٢٥ دي ماركو حيال مهنة المحاماة. ومع ذلك، ارتدى في يوم الوليمة التي أقامها بمناسبة تخرّجه لباساً رسمياً، وهو ما حمل زميلة له تتردد باستمرار على متجر والده على الإشارة من دون قصد إلى أنّه «ذلك الصبي الذي يعمل في المتجر الصغير». وبحسب تعبيره، أثّرت عبارة «ذلك الصبي الذي يعمل في المتجر الصغير» فيّ كثيراً، فقلت في نفسي «أنا لا أُعرف سوى أنّني صبي يعمل في متجر صغير، ولا علاقة لي بهذه الوليمة». تأثرتُ بتلك العبارة فعلاً. حينها قررت مزاولة المحاماة. تلك كانت العبارة التي أقنعتني بوجوب مزاولة المحاماة.

لم يكن أسد الشخص الوحيد، فسجلات كلّية ساو باولو للحقوق الشهيرة[٩]، التي أصبحت اليوم تابعة لجامعة ساو باولو، تزخر بأسماء شرق أوسطية. وعلى عكس ثلاثينيّات القرن الماضي حين تخرّج عدد ضئيل من الشرق الأوسطيين في كلّيات الحقوق، فقد بلغت نسبة حاملي أسماء عائلات

(٩) Armando Marcondes Machado, Jr., *Centro Acadêmico XI de Agosto: Faculdade de Direito de Sao Paulo, 1961-1998*, 4 vols. (São Paulo: Mageart, 1998).

شرق أوسطية من خرّيجي هذه الكليات ٤,٥ في المئة (٩ من أصل ٢٠٦) سنة ١٩٤٠، ووصلت تلك النسبة بعد عشرين سنة إلى ٥,٧ في المئة (١٩ من أصل ٢٨٠) عام ١٩٦٠. وفي الأمس القريب، عام ١٩٨٥، بلغت نسبة حاملي الأسماء الشرق الأوسطية ٧,٥ في المئة من مجموع الخرّيجين (٢٨ من أصل ٣٧٤)[١٠]. وفي ذلك إشارة واضحة إلى تخلّي الأبناء السوريين واللبنانيين عن العمل في «المتاجر الصغيرة» في شارع ٢٥ دي ماركو في ساو باولو.

يمكن ملاحظة زخارف عربية أخرى في سجلات كلّية الطبّ الشهيرة في جامعة ساو باولو. ففي حين لم يظهر سوى اسمين أو ثلاثة أسماء شرق أوسطية في سجلات الخرّيجين حتى مستهلّ ثلاثينيّات القرن الماضي، بلغت نسبة الخرّيجين من أبناء الجالية السورية ـ اللبنانية ٧ في المئة (٦ من أصل ٨٠) سنة ١٩٤٠. وفي عام ١٩٦٠، استقرّت نسبة خرّيجي هذه الكلّية من الشرق الأوسطيين عند نسبة ٦,٣ في المئة (٥ من أصل ٨٠). وبعد عشرين سنة، تراجعت تلك النسبة بعض الشيء لتبلغ نحو ٥,٥ في المئة (١٠ من أصل ١٨٠)[١١]. ومع ذلك، مثّل هؤلاء ٧ في المئة من مجموع الخرّيجين الذين يزاولون الطبّ في مدينة ساو باولو اليوم (نحو ١٣٠ من أصل ١٩٠٠). الظاهر أن ذلك راجع إلى أن أغلبية الشرق الأوسطيين استقرّوا في هذه المنطقة. ويتبين بالتالي أن أبناء التجار المهاجرين التحقوا بالطبقات المثقفة في المدينة والبلاد عموماً.

لكنّ نشدان الشهادة الجامعية وحيازتها والعمل بمقتضاها اكتنفته مظاهر عدم المساواة بين الجنسين. فقد مُنع الطالبات اللواتي التحقن ببرامج دراسية مهنية وجامعية من العمل بشهاداتهنّ. تحكي لينا، وهي لبنانية من الجيل الثاني في أواخر العقد الخامس من عمرها، أن والدها شجّعها على دراسة اللغات في الثانوية العامة وفي الكلّية. لكنّ القلق استبدّ به حين عملت مترجمة من اللغتين

---

(١٠) بمعاينة نتائج مماثلة، لاحظ تروزّي ونولتون الالتحاق المدهش للسوريين-اللبنانيين في عدد من كلّيات الحقوق المرموقة في ساو باولو طوال ستينيات القرن الماضي أيضاً. انظر: Truzzi, *Patricios: Sírios e libaneses em sao Paulo*, and Charles Knowlton, *Sírios e libaneses em São Paulo* (São Paulo: Editora Anhembi, 1961).

(١١) إن هذا التراجع الكبير في نسبة الخرّيجين الشرق الأوسطيين في الكلّية، على أهميته، ربّما يرجع إلى جملة من العوامل. فمن ناحية، يمنح عدد من المعاهد بعد مرحلة الثانوية شهادات في الطبّ. ومن ناحية أخرى، يشير الأطباء المتمرسون إلى أن «المكانة» و«الجاذبية» التي يتمتع بها الطبيب ضعفت في السنين الأخيرة، وهذا ما سنناقشه في المبحث الثالث في هذا الفصل.

الفرنسية والإسبانية في وكالة سياحية عامة في ساو باولو. وبحسب تعبيرها، سألها والدها «يا ابنتي، ما الذي ينقصكِ في المنزل؟ وما هو الشيء الذي لم أوفّره لكِ ويجعلكِ تريدين العمل؟». تظنّ لينا، التي أصبحت ربة منزل اليوم، أن والدها «أراد لبناته الدراسة والتخرّج، لكنه لم يرد لهنّ العمل». وفي هذا السياق، وجد تروزّي أن «الغاية من تعليم الإناث لم تكن ممارسة مهنة، وإنما تلقّي العلم فقط»(١٢). وكما أشار ثورستاين فيبلِن(١٣) في نهاية القرن التاسع عشر، كانت الغاية من تعليم الإناث توفير الدعم لأسرهنّ في المنافسة و«المقارنة التي تثير الحسد» في أوساط الطبقة المترفة، وهذا يتضمن إستراتيجيات تزويجهنّ وعقد ارتباطات مع أسر مرموقة(١٤).

وفي الوقت الذي لزم الإناث منازلهنّ أو عملن في منظمات خيريّة(١٥) شُجّع الرجال على مزاولة الأعمال المهنية. على سبيل المثال، امتلك أربعة عشر من أصل ثمانية عشر عاملاً غير يدوي ممن أجريت مقابلات معهم مكاتب أو مؤسسات في مجالات الطبّ والمحاماة والهندسة في البرازيل بعد الحرب العالمية الثانية. وفي هذه الحالات، واصل شقيق أو أكثر إدارة أعمال الأُسرة أو جمْع عائدات إيجارات العقارات المشغولة، أو بيع محال تجارية أو أملاك لتأسيس أعمال مهنية. على سبيل المثال، عمل فلاديمير، الذي بات الآن في الستين من عمره، بنصيحة والده المهاجر (الذي عمل في شارع ٢٥ دي ماركو) وأصبح مهندساً مدنياً في أواخر خمسينيّات القرن الماضي. وبعدما حاز خبرة في تجديد منازل أصدقاء أُسرته، أسس شركة هندسة بالاشتراك مع شخص آخر من أبناء بلده. وهو الآن يحصل بالعمل في قطاع الإنشاءات المدنية على معيشة تليق بأبناء الطبقة الوسطى الميسورة. في هذه الأثناء، تولّى شقيقه إدارة أملاك الأُسرة وعدل عن البيع بالجملة إلى عمليات البيع بالتجزئة في شارع ٢٥ دي ماركو. وفي حالة معاكسة إلى حدّ ما، ضمن الطبيب سمير، وهو سوري من

(١٢) Truzzi, Ibid, pp. 130-131, and Sarnira Adel Osman, «Carninhos da imigração arabe em São Paulo: História oral de vida familiar,» (Masters Thesis, Universidade de São Paulo, 1998), pp. 19-20.

(١٣) Thorstein Velben, *The Theory of the Leisure Class* (1899) (New York: Prometheus, 1996).

(١٤) هناك بالطبع دينامية تغيير في المسارات المهنية للإناث في التعليم الجامعي. لكن وكما ذُكر في مناسبة الاحتفال بذكرى استقلال لبنان (وفي مناسبة سنأتي على ذكرها لاحقاً)، لا تحظى الإناث بالشهرة لإنجازاتهنّ في التجارة أو في المهن الحرّة إلّا نادراً.

(١٥) Truzzi, Ibid., pp. 130-132.

الجيل الثاني، عملاء منتظمين وعيشاً كريماً في مهنته بالعمل في المستشفى السوري اللبناني. وباتت أملاك والده (الذي عمل في بيع الأقمشة بالجملة) مؤجَّرة الآن، وعائداتها تقوّي دخل شقيقته التي تعمل معلّمة. وفي سياق مختلف، التحق شقيقان من أسرة غنطوس في كلّية الحقوق في ستينيّات القرن الماضي بتوجيه من والدهما الذي حقق نجاحاً في سوق الأقمشة. وبعدما أغلق الشقيق الأكبر ليام محال أسرته وباعها «لأن لا أحد يريد مواصلة العمل في شارع ٢٥ دي ماركو»، قال إن أشقاءه الثلاثة استثمروا ثمن الأملاك كرأسمال تأسيسي لافتتاح مؤسسة قانونية ناجحة بالقرب من أفينيدا في باوليستا.

تشير المسارات المتمايزة التي سلكتها هذه الأُسر الثلاث إلى العلاقة المستمرّة بالإثنية لا إلى إستراتيجيات جمع الثروات المتشعبة المتاحة لأبناء الجيل الثاني فقط. وفي حالة الأشخاص الذين تخلّوا عن المهن والوظائف التجارية ذات الطابع الإثني المتميز للآباء المهاجرين بوجه خاص، تأمّنت معيشة أبناء الطبقة الوسطى الميسورة من خلال التعامل مع الأُسر والأصدقاء والزملاء من أبناء الجالية. ومن الأمور التي كانت مشتركة لدى عدد من الجماعات المهاجرة الأخرى في البرازيل[١٦] هو تنقّل العمال غير الحرفيين البرازيليين العرب في الوظائف من خلال العلاقات ضمن الإثنية بعد الحرب العالمية الثانية.

ثانياً: الأتراك على هوامش الديمقراطية العِرْقية في أواسط القرن العشرين

أضحت مرونة التنقل الوظيفي للمهاجرين وأبنائهم احتمالاً حقيقياً، إن لم يكن تجربة حية، في عهد الرئيس البرازيلي فارغاس. بيد أن أيديولوجيا عِرْقية قوية قيّدت مخيلة تحدي النظام الاجتماعي وجمّدتها في الوقت عينه. يصوّر لنا جيلبيرتو فريري في معرض حديثه عن ماضٍ أسطوري للمزارع الاستعمارية في كتابه **الأسياد والعبيد**، العلاقاتِ العِرْقية المتناغمة في الظاهر بين الأسياد والعبيد ضمن نظام رعوي[١٧]. في هذا السيناريو، أُسند إلى البيض دور الراعي

(١٦) Boris Fausto, ed., *Fazer a América: A Imigração em massa para a America Latina* (São Paulo: Editora da Universidade de São Paulo, 1999); Maureen O'Dougherty, *Consumption Intensified: The Politics of Middle-Class Daily Life in Brazil* (Durham, NC: Duke University Press, 2002), and Owensby, *Intimate Ironies: Modernity and the Making of Middle-Class Lives in Brazil.*

(١٧) Gilberto Freyre, *Casa grande e senzala* (1933) (Rio de Janeiro: Jose Olympio Editora, 1977).

المُحسن، والسادي أحياناً، في حين جُعل أصحابُ البشرة البنّية والسوداء وسطاء واتباعاً. وبحسب رؤية فريري، ساعدت هذه العلاقات بين الراعي والعميل على الإبقاء على وجود ضئيل أو زائل للنّعرة العِرْقية. وساد اعتقاد بأن المحافظة على الوضع الوظيفي للبيض والأتباع ذوي البشرة البنّية والسوداء في نظام اجتماعي متغيّر ضمنت الانسجام العِرْقي في البلاد. كما أنّ الأيديولوجيا القومية للديمقراطية العِرْقية المتصوَّرة في زمن تقاطعت فيه مصالح الرعاة في الاقتصاد القائم على الزراعة مع مصالح نظام الصفوة في السوق الصناعية الحضرية(١٨) رسّخت الوضع القائم للعِرْق في البرازيل في أواسط القرن.

لم يكن للمهاجرين الشرق الأوسطيين حضور في هذا النظام الرعوي العِرْقي للماضي الأسطوري الذي تحدّث عنه فريري. وكما مرّ معنا في الفصل الأوّل، نظرت النخب البرازيلية إليهم على العموم بأنهم أتراك في النصف الأوّل من القرن العشرين. ومع ذلك، ردّ هؤلاء الذين يسمّون أتراكاً بطرائق مبهمة. على سبيل المثال، رأى جورج البستاني، وهو لبناني فخور بنفسه من الجيل الثاني كتب عن لبنان واللبنانيين في البرازيل عام ١٩٤٥، أن تسمية التركي خاطئة:

«إن اللبنانيين المهاجرين حملوا جوازات سفر صادرة عن السلطات التركية. . . وصُنّفوا «أتراكاً» لأن تركيا منحتهم الإذن الرسمي بالسفر. . . وكل كائن قدم من تلك المنطقة الشرقية اشتُهر بأنه «تركي» أيضاً سواء أكان مصرياً أم فارسياً [هكذا في الأصل] أم سورياً أم فلسطينياً أم لبنانياً»(١٩).

وفي الوقت عينه، رأى توفيق ضعون(٢٠) أن اللبنانيين والسوريين والفلسطينيين «سمّوا «أتراكاً»» لأن المنطقة التي جاؤوا منها كانت تابعة للسلطنة العثمانية. لكنّه أقرّ بأن هناك «نيّة مبيّتة غيّرت بالكامل معنى العبارة المستخدَمة، وهو ما جعلها رديفة للتحقير». وأضاف وديع صفدي أن «عبارة تركي مرادف طبيعي «للشرق الأوسطيين بوصفهم» رعايا أتراكاً [أو عثمانيين]». وقال إنّه

(١٨) Owensby, Ibid.

(١٩) Jorge Tanus Bastani, *O Libano e os libaneses no Brasil* (Rio de Janeiro: Mendes Junior, 1945), p. 123.

(٢٠) Taufik Duoun, *A emigração sirio-libanesa as terras de promissao* (São Paulo: Tipografia Editor a Arabe, 1944), p. 56.

لدواعي المنافسة الاقتصادية، «شاع استعمال عبارة تركي. . . كصفة ذميمة»[٢١]. ولخّص جميل صفدي تسميات «العرب» المتنوعة في البرازيل مشيراً إلى أن «التركي عبارة شائعة تُطلق عادة على البائع الريفي في جميع أنحاء البرازيل». كما أنّ عامّة المثقفين السوريين ـ اللبنانيين يقرّون في سياق تفسير التاريخ المقبول ظاهرياً لعبارة تركي بمعناها الانتقاصي طوال الأزمنة التي تلت الحرب العالمية الثانية.

لكن في ما يُشبه التبرير، أشار توفيق ضعون[٢٢] إلى أنّ «المهاجرين الأوائل ربما استحقّوا في الظاهر هذه العبارة الازدرائية». وتقتضي إشارته إلى «المظهر الذي ينمّ عن قلّة شأن الشرق الأوسطيين الوافدين حديثاً أن الفئة المشار إليها لم تتصف بالدهاء الفطري وحسب، بل بافتقارها إلى «التمايز» أيضاً»[٢٣]. وقالت لي فاليريا اللبنانية من الجيل الثاني مصححةً: «ليس المراد بعبارة تركي البخيل «الشحيح» فقط، بل هي تقتضي ضمناً أن الشرق الأوسطيين غير مهذّبين واجلاف الظلّ» أيضاً لاشتغالهم بالأعمال اليدوية، ولزيهم المتواضع، ولغتهم البرتغالية المكسّرة، وعاداتهم السيئة في الطهو (كما سيأتي في الفصل الخامس). واعترافاً بالمضمون السلبي للعبارة، عابت هذه النخب السورية ـ اللبنانية على جماعتها افتقارها الواضح إلى التمايز في الأزمنة الأولى.

رداً على ذلك، عدل الشرق الأوسطيون إلى المضمار المهني الحرّ للترفّع عن مكانة التركي «الوضيعة». وهناك طرفة لا تزال رائجة في أوساط الجالية السورية ـ اللبنانية تشير إلى كيفية تلازم المهاجرين وأبنائهم مع الأصول التجارية الوضيعة. عن هذه النكتة يقول سمير، «عندما وصل العربي، عمل بائعاً جوّالاً. كان فقيراً وكان تركياً. وبعد أن جنى بعض المال، أصبح سورياً. وبعد أن أصبح مليونيراً من الطبقة الراقية، أصبح لبنانياً»[٢٤]. وبما أننا سنناقش في الفصل

(٢١) Wadih Safady, *Cenas e cenários dos caminhos da minha vida* (São Paulo: Penna Editora, 1966), pp. 140-141.

(٢٢) Duoun, Ibid., p. 57.

(٢٣) Pierre Bourdieu, *Distinction: A Social Critique of the Judgment of Taste* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984).

(٢٤) في اللغة العامية، يشير الزملاء إلى التركي غالباً بأنه بائع متجوّل فقير، وإلى السوري بأنه «صاحب متجر «مداوٍ» أو «من أبناء الطبقة الوسطى»، وإلى اللبناني بأنه من أقطاب المجتمع الراقي «الأغنياء». =

الخامس التمييز بين السوريين «المتطوّرين» واللبنانيين «الميسورين»، يكفينا الآن القول بأن هذه النكتة ساوت بين عبارة التركي والأصول الوضيعة. وكانت المكانة المهنية الحرّة في نظر المتحدرين من الشرق الأوسط مصدر القوة المادّية والرمزية اللازمة للسموّ بالإثنية العربية عن تلك المكانة الوضيعة في البرازيل.

وكخطوة أولى لإبراز التمايز في أواسط القرن العشرين، أرسل الآباء المهاجرون أبناءهم إلى المعاهد الإعدادية والثانوية التي ترتادها النخب التقليدية مثل كلّية سيون، وكلّية القلب المقدّس، ومعهد ديس أويسسيوكس. لكنّ هؤلاء السوريين ـ اللبنانيين وجدوا أنفسهم مصنّفين بأنهم أتراك(٢٥). قالت إحدى السيدات، «عندما كنت أتشاجر مع زميلاتي، كنّ يقلن لي تركية»(٢٦). وقال رجل آخر في السبعينيات من عمره «عندما كنا أطفالاً في المدرسة... كان زملائي يقولون لي، أيها التركي الصغير». وكان هذا يسري على المعلّمين أيضاً. قالت سيدة أخرى: «ساد في المدرسة تمييز ضدّ من أصله «تركي». كانت الراهبات غبيّات فعلاً، وكنّ يعذبننا كثيراً. في ذلك الوقت، كنّا محتقرات في كل معنى الكلمة. وكان هذا التمييز عاماً إلى حدّ ما»(٢٧). ويعتقد إيناسيو، وهو من الجيل الثاني، أن السبب الكامن وراء ذلك يكمن في الجذور التجارية للآباء المهاجرين. قال إيناسيو إن شقيقته كان يُنظر إليهما على أنهما من جنس متدنٍّ على الرغم من أنهما «التحقتا بمدارس جيدة» ـ وذلك لأصول آبائنا المتواضعة أولاً ولعملهم بائعين متجوّلين وما يعنيه ذلك. من الذي أنهى تعليمه؟... «أعتقد أنّه في المجموعة التي ينتمي إليها جيلي، تخرّج واحد أو اثنان فقط في كلّية الطبّ»(٢٨). أي أن الفتيان الشرق الأوسطيين الذين التحقوا بمدارسة النخب وجدوا من يذكّرهم بأصلهم المتواضع لاختلاف إثنيتهم في أواسط القرن العشرين.

= وقد استُخدمت العبارة الدارجة بطريقة أو بأخرى في أعمال أكاديمية متنوعة، من هنا اختارت منتهى الخوري كامبوس عنواناً لكتابها: تركي فقير، سوري متطور، لبناني غني. انظر: Mintaha Alcuri Campos, *Turco pobre, síria remediado, libanes rico: A trajetória do imigrante libanes no Espírito Santo* (Vitoria: Instituto Jones dos Santos Neves, 1987).

(٢٥) أعدّ هذا الملخّص بيتي غريبر ولينا معلوف وفيرا مطر، وهو يحتوي على نحو عشرين مقابلة منقّحة مع سوريين ولبنانيين مهاجرين ومع أبنائهم في البرازيل. والمقتطفات التي أوردناها في هذه الفقرة مقتبسة من ذلك الملخّص. انظر: Betty Greiber, Lina Maluf and Vera Mattar, *Memórias da imigração: Libaneses e sírios em São Paulo* (São Paulo: Discurso Editorial, 1998).

(٢٦) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(٢٧) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(٢٨) نقلاً عن: المصدر نفسه، ص ١٥٣-١٥٤.

على الرغم من أن الطلاب «تساموا» عن الأصول التجارية لآبائهم المهاجرين فقد أعيد تصنيفهم أتراكاً في المدارس الإعدادية، وبقي الأمر كذلك في مسيراتهم التعليمية والمهنية. يحكي لنا البستاني[٢٩] حكاية أب لبناني مهاجر وابنه في ولاية ميناس غيرايس؛ قال إن الأب الشرق الأوسطي ضحّى بالغالي والنفيس لكي يُرسل ولده إلى كلّية عسكرية في ريو دي جانيرو. كتب البستاني: «بما أنّ هذا الابن كان ذكياً جداً ومتفوقاً على زملائه دائماً «في المدرسة» فهو تحوّل إلى هدف لأشدّ الهجمات قسوة من جانب بعض زملائه الذين دأبوا على تسميته «ابن الأتراك» لتحطيم معنوياته. فابتُلي الولد بعقدة «الشعور بالدونية»، لكنه أتم دراساته». وفي اليوم المصيري الذي أقام فيه حفلة تخرّجه، ألقى كلمة في زملائه وأبيه «البشوش». لكنّ الابن، بحسب كلمات البستاني، «لم يتطرق إلى موضوع سوى ترقّيه، والهجمات وصنوف الإذلال التي تعرّض لها، واحتقار زملائه له، ليعلن أخيراً أن مردّ ذلك كلّه كونه «ابن تركي» وأنه «يشعر بالخجل من عِرْقه ومن أسلافه»[٣٠].

على الرغم من تشديد البستاني على الصعود المتدرج «لأحفاد اللبنانيين» في ميادين الطبّ والمحاماة والهندسة[٣١]، توحي حكاية هذا الابن المقصيّ ووالده المجاهد أن اسم تركي «الوضيع» بقي يعذّب الشرق الأوسطيين في مسيراتهم التصاعدية. ولا يسعني سوى القول عقب قراءتي لهذه القصة إنّ هذا الطالب العسكري بقي «ابن تركي».

وهناك قصة أخرى حكاها عدد من الشرق الأوسطيين عن القاضي المشهور والسياسي المحنّك الفريدو بوزّيد. يذكر أرستقراطي يدعى صامويل، وهو طبيب ناجح، أنّه في أثناء الفحص الشفهي الذي خضع له بوزّيد للحصول على كرسي الأستاذية في كلية الحقوق في جامعة ساو باولو، عانى «تحامل» اللجنة الفاحصة التي قالت إنّها «تُؤثر الزنجي على التركي». رأى صامويل أن إخضاع بوزَيد للفحص مسألة فيها نظر، لأنه خالف تقليداً عريقاً لدى النخب البرتغالية البرازيلية التي تدرس في الكلّية أو تدرّس فيها. بالنسبة إلى بوزَيد، «لم يكن الالتحاق بكلّية الحقوق كطالب الأمرَ الأصعب، وإنما العمل فيها أستاذاً

(٢٩) Bastani, *O Libano e os libaneses no Brasil*, pp. 163-164.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٦٣-١٦٤.

(٣١) المصدر نفسه، ص ١٧١.

مدرّساً، وأصعب من ذلك العمل أستاذاً مدرّساً دائماً»، بمعنى حصوله على مقعد دائم في الكلّية[٣٢]. وبالتالي استحضر السوريون ـ اللبنانيون الذين عُدوا أتراكاً التحاملَ السابق على العمال غير الحرفيين.

وصف تروزّي عوائق مشابهة واجهها الأساتذة السوريون ـ اللبنانيون في كلّية الطبّ في جامعة ساو باولو[٣٣]. على سبيل المثال، وصل د. بوسمارة نعمة إلى رتبة أستاذ مشارك في خمسينيّات القرن الماضي، لكنه أُرغم على الانتظار نحو عشرين سنة قبل افتتاح المباراة لشغل منصب أستاذ دائم[٣٤]. يروي لنا تروزّي أن نعمة واجه تعليقات مثل «لا تعلن عن المباراة لكي لا يشارك فيها هذا التركي» و«هذا التركي الصغير يريد الكثير». وبالمثل، يحكي د. سامي عرب، وهو طبيب ناجح، أنّ مناصب الأساتذة الدائمين ظلت حكراً على البرتغاليين البرازيليين، على الرغم من تخرّج أبناء البلد في عدد من كلّيات الطبّ في أواسط القرن العشرين. وقيل بوجه خاص إن الأطباء من أصول شرق أوسطية في جامعة ساو باولو «لم يحصلوا على أي لقب فيها». حتّى إن د. ضاهر إلياس قُطَيط الذي تدرّب في الولايات المتحدة وأوروبا[٣٥] ظلّ في هيئة التدريس «أستاذاً مشاركاً ولم يصبح أستاذاً دائماً أبداً». يتضح إذاً أن مساعي الشرق الأوسطيين للتسامي على أصولهم التجارية لم تخلّصهم من لقب الأتراك الذي نعتهم به البرتغاليون البرازيليون الذين بقوا متربّعين على النظام الاجتماعي المتغيّر في أواسط القرن العشرين.

ثالثاً: حاضر طبقة الموظفين وماضيهم الإثني في إعادة الهيكلة النيوليبرالية

لدى استحضار التحامل السابق في إطار قابلية التطوّر في السوق، يرى إثني من غير الحرفيين، مثل د. عرب أنّ هذا العائق «زال بعد الثمانينيات». لكنّ المهن الحرّة مثل الطبّ والهندسة والمحاماة هي التي أظهرت حالات تنافس محتدم هذه المرّة، الأمر الذي أدى إلى خفض الأجور وإلى تحديد المهارات

(٣٢) Truzzi, *Patricios: Sirios e libaneses em Sao Paulo*, p. 140.0

(٣٣) المصدر نفسه، ص ١٤٢.

(٣٤) نظراً إلى العدد المحدود للتعيينات في كل مستوى في نظام «المناصب» في الجامعات البرازيلية، تُجرى منافسات مفتوحة دورياً يشارك فيها مرشحون مؤهلون.

(٣٥) Daher Elias Cutait, *Um medico, uma vida* (São Paulo: Editora Mandarim, 2000).

اللازمة لنيل الوظائف. ومع الانفتاح الاقتصادي وخصخصة القطاع العام، تجلّى هذا الميل خصوصاً في مجال الطب، وهذا يعود أساساً إلى الاتفاقات أو منظمات الإدارة الصحية التي أسستها جماعات أوروبية وأمريكية عابرة للحدود[٣٦]. يشير ستةُ أطباء في منتصف أعمارهم إلى أن المشكلة الرئيسيّة مع منظمات الإدارة الصحية تقنينها خفض أجور الأطباء أياً تكن قدراتهم أو جهودهم. وهم يعتقدون أن المتخرّجين حديثاً في كلّيات الطبّ يواجهون صعوبات جمّة في التمتع بعيش كريم هذه الأيام. على سبيل المثال، يقول د. رياض يونس، وهو طبيب مرموق:

«إن الأمر يزداد سوءاً من سنة إلى أخرى، وهو ما يعني أن السوق متخَمة، وخصوصاً في المدن الكبيرة، والخيارات تتقلّص شيئاً فشيئاً. . . ومن دواعي الأسف أنّه سيتعين على أغلبية [خرّيجي كلّيات الطبّ] معاقبة أنفسهم لأن [السوق] مشبَعة ولأن منظمات الإدارة الصحية تستحوذ على تلك الشريحة السكانية التي يمكنها فعلاً دفع بعض المال لك. بالتالي ستنخفض عائداتك كثيراً لأن منظمات الإدارة الصحية تدفع القليل».

أُرغم خرّيجو كلّيات الطبّ الآن على العمل لمصلحة الاتفاقات الطبّية أو النظام الصحي الحكومي المتعثّر على حدّ قول أطباء مرموقين مثل يونس. بهذه الطريقة، تآكلت العائدات المادية التي كان يُظَنّ أن جنيها سهل بممارسة المهن الحرّة بسبب التحرير الجديد للاقتصاد في البرازيل.

في هذه الظروف، شدّد الأطباء الميسورون على أهمية التميز في العمل للتمكن من حياة كريمة. يقول عرب: «إذا كان أغلب الأطباء يعتمدون على الاتفاقات ويعيشون حياة صعبة نوعاً ما، فلا يمكن لغير من يتمتع بشهرة مهنية كبيرة ومكانة رفيعة مثلنا فتح عيادة خاصة والانضمام إلى الفرق الطبّية في المستشفيات المرموقة». وأشار يونس بدوره إلى أن الانضمام إلى فريق طبّي في مستشفى جيد ممكن فقط بالتحلي «بقليل من التميّز». كما أنّ الحصول على

(٣٦) لم يؤدّ الانفتاح النيوليبرالي للاقتصاد إلى الآن إلى تغيير ذي شأن في مجال القانون، مع أن المفاوضات جارية حالياً بين الحكومة البرازيلية ومنظمة التجارة العالمية. وقد أعربت جمعية المحامين البرازيليين، الشبيهة بجمعية المحامين الأمريكيين، عن مخاوفها من فتح القطاع القضائي في الاقتصاد أمام المؤسسات الحقوقية الأجنبية. انظر: **«Advogados temem abertura de mercado,»** ***Gazeta Mercantil*** **(30 August 2002).**

وظيفة في مؤسسة لديها عملاء من الطبقة الراقية يمكّن الأطباء من الحصول على رواتب أعلى من رواتب منظمات الإدارة الطبّية ودعمها بمبالغ جانبية ومكافآت شرفية يتم الاتفاق عليها مع المرضى. لذلك يعكس التميزُ في مهنة الطبّ كفاحاً مستميتاً للعيش في مصاف الطبقة الوسطى في البرازيل[٣٧].

لم يكن من قبيل المصادفة أن كلاً من عرب ويونس شارك في برامج تخصصية في فروع الطب وفي مؤتمرات في الخارج. إن يونس اختصاصي مشهور في علاج المسالك البولية، وهو من مواليد البرازيل من أبوين سوريَّين تكفّلا بتغطية نفقات دراساته الأولى في الخارج. أصبح والده في عداد الطبقة الوسطى بصناعة القمصان وامتلك منزله الخاص في وسط مدينة ساو باولو. وبما أن الأبوين افتقرا إلى العلاقات الشخصية بالمؤسسة الطبّية، فقد اعتقدا أن نيل «شهادة دولية» هي السبيل الوحيدة لضمان نجاح ابنهما كخرّيج جامعي في البرازيل، وهذا ما حصل. فبعدما تلقّى عرب علومه على يدّ ألمع الاختصاصيين في المسالك البولية في فرنسا وألمانيا وإنكلترا وبلدان أوروبية أخرى فضلاً عن أمريكا الشمالية، أصبح أستاذاً دائماً في جامعة ساو باولو وهو الآن رئيس قسم المسالك البولية في أحد المستشفيات المحلية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى يونس، إذ عقب تخرجه في كلّية الطبّ بجامعة ساو باولو، التحق بمركز متخصص بعلاج السرطان في مدينة نيويورك كطبيب مقيم لمدّة سنتين. وهو هاجر في شبابه من لبنان مع أسرته غداة اندلاع الحرب الأهلية هناك. وبما أن والده الذي كان يجني مثل دخول الطبقة الوسطى من عمله كأستاذ في مادّة الرياضيات، فقد برع يونس في دراساته الجامعية. وهو بات أستاذاً دائماً في جامعة ساو باولو ويعالج المرضى في المستشفى السوري اللبناني. يحضر عرب ويونس مؤتمرات سنوية في شتى أنحاء العالم، لذا هما يعرفان المؤسسة التي التحقتُ بها كطالب شهادة دكتوراه، أعني جامعة سيراكوز. وقد سألاني في مقابلات منفصلة إن كنت على اتصال بزملائهما الذين يمارسون الطبّ في مستشفى الجامعة. يتبين مما تقدّم أنّ التدرّب «في الخارج» أصبح عاملاً حيوياً لتحقيق النجاح المهني في الاقتصاد المعاصر.

تجلّت تأثيرات المدنية العالمية أو المعولمة هذه في المكاتب وفي السير الذاتية لشرق أوسطيين آخرين من أصحاب المهن الحرّة أيضاً. على سبيل

(٣٧) O'Dougherty, *Consumption Intensified: The Politics of Middle-Class Daily Life in Brazil.*

المثال، سلّط جواو، وهو طبيب أسنان سوري يحمل الجنسية البرازيلية، الضوء على مشاركته الخاصة في المؤتمرات الدولية. وهناك جدار في مكتبه مغطى بالكامل بخمسين شهادة على الأقل من مؤتمرات شارك فيها خلال السنوات الخمس عشرة الماضية، منها مؤتمرات للجمعية الأمريكية لطبّ الأسنان ومؤتمرات لجمعيات مهنية أخرى منتشرة بين بورتوريكو واليابان. وفي أثناء إحدى محادثاتنا، أكد جواو أنّه يريد من أبنائه وأحفاده السفر إلى شتى بلدان العالم، وإن كانوا سيختارون مهنهم الخاصة، لأن السفر «يفتّح العقل». كما أشار سعيد، وهو لبناني من الجيل الثاني مختص بالأمراض المعوية تخرّج في جامعة ساو باولو، إلى مشاركته السنوية في مؤتمرات في الولايات المتحدة وأوروبا. حتّى إن روجيريو، وهو لبناني من الجيل الثالث، حصل على شهادة ماجستير في الهندسة المدنية من جامعة ستانفورد وعاد للعمل في ساو باولو. يشير كلّ ما تقدّم إلى أن المهن الحرة أصبحت عالمية على نحو متزايد.

فطن الآباء والأبناء لضرورة العمل أو السفر في الخارج. يقول التاجر جورج: «الجالية... هي في مرحلة أصبح العرب فيها مهندسين وأطبّاء ومحامين اليوم»، مضيفاً أن ابنته التحقت ببرنامج لشهادة الماجستير في إدارة الأعمال في نيويورك. وهناك الكثيرون ممن هم في العشرينيّات من أعمارهم أفصحوا عن نيات مماثلة. يضاف إلى ذلك أن الآباء مهتمون ببرامج التبادل الثقافي للشبيبة في مرحلة الدراسة الثانوية. على سبيل المثال، أعربت والدة يعمل زوجها في مؤسسة هندسية عن نيتها في إلحاق ابنها ببرنامج مبادلة شبابي قبل ذهابه إلى الكلّية. وهي تعتقد «أن هذه الخبرة تبدو جيدة في السيرة الذاتية»، وسألتني النصيحة في شأن خيارات الدراسة في الخارج. وقد شدّد الآباء على أن هذه الخبرات العالمية تمكّن الشباب من إتقان اللغة الإنكليزية التي أصبحت «أمراً لازماً» (ذُكرت العبارة باللغة الإنكليزية) في أي مهنة اليوم. وسواء أكان الهدف حيازة شهادة أم تعلّم اللغة الإنكليزية، فإن الحاجة إلى السفر إلى الخارج ليست مقتصرة على الشرق الأوسطيين، بل إنّها من مطالب السوق البرازيلية.

الأمر الذي يميّز الحالة التي بين أيدينا هو حقيقة أن الأبناء خلّدوا ماضي بيع التجوال للجيل المهاجر. على سبيل المثال، عُقد عام ٢٠٠١ الاحتفال التذكاري السنوي بيوم شارع ٢٥ دي ماركو في نادي حمص، وهو نادٍ ريفي وسط مدينة ساو باولو. مع أن الاحتفال أقيم تكريماً لثمانية تجار سوريين ـ

لبنانيين في محيط شارع ٢٥ دي ماركو، تحدّث في الحفل شخصان أحدهما محام والآخر طبيب. يُتقن الطبيب صامويل عشر لغات وتلقّى مقررات طبّية وحضر عدة مؤتمرات في شتى أنحاء العالم. بدأ خطابه بسؤال بلاغي: «لماذا دُعي طبيب ليجلس إلى المنصة ويلقي كلمة؟». في البداية، أشار صامويل الذي وُلد في ساو باولو وترعرع فيها إلى أنّه عمل في شبابه «في تلك الجامعة التي تسمى ٢٥ دي ماركو». وبعد عرضه لمحة موجزة لتاريخ الهجرة السورية اللبنانية، أشار إلى أن «الأشخاص الحاضرين في القاعة هم أبناء أولئك الذين عملوا في ٢٥ دي ماركو». ثمّ تحدّث المحامي الذي شدّد على إنجازاتهم الحالية وأقرّ بأن كفاحكم لم يكن بلا طائل. «فنحن الآن في الكلّيات، وفي المؤسسات القانونية، ونعمل في الطبّ وفي السياسة. ومع أنّه لم يمضِ على وجودنا سوى قرن من الزمان، بتنا نؤلف ٢٢ في المئة من الناتج القومي الإجمالي البرازيلي».

لم تذهب هذه الكلمات سُدىً وسط حضور فاق عددهم المئة، أغلبيتهم من أصول سورية ـ لبنانية. وفي الوقت الذي كانت المقبّلات تقدَّم بعد الحفل الرسمي، علّق الزملاء العاملون في إدارة الأعمال والهندسة والمحاماة والطب النفسي، وفي المهن الأخرى غير مرّة على الكلمات التي تحدثت عن الدور الاقتصادي للسوريين واللبنانيين وكيف أتاحت لي فرصة «مثيرة للاهتمام» لأتعرّف إلى الجالية. وفي أثناء مغادرتنا النادي، أشار صديق يحمل شهادة في المحاماة إلى أن ٢٥ دي ماركو «تقليد، وثقافة تتعين المحافظة عليها». وبذلك بات ماضي النشاط التجاري جزءاً مكمّلاً للمشروع الإثني العربي المهني الليبرالي في البرازيل المعاصرة.

لكنّ العدول إلى المهن «المعولمة» لم يضمن مزيداً من الأمن المادّي بالضرورة. على سبيل المثال، تمثّل مريم، وهي سورية إيطالية متخصصة في علم النفس في أواخر عقدها الثالث، حالة مثيرة للاهتمام؛ فبعدما تفوقت في دراستها الجامعية في علم النفس في جامعة ساو باولو، حصلت على منحة دراسية حكومية للالتحاق بمقرر تخصصي في إنكلترا. قالت مريم إنّها اعتقدت كما اعتقد أبواها أن هذه الدراسة ستوفر لها سبيلاً أكثر استقراراً لجني المال. وبعدما أمضت سنتين في الدراسات المتقدمة في إنكلترا، عادت إلى مدينة ساو باولو في أواسط تسعينيّات القرن الماضي، وعملت أولاً براتب شهري في مكتب للعلاج النفسي لامرأة من بنات بلدها [لبنانية]. لكن لم يكد راتبُها يغطي

المصاريف الشهرية لفتاة تعيش عيشة الطبقة الوسطى. ويقيم مكتبها حالياً روابط بمنظمات إدارة صحية يتردد المشاركون فيها على مكتب مريم الذي لا يبعد كثيراً عن شقة تستأجرها في حيّ لأبناء الطبقة الوسطى. إن كفاحها لسداد الفواتير كلّ شهر، مع أنّها تعمل بدوام كامل، يعني أن تعليمها في الخارج لم يضمن لها الأمان المادّي. أي أن الذين تمكنوا من الصعود في سلّم المجتمع هم أصحاب المهن الحرّة الذين يمتلكون مكاتب ومؤسسات ويتعاملون مع عملاء من الطبقة الراقية.

وفي حنين إلى الماضي، أشارت الاختصاصية المقتدرة في علم النفس لكن المحدودة مالياً، إلى أن إخوتها وأبناء عمومتها «تخلّوا عن تقليد آبائهم». رأى جيلها أن الأمن الذي ستوفره المهن الحرّة يفوق الأمن الذي توفره المشاريع التجارية لأسلافهم. لكن مريم مقتنعة اليوم بأن «علم النفس لا يعود على حامله بالعائد الذي تؤمنه التجارة». حتّى إن إثنين من أبناء عمومتها تركا مهنتيهما وعاداً إلى العمل في تجارة أبويهما في سوق البيع بالتجزئة ليتمكنا من تغطية مصاريفهما. وهي تعتقد أنّه لو استمرّ عمل العائلة، لحافظ أشقاؤها وشقيقاتها على نمط عيش أكثر راحة. أي أن التعليم الذي ناله جيل مريم وفاق كثيراً العلم الذي ناله الجيلُ المهاجر لم يضمن نمط عيش راقٍ. وبالحديث عن تجربة النزول في سلّم المجتمع، أعربت ضمناً عن حنين إلى ماضي التجارة الإثني في سوق اليوم. وهذا يشير إلى أن الأبناء استفادوا من قابلية التطوّر في السوق وإن لم يبلغوا الطبقات الوسطى الميسورة على صعيد تجربة التجارة في ذاكرة السوريين ـ اللبنانيين. أي أن الطبقات الوسطى الشرق الأوسطية عدّلت إثنية نظيراتها من الطبقات الراقية على الرغم من تجربتها الخاصة مع الصراع الطبقي.

لم ينفرد أبناء الأُسر التي تطورت صعوداً في تصوّر تفاقم انعدام الأمن المادّي المتأتّي من التعليم الجامعي والمهن الحرّة. ففي مقابلة أُجريت عام ١٩٨٥، أعرب والد لبناني عن عدم ثقته بقيمة الشهادة الجامعية، وقال:

«حلمي، مثل حلم كلّ لبناني. . . حلم بات عندي موضع شكّ اليوم. لكنّ الحلم اللبناني هو أن يكون جميع الأبناء حملة شهادات. أعتقد أنّها لم تعد تستحق هذا الجهد اليوم، لأن ما يجنيه الطبيب، وطبيب النفس اللامع والعالم النفساني الناجح والأستاذ الجامعي، أقل مما يجنيه صانع أدوات أو سمكري

جيد. ما يعني أن الانطباع الذي ساد قبل ثلاثين أو أربعين سنة بأن الشهادة الجامعية أمان مطلق، أمان يضمن العيش الهنيء لحاملها، لم يعد صحيحاً اليوم(٣٨).

وبعدما أشار هذا الرجل المسنّ إلى أنّه يجني مالاً أكثر من بيع الألبسة، لم يدع مجالاً للشك في أن حلم الآباء اللبنانيين سابقاً بمزاولة أبنائهم مهناً حرّة فقد معناه اليوم. وكما لاحظ أودوتيري(٣٩)، «لم يعد لطبقة أصحاب الأحلام وجود» في البرازيل في أواخر القرن العشرين.

وفي سياق مشابه، سرد سركيس، وهو طبيب، محادثة كان قد أجراها مع صاحب متجر مهاجر مسنّ في شارع ٢٥ دي ماركو. التمس الوالد، الذي حيّره ابنه الذي تلقّى تعليماً جامعياً ولم تتجاوز إنجازاتُه المادّية إنجازات والده ولا عادلتْها، من زميله «الأكثر علماً» نصيحة. قال سركيس:

«كنت أتحدّث إلى شخص من أبناء بلدي في منطقة ٢٥ دي ماركو. قال لي: «يا طبيب، يا سيدي، بوصفك تفوقني علماً، اشرح لي هذه المسألة. قدمت إلى هذه البلاد عام ١٩٣٠ وكان في جيبي خمسة دولارات. وأنا اليوم أملك ذلك المتجر، وذاك المتجر، وذاك المتجر. حتّى إني لم أعد أعرف عدد العقارات التي أجّرتها. أما ولدي، فقد وُلد وفي فمه ملعقة من ذهب. أرسلته إلى أفضل المدارس، وإلى خيرة الكلّيات، وعندما تزوّج، توجّب عليَّ شراء شقة له ليسكن فيها. وحين احتاج إلى سيارة، اشتريت له واحدة. . . أين أخطأتُ؟»».

ختم سركيس حديثه بعبارة عامة فحواها «الابن يعمل طبيباً أو مهندساً أو محامياً، لكنه لا يملك القدرة على شراء شقة». وبات الآباء المهاجرون يتخوفون من أن التعليم الجامعي والمهنة الحرّة لا توفر مزيداً من الأمن المادّي لأبنائهم اليوم.

لكنّ هذا المنظور الكئيب يناقض التقدّم الجيلي الذي حققته أسر ثلاث (أتينا على ذكرها في مستهلّ هذا الفصل). ففي شركة فلاديمير التي تعمل في مجال البناء، بدأت ابنة أخته التي درست الهندسة المعمارية في جامعة خاصة

(٣٨) Greiber, Maluf and Mattar, *Memorias de tmigracao: Libaneses e sírios em São Paulo*, p. 302.

(٣٩) O'Dougherty, Ibid., pp. 22.

في ساو باولو مرحلة تدريبية مدفوعة الأجر وهي تخطط لمواصلة العمل لدى شركة خالها الناجحة. وبالمثل، بلغ الابن البكر في أسرة سمير سنة التخرّج في كلّية الطبّ وتقدّم بطلبات عمل ليعمل طبيباً مقيماً في مستشفيات قريبة من ساو باولو وريو دي جانيرو. وفي أسرة غنطوس أيضاً، بدأ أبناء الشقيقين مرحلة تدريبية بغرض العمل لاحقاً شريكين صغيرَين في المؤسسة القانونية التي تديرها الأسرة. هكذا استطاع بعض أبناء الجيل الثاني تحقيق نجاحاتٍ اليوم برؤوس أموال رمزية وماديّة جمعتها أسر شرق أوسطية من الجيل الثاني أسست مؤسسات ناجحة في الهندسة والطبّ والمحاماة بعد الحرب العالمية الثانية.

سواء ازدهرت أحوال السوريين ـ اللبنانيين في البرازيل في اقتصاد اليوم أم تعثّرت، فقد فهم هؤلاء حقيقة وضعهم في السوق من خلال سيرة إثنية لأسلافهم الذين عملوا باعة متجوّلين. والحنين المشترك إلى الماضي لخرّيجي الجامعات الذين عاشوا تجربتي الصعود والهبوط في سلّم المجتمع جمع شتات تجربة التطوّر الطبقي. والأمر الأهم هو أن ذلك جاء بمنزلة إضافة إلى محاولات سابقة للتسامي على «الأصول الوضيعة» لمن كانوا يُسمّون أتراكاً في أواسط القرن العشرين. ولا يزال أصحاب المهن الحرّة يعرّفون بماضي بيع التجوال الذي لا يزال حياً في أذهانهم والذي يُعد علامة فارقة في الإثنية العربية.

رابعاً: إضفاء الطابع الإثني على أصحاب المهن الحرّة في المجال العام

بإضافة مسحة رومنسية على ماضي بيع التجوال، بالغ خرّيجو الجامعات السوريون ـ اللبنانيون في التعميم على العرب وكأنّهم شخصيات إثنية في روايات هوراشيو ألجرز (Horatio Algers). زاد عدد العرب في الدوائر المهنية المرموقة في منحى واقعي. يمكن مشاهدة مثال على ذلك في مناقشة أجريتها مع صديق زميل لي يدعى بيدرو حول جمعية المحامين البرازيليين في ولاية ساو باولو (التي تناظر جمعية المحامين الأمريكيين). في ذلك الوقت، كنت مهتماً بمعاينة سجلّ الأعضاء، وكانت غايتي من التحدّث إلى بيدرو الاستعلام عن إمكان الإطلاع على السجل. ذكر بيدرو من دون توقف أن أربعة عشر عضواً من أصل الأعضاء التسعين المنتمين إلى الجمعية سوريون ـ لبنانيون، بما في ذلك رئيسها. وأضاف بيدرو أن «هذا يمثّل أكثر من ١٥ في المئة من العدد الكلي». وبذلك بات للشرق الأوسطيين حضور في نخب المحامين في ساو باولو.

كما تجلّى هذا التطوّر المهني المبين في القوائم في ميدان الطبّ أيضاً. ففي وقت قريب من وقت خضوع ماريو كوفاس الحاكم السابق لولاية ساو باولو لجراحة في القلب، حرص عدد من معارفه على الإشارة إلى حدّ الملل إلى أن «ثلاثة من أصل الأطباء الخمسة الذين أجروا العملية هم من العرب». وعلى نطاق أعمّ، سخِر عدد من العاملين في مجال الطبّ وغيره من «كومة» و«جماعة الأتراك» التي تؤلف الآن هيئة التدريس ذائعة الصيت في كلّية الطبّ في جامعة ساو باولو. ورداً على سؤالي المتعلق بسياق الترقّي الاجتماعي للعرب في البرازيل، انهمك يونس في مناقشة حول العدد:

«إن كلّية الطبّ في جامعة ساو باولو مليئة بالأساتذة الدائمين العرب. كان جاتيني أستاذاً دائماً. . . ومقصود المختص بجراحة الأطفال. . . وإنجيليتا أبيرْغاما. . . وأسد الآن. وهناك غطاس الطبيب النفسي. . . آه هناك كمّ غفير منهم. وإذا كنت تودّ تكوين فكرة عامة عن هيئة التدريس بأكملها، أعتقد أن ثلثها، علماً بأننا لا نمثّل ثلث السكان، أساتذة دائمون عرب. أي أننا العرب كثر فيها. . . إنّه فريق يتألف بأكمله من نجوم».

في الواقع، يمثّل المنحدرون من الشرق الأوسط نحو ثلث إجمالي عدد أفراد هيئة التدريس في كلّية الطبّ. والأهم من ذلك أن د. يونس أعرب عن تفطّنه التام لذلك. فبعد أن تجاوز الأطبّاء العائق الإثني الخفي في الأزمنة الأولى، باتوا يعدّون باعتزاز الإثنيةَ العربية في الصفوف الأولى في هذا الميدان الذي يشهد منافسة متزايدة.

إلى جانب المحاماة والطبّ، برزت الإثنيات في ميدان الفنون المرئية والتمثيل. يقول المهندس فلاديمير:

«انظر، أعتقد أن العرب أثبتوا أنفسهم هنا في البرازيل في القطاعات كافة، لا على صعيد الكمّ فحسب، بل على صعيد النوع أيضاً. ولو نظرت إلى قطاع الموسيقى الشعبية. . . وأنا أتحدّث عن العرب بوجه عام، تجد جواو بوسكو، وهو من أصل عربي، كاتب ألحان كبيراً ومؤلّفاً موسيقياً ومغنياً وعازف غيتار. كما ستجد فاغنر وأصله عربي أيضاً. يقول فاغنر إنّه تعلم الكثير عن الغناء من خلال الأغاني العربية. . . وإذا أردت البحث عن أعظم ثنائي في العزف على الغيتار في العالم، ستجد الثنائي أسد. . . وعلى صعيد الموسيقى الكلاسيكية، هناك جميل معلوف، وهو قائد فرقة موسيقية لامع. . . والآن. . . في مجال

الفنون، يوجد الكثير من العرب، في الرسم والموسيقى والنحت. وفي ميدان المسرح، ستجد أن خيرة المخرجين في البرازيل من العرب، مثل فوزي عرب وأنطونيو أبو جمرة وسمير يزبك، هل فهمتَ قصدي؟».

تصوّر أصحابُ المهن الحرّة وجود أشخاص من بلدهم في هذه الميادين الراقية مثل الموسيقى والمسرح. وعلى الرغم من توزّع الشرق الأوسطيين في عدد من الميادين المعرفية والمهنية، فقد تعرفوا إلى أشخاص من إثنيتهم في الطبقات العليا في المجتمع البرازيلي.

لا ريب أن هذا النوع من التطوّر الإثني مزيّة اتصفت بها جماعات أخرى أيضاً، لكن ما يميّز الحالة التي بين أيدينا هي أن صعود السوريين ـ اللبنانيين في سلّم المجتمع ارتبط بالماضي الإثني لبيع التجوال. وما عليك سوى مطالعة كتاب **ماضي الأطباء السوريين واللبنانيين**(٤٠) الذي يحتوي على سيَر ذاتية لأطبّاء عالميين مشهورين أصلهم من سورية ولبنان. صاحب الكتاب هو كارلوس دا سيلفا لاكاز المعروف، وصاحب كتب أخرى في مجال الطبّ في البرازيل(٤١). أشار لاكاز أولاً في مقدمة كتابه إلى الماضي التجاري للسوريين ـ اللبنانيين في البرازيل. قال إن الباعة المتجولين السوريين ـ اللبنانيين «فتحوا متاجرهم، وباعوا بضائعهم، مثل إبَر الخياطة، والأقلام، والخيوط، وجلود الحمَل المدبوغة، والأزرار، والموادّ الخام، والحليّ، والعطور الرخيصة، والأقمشة المطرَّزة. . . لم يكن هناك سوى عدد محدود من القوميات امتلكت ذلك الوعي المرهف بالمزايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للتعليم الجيد الذي كانت تمثله جالية من السوريين ـ اللبنانيين أثبتوا حضوراً قوياً في الصناعة والتجارة في البرازيل، وكانت على دارية بالمزايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للتعليم الجيد». وأضاف: «ولكي يعلّم [السوريون ـ اللبنانيون] أبناءهم، قدموا تضحيات هائلة، وبهذه الطريقة استحقوا الترقي في السلّم الاجتماعي». وفي سياق الحديث عن عشرات من زملائه السوريين ـ اللبنانيين على مقاعد الدراسة في كلّية الطبّ في جامعة ساو باولو، يقدّم لاكاز الشرق الأوسطيين على أنهم أشباه أبطال روايات هوراشيو ألجرز الذين ترقّوا من التجارة إلى الطبّ. وهو في حديثه عن الأطباء

---

(٤٠) Carlos da Silva Lacaz, *Médicos sírios e libaneses do passado: Trajetória em busca de uma nova pátria* (São Paulo: Almed, 1982).

(٤١) Carlos da Silva Lacaz, *Vultos da medicina brasileira*, 4 vols. (São Paulo: Almed, 1977).

الناجحين اليوم، يصوّر الباعة المتجولين بأسلوب رومنسي ويحتفي بهم بوصفهم أسطورة أصل إثني.

تمثّل التطوّر الشرق الأوسطي أيضاً في المجلة الأسبوعية **فيجا** (*Veja*) في عددها الصادر في ٤ تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠٠. فتحتَ عنوان «أبناء البلد، والمال، والشهادات، والأصوات: ملحمة الهجرة العربية»، ورد في المقال: «أرادت طليعة المهاجرين اللبنانيين ـ السوريين جمع الثروات ثمّ العودة إلى الديار. لكنهم أقاموا، واجتهدوا، واستثمروا في تعليم أبنائهم. ربّوا أجيالاً من خرّيجي الجامعات، وأسسوا تقليد المشاركة في الحياة السياسية». وفي بداية المقال، حددت فلافيا فاريلا كاتبة المقال هوية الفَرق الشرق الأوسطي بالاسم فقالت:

«سليم، إبراهيم، فؤاد، أبراهاو، جميل، نجيب، حبيب، توفيق، سالوماو، شفيق. في حياة كلّ برازيلي «أصيل» [«وهو لا يزال في البيضة»]، هناك برازيلي يحمل اسماً مثل هذه الأسماء ـ «تركي»، كما يقال حتّى في يومنا هذا، على سبيل العادة أكثر منه تحاملاً. هناك صاحب المتجر، وصاحب المصنع، والسياسي، والطبيب. في السياسة وفي الطبّ، بات انتشار أسماء الأُسر العربية كثيفاً إلى حدّ أنّه بات يلفت الأنظار».

تصادف أسماء شرق أوسطية اليوم في التجارة وفي الصناعة، كما في السياسة وفي الطبّ. وعلى الرغم من تنوّع المساحات الوظيفية التي يشغلها مواطنون إثنيون، يربط البرازيليون «الأصليون» هذه الأسماء بوصف «التركي» على نحو «مألوف».

وكما يوحي العنوان، يشدّد المقال على الرقي الاجتماعي للعرب في البرازيل من أصولهم التجارية إلى ميادين المهن الحرّة، وخصوصاً السياسة والطبّ. إن أسماء ستة وعشرين شخصاً من أصل عربي ميّزوا أنفسهم «على المسرح والمنصة» وصورهم الفوتوغرافية، منهم ممثلون وموسيقيون وسياسيون وصحافيون وأطباء، مصفوفة أفقياً على الصفحات البرّاقة الستّ التي تضمنت المقال. وهناك مقتطف نصّي إلى جانب السجلّ المرئي لأبناء بلد مشهورين فحواه أن «أبناء المهاجرين السوريين ـ اللبنانيين حققوا مكانة متميّزة في الحياة العامة بقطاعاتها المتنوعة، من الفنون إلى الجامعات، ومن السياسة إلى الطبّ. بعضهم لا يستعمل اسمه الأخير العربي، لكن لا أحد ينكر أصله». وهناك أطباء

مثل أديب جاتيني وراوول قطيط، وفنّانون مثل فاغنر وجواو بوسكو في عداد المشاهير الذين ذُكرت أسماؤهم. وأضافت فاريلا أن أحد العوامل التي ساهمت في صعودهم الاجتماعي شبكات أبناء الريف التي ساعدت على نجاح المهاجرين في ميدان التجارة وعلى بروز أبناء الجيل الثاني في «سوق المهن الحرّة»(٤٢). وبإخفاء المقال التجربة الطبقية الهشة للأبناء السوريين ـ اللبنانيين، يكون قد أجرى تمجيداً واضحاً للتطوّر العربي في السوق البرازيلية اليوم.

وكما أشارت مجلة **فيجا**، يُعرَّف الأبناء الذين ترقوا في السلّم الاجتماعي بكلمة تركي التي ميّزت الفرق الإثني لأسلافهم الباعة المتجولين. لكن ما لم يتطرّق إليه المقال هو استمرار وصف العرب من غير طبقة الموظفين بأنهم أصحاب دهاء تجاري فطري يُعد العنصر الأساسي في كون أحدهم تركياً. يطرح هذا التمثيل نفسه في الظهور التلفزيوني للطبيب يونس، الاختصاصي المشهور في أمراض السرطان في البرازيل والعالم. دُعي إلى إجراء مقابلة في البرنامج دو جو الذي تبثّه شبكة غلوبو التلفزيونية، وهو برنامج مسائي من تقديم الفكاهي جو سواريس شبيه ببرنامج «آخر الليل مع دايفيد ليترْمان» الأمريكي. ارتدى يونس حلّة أنيقة، وارتسمت على وجهه ابتسامة تميّز طبيعته الجذّابة المعروفة. كُرست مقابلته للحديث عن التغيرات والتطوّرات الأخيرة في مجال الطبّ. وفي سياق المقابلة، سأله جو عن أسباب ثبات نسب مئوية معيّنة في التشخيص وفي العلاج الطبّي. علّل يونس ذلك بأن معايير القيم المئوية تُرغم الطبيب المعالِج على تجفيف كمية معينة من السوائل التي في الرئتين بعد إجراء الجراحة. يمكن عدّ مثل هذه الملاحظات أمارة على عدم الكفاءة. لكن بناء على تجربته الخاصة، تبيّن ليونس أن المريض يتعافى على نحو أسرع إذا جُفّفت كمية أكبر من السوائل التي في رئتيه عقب الجراحة، على الرغم من أن الكتب الطبّية تشترط الإبقاء على مقدار محدود منها.

واستكمالاً لهذه الاستعارة الوصفية لـ «تبادل» السوائل، التفت جو سواريس الذي لا يعرف الكلل إلى يونس وطرح عليه السؤال الإثني التالي: «أوه رياض، أصلك عربي أليس كذلك؟» ردّ يونس مبتسماً بنبرة إيجابية لكن جازمة «أجل، أجل، أصلي عربي». وبابتسامة خبيثة، سأله سواريس: «إذاً، هل

---

(٤٢) Flavia Varella, «Patrício, dinheiro, diploma e voto: A saga da imigração árabe,» *Veja* (4 October 2000), p. 126.

هذا هو سبب لزومك المساومة في غرفة الجراحة، «اسحب القليل من الرئة»، «القليل من القلب»، وما سوى ذلك؟»(٤٣). علا صوت الحضور بالضحك والتصفيق، وبدا أن معدّ البرنامج والطبيب يونس يقضيان وقتاً مسلّياً. وتعقيباً على تلك النكتة، خاطب يونس سواريس مصححاً «ليس أصلي السبب، ينبغي أن أسحب المزيد، المزيد من الرئة، والمزيد من القلب، والمزيد. . .»(٤٤). علا التصفيق والضحك من الجمهور، وربت سواريس بحنان على يدّ يونس. هذا يعني أنّه حتّى بالنسبة إلى اختصاصي مشهور عالمياً في علاج أمراض السرطان، تبرز صورة العربي الداهية الذي «يساوم» في برنامج تلفزيوني مسائي يشاهده كثير من الناس. ومع أن البرازيليين العرب دخلوا ميدان المهن الحرّة منذ زمن طويل بخلفيات عالمية، تبقى صورة التركي الذي يتحلّى بالذكاء التجاري شائعة جداً في الحياة العامة بالبرازيل.

عايشتُ تجربة مماثلة أثناء مقابلتي جابي ضرائب (غير عربي) يشرف على منطقة شارع ٢٥ دي ماركو في وسط مدينة ساو باولو. عرّفته بنفسي في بداية المقابلة بأني طالب شهادة دكتوراه في الأنثروبولوجيا قادم من الولايات المتحدة مع أنّه تحقق من خلفيتي العربية. وفي نهاية لقائنا مازحني بإعرابه عن شكوكه في غايتي من المجيء إلى ساو باولو. تساءل بصوت عالٍ «هل أنا أنثروبولوجي؟ وهل أنا مهتم بالتشريعات الضريبية لأني عازم على فتح متجر في المنطقة؟» أجبته مازحاً بأني سأخسر مالي إذا عملتُ في التجارة. سألني متعجباً «كيف يمكن حصول ذلك؟ فالدم العربي يجري في عروقك، أنت تركي!». كما رددَتْ صدى هذا التلازم بين وصف التركي وصورة استعمال المال بدهاء ـ ولو كان المرء يحمل شهادة جامعية أو يسعى لنيل شهادة دكتوراه ـ ملاحظةٌ أبداها فيرناندو، وهو برازيلي عربي من الجيل الثالث تخرّج مؤخراً في جامعة خاصة. قال إن أصدقاءه كانوا يداعبونه لكونه تركياً في مطعم الوجبات السريعة في المدرسة أو في نوادي الرقص. قال محاكياً إياهم «أوه، تركي. ادفع المال». وفي ضوء ذلك، يكون لعبارة تركي جوهر تجاري ولو ترقّى الأحفاد في المراتب العلمية.

---

(٤٣) سأل جو بالبرتغالية: «Então, será por isso que fica regateando na cirugia, tira um pouco menos do pulmão, menos do coração et al».

(٤٤) أجاب رياض باللغة البرتغالية (وبدون لكنة): «Não, na verdade, devido à origem, devo tirar mais, mais do pulmão, mais do coração, mais..».

خامساً: وصف الشرق الأوسطي بالتركي في الديمقراطية العِرْقية

يتعين فهم هذا الاعتراف الإثني في سياق التطوّر المهني من خلال العلاقة بما أحسبه إعادة صوغ السوق لمفهوم الديمقراطية العِرْقية. وقد وجدت في أغلب حالات إعادة تنظيم المعنى العِرْقي لعبارة «تركي» أن النقاد العاديين والإعلاميين والسياسيين والأكاديميين وظّفوا التمثيل الإحصائي لصور انعدام المساواة الاقتصادية بين «البيض» و«السود». أريد من هذا التصوير الكمّي لواقع التمييز المعتمد على السوق الطعنَ في «خرافة» الديمقراطية العِرْقية.

كمثال بسيط، نشرت المجلة الأسبوعية **إستو إي** (*Isto é*) انتقادات لما يسمّى خرافة الديمقراطية العِرْقية في تغطيتها للمؤتمر العالمي لمكافحة العنصرية والتمييز العنصري والخوف من الأجانب والتعصب المتصل بذلك في جنوب أفريقيا. وهي نشرت على غلافها الخارجي بطريقة استفزازية صورة فوتوغرافية ليد سوداء يتقاطر دهان أبيض اللون عليها إلى جانب عنوان يقول «هل أنت عِرْقي؟». وفي قصة الغلاف وتحت عنوان «التحامل المستتر: البرازيل تؤثر خرافة الديمقراطية العِرْقية وتغمض عينيها عن التعصّب»، تحدثت عن تاريخ العبودية، فضلاً عن تجلياتها الحالية في السوق وذكرت طرقاً تجعل جيلبيرتو فريري يتقلّب في قبره. والأهم من ذلك القيم المتوسطة الإحصائية للحقائق الاقتصادية للعِرْق المنقولة عن معهد البحوث الاقتصادية التطبيقية (IPEA). جاء في المقالة التي كتبها مفكّر معروف أنّه في البرازيل:

«حيث تستتر خرافة الديمقراطية العِرْقية خلف الإحصاءات، هناك فواتير يتعين سدادها. إن سوق العمل برهان على مقدار انعدام المساواة. . . يتقاضى العامل الأبيض في المتوسط ٥٧٣ ريالاً برازيلياً في الشهر، في حين يتقاضى الرجل الأسود ٢٦٢ ريالاً. . . وخلص معهد البحوث الاقتصادية التطبيقية أيضاً إلى أنّه حتّى لو تلقّى السود تعليماً مماثلاً لتعليم البيض، لظلّت رواتبهم مع ذلك أدنى بنسبة ٣٠ في المئة، أي نحو ٤٠٧ ريالات. وهذا الفارق ثمرة التمييز في سوق العمل، حيث لم يطرأ أي تقدّم في هذا المضمار خلال القرن الماضي».

يُستخدم التصوير الإحصائي لحالات انعدام المساواة بين البيض والسود في سوق العمل كمقياس لقياس الديمقراطية العِرْقية ـ أو انعدامها بعبارة أدقّ ـ في البرازيل المعاصرة.

في المقابل، تأكدت خرافة الديمقراطية العِرْقية في تمثيل ترقّي العرب في السوق. وفي هذا المجال، أكد خرّيجو الجامعات العرب، الذين يصوَّرون عموماً بأنهم «يتسامون» على المهن التجارية السابقة، على التقليص المتدرّج لصور التحامل في حياتهم، ذلك التحامل المتمثل خصوصاً بإطلاق صفة «التركي» عليهم. وحين تساءلتُ عن معنى هذه العبارة، رأى بعض العرب أنّها تُستخدم بطريقة بريئة أو عاطفية في الوقت الحاضر وإن كانت تُستخدم بطريقة ازدرائية سابقاً. مثال ذلك، يقول الطبيب سعيد: «يوجد أشخاص كثر استخدموها على سبيل التحقير في الماضي، لكنّي لا أجدها اليوم بهذا المعنى غالباً». وبالمثل، يعتقد معلّم متقاعد يدعى روبيرتو أنّ العرب حين قدموا إلى البرازيل، «كان الأتراك العثمانيون يحكمون بلادهم. لذلك حمل هؤلاء الناس جوازات سفر تركية وسُمّوا أتراكاً. كانت صفة تحقيرية، لكنّها اليوم تودّدية». وترى فاليريا، وهي مدبّرة منزل من الجيل الثاني، أنّ تسمية المرء تركياً في الماضي «كانت صفة تحقيرية، لكنّها لم تعد كذلك اليوم. كلا، كلا لم تعد كذلك. وفي يومنا هذا، أعتقد أنّك تصف شخصاً بأنه تركي بطريقة ودّية». وهذا لا يشير إلى عدّ التحامل جزءاً من الماضي فحسب، بل إنّه لم يعد له أثر أيضاً في الوقت الحاضر[٤٥]. كما يشير التشديد على الطابع الودّي أو العطوف لما كان وصفاً لجماعة إثنية مهمَّشة ذات يوم إلى النفوذ المستمرّ للديمقراطية العِرْقية بطريقة إثنية لا لَبْس فيها.

أشار د. يونس في مقابلة أجراها في الشهر الذي أجرى فيه مقابلته التلفزيونية، إلى أن وصف «التركي» لا ينمّ عن «تحامل» ولا عن «تمييز»، وهما وصفان «سطحيان جداً وواهيان جداً» بحسب تعبيره في البرازيل. شدّد هذا الطبيب المسلم السنّي اللبناني الذي ارتقى من طالب طبّ إلى أستاذ دائم في جامعة ساو باولو (مع اكتسابه خبرة واسعة خارج البلاد) على غياب أي تمييز على أساس إثني أو ديني في مسيرة تطوّره المهني. ومضى إلى حدّ القول إن وصف «التركي» لقب أحد زملائه في كلّية الطبّ في جامعة ساو باولو. وخلص إلى أن هذا الوصف بات «أقرب إلى كونه دعابة اليوم». وفي أثناء تلك المقابلة، ضحكنا عند ذكر «النكتة» عن نزوع العرب الظاهري إلى المساومة في غرفة العمليات. وبذلك، يكون البرازيليون العرب الذين احتلوا مكانهم في أوساط

---

(٤٥) Twine, *Racism in a Racial Democracy: The Maintenance of White Supremacy in Brazil.*

الطبقات المهنية الحرّة من أمثال يونس قد حوّلوا فئة التركي التي عرّفت مكانة العرب الهامشية في الماضي.

لا ريب أن المهنيين العرب شدّدوا عموماً على انتفاء صفة التمييز عن فئة التركي. وعلى حدّ تعبير الطبيب سركيس، «البرازيلي يصفك بـ «التركي» بطريقة محبّبة. وهذا الوصف يعبّر فيه البرازيلي النموذجي عن ودّه وليس فيه دلالة عِرْقية أو تمييزية، وهو ليس تحاملاً». كما شدّد د. عرب بدوره، بعد إشارته إلى أن لقب «التركي» ليس تمييزياً، على أن «التحامل ظاهرة سطحية فعلاً هنا في البرازيل». وباستخدام لغة فيها مزيد من الإيحائية أيضاً، بيّن المهندس فلاديمير أن «أغلبية الناس تداعبك بتسميتك تركياً تودداً». وبطريقة مشابهة، شدّد أحد المحامين على أن البرازيليين «يسمّوننا «أتراكاً صغاراً! أتراكاً صغاراً» لكن لا على سبيل الإهانة أو التمييز. حتّى إنّها طريقة لطيفة للمزاح». وبيّنت فاليريا بالمثل أن تسميتها «تركيةً» اليوم هي «ملاطفة. إنّها ملاطفة بنسبة ١٠٠ في المئة. فحين تقول «آه، أيها التركي الذي يقف هناك، يا صديقي، أيها التركي»، فأنت تقولها على سبيل المداعبة، هل فهمتَ قصدي؟» وشدّد جورج، وهو مدير أعمال ناجح، على وجوب عدم النظر إلى تسمية التركي بأنها «تحامل لأن جميع الأعراق متساوون» في البرازيل. ويتبين بالتالي أن تشديد المهنيين العرب على الطابع اللاتمييزي لوصف التركي يوضح الخطوط الكفافية الإثنية للديمقراطية العِرْقية في البرازيل المعاصرة.

لم تكن استساغة هذا المعنى اللاتمييزي في الظاهر لوصف «التركي» سهلة عليّ. فحين أُرغمتُ على تحليل هذا الوصف بطريقة أكاديمية بناء على التصنيف الأمريكي لسياسة تحديد الهوية، تساءلتُ إن كان ينمّ عن استخفاف بالعرب، مثل التشديد على الحرف A (المقابل لحرف العين) ولفظه كما لو أنّه آي في الولايات المتحدة. وبالنظر إلى التاريخ الأمريكي الحافل بالتحامل والنزعة العِرْقية، كانت الطرائق الشفهية المتعددة للازدراء بالأصل العربي نقطتي الأساسية. ولا ريب أن عامة الدراسات التي تناولت الأمريكيين العرب أشارت بطريقة أو بأخرى إلى شيوع مثل هذا التمييز في الولايات المتحدة(٤٦). لكنّي

(٤٦) Nabeel Abraham and Andrew Shryock, eds., *Arab Detroit: From Margin to Mainstream* (Detroit, MI: Wayne State University Press, 2000); Philip Kayal and Kathleen Benson, eds., *A Community of Many Worlds: Arab Americans in New York City* (New York: Syracuse University Press, 2002); Gregory Orfalea, *Before the Flames: A Quest for the History of Arab Americans* (Austin, TX: =

لست مستعداً مع إدراكي لهويتي الأمريكية لتجاهل المفهوم الذاتي للبرازيليين العرب بوصفه «وعياً خاطئاً»، لأن ذلك سيكون مساوياً لما يسمّيه بيار بورديو «الهيمنة الرمزية»[٤٧]. لذلك، لا بدّ من فهم طرائق البرازيليين العرب في التعبير عن الإثنية بموجب مفاهيمهم الخاصة.

وبطريقة أكثر إثارة للإشكاليات، بيّن الزملاء أن عبارة «تركي» شبيهة بتسميات أخرى للفارق الإثني والعِرْقي. يعتقد سركيس مثلاً أن «البرازيليين يسمّون أبناء اليابانيين «اليابانيين الصغار»، أليس كذلك؟ وهو يطلق أوصافاً مثل البنّي والأسود والزنجي»[٤٨]. وبالمثل، يقول بيتو، رئيس جمعية ٢٥ دي ماركو، إن كلمة «تركي وصف تطلقه على الأشخاص الذين قدموا من الشرق الأوسط... كما لو أنّك تقول «أصفر» للصيني والياباني والكوري. الأتراك [توقف في الكلام]... أصبحت عبارة شائعة». وبالمثل، يشدّد ميشيل، وهو شخص واسع الثراء، على أن عبارة «تركي» «ليست إهانة. وهي لا تختلف بشيء عن قولك لشخص قادم من ولاية أخرى «باهياني»»[*]. وبعدما قال عرب إن عبارة تركي «لا صلة لها بالتمييز»، أضاف «أن اسم الإثنية أثر باقٍ من زمن البرتغاليين البرازيليين. وكذلك ابن التركي والياباني والكازْكاموني[**]. هذه طريقة لوصف جميع الأعراق». كما خدمت عبارة تركي كوصف غير تمييزي مزعوم للفارق الإثني أو العِرْقي داخل هرمية تنعدم فيها المساواة أطلقه البرتغاليون البرازيليون قديماً وأعاد صياغتَه اليوم تمثيلُ السوق الحاضرة في كلّ مكان.

على أن بعض الزملاء شدّد على أهمية السياق في الحكم على جوهر

University of Texas Press, 1988); Jack Shaheen, *The T.V. Arab* (Madison: Bowling Green State University Press, 1984), and Michael Suleiman, ed., *Arabs in America: Building a New Future* (Philadelphia, PA: Temple University Press, 1999).

(٤٧) Pierre Bourdieu, *Language and Symbolic Power* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991), pp. 50-52.

(٤٨) تحدّث الطبيب أيضاً عن تجربة زوجته خلال زيارة قصيرة لغواياس في المنطقة الجنوبية الوسطى في البرازيل. وبعدما ركبت زوجته سيارة أجرة متوجّهةً إلى المطار، شاهدت عدداً من اللافتات في الشوارع تحمل أسماء لبنانية في المدينة. استفسرت السائق عن وجود لبنانيين في البلدة. أجاب السائق مرتبكاً بأنه ليس في المنطقة لبنانيون. وبسرعة بديهة، سألت السائق عن وجود أتراك في المدينة فأجاب السائق: «Ufa! O que mais tem aqui é turco!»، أي (معظم القاطنين هنا أتراك!).

(*) نسبة إلى ولاية باهيا الواقعة شمال شرق البرازيل [المترجم].

(**) وصف للمهاجرين الأوروبيين غير الأيبيريين [المترجم].

وصف التركي، منهم فؤاد، وهو تاجر ثري يعمل أبناؤه في مهن حرّة. حين سألتُه عن معنى عبارة تركي، أجاب فؤاد:

«يعتمد المعنى على كيفية استعمالك للعبارة. إنّه يعتمد على أسلوبي في التعامل معك، وعلى أسلوبي في التحدّث إليك. ربما تكون ثرياً ولا يزعجك سماع العبارة أليس كذلك؟ «هاي أيها التركي، هل كلّ شيء على ما يرام؟» «هاي، هذا جيد يا صغيري. مضى وقت طويل ولم أرك». أي أنّها إيماءة ودّية. لذلك، لعبارة تركي معنيان، الأوّل يفيد الإساءة والثاني يفيد الملاطفة».

بناء على ما تقدّم، يمكن أن تكون عبارة «تركي» إساءة للمخاطَب أو مدحاً له بحسب السياق والعلاقة بين المتحدثَين.

لكنّ معنى العبارة المتصل بالموقف قلّت أهميته في ميدان المهن الحرّة. ففي أثناء أربع مقابلات، رُبط الاشتغال في مهنة «راقية» بالمكافئ الإيجابي لعبارة تركي (أي المخاطبة الودّية). وحين سألت إن كان معنى عبارة تركي «تحاملياً»، حصلتُ على ردّ غير منطقي في ظاهره. بعدما أشاروا إلى أن التسمية هي عبارة عن «ملاطفة» أو «نكتة»، تحدثوا عن تطور العرب في المهن الحرة. أشار سامي، البالغ من العمر سبعين عاماً ونيّف، باقتضاب إلى هذا التجلّي للفارق الإثني من خلال مصطلح التطوّر السوقيّ في الديمقراطية العِرْقية:

«يمكنك الآن وصف شخص بأنه «تركي»، لكنه وصف ودّي. وبما أننا في الجالية نشتغل في عدد من المهن الحرّة، كما في عالم السياسة وعالم الطبّ. . . وكما في الهندسة وفي كلّ ميدان آخر. أبناؤنا لامعون ونحن فخورون بذلك. وبالتالي، لم يعد المرء يتحدث عن «الأتراك» كما كان في الماضي. وحتّى حين تقول «تركي»، أو «تركي صغير»، فهذا علامة على الملاطفة».

يبرز سامي كيف أن عبارة تركي أصبحت عبارة ملاطفة لبلوغ العرب مكانة مهنية حرّة يزعم أنّها أكثر ربحية. وإذا كان التصوير السوقيّ يُستخدم غالباً في الطعن في خرافة الديمقراطية العِرْقية، فإن الأتراك أنفسهم يستخدمونه أيضاً تمييزاً لمكانتهم اليوم في هذه الهرمية القومية التي أعيد بناؤها.

من الأمور المؤثرة أن اسم الإثنية التركية نسبه العرب إلى أنفسهم. فالزملاء شدّدوا غير مرّة على أنهم ينادون بعضهم بعبارة «تركي» بدافع المزاح أو بطريقة «عفوية». على سبيل المثال، قال فتح الله، وهو تاجر مسنّ [يعمل

أبناؤه في مهن حرّة راقية]، بطريقة فكاهية «حين أذهب إلى شارع ٢٥ دي ماركو لتناول طعام الغداء مع أصدقائي، أقول لزوجتي أنا ذاهب إلى تركيا». وبالمثل، يقول عبده، وهو لبناني من الجيل الثاني: «نحن ننادي أنفسنا نحن اللبنانيين بهذا الاسم: أيها التركي، أيها التركي الصغير، أيها التركي الكبير». ويقول فيرناندو، وهو من الجيل الثالث: «هنا، يتبادل [السوريون ـ اللبنانيون] إطلاق صفة تركي بعضهم على بعض. وهذا ما يفعله والدي حين ينادي أصدقاءه: «أيها التركي الكبير، تعال إلى هنا»». أخيراً، عرض ماريو، وهو محام ناجح برازيلي لبناني من الجيل الثاني تبعه ابنه في مسيرته المهنية، تفسيراً مفصّلاً لهذه الاستعارة الساخرة:

«الوصف الازدرائي الوحيد الذي كان يُطلَق علينا كان وصف التركي. لكن نحن أنفسنا أبناء العرب، والسوريين ـ اللبنانيين نتلاعب في استخدامه. لذلك، حين نخاطب ريفياً، نستخدم العبارة إلى حدّ أنّها أضحت عبارة شائعة. . . «من أنت؟» «أنا تركي». لقد جعلنا منها وصفاً اعتيادياً، وجعلناها نكتة. وبالتالي، صرت تقول «أيها التركي؟ كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ أيها التركي الصغير؟» أنا أخاطب أصدقائي بعبارات مثل «أوه أيها التركي الصغير. حسن، عزيزي» هل فهمت قصدي؟ هذه هي حقيقة المسألة. لم يعد لذلك المعنى التهكمي استخدام. . . وهذه هي روح البرازيلي. إنّه يجعل العبارة شائعة. إنّه يحوّل الحقد إلى نكتة فلا يعود للحقد وجود. وهو يزيل البغضاء».

باستخدام العرب أنفسهم عبارة تركي، يكونون قد حوّلوا كلمة دالّة كانت تهميشية ذات يوم إلى معرّف ذاتي صريح للفارق الشرق الأوسطي. بناء على هذا المنظور، يبيّن «التلاعب» بالألفاظ معنى أن يكون المرءُ برازيلياً: تحوّل الحقد الإثني من خلال الأيديولوجيا القومية القديمة «للديمقراطية العِرْقية».

وفي ضوء ذلك، لا ينبع فهمُ المهنيين البرازيليين العرب لوصف التركي بأنه «غير تمييزي» من إدراك خاطئ ولا من حقيقة موضوعية بحدّ ذاتها. وكما بيّنا في الفصلين الأوّل والثاني، عانى بعض التجار والسياسيين الشرق الأوسطيين التمييز. وبصرف النظر إن كان مستخدمُ العبارة باعة متجولين في الشوارع في محيط وسط المدينة أم صحافيين يغطون قضية فساد، ربما يكون لوصف التركي معنى سلبي أو إيجابي بحسب السياق. وأنا أرى أن عبارة «تركي» تظلّ تسمية مزدوجة المعاني لمداعبة المخاطَب أو تحقيره بحسب سياق

استعمالها. لكنّ أصحاب المهن الحرّة الذين سعوا لتسويغ وصف إثنيتهم على نحو يرضيهم أنكروا هذا التباين الظرفي. والتجربة المختلطة للطبقة المثقفة في سوق اليوم فرضت على العرب غير الحرفيين التنصّل من المعنى التحاملي لعبارة «تركي». ومن خلال نموذج الصعود الاجتماعي للأتراك ومكانتهم في البلاد[٤٩]، تحوّل دافع وصفهم من «البغضاء إلى الدعابة». وإذْ أخفقت الأيديولوجيا القومية للديمقراطية العِرْقية في إقناع شريحة متنامية من الناس، استخدم أصحاب المهن الحرّة الإثنيون قوتهم الرمزية في ادعاء امتلاك تجربة خالية من التمييز والقبول بمعنى العبارة. بهذا المعنى، لا يعكس الجزمُ الإيجابي بما كان وصفاً سلبياً ذات مرّة هيمنة أولئك الذين تساموا على أصولهم الوضيعة التي تجعلهم عُرضة للتحامل فحسب، بل ساعد على وقاية الآخرين من عيش تجربة سابقة من جديد.

تطور الاعتراف بالرُّقي المهني الذي حققه العرب، والذي فُسّر بأنه مشروع إثني، عند تقاطع العِرْق والأمة في البرازيل. وتمكن أصحاب المهن الحرّة بـ «تساميهم» على أصول أسلافهم المهاجرين الذين اشتغلوا باعة متجولين، من احتلال مراكز أكثر تمايزاً مقارنة بالأوضاع الهامشية التي عاشها أسلافهم. في هذه البيئة، أكّد الإثنيون أنفسهم على صفة «التركي» وعلى إشارتها إلى الذكاء التجاري الفطري، سواء في القاعات الدراسية في الجامعات أو في عيادات الأطبّاء. ولم يعد التعليق التهكمي على العرب وعلى دهائهم التجاري السليقي مؤشراً حصرياً على منزلة هامشية في الأمّة فُرضت عليهم من الخارج. وعوضاً من تحميل وصف «التركي» معنى «تحاملياً» ضمنياً كما كانت عليه الحال في أواسط القرن العشرين، رأى فيه المهنيون الشرق الأوسطيون وغيرهم إشارة توحي «باللطف» و«الودّ» من خلال النموذج السوقيّ للديمقراطية العِرْقية في البرازيل.

(٤٩) Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures* (New York: Harper Collins, 1973).

الفصل الرابع

دمج المسيحيين واستنساخ المسلمين

إن الاختلاف الديني جزء من الاعتراف الإثني، وخصوصاً في دولة اعتنقت المذهب الكاثوليكي الروماني طوال تاريخها مثل البرازيل. وقد دقّق الخبراء في دوائر الهجرة البرازيلية في السوريين ـ اللبنانيين الذين مثّلوا ٨٠ في المئة على الأقل من المهاجرين الشرق الأوسطيين في مستهلّ القرن العشرين بناء على ميلهم إلى الزواج من بلادهم الأصلية وعلى تدنّي مستوى «انصهارهم»[١]. بناء على هذا التفكير القومي، أن تكون برازيلياً يعني أن تكون «متمازجاً». بيد أن فكرة المزيج شُطبت من سياسة الهجرة الرسمية في أواخر القرن العشرين، واعتمدها في الوقت عينه السوريون ـ اللبنانيون المسيحيون الذين صاروا يعيبون على نظرائهم المسلمين «الذين لا يمتزجون» بطرائق تحاكي تهميشهم السابق.

تبلورت هذه التفرقة الدينية، التي يعبَّر عنها غالباً في الممارسات المتبَعة في الزواج، في الإثنية السورية ـ اللبنانية بمرور الوقت من خلال مبدأين قوميَّين لسياسة الهجرة في البرازيل: المزيج العِرْقي إلى أواخر سبعينيات القرن

---

(١) انظر: Jeffrey Lesser: *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil* (Durham, NC: Duke University Press, 1999), and «Immigration and Shifting Concepts of National Identity in Brazil during the Vargas Era,» *Luso-Brazilian Review*, vol. 31, no. 2 (1994), pp. 23-44; Wadih Safady, *Cenas e cenários dos caminhos da minha vida* (São Paulo: Penna Editora, 1966), and Jorge Safady, «Aimigração arabe no Brasil (1880-1971),» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 1972).

يتبع المسيحيون العرب الطقوس الشرقية للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وعلى وجه التحديد الموارنة والملكيون، فضلاً عن الكنيسة الأرثوذكسية السورية التابعة لبطريركية أنطاكية. وينتمي المسلمون العرب إلى الطوائف السنّية والشيعية والعلوية والدرزية.

الماضي، والإنتاجية الاقتصادية منذ عام ١٩٨٠ إلى اليوم. بناء على النموذج الأوّل، غالباً ما استُخِفّ بالسوريين ـ اللبنانيين المسيحيين لاختيارهم الزواج من جماعتهم. وفي المقابل، اعترفت السياسةُ الحالية وساندت أغلب اللبنانيين المسلمين الذين يتبنون الممارسات نفسها في الزواج. وأخذاً في الحسبان كيف أن العرب المسيحيين خصوا نظراءهم العرب المسلمين «كجماعة تتزوج بعضها من البعض»، وأحداثَ المسلسل التلفزيوني «النسخة»، يوضح هذا الفصل أن هناك حدوداً للاعتراف الواسع بالانتماء العربي للمسلمين في البرازيل المعاصرة.

هدفي الأعمّ هو وضع هذا الفارق الديني في الإثنية في مقابل سياسة الهجرة الوطنية. فإلى سبعينيّات القرن الماضي، مثّل «المزيج العِرْقي» الأساسَ المنطقي الرئيسي للسياسة الحكومية البرازيلية. أمِل المنظِّرون «بامتزاج» المهاجرين غير الأوروبيين، بمن في ذلك المسلمون، مع المواطنين المحليين وتلافي تشكل «الحُوَيصلات»[٢]. لكنّ سياسة الهجرة فُرّغت عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ من أي إشارة إلى المزيج العِرْقي وأُنيطت بها مهمة تنظيم توافد الناس ضماناً «للإنتاجية الاقتصادية»[٣]. وكما أشار بينيديكت أندرسون[٤]، بات تنظيم الهجرة اليوم أكثر تعلقاً بحقّ العمل في سوق العمل منه بدعاوى الانتماء القومي. كما جلب تغييرُ السياسة النيوليبرالية معه إعادة تصنيف زواج المهاجرين من جماعاتهم، وهو ما أثار قلق السلطات في الماضي. فبعد تصنيف اقتران شخص مولود في البرازيل بشخص آخر جنسيته أجنبية بأنه «لمّ شمل أُسري»، أتاحت السياسةُ الحالية للبنانيين المسلمين في معظمهم السفر إلى لبنان للزواج هناك ثمّ العودة مع زوجاتهم المهاجرات إلى البرازيل والعيش فيها. وعلى الرغم من انتقاد العرب المسيحيين لذلك من خلال مصطلح المزيج القومي، أقرّت الدولةُ البرازيلية النيوليبرالية ضمناً بما يقوم به العرب المسلمون، الذين، بحسب ما قال أحد المسؤولين، «يفضّلون الزواج من جماعتهم».

(٢) Boris Fausto, «Um balançoe da historiografia da imigração para o Estado de São Paulo,» *Estudios Migratorios Latinoamericanos*, vol. 8, no. 25 (1993).

(٣) ذكر سايلز وساليس بصورة موجزة لائحة القوانين الخاصة بالأجانب كجزء من الهواجس المتعلقة «بالأمن القومي» التي تملّكت الدكتاتورية العسكرية في أثناء الانفتاح الديمقراطي. وأنا أشير إلى أن ذلك كان جزءاً من مرحلة نيوليبرالية كانت في طور البروز آنذاك. انظر: Teresa Sales and Maria do Rosario R. Salles, *Políticas migratórias: America latina, Brasil e brasileiros no exterior* (Sao Carlos: Editora UFSC., 2002), and *Estatuto do Estrangeiro, Lei No. 6.815 de 19-8-80*, 26th ed. (São Paulo: Editora Atlas, 2000), p. 18.

(٤) Benedict Anderson, «Exodus,» *Cultural Inquiry*, vol. 20 (1994), p. 323.

إن تركيز هذا الفصل على السياسات المتصلة بالزواج يعني التعمق في دراسة الهجرة السورية ـ اللبنانية وسياسة الهجرة البرازيلية. اتفق المؤرخون على أن أُسر المهاجرين السوريين ـ اللبنانيين تجنّبت في مستهلّ القرن العشرين «اختلاط الأجناس» أساساً، بينما زادت معدلات زواج أبناء الأجيال اللاحقة من بنات من غير جماعتهم[٥]. لكن غاب عن هذا التأكيد الأحادي البُعد أي إشارة إلى الانشغال القومي البرازيلي بـ «المزيج العِرْقي». ذلك بأن التحليلات الأوسع نطاقاً لسياسة الهجرة البرازيلية في مستهلّ القرن العشرين أظهرت بجلاء أن اختلاط الأجناس ليس ظاهرة «طبيعية» وإنما سياسة حكومية استندت إلى مفاهيم الانتماء البرازيلي القومية وإلى العِرْق[٦]. وسواء أكانت الممارسات والسياسات المتعلّقة بالزواج «مختلطة» أو «نقية»، فهي لا بدّ من دراستها في السياق المتحول للتركيبة الأُسرية وكذلك في سياق الأيديولوجيا القومية وسياسة الدولة.

أعتقد أن التغير الجوهري الذي مسّ الأجيال السورية ـ اللبنانية في القرن العشرين لا يتصل بالضرورة بزيادة حالات الزواج من خارج العشيرة، لكن بالسياق الوطني الذي من خلاله أُطلقت المزاعم الإثنية المتعلّقة بالزواج وشُكّك فيها وتُثُبّت منها. وإذا كان العرب من مسيحيين ومسلمين لا يزالون متمسكين بمبدأ الزواج من داخل الجماعة بدرجات متفاوتة، فإن طرائقهم المتبادلة المتعارضة في شعائر الزواج تشير إلى رسوخ المشروع الإثني العربي في البرازيل.

أولاً: دوائر الزواج الشتاتي بين بلاد الشرق والبرازيل

سافر الشباب السوريون ـ اللبنانيون إلى بلادهم بحثاً عن فتيات يصلحن للزواج منذ مستهلّ القرن العشرين. فالزواج مسألة لا ينبغي التعامل معها بخفّة، كما يتجلي ذلك في قصة حكاها لي والد جدّي المهاجر عبده بشارة الذي كان

(٥) Andre Castanheira Gattaz, «História oral da imigração libanesa para o Brasil, 1880-2000,» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 2001); Heliane Prudente Nunes, «A imigração arabe em Goias,» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 1993), and Oswaldo Truzzi, *Patricios: Sírios e libaneses em sao Paulo* (São Paulo: Editora Hucitec, 1997).

(٦) Fausto, «Um balance da historiografia da imigração para o Estado de São Paulo;» Giralda Seyferth, «La inmigración alemana y la política Brasileña de colonizacion,» *Estudios Migratorios Latinoamericanos*, vol. 10, no. 29 (1995), pp. 53-75, and Thomas Skidmore, *Black into White: Race and Nationality in Brazilian Thought* (New York: Oxford University Press, 1974).

يقيم في شمال البرازيل وقتئذٍ. وفي الوقت الذي كان يُحتضر بعد خضوعه لعملية جراحية في المثانة في بيليم دو بارا، أعطى ثلاثة توجيهات لأبنائه الذين وُلدوا في البرازيل في أُسرة تزاول التجارة: «إياكم أن تجادلوا كاهناً أو سائق سيارة أجرة»، و«إياكم أن تشتروا عقاراً وسط مجموعة من العقارات بل اشتروا عقاراً يطلّ على واجهة لأنه أعلى ثمناً»، و«إياكم أن تتزوجوا بفتيات برازيليات. عودوا إلى البلد وانتقوا زوجاتكم هناك».

وهذا ما حصل بالفعل، إذ إنَّ أنجال عبده الثلاثة سافروا إلى لبنان «لينتقوا زوجاتهم هناك» وعادوا إلى شمال البرازيل. لكنهم ليسوا الوحيدين الذين فعلوا ذلك. وكما أشار جون غوليك، وهو أنثروبولوجي أجرى دراسات في لبنان في أربعينيّات القرن الماضي، «عاد عدد لا بأس به إلى قراهم القديمة موقتاً بحثاً عن زوجاتهم/شريكات حياتهم»(٧). ولاحظَتْ جوديث وليامز، وهي أنثروبولوجية أخرى، أن مهاجرين عادوا من البرازيل بحثاً عن شريكاتهم في القرى الجبلية اللبنانية(٨). كما لاحظت المؤرخة منتهى الخوري كامبوس نمطاً مشابهاً في مسحها للمسنّين السوريين ـ اللبنانيين في ولاية إسبيريتو سانتو. وجدت أن سبعة وخمسين رجلاً من أربعة وتسعين مهاجراً لبنانياً عادوا إلى بلادهم للزواج هناك أو عملوا على اصطحاب زوجاتهم المولودات في لبنان وعادوا إلى البرازيل نهائياً(٩). يتبين مما تقدّم أن الرجال الشرق الأوسطيين بحثوا عن شريكاتهم في بلادهم في النصف الأوّل من القرن العشرين.

تفطّن المثقفون من أبناء الجالية العربية لهذه الهجرة المتصلة بالزواج(١٠). لكنهم لاحظوا أن المهاجرين بدأوا منذ أواسط أربعينيّات القرن الماضي بالبحث عن زوجات من بنات الجالية في البرازيل لا في سورية أو لبنان. ويرى جميل

---

(٧) John Gulick, *Social Structure and Culture Change in a Lebanese Village* (New York: Wenner Gren, 1955), p. 62.

(٨) Judith Williams, *The Youth of Haouch El Harimi, a Lebanese Village* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1968), pp. 98 and 105.

(٩) Mintaha Alcuri Campos, *Turco pobre, sírio remediado, libanês rico: A trajetória do imigrante libanes no Espírito Santo* (Vitoria: Instituto Jones dos Santos Neves, 1987), p. 125.

(١٠) Taufik Duoun, *A emigração sírio-libanesa as terras de promissão* (São Paulo: Tipografia Editor a Arabe, 1944); Taufik Kurban, *Os syrios e libaneses no Brasil* (São Paulo: Sociedade Impressora Paulista, 1933); Jamil Safady, *Panorama da imigração arabe* (São Paulo: Editora Comercial Safady, 1972), and Wadih Safady, *Cenas e cenarios dos caminhos da minha vida* (São Paulo: Penna Editora, 1966).

صفدي[11] أن «عادة عودة الشاب إلى بلده ليتزوج إحدى قريباته أو جاراته بدأت بالتلاشي»، لكن «الأسر العربية البرازيلية بقيت مصرّة على ألا يقترن أبناؤها بغير أبناء العرب». وبالمثل، أشار وديع صفدي[12] إلى أن سيل الشباب العرب الذين كانو يبحثون عن زوجات في بلادهم تحول إلى «موجة معاكسة» بحلول ستينيّات القرن الماضي. وقال إن عدداً من الشبان اللبنانيين «يتطلعون الآن إلى الزواج في حضن الأسرة البرازيلية العربية»، وهي ملاحظات أيدتْها منتهى الخوري. فقد وجدت أن ستة وعشرين زوجاً من الأزواج الأربعة والتسعين الذين شملهم مسحُها (٢٧,٧ في المئة) تألفوا من رجل عربي مهاجر وامرأة عربية مولودة في البرازيل (من بنات الجيل الثاني)[13]. وظلّت هذه التركيبة الشتاتية للزواج من داخل الجماعة، وبخاصة بين الرجال المهاجرين والنساء من بنات الجيل الثاني، سائدة في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية في البرازيل.

لم تقتصر هذه الزيجات على التأملات الفكرية، حيث قالت سيدة من الجيل الثاني «جميعنا تزوجنا آنذاك بشبان قدموا من لبنان»[14]. وبالمثل، ذكرت لي بعض السيدات متوسطات الأعمار من الجيل الثاني في سياق بحثي، أن رفيقاتهنّ ممن هنّ في أعمارهنّ كنّ يفاضلْن بين طالبي الزواج في البرازيل، ويُطلَق عليهم الوطنيون، وطالبي الزواج في الشرق الأوسط ويُطلق عليهم المستورَدون. لكنّ هذه التسميات الفكاهية تُظهر ضيق هامش الحرية المتاح للمرأة العربية في اختيار شريك حياتها. وفي هذا الصدد، أشارت الخبيرة الديمغرافية ماريليلا فاريلا غارسيا في سياق بحثها في الجالية السورية ـ اللبنانية المقيمة في ساو خوسيه دو رويو بريتو في ساو باولو، إلى أن «الزيجات المختلطة التي شملت سيدات غير عربيات ناهزت أربعة أمثال الزيجات التي شملت رجالاً ليسوا عرباً (٢٢٨ مقابل ٥٥)». لكن احتمال زواج الرجال العرب بفتيات غير عربيات أرجح كثيراً من احتمال زواجهم بفتيات عربيات[15]. ومع

---

(١١) الذي نقل عنه جورج صفدي، انظر: Safady, *Panorama da imigração arabe*, p. 50.

(١٢) Safady, *Cenas e cenarios dos caminhos da minha vida*, p. 223.

(١٣) Campos, *Turco pobre, sirio remediado, libanes rico: A trajetória do imigrante libanes no Espirito Santo*, p. 125.

(١٤) نقلاً عن: Betty Greiber, Lina Maluf and Vera Mattar, *Memórias de Imigração: Libaneses e sírios em São Paulo* (São Paulo: Discurso Editorial, 1998), p. 179.

(١٥) Marileila Varella-Garcia, «Demographic Studies in a Brazilian Population of Arabian Origin,» *Social Biology*, vol. 23, no. 2 (1976), pp. 164.

الأخذ في الحسبان الفوارق الجيلية بين الأزواج الشرق الأوسطيين، أكّد عمل فاريلا غارسيا انعدام المساواة الجنساني الصارخ في الممارسات المتصلة بالزواج.

عكست ترتيباتُ الزواج الشتاتي الأيديولوجياتِ الجنسانية للنظم الأُسرية حيث يجري تزويج البنات بالإقناع أو بالإكراه، من رجال ينتمون إلى الإثنية نفسها، وتهميشهنّ بموجب المعايير المبجّلة إذا خالفن ذلك. وشرح مهاجر لبناني في غواياس المسألة ببساطة، فقال: «القلق ليس من زواج رجل أصله عربي بامرأة برازيلية، وإنما القلق هو من زواج امرأة أصلها عربي برجل برازيلي»(١٦). وشدّدت هيلويزا، وهي امرأة مطلقة من الجيل الثاني في عقدها السادس، على الصعوبة التي واجهتها حين أرادت الزواج بحبيبها الإيطالي الأصل. اعترض والدها اللبناني على ذلك، وحاولت أمها اللبنانية تأجيل حفلة الخطبة إلى أجل غير مسمّى. وبالمثل، ذكر راوول، وهو لبناني من الجيل الثاني، أن والدته نصحتْ شقيقاته بـ «توخّي الحذر» في تعاطيهنّ مع الرجال البرازيليين الذين سيستغلّونهنّ. هكذا مورست ضغوط على النساء والرجال ليتزوّجوا بأبناء الجالية تجسيداً لـ «التقاليد الثقافية»(١٧).

بيّن الرجال الشرق الأوسطيون أن المحافظة على الثقافة سبب تفضيلهم الزواج بفتيات مهاجرات أو من بنات الجيل الثاني(١٨). على سبيل المثال، ذكر خال أبي لابن عمي ولي شخصياً الفكرة من زواجه الشتاتي. فحين سأله ابن عمي إن كان خياره راجعاً إلى كرهه الأعراق المختلطة، أجاب: «كلا، كلا، الغاية هي المحافظة على الأعراف والعادات». وبالمثل، تحدّث أنطوان، وهو

---

(١٦) نقلاً عن: Heliane Prudente Nunes, «A imigração arabe em Goias,» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 1993), p. 195.

(١٧) تعتمد هذه النقطة من الناحية التاريخية على بحث أجرته لويز كيانكار في الجالية العربية الفلسطينية المعاصرة في شيكاغو. أظهر بحثها أن الرجال تخيّروا من دون قيود بين شريكات عربيات وشريكات غير عربيات، في حين لم تُترك للفتيات الفلسطينيات حرّية الخيار إلّا نادراً. أي أنه يتعين عليهنّ الزواج برجال فلسطينيين أو البقاء عازبات. انظر: Louise Cainkar, «The Palestinian Community in Chicago,» in: Ernest McCarus, ed., *The Development of Arab-American Identity* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1994), pp. 85-106.

(١٨) كانت لدى السيدات من الجيل الثاني أيضاً وجهات نظر متباينة حيال الرجال المهاجرين الذين لم يكونوا بالضرورة «صيداً ثميناً». تقول لينا، وهي في أوائل الخمسينيات من عمرها، إن والدَيها شجّعاها على الزواج بمهاجر مسنّ. وتشير إلى أنه على اجتهاده في عمله يفتقر إلى «الدماثة». وهو لا يتردد إلى صالات السينما ويكتفي بالعمل في مؤسسته التي تبيع عباءات في شارع ٢٥ دي ماركو. تزوجت لينا التي خشيت توقّعه أن تكون زوجته مثله برجل لبناني من الجيل الثاني في البرازيل.

مهاجر سوري في منتصف العمر، عن مركزية دور المرأة في المحافظة على عادات الأسر السورية ـ اللبنانية وأعرافها وتقاليدها في البرازيل. ونظراً إلى طول المدّة وتكاليف السفر الباهظة في النصف الأوّل من القرن العشرين، أشار جورج، وهو مهاجر سوري آخر، إلى أن عدداً من رفاقه آثروا الزواج بفتيات شرق أوسطيات وُلدن في البرازيل. وأضاف أن تلك الزوجات تُوحّدن الأسرة وتغرسن في أطفالهنّ العادات التقليدية «الموروثة عن الوطن الأمّ». بناء على ذلك، تحدّث الرجال عن الزواج الشتاتي من داخل الجماعة من منطلق المحافظة على الثقافة لا من منطلق الهيمنة الذكورية.

من المفهوم ضمناً أن الدّيانة هي من «التقاليد الثقافية» التي ينبغي المحافظة عليها. وعن ذلك، أشار فلاديمير، وهو لبناني من الجيل الثاني، إلى أنّه وآخرين لا يفرّقون بين السوريين واللبنانيين بسبب الخلفية الدينية المشتركة إلا نادراً. وشدّد على أن عدداً من الأسر التي قدِمت من سورية ولبنان مسيحية أرثوذكسية، وأنها تتردّد إلى الدوائر الاجتماعية نفسها وتتودّد إلى بعضها. وتحدّث أسعد، وهو سوري من الجيل الثاني ينتمي إلى هذه الخلفية الدينية، عن «صعوبة وجود أُسرة سورية لم تتزوج إحدى بناتها بلبناني، والعكس صحيح». وأضاف رفيق له اسمه إدغار: «يوجد الكثير من السوريين الذين صاهروا أسراً لبنانية والكثير من اللبنانيين الذين صاهروا أُسراً سورية». حتّى إن الزيجات بين السوريين واللبنانيين المسيحيين الأرثوذكس عززت تسمية «سوري ـ لبناني» الشعبية. أي أن هذه التسمية ليست معلماً خلاقاً على الهوية وحسب كما أشار جيفري ليسر[(١٩)]، بل تنطوي على تكافؤ ديني ضمني أيضاً متوّج بالزواج.

على أن هذه المحافظة الشرق الأوسطية على الديانة المسيحية الأرثوذكسية غطت وكادت تطمس التمايز الديني للمسلمين. كانت أعداد المهاجرين المسلمين صغيرة لكن مهمة، إذ مثّلوا ١٥ إلى ٢٠ في المئة من الشرق الأوسطيين المقيمين في البرازيل حتى ستينيّات القرن الماضي[(٢٠)]. لكن المؤلّفين من أبناء الجالية التي غلب عليها المسيحيون آنذاك تحدثوا عمّا يسمّى استيعاب المهاجرين المسلمين في مستهلّ القرن العشرين وفي أواسطه. على

(١٩) Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil*, p. 425.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٤٩، و Sarnira Adel Osman, «Camninhos da imigração árabe em São Paulo: História oral de vida familiar,» (Master Thesis, Universidade de São Paulo, 1998).

سبيل المثال، علّق وديع صفدي، وهو مسيحي أرثوذكسي، على ذلك في ستينيّات القرن الماضي، فقال: «العرب المسلمون أقلّية في البرازيل. كما أنّه تمّ استيعاب عامّتهم وأصبحوا الآن يعيشون مثل المسيحيين وصاهروا أسراً مسيحية»[٢١]. وبالمثل، تحدّث نجيب العسراوي، وكان وقتئذٍ المفكر اللبناني الدرزي الوحيد في البرازيل، بأسى بالغ عن كون جماعته الدروز «يصاهرون أسراً معتقدها الديني مختلف». كتب عام ١٩٦٧:

الهجرة... جلبت للرجال الدروز مشكلة خطيرة، إذ إنهم يتزوجون بفتيات معتقدهنّ الديني مختلف ويبنون معهنّ أُسراً وينجبون أطفالاً، وينتقلون إلى مِلّة أخرى على الرغم من مشيئتهم ورغبتهم، وبهذه الطريقة يطمسون الميراث الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم»[٢٢].

وتأسف العسراوي لكون الرجال الدروز يتزوجون بسيدات غير درزيات. لكنه لم يبيّن إن كنّ شرق أوسطيات أو مواطنات برازيليات. ربما لم يعنِ هذا الفرق شيئاً للعسراوي لأنه أفرز النتيجة نفسها: «تغيير العِرْق الدرزي».

إن ميل أبناء الأُسر المختلطة دينياً إلى نبذ وجههم المسلم أو غير المسيحي يزيد في طمس تمايز المسلمين في مجتمع يهيمن عليه المسيحيون. على سبيل المثال، أشارت امرأة لبنانية في منتصف عمرها إلى أنّه على الرغم من كون أمها لبنانية مسيحية وُلدت في البرازيل وكون والدها مهاجراً لبنانياً مسلماً، فقد نشأت مسيحية و«ليس في مقدورها حتّى التحدّث» عن أصولها المسلمة. وبالمثل، ذكرت فاليريا، وهي مسيحية مسنّة من الجيل الثاني، أن أحد معارفها اللبنانيين المسلمين تزوج بامرأة لبنانية مسيحية وُلدت في البرازيل. ولم يتزوج أبناؤهما الثلاثة بمسلمات وإنما بمسيحيات لبنانيات وكانوا يرتادون الكنائس لا المساجد. وختمت فاليريا حديثها بالقول إنّ الأبناء في ذلك الوقت، لم يكونوا يُفصحون عن انتمائهم الإسلامي لنظرائهم المسيحيين الذين كانوا يهمسون بأن «آباءهم مسلمون». تشير هذه الروايات المقتضبة إلى أن أبناء الأُسر

---

(٢١) مع أن وديع صفدي لم يقل على وجه التحديد إن المسلمين العرب يتزوجون بمسيحيات عربيات أو برازيليات، فهو تحدث في موضع لاحق عن «حالات متنوعة» على «تمازج أجناس» بين المسلمين العرب ومسيحيات غير عربيات؛ انظر: Safady, *Cenas e cenarios dos caminhos da minha vida*, pp. 224-225.

يتضح من ذلك أنه أراد بعبارته الأولى الزواج بين أصحاب الانتماء الديني الواحد في أوساط العرب.

(٢٢) Nagib Assrauy, *O Druzismo* (Belo Horizonte: Editora Sao Vicente, 1967), p. 39.

المختلطة دينياً حدّوا من تمايز المسلمين في جالية يهيمن عليها المسيحيون.

لا يصعب فهم ذلك بالنظر إلى صور المسلمين والشرق الأوسطيين التي هيمنت على عقول البرازيليين في النصف الأوّل من القرن العشرين. فكراهية الأجانب التي ميّزت سياسة الهجرة في عهد فارغاس لم تمنع النخب البرازيلية من التعليق بإيجابية على التمايز المسيحي للمهاجرين الشرق الأوسطيين[٢٣]. على سبيل المثال، ذكر مانويل دييغويز[٢٤] أنّه «في مجتمعنا، يمثّل السوريون واللبنانيون في الأساس جزءاً من الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة المارونية»[٢٥]. وقبل عقدين، لم يكتف الفريدو أليس[٢٦] بالإشارة إلى أن أغلب الأتراك كانوا مسيحيين، بل أضاف أن «الفظاعات التي مورست في حقّ السكان المسيحيين [في الشرق الأوسط] جعلتهم يبحثون في مرحلة لاحقة عن الخلاص في الهجرة». وبالمثل، أشار الصحافي جواو دو ريو[٢٧] إلى أن عمليات الاضطهاد «الفظيعة» التي قام بها «المحمّديون» و«الدروز» قادت إلى «هجرة بطيئة» للمسيحيين الموارنة. يتبين من ذلك أن المراقبين البرازيليين الذين تفطّنوا في مستهلّ القرن العشرين للتمايز المسيحي للمهاجرين الشرق الأوسطيين صوّروهم خطأً بأنهم لاجئون من عالم عربي إسلامي متعصب مزعوم.

بيّن ليسر كيف أن كراهية البرازيليين لتمايز المسلمين برزت حين سعت مجموعة من المسيحيين العراقيين، من الطائفة الآشورية، للهجرة في مطلع ثلاثينيّات القرن الماضي[٢٨]. جادل أحد المدافعين البرازيليين عن إعادة توطين

---

(٢٣) Oscar Egidio de Araujo, «Enquistarnentos étnicos,» *Revista do Arquivo Municipal*, vol. 6, no. 65 (1940), pp. 227-246; Amarilio Junior, *As vantagens da imigração syria no Brasil* (Rio de Janeiro, [n. pb.], 1935), and Rafael Paula Souza, «Contribuiçao aetnologia paulista,» *Revista do Arquivo Municipal*, vol. 3, no. 3 (1937), pp. 95-105.

(٢٤) Manuel Diegues, *Etnias e culturas no Brasil* (Rio de Janeiro: Civilizacao Brasileira, 1976 [1952]), p. 195.

(٢٥) إن الموارنة والملكيين الذين يسمّون «شرقيين» أو متمسكين بالطقوس الشرقية تابعون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية. كما كانت أعداد المسيحيين الأرثوذكس كبيرة جداً، وإن لم يشر إلى ذلك دييغوز بصورة محدّدة، في موجات الهجرة من الشرق الأوسط في مستهلّ القرن العشرين.

(٢٦) Alfredo Ellis, Jr., *Populações paulistas* (São Paulo: Companhia Editora Nacional, 1934), p. 197.

(٢٧) Joao do Rio [Paulo Barreto], *As religiões do Rio* (Rio de Janeiro: Editora Companhia Nacional, 1928), pp. 164-165.

(٢٨) Lesser, «Immigration and Shifting Concepts of National Identity in Brazil during the Vargas Era».

الآشوريين بأن هؤلاء «السكان المسيحيين» يضطهدهم «متعصب مسلم»[٢٩]. وشبّه رجل دولة برازيلي معارض لذلك الزعم «الآشوريين» بالمسلمين. كتب ليسر إن رجل الدولة «سعى بشدة لربط تلك المجموعة بالمسلمين العراقيين بوصفها بـ «آشوريي العراق» وبالإشارة إلى المسلمين بأنهم أشقاؤهم»[٣٠]. ومع أن خطّة إعادة توطين الآشوريين فشلت في النهاية، نستدل مما تقدّم على أنّه في حين استقبل العرب المسيحيون بالترحاب، لم يكن لمن عُدّوا مسلمين مكان في الدولة البرازيلية في مستهلّ القرن العشرين.

ثانياً: «الحُوَيصلات» العربية في سياسة الهجرة وفي المزيج العِرْقي

ركزت الإجراءات المتصلة بسياسة الهجرة في البرازيل في مستهلّ القرن العشرين، وإن ارتبطت بالاقتصاد، على التركيبة العِرْقية للبلاد بصورة واضحة. وأملاً بالتطوير و«تبييض» الأمّة من خلال تحسين النسل، أبدت النخب الحكومية والفكرية البرازيلية رغبة واضحة في استقدام مهاجرين من أوروبا[٣١]في الواقع أن بنداً في دستور عام ١٨٩٠ الذي صاغته الحكومة الجمهورية حظر دخول مهاجرين من آسيا وأفريقيا[٣٢]. لكنّ مرسوماً جديداً صدر عام ١٩٠٧ غيّر السياسة العِرْقية واضعاً معايير لا تشير مباشرة إلى «القارّة التي جاء منها» المهاجرون[٣٣]. غير أنه مع وصول غيتيوليو فارغاس إلى السلطة في ثلاثينيّات القرن الماضي، اعتُمد نظام الحصص وهو ما خفض بدرجة كبيرة أعداد المهاجرين غير الأوروبيين[٣٤].

---

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣١.

(٣١) افتُرض أن العمال البيض أكثر إنتاجية من الناحية الاقتصادية من الأجناس المحلية. انظر: George Reid Andrews, *Blacks and Whites in São Paulo, Brazil: 1888-1988* (Madison: University of Wisconsin Press, 1991), and Thomas Skidmore, *Black into White: Race and Nationality in Brazilian Thought* (New York: Oxford University Press, 1974).

(٣٢) Manuel Diegues, *Imigração, urbanização e industrialização* (Rio de Janeiro: Instituto de Estudos Pedagologicos, 1964), pp. 50-51; Artur Hehl Neiva, *O problema imigratório brasileiro* (Rio de Janeiro: Imprensa Nacional, 1945), p. 23, and Skidmore, Ibid., p. 137.

(٣٣) Skidmore, Ibid., p. 137.

(٣٤) المصدر نفسه، و Chiyoko Mita, «Ochenta años de inmigración japonesa en el Brasil,» *Estudios Migratorios Latinoamericanos*, vol. 10, no. 30 (1995), p. 439.

أعيد التأكيد على إيثار البيض على غيرهم في منشور صادر عن وكالة الهجرة الحكومية البرازيلية(٣٥). كتب أحد أعضاء الوكالة، ويدعى أرتور نيفا: «أحكم بأنه لا مفرّ من وضع قيود، أو من تفضيل استثناء هجرة أبناء الشعوب السود أو الصفر لمصلحة موجات المهاجرين البيض بكل تأكيد»(٣٦). وبالمثل، دعت مراجعات للقانون المتعلق بالأجانب الصادر عام ١٩٤٥ إلى «المحافظة على النسل الأوروبي وتطويره ضمن التركيبة الإثنية للسكان»(٣٧). وأُقرت ثلاثة قوانين أخرى على الأقل خلال العقود الخمسة التالية، لكنّها استندت إلى نظام حصص عِرْقي بقي يحابي الهجرة الأوروبية(٣٨). وفي وقت متأخر عام ١٩٧٦، كتب خبير قضائي: «ينبغي التخطيط لسياسة الهجرة وتنفيذها بطريقة تضمن المحافظة على النسل الأوروبي للسكان البرازيليين»(٣٩). حتّى إنَّ موظفاً مكلفاً معالجة سجلات إدارة الهجرة الحكومية الفدرالية الحالية في ساو باولو يقرّ بأن نظام الحصص كان «يحابي الأوروبيين، وخصوصاً البرتغاليين والأسبان» طوال سبعينيّات القرن الماضي. وبذلك خدمت سياسة الهجرة في معظم القرن العشرين في تبييض الأمّة البرازيلية.

وبعدما بات هدف سياسة الدولة احتواء الفروق العِرْقية ومجانستها، نظّم الإنتاج الثقافي المعاصر بجل التركيبة غير المتجانسة عِرْقياً للبلاد. وأضحت فكرة تهجين الأجناس البشرية الأمريكية الهندية والأفريقية والبرتغالية، التي دُشّنت في كتاب **الأسياد والعبيد** (*Casa grande e senzala*) لجيلبيرتو فريري عام ١٩٣٣، معقلاً للأيديولوجيا القومية البرازيلية. وبصوغ ماضٍ خرافي للأسياد الذكور أصحاب البشرة الفاتحة والإماء صاحبات البشرة الداكنة في المزارع الاستعمارية، ادعى فريري أن العلاقات الجنسية بين الأعراق المختلفة أوجدت عِرْقاً برازيلياً فريداً «مختلطاً» وخالياً من الانقسامات العِرْقية

---

(٣٥) Conselho de Imigração e Colonizacao, *Ante-projcto de lei sabre imigração e colonização* (Rio de Janeiro: Imprensa Nacional, 1943), pp. 186-195.

(٣٦) Neiva, *O problema imigratório brasileiro*, p. 46.

(٣٧) Thelma Thais Cavarzere, «Direito internacional da pessoa humana: A circulação internacional de pessoas,» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 1991), p. 250, and Antonio Chavez, *As normas nacionalizadoras no direito brasileiro* (São Paulo: Saraiva, 1950), p. 33.

(٣٨) Cavarzere, Ibid.

(٣٩) A. Dardeau Carvalho, *Situação jurídica do estrangeiro no Brasil* (São Paulo: Sugestoes Literarias, 1976), p. 21.

الجامدة[٤٠]. وجرى تصور خرافة الأصل القومي هذه التي استندت إلى المزارعة، في وقت اكتسبت التجارة والصناعة زخماً في الدولة البرازيلية.

كان لفكرة المزيج العِرْقي وسياسة الهجرة العِرْقية تأثير في كيفية تحدّث النخب البرازيلية عن «العناصر الأجنبية» وتمحيصها. تعطينا معدلات تهجين الأجناس البشرية التي اعتُمد في قياسها في الظاهر على أنماط الزواج، فكرةً عن كيفية تقييم المهاجرين أو التشكيك فيهم أو منحهم صفة الشرعية داخل الدولة. وهناك وفرة في الدراسات الحكومية التي اهتمت بالممارسات المتبعة في الزواج في أوساط الجماعات المهاجرة في النصف الأوّل من القرن العشرين[٤١]. وجد الباحثون من دون استثناء أن المهاجرين البرتغاليين والإيطاليين والأسبان امتزجوا على نحو جيد مع السكان «المحليين». وبالتالي، جرى التشديد على المكان الذي جاء منه المهاجرون في مكان العمل وفي غرفة النوم، بتفعيلهم الأمّة البرازيلية وتبييضها.

على أن آخرين تصوّروا أن المهاجرين الآخرين من غير البيض، مثل اليابانيين واليهود والشرق الأوسطيين، بقوا مصدر قلق دائم للجهاز الحكومي وللمفكرين. عُدّت هذه الجماعات المهاجرة صاحبة خصال «غير مرغوب فيها» في البرازيل[٤٢].

---

(٤٠) إن كتاب الأسياد والعبيد (*Casa grande e senzala*) لفريري معبّر عن المزيج العِرقي وعن العلاقات الجنسية، وخصوصاً بين الرجال البيض الموسرين والنساء السوداوات، انظر: Gilberto Freyre, *Casa grande e senzala* (Rio de Janeiro: Jose Olympio Editora, 1977 [1933]), and Jeffrey Needle, «Identity, Race, Gender and Modernity in the Origins of Gilberto Freyre's Oeuvre,» *American Historical Review*, vol. 100, no. 1 (1995), p. 69.

إن فكرة الرجولة الذكورية والقدرة الجنسية التي حظيت بقبول وطني اعتُبرت أداة في بناء الشعب البرازيلي.

(٤١) Oscar Egidio de Araujo, «Enquistarnentos étnicos,» *Revista do Arquivo Municipal*, vol. 6, no. 65 (1940), pp. 227-246; Ellis, Jr., *Populações paulistas*; Caio de Freitas Cuimaraes, «Aassimilacao dos principais grupos estrangeiros, através das estatisticas dos casamentos e nascimentos, na população do Município de São Paulo, 1940-1946,» *Boletim do departmento de estatística do Estado de São Paulo*, vol. 14, no. 2 (1952), pp. 81-141; Neiva, *O problema imigratório brasileiro*; Souza, «Contribuicao aetnologia paulista,» pp. 95-105; Oliveira Viana, *Raca e assimilação* (São Paulo: Companhia Editora Nacional, 1932); Lesser: *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil*, and «(Re) Creating Ethnicity: Middle Eastern Immigration to Brazil,» *Americas*, vol. 53, no. 1 (1996), pp. 45-65.

(٤٢) Lesser: «Immigration and Shifting Concepts of National Identity in Brazil during the Vargas Era,» pp. 23-44, and *Welcoming the Undesirables: Brazil and the Jewish Question* (Berkeley, CA: University of California Press, 1995).

كما أنَّ المعدلات المتدنية في الظاهر لزيجاتهم من خارج جماعاتهم عززت المخاوف من تكوّن حُوَيصلات إثنية ضمن جسم الدولة وإفشال عملية تبييضه[43]. وسادت توقعات متفائلة بأن تنخرط هذه «العناصر الأجنبية» في عملية تخالط أجناس، وتميل إلى الزواج المختلط مع السكان المحليين وبالتالي تتقلّص التأثيرات السلبية المحتملة. في ضوء ذلك، خدمت أيديولوجيا المزيج العِرْقي القومية كمدخل للمهاجرين الأوروبيين وغير الأوروبيين على حدّ سواء. لكنّ مكانة هؤلاء الأشخاص «غير المرغوب فيهم» صارت موضع شكّ لا تأكيد في تمازج الأجناس البشرية في البرازيل.

مثّل الشرق الأوسطيون الذين أشير إليهم بتسميات مختلفة (كما ذكرنا في المقدمة) خامس أكبر مجموعة مهاجرة في البرازيل حتى أربعينيّات القرن الماضي، وهو ما جذب انتباه المعلقين في مستهلّ القرن العشرين[44]. رأى هؤلاء أن نمط الهجرة الشرق الأوسطية تميز بغلبة الشبان الذكور العزاب، وهو ما أكده الخبير في علم الاجتماع كلارك نولتون بعد عدة عقود. وجد نولتون[45] أن هناك ما معدله ٢١٤,٢ رجل عربي مقابل كلّ ١٠٠ امرأة عربية[46]. ولا ينبغي أن تكون غلبة الرجال الشرق الأوسطيين غريبة في نظر النخب البرازيلية، وخصوصاً عند معاينة المهاجرين البرتغاليين الذين مثّل رجالهم العزاب أعلى النسب. على أن المفكرين والسلطات الحكومية البرازيلية تملكها الخوف من زواج الرجال الشرق الأوسطيين بفتيات في بلدانهم الأمّ أو بفتيات عربيات وُلدن في البرازيل.

أشارت الإحصاءات الأولى المتعلّقة بزواج الشرق الأوسطيين من

---

(٤٣) Fausto, «Um balance da historiografia da imigração para o Estado de São Paulo;» Giralda Seyferth, «La inmigracion alemana y la politica Brasileñña de colonizacion,» pp. 415-440, and Skidmore, *Black into White: Race and Nationality in Brazilian Thought.*

(٤٤) De Araujo, «Enquistarnentos étnicos,» pp. 230-236; Ellis, Jr., *Populacoes paulistas*; Cuimaraes, Ibid., pp. 87, 100 and 106; Junior, *As vantagens da imigração syria no Brasil*; Souza, «Contribuicao aetnologia paulista,» and Viana, Ibid.

(٤٥) Charles Knowlton, *Sírios e libaneses em São Paulo* (São Paulo: Editora Anhembi, 1961), p. 93.

(٤٦) على النقيض من ذلك، أشار المؤرّخ أكرم خاطر إلى أنه مع كون الشبان العنصر المهيمن في أغلب موجات الهجرة من جبل لبنان فقد كانوا متزوجين قبل هجرتهم من بلادهم. انظر: Akram Khater, *Inventing Home: Emigration, Gender, and the Middle Class in Lebanon, 1870-1920* (Berkeley, CA: University of California Press, 2001).

جماعتهم إلى نسب ناهزت الخمسين في المئة(٤٧). وقد أثارت هذه «البيانات» مناقشات حامية حول ما إذا كانت قيم «مؤشرات انصهار» الشرق الأوسطيين مع البرازيليين «معقولة» أو «متدنية»(٤٨). لاحظ ليسر أن الإحصاءات نفسها استُخدمت في تبرير وجهَي هذا الجدل المثير للإشكاليات(٤٩). على أن محور النزاع لم يتركز على الإحصاءات في حدّ ذاتها بل على الفئات التي تناولتها، فأشار الخبراء، الذين تنبّهوا إلى عدم وجود بيانات، إلى استحالة معرفة أن المهاجرين الشرق الأوسطيين يتزوجون «ببرازيليات» أو بشرق أوسطيات وُلدن في البرازيل ويُصنَّفن برازيليات. لكنّ النخب القومية البرازيلية جاهرت بمخاوفها على الرغم من عدم توافر بيانات إحصائية مناسبة من إمكان تكوُّن حُوَيصلة داخل الجسم الوطني(٥٠).

ساهمت هذه التصورات الكمّية في الجدال الدائر حول تمازج الشرق الأوسطيين؛ وإذْ وجدت الأعمال الأولى أن معدلات الزواج من داخل الجماعة «معقولة»(٥١)، شككت الأعمال التي صدرت بعد ذلك في هذه النتائج «المتفائلة» على أسس منهجية. وفي إحدى المناقشات الحامية، زعم مراقب غير عربي أن المعدلات «المعقولة» لزواج العرب من جماعتهم لها تأثير إحصائي، لأن «المهاجرين السوريين» يتزوجون «ببنات السوريين البرازيليات» وبالتالي فهم يصنَّفون خطأً بأنهم «مختلَطون»(٥٢). وقال أنثروبولوجي آخر: «مع أنهم أصبحوا منصهرين مع باقي السكان في الأوساط الاجتماعية، تبقى أواصر [زيجاتهم] متصلة بجاليتهم». وأضاف: «السوريون» يفضّلون سكان ساو باولو «الذين ينتسبون إلى نسبهم الأصلي»(٥٣). وخلص عالم اجتماعي أورد ما قاله طرفا الجدال، إلى أن الدراسات المستقبلية وحدها ستكشف إن كان «السوريون» يميلون إلى الاقتران ببنات جماعتهم «مع ما قد يستتبع ذلك من نتائج مواتية أو معاكسة في البلاد»(٥٤).

---

(٤٧) Ellis, Jr., *Populacoes paulistas*, pp. 197-211, and Viana, *Raca e assimilacao*, pp. 120-122.

(٤٨) Junior, *As vantagens da imigração syria no Brasil.*

(٤٩) Jeffrey Lesser, «(Re) Creating Ethnicity: Middle Easter Immigration to Brazil,» *Amaricas*, vol. 53, no. 1 (1996).

(٥٠) Fausto, «Um balance da historiografia da imigração para o Estado de São Paulo».

(٥١) Ellis, Jr., *Populacoes paulistas*, pp. 197-211, and Viana, *Raça e assimilação*, pp. 120-122.

(٥٢) نقلاً عن: Junior, *As vantagens da imigração syria no Brasil*, p. 40.

(٥٣) Souza, «Contribuicao aetnologia paulista,» pp. 101-102.

(٥٤) De Araujo, «Enquistarnentos étnicos,» p. 236.

ويتضح أن عادات العرب في موضوع الزواج مثّلت مادة اهتمام وطني.

أكد نولتون في وقت لاحق شكوك نخب أواسط القرن العشرين، وكتب «الكثير منهم [الرجال السوريين - اللبنانيين] يتزوجون بفتيات أصلهنّ سوري أو لبناني ويظهرن في الإحصاءات الرسمية **برازيليات كونهنّ يقمْن في البرازيل**»(٥٥). وأضاف أن بعض الرجال السوريين - اللبنانيين بحثوا بالفعل عن زوجات وحبيبات من خارج الجالية. لكن نجاح طالبي الزواج العرب في البرازيل بعد الحرب العالمية الثانية يظل موضع شكّ. ذلك بأن عملهم باعة متجولين وأصحاب متاجر لم يجعلهم «صيداً ثميناً» في نظر النخب البرازيلية التقليدية على الرغم من حرّيتهم النسبية مقارنة بالنساء في النظم الأُسرية الشرق الأوسطية. وأشار روجر باسْتايد بإيجاز في كتابه **البرازيل: أرض التناقضات**(٥٦) إلى احتقار الأُسر البرازيلية التقليدية الرجالَ السوريين - اللبنانيين المنحدرين من أصول وضيعة:

«تنظر الأُسر البرازيلية التقليدية باحتقار إلى حدّ ما إلى هؤلاء الأتراك، وهو الوصف الذي لا يزال يُطلق على هؤلاء المهاجرين إلى يومنا هذا... أصبحوا أثرياء، هذا مؤكّد، لكنّ البرازيليين ينظرون دائماً إلى الصورة التي قدم فيها هؤلاء إلى البلاد أول مرة، واضعين أكياساً على ظهورهم، ويبيعون سلعاً رخيصة متنقلين من مزرعة إلى أخرى»(٥٧).

وبعدما زاول الرجال العرب المهن التجارية، جمعوا أرصدة مادية، لكنّ «أصولهم» (التي جمعت بين الطبقة والإثنية) حدّت من تراكم الرصيد الرمزي أو «التمايز» الذي لا غنى عنه لتعزيز فرص الزواج في أوساط النخب البرازيلية.

أشار الرجال المسيحيون الشرق الأوسطيون في المقابلات والمحادثات غير الرسمية إلى هذا التحامل غالباً بل إلى التمييز الذي عاناه جدودهم. على سبيل المثال، بعدما شرح فلاديمير، المهندس اللبناني المسيحي من الجيل الثاني، إيثار الزواج ببنات الجالية قديماً صوناً «للعادات والتقاليد» الأُسرية، أكد أنّه لم يكن أمام

---

(٥٥) Knowlton, *Sírios e libaneses em São Paulo*, p. 51.

التشديد وارد في النصّ البرتغالي الأصلي.

(٥٦) Roger Bastide, ***Brasil: Terra de contrastesi*** (Rio de Janeiro: Companhia Editora Nacional, 1964).

(٥٧) المصدر نفسه، ص ١٨٣.

جيل والده خيار سوى البحث عن فتيات يصلحن للزواج من بين الفتيات المنتميات إلى إثنيتهم. وقال «لم تشأ النخبة البرازيلية في الماضي الزواج من جماعتها ولا العرب رغبوا في الزواج من جماعتهم، لكن النخبة البرازيلية لم ترغب في مصاهرة العرب أيضاً». وباستخدام لغة مشابهة، بيّن عبده أن البرتغاليين البرازيليين «لم يتخالطوا حتّى مع أبناء البلاد. . . وهذه الصعوبة هي التي دفعت إلى الزواج ببنات إثنيتنا». ورأى رجل آخر من الجيل الثاني أنّه كان يوجد في الماضي «تحامل فعلاً» من جانب البرازيليين على «الأصول المتواضعة» للأُسر المهاجرة الشرق الأوسطية[٥٨]. وأرجع ذلك إلى إعراض البرازيليين عن «الاختلاط» مع الأتراك الذين كانوا في نظرهم «مخلوقات منحطّة». وكان ذلك بمنزلة تذكير للرجال الشرق الأوسطيين الأكبر سنّاً بازدراء البرازيليين الأثرياء (غير العرب) بهم.

ثالثاً: الرجولة الإثنية، والأيديولوجيا القومية، وسياسة الهجرة الحكومية

بحلول أواسط القرن العشرين، بات الرجال الشرق الأوسطيون يعدّون مختلفين من منظور حكومي وإعلامي. من ذلك أن سايو دي فريتاس غويمارايس، وهو باحث في المكتب الإحصائي بولاية ساو باولو ذكر عام ١٩٥٢ أن «الرجال السوريين» أظهروا «ميلاً متسامياً» إلى الزواج من فتيات برازيليات (٦٥,٠٣ في المئة)، وهذا ما يثبت «تخالط الأجناس»[٥٩]. لكن اللافت للنظر غياب الشكوك التي أبداها المفكرون الأوائل في زواج الرجال الشرق الأوسطيين بفتيات من خارج جماعتهم بمعدلات مرتفعة والنسب غير الموثق لزوجات هؤلاء الرجال واللاتي يُفترض أنهنّ برازيليات.

وخلال العقد نفسه، صُوّر الرجال الشرق الأوسطيون بأنهم «يختلطون» في

---

(٥٨) نقلاً عن: Greiber, Maluf and Mattar, *Memorias de imigração: Libaneses e sírios em São Paulo*, p. 153.

(٥٩) هذه النتيجة المعاكسة للبداهة تشير إلى حرّية خيار للرجال المهاجرين أكبر من حرّية النساء في اختيار شريك الحياة. وتشير أيضاً إلى أن نسبة الرجال زادت على نسبة النساء في الزواج من خارج جماعتهم لأنهم تزوجوا ببنات من آباء عرب مهاجرين وُلدن في البرازيل (صُنّفن بأنهنّ «برازيليات»). لا ريب أن نسبة الفتيات اللاتي تزوجن من جماعتهنّ كانت كبيرة (٦٣,٠٥ في المئة). لكن دعني أشدد على أن مقالة غويمارايس تُظهر أن السيدات من سائر الجماعات المهاجِرة تزوّجن من أبناء جماعاتهنّ بنسب كبيرة، انظر: Guimaraes, «Aassimilação dos principais grupos estrangeiros, atraves das estatísticas dos casamentos e nascimentos, na população do Município de São Paulo, 1940-1946,» pp. 107.

رواية **غابرييلا: قرنفل وقرفة**[٦٠]. في تلك الرواية، يُغرَم السيد نسيب ببطلة الرواية غابرييلا، في تعبير عن أيديولوجيا المزيج القومية البرازيلية. يوظّف نسيبُ صاحبُ إحدى الحانات الصغيرة غابرييلا كطاهية ليقع في حبها بعد ذلك. يصبح نسيب متيماً بالمرأة السمراء البشرة ويطلب يدها للزواج. ثمّ يعقدان قرانهما في زواج مدني. «حينها يتبين أن نسيباً محمّدي». ومع أن الكنسية لا تجيز زواجهما لأن كلاً منهما يدين بديانة غير ديانة الآخر، يتفق الكاهن الكاثوليكي المحلي مع نسيب على تعميد أبنائه في المستقبل[٦١]. يعكس الاتفاق زوال التمايز الديني للمسلمين في أواسط القرن العشرين بتنصير أبنائهم. بتودد نسيب إلى غابرييلا الخلاسية، يجسّد انصهارَ الرجال الشرق الأوسطيين في الأمّة البرازيلية.

تدور أحداث الرواية في قرية ريفية في ولاية باهيا أخذت في «التطور» مع اعتماد الزراعة الأحادية لمحصول الكاكاو في عشرينيّات القرن الماضي. ابتهج السكان «بتقدّم» بلدتهم، لكنهم استاؤوا من تغير العلاقات بين الرجال والنساء، ولا سيما في موضوع العلاقات الجنسية والزواج. لم يُنظر إلى غابرييلا، المنتمية إلى أسرة خلاسية، على أنّها زوجة مناسبة لنسيب الذي كان يترقّى في سلّم المجتمع. ولم تنظر النخب في البلدة إليها باحتقار وحسب، بل إن أصدقاء نسيب شجعوه على اتخاذ غابرييلا عشيقة له والزواج بامرأة أخرى من أجل اعتبارات الطبقة الراقية. وفي نهاية الرواية، يفسخ نسيب وغابرييلا زواجهما ويبقيان على حبهما لا كزوج وزوجة بل كصاحب حانة وطاهية/ عشيقة. من هذا المنظور، يؤكّد نسيب على مكانة الرجال العرب في الخطاب القومي البرازيلي الذي يتحدث عن المزيج، لكن فقط من خلال إعادة إنتاج هرميات العِرْق والجندر والطبقة التي تقمع النساء الفقيرات بسبب لون بشرتهنّ.

يُظهر النموذجُ المحلي البرازيلي للرجولة العربية تبايناً مع التمثيل الأمريكي للرجل الشرق الأوسطي في الفيلم الموسيقي «أوكلاهوما» لرودجر وهاميرستاين (١٩٥٥). وكما ذكرتُ في المقدمة، كان علي حكيم البائع الجوال «الفارسي» أحد أبطال تلك الرواية التي تصوره بطريقة كوميدية وداعرة. ومع أنّه ينأى بنفسه عن الزواج من فتيات أمريكيات، فهو لا ينفك عن إغوائهنّ ما جعل رجال البلدة

---

(٦٠) Jorge Amado, *Gabriela, cravo e canela*, 79th ed. (Rio de Janeiro: Editora Record, 1998 [1958]).

(٦١) المصدر نفسه، ص ٣٢١.

المحليين يتجنبونه لأفعاله. وفي نهاية الفيلم، يُرغم علي حكيم على الزواج بفتاة أمريكية بعدما صوّب والدها بندقية نحو رأسه. إذا صُوّر نسيب بأنه «رجل متحضر» يحتفظ بخلاسية عشيقة له و«يختلط» جنسياً في السياق البرازيلي، صُوّر حكيم بأنه بائع متجول خسيس يُرغَم على الزواج بامرأة بيضاء ليذوب بالتالي في الرواية الأمريكية. من هذا المنظور، يُصوَّر نسيب جنسياً على أنّه ذو مكانة مهيمنة إثنياً، بينما يُصوَّر حكيم بأنه خاضع إثنياً وأنه مجرد فرد من أفراد الأمّة.

حوّلت رواية غابرييلا في البرازيل إلى مسلسل تلفزيوني استمرّ عرضه عاماً كاملاً على شبكة غلوبو التلفزيونية عام ١٩٧٥. وعام ١٩٨٣، تُرجمت الرواية إلى فيلم سينمائي شهير لبرونو باريتو[٦٢]. وتعمّقَ أمادو في تصوير العلاقات الجنسية بين الأعراق في روايته **الكمين الكبير**[٦٣]. تركز الرواية على بائع متجول عربي كاثوليكي ماروني اسمه فضول عبد الله، ويُشتهر باسم فادو أو التركي فادو. لم يكن تاجراً حذقاً وحسب، بل كان شبقاً جنسياً إلى حدّ أنّه عُرف في بيوت الدعارة المنتشرة في الريف باسم التركي الحبّوب. كتب أمادو إن فضّول «ذائع صيته بين النساء المجرِّبات». ويقال إن فضّول «مولَع بالفتيات السمينات الممتلئات باللحم والنهود البارزة التي يحلو له عصرها بيده الكبيرة»[٦٤]. تقاضت الفتيات البرازيليات اللاتي عملن في الملاهي الليلية في مقابل خدماتهنّ صناديقَ من الأرز المطحون، وزجاجات عطر، وقروضاً ميسّرة، بل وخواتم معدنية مرصعة بأحجار زجاجية وما إلى ذلك من حلي مزيفة في حالات نادرة. من خلال هذه الصورة الرجولية، امتُدح الجوهر التجاري الشرق الأوسطي في البرازيل في أواخر القرن العشرين.

أعيد تصوير نجاحات فضّول التجارية ومغامراته الجنسية في مسلسل تلفزيوني بثّته شبكة «مانشيت» التلفزيونية عام ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦. لم يغب موضوع

---

(٦٢) تجدر الإشارة إلى أن شخصية السيد نسيب عُدّلت في فيلم باريتو، فأضحت شخصية ممتزجة، مثّلها مارسيلو ماستروياني، إذْ ذُكر في أحد المشاهد أن نسيب زبون يسمي نفسه تركي. ويعلل نسيب ذلك بكون والده سورياً ووالدته «نيبوليتانا [هكذا ورد في النص]». وعلى الرغم من هذا التراث المختلط، صُوّر نسيب بأنه صاحب لكنة «عربية» ثقيلة يعيد رواية قصص من «سورية». يشير هذا النموذج السينمائي إلى شيوع صورتين متنافستين للرجال العرب في مطلع ثمانينيات القرن الماضي. فهم ممتزجون من ناحية، ولا يزالون يعرَّفون من خلال إثنيتهم من ناحية أخرى.

(٦٣) Jorge Amado, *Tocaia Grande: A face Obscura* (Rio De Janeiro: Editora Record, 1981).

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٣٩.

فحولة العربي عن وصف الشرق الأوسطيين المسيحيين. وفي هذا الصدد، قال لي سليم وهو لبناني في منتصف العمر هاجر إلى البرازيل في ستينيّات القرن الماضي: «النساء البرازيليات يملن إلى الرجال العرب. وما من امرأة [برازيلية] لم تتعرّض لرجل عربي. فعِرْقنا حامٍ، والنساء البرازيليات يعجبهنّ ذلك»(٦٥). وبالمثل، أشار بسام إلى أن النساءَ البرازيليات وآباءهنّ يرغبون في الرجال العرب. وقالت زينة، وهي امرأة لبنانية من الجيل الثاني، يرغب الآباء على الخصوص في «تزويج [بناتهم] رجالاً لبنانيين لشهرتهم بأنهم أزواج طيبون، وآباء صالحون، وأصحاب أيادٍ سخية. هذا شيء نابع من عِرْقنا». ويوافقها زوجها راوول الفخور بنفسه القول إن البرازيليين «يريدون منا أن نتزوّج بناتهم لأننا أزواج جيدون وآباء صالحون». أي أن الرجولة العربية أدخلت في صميم حديث البرازيليين عن المزيج(٦٦).

من دواعي السخرية أن الرجال العرب صُوّروا بأنهم متمازجون في الحياة العامة على الصعيد الجنسي وقت التخلّي عن أيديولوجيا المزيج القومية، وعن الإشارات المشابهة إلى الأصول العِرْقية للمهاجرين المحتملين، في سياسة الهجرة الحكومية. فمشروع القانون المتعلق بالأجانب، الذي وُضع عام ١٩٨٠، نصّ على أن هدف الهجرة الموقتة أو الدائمة دفع عجلة النمو الاقتصادي لا حماية «التركيبة العِرْقية» (كما هو مذكور في الأزمنة السابقة). جاء في القانون المتعلق بالأجانب، الذي أُقرّ عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١:

---

(٦٥) اللافت للنظر أن رجلاً برازيلياً يابانياً ذكر مرة أن جده دأب على قول نكتة وهي أن الرجال العرب يحملون سلاحاً كبيراً وأن لدى الرجال العرب سلاحاً كبيراً. ويعلّل ذلك بأن جده اعتاد على رؤية رجال عرب ضخام الهيئة غزيري الشعر يحملون جذوع أشجار كبيرة ويأكلون أطعمة ثقيلة مثل الفستق الحلبي والطحينة واللحم النيئ. أي أن جدّه تصوّر الرجال العرب على وجه تصويرهم في الأفلام السينمائية.

(٦٦) بممارسة حرّية أقلّ في اختيار شريك الحياة (ولا سيما اختيار الأزواج)، عانت الإناث مصيراً مختلفاً. ذلك بأنه في أيديولوجيا المزيج القومية البرازيلية، القدرة الجنسية للذكر عنصر مفصلي في الشعب البرازيلي «المختلط عِرقياً»، لكنّ القدرة الجنسية للفتيات (المبيَّضات) رديفة للعفة والطهارة، وهنّ محميات من جانب الأعضاء الذكور في الأسرة ومن جانب الدولة البرازيلية نفسها. انظر: Sueann Caufield, *In Defense of Honor: Sexual Morality, Modernity, and Nation in Early Twentieth Century Brazil* (Durham, NC: Duke University Press, 2000).

لذلك، جرى إقصاء السيدات العربيات عن المزيج المحتفَى به لـ «العرب» في القومية البرازيلية. وفي هذا الصدد، تشير لينا، وهي امرأة لبنانية من الجيل الثاني، إلى «كون الرجال العرب آباءً صالحين يعتنون بزوجاتهم عناية كبيرة». وحين سألتها «ماذا عن السيدات العربيات؟» أجابت «الوجاهة للرجل العربي، إذ إنه لا يجري الحديث عن المرأة».

إن الهدف من الهجرة أساساً تأمين العمالة المتخصصة للقطاعات المتنوعة للاقتصاد الوطني بما ينسجم والسياسة التنموية الوطنية في جميع نواحيها، وخصوصاً رفع مستوى الإنتاجية، واستيعاب التقانة، وتأمين الموارد لقطاعات معيّنة[٦٧].

بات وفود الناس إلى البرازيل يبرَّر ويدار أساساً الآن بناء على قدرتهم على دفع «التنمية». على أن التشديد على ضرورة مساندة الاقتصاد الوطني في تشريعات النظام الأساسي السابقة لم يصبح التعليل المنطقي الأساسي إلا عام ١٩٨١ وهو ما استتبع إلغاء المعيار العِرْقي.

كان فصل الأيديولوجيا القومية عن سياسة الهجرة الحكومية في النظام الأساسي أحد التغييرات العارمة. يتحدث فيليب، الذي ترأس دائرة الهجرة الفدرالية في ساو باولو طوال السنين الخمس عشرة الماضية، عن هذا التشريع وعن تشريع مشابه متصل بالانفتاح الاقتصادي الذي عرفته البلاد عام ١٩٩١. وأشار إلى أن السياسات الجديدة صيغت لتنظيم وصول عدد أكبر من «المدراء التنفيذيين ذوي الكفاءة العالية» من الشركات المتعددة الجنسيات في أوروبا والولايات المتحدة، وللمساعدة على حماية حقوق الإنسان في ما يختص بالمهاجرين غير الشرعيين الذين يعملون في مهن غير رسمية ويتقاضون أجوراً زهيدة[٦٨]. وفي هذا الصدد، أُقرّ تشريع جديد لمساعدة أُسر هؤلاء المهاجرين. وأصبح التشريعُ الذي ينصّ خصوصاً على «منح تأشيرة موقتة أو دائمة لإتاحة لمّ شمل الأُسر» القانونَ التوجيهي الذي أُقرّ عام ١٩٩٩[٦٩]؛ الأمر الذي مثّل الأداة التي حوّلت ما كان ممارسة شائعة في ثمانينيات القرن الماضي وتسعينيّاته إلى قانون. وإذْ أصبح القانون الوسيلة لتأمين الإقامة وحقوق المواطنة لزوجات المهاجرين وأقاربهم، باتت فقرة «لمّ شمل الأُسر» تمثل الوجه الإنساني لدولة برازيلية نيوليبرالية تسعى لقوننة تدفق العمالة الرخيصة.

أضاف فيليب: يوفر «لمُ شمل الأُسر» الآليةَ القانونية التي تمكّن المهاجرين

---

(٦٧) Estatuto do Estrangeiro, Lei No. 6.815 *de 19-8-80*, 26th ed. (São Paulo: Editora Atlas, 2000), p. 18.

(٦٨) الأمر الأقل مفاجأة هو أن المدراء من الأرجنتين والمكسيك، لكنهم يعملون غالباً لدى شركات متعدّدة الجنسيات توجد مقارّها في الولايات المتحدة أو في أوروبا.

(٦٩) ربما يُعزى تدنّي نسبة الزيجات المختلطة عن الزيجات من داخل الجماعة إلى كون أغلب من أجريت مقابلات معهم يترددون إلى الجمعيات الاجتماعية والدينية في الجالية. انظر: المصدر نفسه، ص ٤١٥.

الحاليين من الحصول على الإقامة والجنسية. وفي إشارة إلى طلب إقامة تقدّم به مهاجر لبناني ملفه موضوع على طاولته، بيّن فيليب أن أغلب المهاجرين الشرق الأوسطيين يأتون من جنوب لبنان. والتغير المهم الآخر، والكلام لفيليب، هو ديانة هؤلاء المهاجرين. فإذا كان أغلب المهاجرين اللبنانيين السابقين مسيحيين، فقد بات المسلمون يمثّلون أغلبيتهم اليوم. يقال إن اللبنانيين، الذين يعملون في مؤسسات مهنية تديرها أُسرهم، عمّال صادقون فرّوا من الحرب ويريدون العيش بسلام. ويبين فيليب أنّه بإقرار قانون «لمّ شمل الأسر» في سياسة الهجرة، بات في مستطاع المهاجرين اللبنانيين الحصول على الإقامة أو الجنسية عبر الاقتران بفتيات لبنانيات وُلدن في البرازيل.

درس المسؤولون الحكوميون آنذاك مفهوم «الخِطبة» المتعارف عليها لدى الأشخاص القادمين من «الشرق» في سياق شرح المنطق الثقافي لترتيبات الزواج. يقول فيليب بنبرة الأنثروبولوجي، «الخِطْبة» شائعة في أوساط الشرقيين، ليس في أوساط العرب فحسب، بل في أوساط الكوريين والصينيين أيضاً. في الحقيقة، يقول فيليب «الشرقيون لا يحبون التمازج مع البرازيليين، ولكن يفضّلون الزواج بفتيات من أجناسهم». بناء على ذلك، تقرّ سياسة الهجرة الحديثة الزواج الشتاتي الشرق الأوسطي ضمناً، حتّى إنّ الموظفين الحكوميين يتحدثون عنه من منطلق إنساني. وبالتالي، جرى التخلي عن أيديولوجيا المزيج القومية في هياكل الدولة، وأُبدلت بلغة يمكنها قوننة تدفق العمالة في اقتصاد مفتوح.

وكما أيديولوجيا المزيج القومية، تحابي سياسةُ الهجرة الحكوميةُ العنصرَ الرجولي، إذ إن أغلب حالات «لمّ شمل أُسر» اللبنانيين المسلمين، والكلام لفيليب، تتضمن زيجات بين رجال لبنانيين مهاجرين وفتيات لبنانيات وُلدن في البرازيل. لكنه يقرّ بأنه لم يتحدث يوماً إلى امرأة مسلمة لبنانية. وإذا كان الرجال قد حصلوا على إقامة موقتة بعقد قرانهم على فتيات لبنانيات من الجيل الثاني، فالعادة أن يأتي آباء الفتيات أو أشقاؤهنّ للتحدّث إليه في شأن طلب الحصول على تأشيرة زيارة. يشير ما تقدّم إلى أن الدولة ضالعة بصورة مباشرة في احتواء النساء الشرق الأوسطيات في نظم أُسرية، وأن العنصر الرجولي بقي مهيمناً على الصور الشتاتية والمتمازجة للإثنية العربية. أي أن المشروع الإثني لإعادة إنتاج الأُسرة الشرق الأوسطية، الذي أقرته الأيديولوجيا القومية والسياسة الحكومية على حدّ سواء، صِيغ من منظور الهيمنة الذكورية، ليبقى الرجال مهيمنين على ملامح الإثنية العربية في البرازيل المعاصرة سواء في قيم الأُسر المتمازجة أم الشتاتية.

رابعاً: أيديولوجيات الزواج المسيحية والإسلامية في الحياة الخاصة

بعد معاينة الحياة الزوجية لأربعة وأربعين رجلاً سورياً ـ لبنانياً ورادة أسماؤهم في الجمعيات الاجتماعية والدينية في ساو باولو، لاحظتُ فرقاً دقيقاً في الممارسات المتبعة في الزواج بين المسيحيين والمسلمين. فعلى صعيد الزواج من داخل الجماعة، وجدت أن المهاجرين المسيحيين أميَل إلى الاقتران بفتيات مسيحيات من الجيل الثاني، في حين يميل المسلمون المهاجرون إلى الزواج بفتيات مسلمات مهاجرات. وفي التفاصيل، اقترن سبعةٌ من إثني عشر مسيحياً مهاجراً بفتيات من الجيل الثاني، في حين اقترن أربعةٌ من سبعة مهاجرين مسلمين بفتيات مسلمات مهاجرات. وبالمثل، مال المسيحيون من الجيل الثاني إلى الاقتران بفتيات مسيحيات من الجيل الثاني، في حين مال المسلمون من الجيل الثاني إلى الاقتران بمسلمات مهاجرات. وتزوّج عشرة من ستة عشر مسيحياً بفتيات مسيحيات من الجيل الثاني، وتزوّج خمسة من تسعة مسلمين من الجيل الثاني بمسلمات مهاجرات. وعلى صعيد الزواج من خارج الجماعة، ومن جملة المهاجرين وأبناء الجيل الثاني، وجدتُ أن المسيحيين أميل من المسلمين إلى الاقتران بفتيات غير عربيات (أصلهنّ أوروبي)[٧٠]، إذ تزوّج تسعة من ثمانية وعشرين مسيحياً بفتيات غير عربيات، في حين لم يفعل ذلك سوى ثلاثة من ستة عشر مسلماً. تشير النتائج المحدودة التي توصلت إليها إلى أن الشرق الأوسطيين المسيحيين أميل إلى الاقتران بفتيات برازيليات من الجيل الثاني أو غير عربيات، في حين يميل الشرق الأوسطيون المسلمون إلى الاقتران بفتيات مهاجرات.

إذا كان العرب المسيحيون يتزوجون بفتيات من الجيل الثاني، فهم يعللون هذا الزواج من الجماعة بفكرة حبّ الحياة أو التعايش. وعن ذلك يقول الطبيب شربل: «لا تزال حالات الزواج من داخل الجالية كثيرة، لكنّ مردها تردد [العرب] إلى الأندية نفسها، وكثرة لقاءاتهم، وذهابهم إلى الحفلات نفسها ما يتيح مجالات للتعارف والزواج بعضهم ببعض». وبالمثل، أشار ريكاردو، وهو رجل من الجيل الثاني تزوج بامرأة سورية من الجيل الثاني أيضاً، إلى أنّه «إذا كنتَ تختلط بعشرة أشخاص في علاقاتك الاجتماعية، وكان ثمانية من هؤلاء

---

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٤١٥.

العشرة من أبناء جاليتك، تزيد فرص زواج ابنتك أو إقامة ابنك علاقة بفتاة من الجالية». وبالمثل، يقول عرب السوري من أبناء الجيل الثاني إنّه متزوج وإن ابنتيه متزوجتان أيضاً بأبناء أسر سورية ـ لبنانية لمنادمتهم أبناء الجالية في النادي حيث التقى كلّ منهم بشريك حياته. وفي هذا الصدد، قال فيرناندو من الجيل الثالث:

«ستجد باستمرار حالات زواج كثيرة من داخل الجالية. . . لكنّي أعتقد أن سبب ذلك كثرة مخالطتنا بعضنا للبعض الآخر، وارتيادنا النادي نفسه. . . هناك ارتقاء للمستوى الاجتماعي للجالية. أي أن مردّ هذه الزيجات ليس العزلة الثقافية أو عزلة الأصول. لكنّ ترددك إلى النادي نفسه، وعلى البار نفسه، يجعلك تقيم علاقة مختلفة حصيلتها الزواج».

أكّد فيرناندو، مثل عدد من نظرائه المسيحيين، أن الزيجات بين أبناء الأسر السورية ـ اللبنانية راجعة إلى ترددهم إلى المناسبات الاجتماعية نفسها. أي أنّه بينما برر الأجدادُ المهاجرون الزواجَ المشروع من أبناء الجماعة بأنه صون لثقافتها، يعبّر أبناؤهم عنه اليوم بلغة «المنادمة» والحياة المشتركة.

لكنّ حالات الزواج من داخل الجماعة لم تؤثر في تأكيد هؤلاء المسيحيين على اندماج العرب وعلى انفتاح الجالية. على سبيل المثال، أكد مهاجر لبناني اسمه وديع، قبل حديثه عن اقترانه بـ «فتاة لبنانية»، أنّه «ليس في البرازيل جوالٍ منغلقة على نفسها، بل إنّها مترابطة بعلاقات متبادلة». وبالمثل، قال رفاييل اللبناني من الجيل الثاني، الذي لم يتطرّق إلى اقترانه بفتاة من جيله: «أنت ترى أنّه ليس في أبناء الأسر اللبنانية أو السورية من لم يتزوج بابنة إيطالي أو برتغالي. . . إن الاندماج شامل». وبالمثل، تقول لينا ابنة الجيل الثاني المتزوجة برجل لبناني من جيلها: «الزيجات المختلطة أمر جيد «لأنه» لا ينبغي لنا البقاء منغلقين. أعتقد أن الجمع بين الأعراق أمر جيد». حتّى إن ماريو اللبناني من الجيل الثاني الذي زوّج ابنته بلبناني من جيله قال: «العربي هو [المهاجر] الأكثر اندماجاً، باختياره شريكة حياته من جالية أخرى». يوحي هذا التناقض بين القول والممارسة بأن المسيحيين الشرق الأوسطيين لا يزالون يقلّدون أجدادهم المسيحيين في أنماط زواجهم. لكن عوضاً من الحديث عن الإثنية العربية من منطلق «المحافظة على الثقافة»، يضعها أبناؤهم اليوم في خانة الاندماج والانفتاح.

تستند كلمة التكامل المرادفة للمزيج إلى الواقع. وكما ذكرنا آنفاً، تزوج

عدد لا بأس به من المسيحيين الشرق الأوسطيين بفتيات غير عربيات[٧١] فمن جملة الزيجات المختلطة التي أحصيتها، عرّف الرجالُ الشرق الأوسطيون زوجاتِهم بأنهنّ «من أُسر» أوروبية من الجيل الثاني أو الثالث، وأشار بعضهم (خمسة من تسعة رجال) إلى أن أصول زوجاتهم إيطالية[٧٢] ومع أن الرجال الشرق الأوسطيين تحدثوا عن زوجاتهم غير الشرقيات وعن أسرهنّ بلغة الأصول «الإثنية» هذه، فقد أشاروا ضمناً إلى ميولهم العِرْقية في الزواج: اختاروا فتيات بيضاوات البشرة، لا سوداوات ولا آسيويات[٧٣]. إنّه مزيج بالفعل، لكنه من النوع الذي يوضح استمرار هيمنة هرمية أعراق بعيدة كلّ البعد من المساواة في البرازيل.

على أن عدداً ممن قابلتهم من المسيحيين تحدثوا عن تعريف ثقافي الطابع، متجاهلين مسألة العِرْق، في سياق حديثهم عن الزواج المختلط بين العرب والإيطاليين. على سبيل المثال، قال فلاديمير: «لا جالية ينسجم العرب معها في الصداقة والزواج مثل الجالية الإيطالية الشبيهة بجاليتهم. فالإيطاليون يعشقون الموسيقى والرقص». وبالمثل، قالت ساندرا، وهي إيطالية من الجيل الثالث متزوجة بلبناني من الجيل الثاني (طُلّقت منه مؤخراً)، العرب «شبيهون بنا، فلديهم الروح الأسرية نفسها، والإصرار على اجتماع جميع أفراد الأسرة على مائدة الطعام. . . إننا عِرْقان متوائمان جيداً». وحتّى مارسيا، وهي لبنانية من الجيل الثاني تزوجت برجل من جيلها، تقول: «ألاحظ تزايد حالات الزواج بإيطاليين. وأعتقد أن سبب ذلك تقاسمهم عدداً من الأمور المشتركة مع العرب.

(٧١) مضى أحد ممن أجريت مقابلات معهم، وهو متزوج بامرأة إيطالية من الجيل الثاني، إلى حدّ التأكيد أنه ليس للخلفية الإثنية للزوجة أثر كبير مقارنة بانتماء المرأة إلى أسرة صالحة. قال: «في يومنا الحاضر، ليس للأصل الذي تتحدّر منه الزوجة أهمية كبيرة. لكنّ الأهم في نظري شخصية هذه الزوجة إذا كانت أسرتها صالحة. فلا يهم إن كانت ألمانية أم إسبانية أم سورية لبنانية». على الرغم من مزاعم إنكار تأثير لون البشرة، تُظهر أنماط زواج البرازيليين العرب ميلاً ملحوظاً إلى التأثر بالعِرْق.

(٧٢) لدى الاستفسار عن الميل إلى عدم الزواج ببرازيليات أفريقيات أو آسيويات، شدد من أجريت مقابلات معهم على أن أفراد أسرهم لا يتزوجون بفتيات سوداوات أو يابانيات. ومع أن ذلك قد يشير إلى ابيضاض الانتماء العربي المسيحي، لم يشر هؤلاء في سياق الحديث عن ترتيبات زواجهم إلى إثنيتهم. إن عملية إضفاء المسحة العِرْقية «غير الموسومة» هذه علامة كلاسيكية على ابيضاض الجنس.

(٧٣) لا ريب أن الأزواج المنتمين إلى أعراق مختلفة لا يشاهَدون في الدوائر الاجتماعية السورية ـ اللبنانية إلّا نادراً. إحدى القصص القليلة التي سمعتها أن امرأة لبنانية من الجيل الثاني كانت تتواعد سرّاً مع رجل برازيلي أسود وأنهما تزوجا في النهاية. رفض والدها حضور حفل زفافها وقاطعتها أسرتها إلى حدّ ما. لكن بعد أن اعتلّت صحة الوالد الجافي، اعتنت به ابنته وزوجها.

فهم [أي الإيطاليون] يحبون الكلام، والعرب أيضاً. لذلك أعتقد أنّهم شعب يسهل الاندماج معه». وبذلك انضم المسيحيون العرب بحديثهم عن الاندماج الثقافي إلى ركب المؤمنين بالحكاية الوطنية التي تتحدث عن تبييض المزيج.

الظاهر أن إثنية مختلطة آخذة في التبلور من خلال الزيجات التي تجمع بين مسيحيين شرق أوسطيين وفتيات أصولهنّ أوروبية. وما يثبت ذلك إطلاق اسم بلدة مرجعيون التي ينتسب إليها بعض الأُسر اللبنانية على متنزّه دُشّن في ساو باولو. حضر حفلَ التدشين عدد من الأُسر المختلطة والشتاتية. بدت فتاة صغيرة واقفة إلى جانب والدها وجدّها مرتبكة لأن الحديث كان باللغة العربية واستفسرت عن وجود «برازيليين» في الحضور. أجاب والدها «أجل، برازيليون أصلهم لبناني». وأضاف مبيناً لابنته: «جدك لبناني المحفد. وأنتِ لبنانية المحفد أيضاً». ثمّ سألت الفتاة إن كان جداها الآخران لبنانيّين أيضاً. بيّن لها والدها أن أُسرة والدتها إيطالية لا لبنانية، وهو ما أثار فضول الفتاة فسألت «وأنا؟» أجاب والدها «أنتِ إيطالية ولبنانية. أنتِ خليط من الإثنين». وبالتالي، وفّر حفل تدشين متنزّه مرجعيون لمحة عمّا لا يزال إثنية ناشئة في البرازيل. من خلال بناء مشروع أُسري ضمن نموذج المزيج، سعى المسيحيون العرب لقيادة هرمية إثنية متحولة في الأمّة[٧٤].

في المقابل، أظهر المسلمون ميلاً أقوى إلى الزواج الشتاتي من داخل جماعتهم (تسعة من جملة ستة عشر رجلا). ومع أن الذين أجريت مقابلة معهم لم يتبنوا لغة المزيج، فهم شدّدوا على دوافعهم المجرّدة من أي تمييز. قال عبد الله، وهو لبناني مسلم سنّي من الجيل الثاني: «يتزوج المسلمون بنات من الجالية، لكن ليس بدافع التحامل أو التمييز. فليس للأمر علاقة باعتقاد أن البرازيليين دونهم مستوى، بل بتمايز الجماعتين». وأضاف، المسلمون

(٧٤) لا ريب أن هذا النموذج الإثني المختلط في الحياة الخاصة مرتبط أيضاً بالصور الشائعة. ونضرب على ذلك مثالاً في زواج ابنة أُسرة لبنانية مهاجرة من الطبقة الوسطى برجل «أصله برتغالي» لم يظهر في حفل الزفاف والاستقبال ما يشير إلى الإثنية. بيد أن بطاقات الشكر التي أُرسلت إلى الضيوف لاحقاً تضمنت صورة فوتوغرافية ظهرت فيها العروس اللبنانية في ثوب راقصة شرقية والعريس «رجلاً برتغالياً عادياً» (يعتمر قبعة مسطحة الرأس ويلبس صُدْرة مصنوعة من نسيج التويد). وكما ذكر شقيق الزوجة لاحقاً، أراد الزوجان «القيام بشيء مختلف» في صورة الزفاف وآثرا المحاكاة الإثنية الساخرة. وكما سنبين لاحقاً، كان عرض مسلسل «النسخة» التلفزيوني الذي صوّر الرقص الشرقي قد بدأ قبل عدة شهور. من خلال تداول هذه الصورة في أوساط المتزوجين حديثاً والضيوف، تمثّلت الإثنية العربية التي برزت في زواج مختلط بصورتها المتداولة في الحياة العامة في البرازيل.

لا يميّزون لأن جميع الأعراق مرحَّب بها في الإسلام. ويبيّن لبناني درزي من الجيل الثاني أيضاً اسمه عدنان أن من واجب أبناء الدين الواحد اختيار شركائهم من جماعتهم، فهم ليسوا متعصبين عِرْقياً لأن الدروز لا يعتنقون ديناً آخر ولا يدْعون الآخرين إلى اعتناق دينهم. وبالمثل، أشار فؤاد، وهو لبناني مسلم شيعي، إلى أنّه على الرغم من زواجه وزواج زملائه بفتيات من جماعتهم، فإن «الدينا جميع الأعراق في المسجد». يتبين أنّه على الرغم من ميل المسيحيين إلى إجازة الزواج من خارج الجماعة باسم المنادمة، فقد أجازه المسلمون العرب باسم المساواة بين الأعراق، موحّدين بذلك المُثل الإسلامية مع أيديولوجيا الديمقراطية العِرْقية القومية البرازيلية.

الأهم من ذلك أن مسلمين عرباً، مثل حسن، برّروا زواجهم ببنات جماعتهم من منطلق المحافظة على الثقافة. التقى حسن، وهو مسلم سنّي من الجيل الثاني، بزوجته في أثناء إجازة قضاها في لبنان في مطلع ثمانينيات القرن الماضي. وأشار حسن، الذي تزوج بها بعد بضع سنين، إلى أن بعض أصدقائه من غير العرب مازحاه في بعض الأحيان بأنّه «معادٍ للبرازيليين». ورداً على هذا الانتقاد، يشدّد حسن على أن «المسألة علاقة بتنشئة أُسرنا لا بمعاداة [البرازيليين]». وأضاف: البرازيلي لا يستطيع المحافظة على نمط حياته الأسرية، ولا سيما في ما يختص بالأطفال. وقال بنبرة صادقة: «ما نتطلّع إلى توريثه لأطفالنا هو الإلمام بهذه الثقافة [العربية] لأنهم سيجدون ثقافتين في الغد [الثقافة العربية والثقافة البرازيلية] وسيتعرّفون إلى هاتين الثقافتين. هل يوجد خطأ في ذلك؟ كلا، إنّها مسألة مهمة».

إذا تحدّث المسيحيون الشرق الأوسطيون اليوم عن الانصهار، فقد اعتمد المسلمون الشرق الأوسطيون مصطلح المحافظة على الثقافة الذي تبنّاه قبلهم المهاجرون المسيحيون في مستهلّ القرن العشرين. وبتصوير الإثنية من خلال مُثل وحدة الأُسرة الشتاتية، أكد المسلمون على سياسة الهجرة التي تسهل لمّ شمل الأُسر في البرازيل المعاصرة.

ألّف الدروز الشرق الأوسطيون بالمثل إثنية عربية غير مسيحية في البرازيل. إن الحياة الزوجية لعدنان، وهو لبناني درزي من الجيل الثاني في العقد الثالث، معبّرة. فزواجه الأوّل كان بامرأة برازيلية (أصلها إيطالي)، لكن ذلك الزواج انفسخ قبل عدة سنين. وفي أثناء زيارته للبنان في تسعينيّات القرن الماضي،

تزوج بامرأة درزية. يقول عدنان: «كلّ الأشخاص الذين أعرفهم سافروا إلى لبنان بقصد الزواج». وأشار متأملاً في هذا النوع من الزيجات إلى أن للمرأة «تأثيراً قوياً في مشروع بناء الأُسرة»، مشيراً بذلك إلى دور الزوجة المؤثر في غرس القيم الدينية والثقافية للبنانيين الدروز في الأطفال الذين يولَدون في البرازيل. وإذا كان المفكر الدرزي نجيب العسراوي (١٩٦٧) أعرب عن قلقه من الزيجات المختلطة لإخوته في الدِّين في أواسط القرن العشرين، فقد ألّف عدنان وغيره إثنية عربية درزية من خلال نموذج لمّ شمل الأُسرة الذي أقرته الدولة البرازيلية النيوليبرالية(٧٥).

يوضح كلّ من حسن وعدنان كيف تعزز تمايزُ المسلمين في الهرمية الإثنية العربية بالفصل بين الأيديولوجيا القومية والسياسة الحكومية. لكن كما ذكرتُ آنفاً، اختارت نسبة صغيرة من إخوتهم في الدِّين الزواج بفتيات غير عربيات (ثلاثة من جملة ستة عشر رجلاً). وعلى عكس أشقائهم المسيحيين في الزيجات المختلطة، شدّد المسلمون الشرق الأوسطيون على ضرورة أن تعلم زوجاتهم غير العربيات (من أصول أوروبية) الثقافة واللغة العربيتين. على سبيل المثال، تزوج محمّد، وهو مهاجر لبناني سني، بفابيانا، وهي «برازيلية من أُسرة إيطالية برتغالية مختلطة». كانت فابيانا وقت إجراء المحادثة قد سافرت إلى لبنان برفقة الابن الأصغر للزوجين لزيارة أنسبائها هناك. قال محمّد «كانت سعيدة هناك إلى حدّ أنّها اتصلت في الأسبوع الماضي لتقول إنّها راغبة في البقاء عشرة أيام أخرى». وبعد الإشارة إلى رحلة زوجته إلى لبنان، شدّد محمّد على طلاقة فابيانا في اللغة العربية. وتحدّث زميل كان معنا عن رضاه ورضى الآخرين عن المرأة البرازيلية التي تتقن العربية. قالوا «يُسعدنا رؤية ذلك». وأشار رفاق محمّد في المسجد السنّي القديم في ساو باولو إلى أداء عدد من الزوجات غير العربيات فروضهنّ الدينية. على سبيل المثال، قال عبد الله، الرجل اللبناني من أبناء الجيل الثالث الذي تكلّمنا عليه آنفاً: «إن الفتيات البرازيليات اللاتي تزوجن برجال عرب مندمجات فعلاً». أي أن الرجال المسلمون أكدوا انتماءهم العربي حتّى في الزواج المختلط من خلال مُثُل الأُسرة الشتاتية.

(٧٥) دعني أضفْ أنه سُمح للزوجة الأولى بالهجرة إلى البرازيل في مطلع ثمانينيات القرن الماضي وللزوجة الثانية في مطلع التسعينيات. في ذلك الوقت، لم يكن بند «لمّ الشمل الأُسري» معترفاً به قانوناً، لكن كما أشار موظف في دائرة الهجرة، كان تبريره مطبَّقاً أصلاً من الناحية الفعلية.

لا ريب أن عالم السيدات غير العربيات اللاتي تزوجن بمسلمين شرق أوسطيين أعقد مما توحي به هذه الإفادات التي تتصف بالعمومية. على سبيل المثال، تعلّمت فابيانا اللغة العربية لشغفها بالانتماء العربي، وهي معجبة بالدور النموذجي الذي يؤديه القادة الذكور في المجتمع. لكنّ فتيات غير عربيات مثل فابيانا عانين صعوبة أكبر في التخالط مع النساء العربيات. على سبيل المثال، سألت نايلا، وهي امرأة من الجيل الثاني «أصلها لبناني» (لا تتحدث اللغة العربية بطلاقة) كيف يمكن لهذه المرأة «الأجنبية» إتقان اللغة إذا لم تكن لبنانية. أجابت فابيانا «أجل أنا برازيلية، لكنّي أتكلّم العربية. وأنتِ أيتها اللبنانية، لمَ لا تتحدثين بالعربية؟» إن حديث الرجال العرب عن سهولة اندماج المرأة البرازيلية لا ينفي بروز توترات بين الفتيات العربيات وغير العربيات. لكنّ سياسة المحافظة على الثقافة ذات الصبغة الجنسانية هي التي تكمن في صلب هذا الاحتكاك. فقد ذُكر أن عدداً من السيدات غير العربيات اللاتي تزوجن بشرق أوسطيين واعتنقن الإسلام إنما انجذبن إلى نمط الحياة الجديد لولعهنّ بالرقص الشرقي واللغة العربية. يمكن للسيدات غير العربيات اللاتي نلن الاحترام كونهنّ الأمينات الجديدات على الثقافة، تولّي دور أُسند ذات مرة إلى السيدات الشرق الأوسطيات. وبالتالي، اكتسبت الإثنية العربية من خلال الزواج من خارج الجماعة أهمية أكبر بطرائق ربما لا تهمّ الفتيات غير العربيات أصلاً.

خامساً: صور مكثفة للانتماء العربي الإسلامي في الحياة العامة

عام ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢، جرى تصوير أنماط الحياة الزوجية للمسلمين العرب في مسلسل تلفزيوني مسائي برازيلي عنوانه «النسخة» بثته شبكة غلوبو التلفزيونية. ابتعدت قصة المسلسل من التأكيد السابق على المهن التجارية والعلاقات الغرامية للرجال السوريين واللبنانيين في البرازيل، وركزت على أُسرة عربية مسلمة تعيش بين المغرب والبرازيل. يحكي المسلسل قصة حبّ بطلاها فتى برازيلي اسمه لوكاس (موريلو بينيسيو) وفتاة مغربية وُلدت وترعرعت في البرازيل اسمها جايد (جيوفانا أنتونيلي). يلقى دييغو، شقيق لوكاس التوأم، حتفه في الحلقات الأولى من المسلسل في ريو دي جانيرو بعدما قفل عائداً من رحلة عائلية في المغرب. وبعدما قضى دييغو ليلته مع عشيقة والده البرازيلية الجديدة في فاس، قضى نحبه قبل أن يتصالح مع والده الحانق. فُجع الوالد

ولام نفسه على مصير ولده المشؤوم. لكن لا أحد تأثر بالحادثة مثل ألبييري (جوكا دي أوليفييرا)، المختص في علم الوراثة وعرّاب الشقيقين التوأم. وفي مسعى أخير لاستعادة ابنه في العماد، يستنسخ ألبييرا الخلايا الجذعية للوكاس ويغرس الجنين في رحم امرأة غافلة فتلد صبياً على صورة دييغو. وكما يوحي عنوان المسلسل، هذا الصبي هو «النسخة»، لكنه ليس النسخة الوحيدة.

عقدة الموضوع الرئيسي للمسلسل سعيُ جايد الدؤوب لتكون مع حبيبها الحقيقي المسيحي لوكاس. وغداة وفاة والدتها في ريو دي جانيرو، تحزم جايد حقائبها لتعود إلى فاس وتعيش مع خالها علي (ستينيو غارسيا). وعلى الفور تقع في غرام لوكاس في أثناء حفل راقص، وينغمسان في علاقة جنسية في لقاءاتهما التالية في أماكن مختلفة في فاس. لكنّ شاباً مغربياً يُدعى سعيد (جالتون فيغ) «وُعد» من قبلُ بالزواج بجايد. وبعدما حلفت ألا تتزوج بغير حبيبها وفشلها في إقناع خالها علي بالموافقة على زواجها بلوكاس، أُرغمت على الزواج بسعيد. وطوال السنين التالية، حاولت جايد الفرار من زوجها في المغرب، ولم يلتمّ شملها مع لوكاس في البرازيل إلا في الحلقة الأخيرة، أي بعد مرور نحو عشرين سنة على لقائهما الأوّل. بوضع تشديد خاص على صراع امرأة عربية مسلمة مع هيمنة الرجل والقواعد الإسلامية المزعومة التي تحكم الزواج والعلاقة الجنسية، سعت كاتبة قصة المسلسل «النسخة» غلوريا بيريز لإظهار أن «النساء المسلمات يقعن في الغرام أيضاً، وأنه ليس لدى المسلمين موقف رافض للجنس. . . وإذا نظرتَ إلى النساء المسلمات، ستجد أنهنّ ينتهكن القواعد طوال الوقت»[٧٦]. لكن المسلسل «النسخة» يشدّد ضمناً على تمسك الأسر المسلمة بالقواعد الذكورية التي تحكم الزواج والعلاقة الجنسية. وبالاستناد إلى القرآن الكريم الذي يُعطي الوليّ حقّ تزويج المرأة، يقرر علي تزويج ابنته لطيفة وابنة اخته جايد بشقيقين مغربيّين محمّد وسعيد. وبالمثل، خطط محمّد الذي هاجر مع لطيفة إلى ريو دي جانيرو لتزويج ولديه بفتاتين من جماعته بعد نحو عشرين سنة[٧٧] وتمسّكاً بالقواعد الإسلامية التي تحظر على المرأة المسلمة الزواج برجل غير مسلم، دبّر علي أمر زواج جايد بسعيد لمنعها نهائياً من

(٧٦) غلوريا بيريز، نقلاً عن: Christian Clain, «Islamismo chega ao horário nobre,» *Folha de S. Paulo* (1 July 2001).

(٧٧) بدأت سميرة ابنة محمد ولطيفة بالتواعد مع صبي برازيلي يدعى زي بوبيرتو خلافاً لرغبة والدَيها. لكن لكي يتزوج بحبيبته المسلمة، اعتنق زي روبيرتو الإسلام في نهاية المطاف.

الزواج بلوكاس المسيحي في البرازيل. لكن رداً على رفض جايد القاطع الخضوع للسلطة الذكورية في المغرب، تخلّى سعيد في البداية عن طلب جلد جايد بالسوط على مرأى من الناس في الحلقة ما قبل الأخيرة من المسلسل. بالتركيز على خطايا امرأة عربية مسلمة واحدة، أشار المسلسل ضمناً إلى النظم الأسرية المسلمة (الخاضعة لحكم الرجال) التي تدافع عن قواعد إسلامية مزعومة تحكم الزواج والعلاقة الجنسية. ومع أن المسلسل أظهر الإسلام في مجتمع هيمن عليه المسيحيون على مرّ تاريخه، فقد صوّر المسلمين بأنهم نسخ للمخيلة الاستشراقية النزعة، وهو الأمر الذي انتقده المفكر أدوارد سعيد(٧٨).

بإعادة إنتاج هذه الصور المهيمنة، تحدّث المسيحيون الشرق الأوسطيون عن نظرائهم المسلمين من منطلق الكراهية الدينية المزعومة للتمازج على الرغم من اتصالهم المباشر المحدود بأشخاص غير مسيحيين. وفي هذا الصدد، يشير سليم، وهو مهاجر لبناني مسيحي، إلى «صعوبة تمازج المسلمين مع البرازيليين لأنهم مسيحيون». وأشار سليم في مسألة تنشئة الأطفال خصوصاً إلى أن «البرازيليين منفتحون وأن المسلمين منغلقون» ـ إلى حدّ أن الأطفال المسلمين «يعيشون في نظام عسكري. حتّى إنّهم ليس في استطاعتهم الخروج مع أطفال برازيليين». وبالمثل، تقول فاليريا، وهي لبنانية مسيحية من الجيل الثاني، إن المسلمين «لا يندمجون» لأن المسيحية هي الدِّين الرئيسي في البرازيل ولأن الآباء لا يفسحون المجال أمام الأطفال للاختلاط بغير المسلمين. وقال مسيحي آخر: «يوجد هنا انقسامات في الهجرة ـ وأعتقد أن سببها المسلمون لأنهم محافظون ويفضّلون الابتعاد من الناس، والمحافظة دائماً على مسافة تفصلهم عنهم»(٧٩). وبالمثل، يقول شاب لبناني مسيحي من الجيل الثاني:

«المسلمون في البرازيل منغلقون في مجتمعهم، ولا يتخالطون إلا مع بعضهم ويتحاشون التواصل مع المجتمع البرازيلي. والآباء المسلمون الذين أعرفهم لا يشجعون أبناءهم على الدراسة رجالاً كانوا أم نساءً. . . لأن الرجال مكلفون بإدارة الأعمال المهنية لأسرهم، ولأنه لا يتم تحضير الفتيات إلا للزواج من داخل الجماعة»(٨٠).

---

(٧٨) Edward Said, *Orientalism* (New York: Praeger, 1978).

(٧٩) نقلاً عن: Gattaz, «História oral da imigração libanesa para o Brasil, 1880-2000,» p. 208.

(٨٠) نقلاً عن: Osman, «Caminhos da imigração arabe em São Paulo: História oral de vida familiarm» p. 299.

تحدّث المسيحيون العرب عن نظرائهم المسلمين بأنهم ينفرون من التمازج الزوجي والأُسري. وبتأثر المسيحيين العرب وتأثيرهم في الصور التي يجسدها علي وسعيد ومحمّد ولطيفة وشخصيات أخرى في المسلسل «النسخة»، أعادوا إنتاج الصور النمطية للمسلمين بوصفهم متدينين متعصبين. وبالتالي فإن البروز الديني الإثني المتزايد لا يعني بالضرورة انحسار التحامل أو التمييز.

أثيرت الافتراضات المبنية على عزلة المسلمين المزعومة في أثناء لقاء أُسري لبسام، وهو لبناني مسيحي أرثوذكسي غادر لبنان في ستينيّات القرن الماضي. يعيش بسام حالياً في شقة علوية راقية في مبنى شاهق في حيّ جاردينز الفخم في ساو باولو، وقد تزوج أولاً بفتاة من أُسرة لبنانية مهاجرة في البرازيل. لكنه طلّقها في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، ثمّ تزوج ثانية بامرأة إيطالية من الجيل الثالث يعيش معها حياة سعيدة، وكان عدد من أقربائها حاضرين في تلك الأمسية التي تناول فيها الحضور اللحم المشوي واحتسوا الويسكي مع مكعبات الثلج. وهناك تعرّفتُ إلى شقيق زوجة بسام، ماركوس، وهو إيطالي من الجيل الثالث، وإلى ابن أخيه سمير اللبناني من الجيل الثاني. وبعدما أشرت إلى اهتماماتي البحثية، تحولت المحادثة إلى عرض لتاريخ اللبنانيين والإيطاليين في البرازيل. وبعد تناول المزيد من أسياخ اللحم المشوي واحتساء المزيد من كؤوس الويسكي، بدأ ماركوس وسمير بالحديث عن التركيبة الدينية المتغيرة للمجتمع اللبناني. أشار ماركوس إلى جيران صهره في مبنى تقيم فيه أُسرة لبنانية مسلمة؛ وأضاف: «المسلمون لا يتمازجون». وأومأ سمير برأسه موافقاً على ما قال، وأضاف «أجل، المسلمون لا يتخالطون». رأى القريبان المسيحيان أنّه على الرغم من مشاركة جيرانهم المسلمين الجدد إياهم في طعامهم وشرابهم، فهم لا يدْعون مسيحيين إلى حفلاتهم في المبنى نفسه.

وفي إشارة إلى نفور الجيران المسلمين المزعوم من الاختلاط، ألمح ماركوس إلى انعزالهم الاجتماعي في الظاهر، وإلى تقاليدهم في الزواج أيضاً. تحدّث وسمير عن شقيق جارهم المسلم الذي أُرسل إلى لبنان للزواج بامرأة «نُذرت» له. لكنّ المشروع أخفق للأسف في إثر وفاة الشقيق في حادث سيارة في لبنان. وما زاد الأمر سوءاً أن الشقيق وُجد مخموراً مع فتاتين في تلك السيارة. ممازحين «يا للعار!». الظاهر أن فحوى القصة، وإن لم يعبّرا عنه صراحة، أن المسلمين الذين لا يمتزجون في البرازيل يعيشون حياة نهايتها مأساوية. وخلَص ماركوس إلى أن «[المسيحي] اللبناني أكثر قبولاً [في البرازيل]

لأنه يندمج». أومأ سمير الواقف إلى جانب شقيق زوجته الإيطالي من الجيل الثالث برأسه وقال: «اللبنانيون هم الأحرى قبولاً لأنهم يندمجون». أي أنّه بتهميش المسيحيين الشرق الأوسطيين لنظرائهم المسلمين أضافوا اختلافهم الإثني والديني إلى أيديولوجيا المزيج القومية البرازيلية.

تبلورت هذه الصورة المكثفة للانتماء العربي للمسلمين بموازاة تحوّل الاختلاف الديني للمسيحيين العرب. نشير هنا إلى أن المسيحيين العرب يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية (التابعة لبطريركية أنطاكية) أو يمارسون الطقوس الشرقية للكنيسة الرومانية الكاثوليكية (الكنيسة المارونية وكنيسة الروم الملكيين الكاثوليك). لكن البعض يقول إن أفراد تلك الأُسر وأقاربهم يتعمّدون الآن في الكنائس الكاثوليكية الرومانية أو يترددون إليها من حين إلى آخر. المثير في الأمر أنّه نظراً إلى «تَلَتُّن» عدد من المسيحيين العرب ـ على حدّ قول كاهن ماروني [يقصد التحاقهم بالكنيسة اللاتينية] ـ بدأ أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية البرازيليون بالتردد إلى الكنائس الأرثوذكسية أو الشرقية. وعن ذلك تقول فاليريا وهي من بنات الجيل الثاني، إن ساو باولو مقرّ ثاني أكبر كاتدرائية مسيحية أرثوذكسية بعد آيا صوفياً في إسطنبول، «القليل جداً من سكان الأرياف يرتادون الكنائس، إذ إن عامة من يحضرون القداديس برازيليون [من غير العرب]». وفي سياق متصل، أشار ريكاردو، وهو سوري أرثوذكسي من الجيل الثاني يرتاد الكنائس، إلى أن عدداً من «البرازيليين من أتباع الكنيسة الرومانية» لا يتزوجون من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية فحسب، بل يلتحقون بالأبرشية بصفة رسمية أيضاً. قال ريكاردو: «وجدوا قداسنا جميلاً، بل أجمل من قدّاس الكنيسة الرومانية». إن تنقّل رعايا الأبرشيات بين المذهب الكاثوليكي الروماني والمذهب المسيحي الشرقي يشير إلى أن الاختلاف الديني للمسيحيين العرب يُعد حميداً في البرازيل.

يقرّ المسلمون الشرق الأوسطيون أن الإثنيات المسيحية «مندمجة» على نحو أكثر شمولاً في المجتمع البرازيلي. على سبيل المثال، يقول عبد الله وعدنان وحسن إن المسيحيين الشرق الأوسطيين امتزجوا مع البرازيليين اجتماعياً من خلال المصاهرة لأنهم يشاطرونهم الانتماء الديني. لكنهم رأوا أن هذا التمازج أضعف انتماءهم العربي. يقول عبد الله: «المسيحيون يندمجون أكثر، ولهذا السبب يقطعون صلاتهم بالوطن العربي». وبالمثل، قال عدنان: «تزداد وتيرة مصاهرة المسيحيين للبرازيليين، ما يُفقدهم الكثير من روابطهم بانتمائهم العربي». وفي إشارة إلى أن انتماء المسيحيين العرب «عاطفي»، ذكر عدنان

مازحاً أن المسيحيين عرب بالهوية فقط. وفي أثناء المشاركة في المناسبات الإثنية، يقال إن المسيحيين السوريين ـ اللبنانيين يستخدمون هويتهم العربية كبطاقة تعريف يُظهرونها أو يخفونها وفق ما تقتضيه المصلحة. أما المسلمون فيرون أن «تمازج» المسيحيين العرب قد اقتضى ضمناً تقطع الأواصر الثقافية أو عدم أصالة الانتماء.

وبطريقة مشابهة، اتهمت ناديا، وهي لبنانية مسلمة من الجيل الثاني، المسيحيين العرب بأنهم «البرازيليون الأكثر تمييزاً [ضدّ المسلمين]». قالت إنّهم ربما سمعوا قصصاً رواها آباء المهاجرين وأجدادهم عن اضطهاد المسلمين المزعوم للمسيحيين في جبل لبنان وفي سورية (يُفترض أن الدافع منعهم من الهجرة). ولما كانت ذرياتهم لا ترى الوطن العربي إلا من خلال العدسات الطائفية لأسلافهم المسيحيين، استنتجت ناديا أنهم أميل إلى أن يكونوا الأكثر اضطهاداً للمسلمين. وربما نتيجة لذلك، ذكر عبد الله أن المسيحيين لا يترددون إلى المناسبات التي تقيمها جمعيات عربية مسلمة إلا نادراً؛ وأضاف: «إن مشاركتنا في مناسباتهم أكبر من مشاركتهم في مناسباتنا»[٨١]. لكن يطغى على هذه التصورات الحضور العام للمسلمين الذين يُزعم أنهم انعزاليون. ومع أن حضور المسلمين العرب ازداد وضوحاً اليوم، فهم لا يزالون في منزلة التابع بالنسبة إلى المسيحيين العرب المهيمنين تاريخياً. لكن طرأ تحول جذري على هذه الهرمية منذ زوال الفرق الذي يميّز المسلمين في البرازيل منذ مستهلّ القرن العشرين. والظاهر أن التزايد الحالي لحضور المسلمين سيستمر على الأرجح بفضل سياسية الهجرة النيوليبرالية، بحيث تبقى أيديولوجيا المزيج القومية البرازيلية وثيقة الصلة بالحياة العامة في البرازيل.

من خلال أيديولوجيات الزواج، ترجم المشروعُ الإثني العربي الفصلَ

---

(٨١) كما ذكر أندريه غاتاز، برزت أكثر العلاقات استقطاباً بين المسلمين الشيعة والكاثوليك الموارنة، بينما انتمى المسلمون السنّة، والمسيحيون الأرثوذكس، والكاثوليك الملكيون إلى وسط الطيف. انظر: Gattaz, Ibid., pp. 207-209.

على أن أغلب مصادر معلوماتي تدّعي عدم «التحامل» على الطوائف الدينية الأخرى. وشدد رجل ماروني على أن المسيحيين والمسلمين منسجمون تماماً في البرازيل. قال جان: «يتعين عليك الانسجام لأنك إن دعوتني ولم ألبّ دعوتك، سأدعوك غداً ولن تلبّي دعوتي. ستقول «سأتجاهله كما تجاهلني»». وإذا كانت التوترات السياسية والدينية تثير البغضاء في المجتمع الراقي، فقد أقرّ المسيحيون والمسلمون بأنهم منسجمون جيداً في البرازيل.

النيوليبرالي بين مفهوم المزيج القومي وسياسة الهجرة الحكومية. ولو عدنا إلى الأيام الأولى، لوجدنا أن الإثنية العربية خضعت للهيمنة والتشكيك في سياق بناء الأمّة البرازيلية. لكنّ المسيحيين الشرق الأوسطيين أوجدوا لأنفسهم مكاناً في أيديولوجيا المزيج في أواخر القرن العشرين وتحدثوا عن زيجاتهم من خارج جماعتهم بلغة الاندماج القومية. وفي الوقت عينه، صاغ الرعايا المسلمون هويتهم الإثنية الخاصة من خلال مُثُل «لمّ شمل الأُسر الشتاتية». حتّى إنّه جرى استنساخ النظم الأُسرية العربية المسلمة، التي أقرّتها سياسة الهجرة البرازيلية، في مسلسل تلفزيوني يتحدث عن تمسكها المزعوم بالممارسات الإسلامية المتبعة في الزواج والتي تحظر التمازج. وفي حين شدّد المسيحيون العرب على اندماجهم على الصعيد الاجتماعي والديني والمصاهرة، عززت الإثنيةُ العربية المسلمة ـ وعزلتها المفبركة ـ حضورها في الحياة العامة بالبرازيل.

عاينّا في هذا الفصل المعانيَ الخفية السياسية والدينية والعِرْقية التي تجعل نظم المصاهرة الشرق الأوسطية تدفع المرء إلى إعادة النظر في العلاقة بين «الانصهار الوطني» المزعوم و«المحافظة على الإثنية» في الظاهر على نحو يتجاوز منظور «إمّا ـ أو» بصورة أو بأخرى. وكما ذكر جيفري ليسر، لا تقتضي أيديولوجيا المزيج ضمناً «بروز «عِرْق» برازيلي جديد متماثل من اندماج الشعوب» فحسب، بل تقتضي أيضاً «ضمّ الهويات المختلفة (لا صهرها) لبناء مجتمع برازيلي مترابط ومتعدد عوضاً من بناء مجتمع وحيد متماثل»[٨٢]. وقد أظهر استطلاع للبُعْد الديني لهذه التعددية أن الدولة البرازيلية باتت تعترف بالتمايز الإثني للمسلمين ـ الذين جرى «استيعابهم» في السابق في مجتمع هيمن عليه المسيحيون ـ وبات يقتصر على نحو يدعو إلى السخرية على الظهور الإعلامي المتزايد.

(٨٢) Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil*, p. 5.

القسم الثالث

تسويق الثقافة الإثنية

الفصل الخامس

إعادة الاستملاك الإثني في وسط الأندية الثقافية

مثّلت القومية السورية والقومية اللبنانية، أو القومية العربية عموماً ـ فضلاً عن التقاليد المسيحية والإسلامية الشرقية ـ مصدر إلهام لعشرات الجمعيات الاجتماعية والخيريّة والدينية في ساو باولو في مستهلّ القرن العشرين. وبعدما حازت هذه المؤسسات شهرة في أوساط الجالية وفي الحياة العامة، تحولت إلى فضاءات فاخرة لتناول أطباق الحمّص والكافيار، ولأداء الرقص الشرقي والرقص الزوجي، فضلاً عن العزف على آلة العود والكاريوكي. وفي هذه الدوائر الهجينة المترفة، أكدت الشخصيات المرموقة ذات الأصول السورية ـ اللبنانية على أنماطها الثقافية الشرق الأوسطية في الأكل، والرقص، والموسيقى والتي جرى الترويج لها في سوق برازيلية تزداد تنوعاً.

نعاين في هذا الفصل التشكّل الاستهلاكي للإثنية السورية ـ اللبنانية وتحولها في البرازيل من خلال النموذج الاستيعابي الذي استمرّ إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومن خلال نموذج قطاع الخدمات المتنوع في أواخر القرن العشرين. كانت المظاهر الثقافية الشرق الأوسطية مهمّشة في النموذج الأوّل لكنّها حازت شعبية في يومنا الحالي. وبعدما كان النقاد البرازيليون السابقون يرون الطعام والموسيقى والرقص الشرقي مجافيةً للذوق، أو منفّرةً أو غريبةً، باتت هذه الأنشطة موضوع ترويج الآن في أوساط الذوّاقة ذوي المستوى الثقافي الرفيع والمتواضع على حدّ سواء. وأنا أزعم أن مدراء الأندية الريفية الشرق الأوسطية وأعضاءها حازوا سلطة رمزية في هذا السياق

وحوّلوها إلى رصيد اجتماعي في أوساط النخب البرازيلية (غير العربية)[1].

بوضع هذا التطور في إطار علمي واسع يشمل الطعام والموسيقى والرقص في البرازيل، أنوي تحدي طرائق التفكير التقليدية المتعلّقة بالاستملاك الثقافي. وسواء أكان التركيز على طبق الفيجوادا (يخنة الفاصولياء السوداء مع اللحم)، أم على مدارس السامبا الكرنفالية أم على الكاندومبْلي [ديانة أفريقية برازيلية]، شدّدت الأعمالُ السابقة على حيازتها عنوة من جانب نخب قومية وقوى السوق[2]. وفي عمل لاحق تحدّث عن السلع الثقافية نفسها، جرى التركيز على المؤلّفين الظاهرين، ولا سيما مقاومتهم النماذج الثقافية المستملَكة أو تشكيكهم فيها[3]. أرى أن هذه المقاربات تستخدم تقسيماً مشابهاً في علاقات القوة بين «المستمِلك» و«المستملَك». وحتّى عند التركيز مؤخراً على الإنتاج المستملَك، صوّر المفكرون المستمِلكين بأنهم أصحاب القوة الأساسيون. لكن ماذا لو كانت الثقافة المستملَكة تتمتع بقوة اجتماعية كبيرة؟ سنبيّن في هذا الفصل أنّه حين تستمتع جماعةٌ استُملكت ثقافتها بهذه القوة، يمكنها استعادة ملكيتها الثقافية بطريقة تعود عليها بمنافع إضافية.

في أواخر القرن العشرين، استملكت السوقُ الوطنية البرازيلية فنون الطبخ والموسيقى والرقص الشرق الأوسطية. شمل ذلك كلّ شيء سواء سلسلة مطاعم

---

(١) يتناقض اهتمامي بسوق الانتماء العربي هذا مع تكهّن أعرب عنه مؤخراً المؤرّخ أندريه غاتاز الذي رأى أن «الميل» الحالي السائد في الكيانات الشرق الأوسطية التي تأسست في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي هو «التخفي في غمرة الإهمال العام للأبناء [الذين] اندمجوا بالكامل في الحياة البرازيلية وفقدوا كل اهتمام بالمحافظة على الهوية الإثنية الأجنبية». انظر: Andre Castanheira Gattaz, «História oral da imigração libanesa para o Brasil, 1880-2000,» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 2001), p. 240.

في مقابل هذه الملاحظة الأحادية، يراعي عملي حقيقة أن الجمعيات الإثنية فضاءات ترفيهية هجينة لبرازيليين عرب جلّهم من أبناء الجيلين الثاني والثالث. وفي مزيج الرقص الشرقي في قاعات الرقص، والأمسيات الثقافية «الإيطالية» و«العربية»، فضلاً عن المعزوفات الموسيقية الشهيرة لفرانك سيناترا وفيروز، يظهر اختيار واعٍ للنماذج الثقافية التي يتصوَّر أنها تربط الشخصيات المرموقة بالأصالة العربية. ولا تزال الإثنية التي هي أبعد ما يكون من الزوال اليوم محل تقدير المنتمين إليها في أندية الجالية.

(٢) Peter Fry, *Para inglês ver* (Rio de Janeiro: Zahar Editores, 1982); and Maria Isaura Pereira de Queiroz, «The Samba Schools of Rio de Janeiro, or the Domestication of an Urban Mass,» *Diogenes*, vol. 129 (1985), pp. 1-32.

(٣) Barbara Browning, *Samba: Resistance in Motion* (Bloomington, IN: Indiana University Press, 1995); Alma Guillermoprieto, *Samba* (New York: Alfred A. Knopf, 1990), and Robin Sheriff, «The Theft of Carnaval: National Spectacle and Racial Politics in Rio de Janeiro,» *Cultural Anthropology*, vol. 14, no. 1 (1999), pp. 3-28.

حبيب الشعبية للوجبات السريعة التي لديها أكثر من ١٥٠ فرعاً في شتى أنحاء البلاد، أم الرقص الشرقي في مدارس الرقص في وسط المدينة والمسلسل التلفزيوني «الثقافة الشرق الأوسطية» الذي أنتج عبر دوائر وطنية وبُثّ في ساعات العرض الرئيسيّة[٤]. لم يرَ أبناء الإثنيات في الترويج للأشياء العربية نشاطاً معيقاً أو مهيناً، بل رأوا فيه دمجاً خلاقاً للسوريين ـ اللبنانيين في البرازيل. في هذا الوسط، ادّعى البرازيليون الشرق الأوسطيون ملكية صور أكثر أصالة لفنون الطبخ والرقص في الأندية الخاصة بجاليتهم، على الرغم من تقلّص أعداد العاملين في المطاعم والراقصين المحترفين في السوق الرئيسيّة. وبدعوة البرازيليين المتنفّذين من العرب ومن غير العرب إلى المناسبات الاحتفالية، والمآدب، وغيرها، حوّلت الشخصياتُ الرفيعة المشارِكة القوةَ الرمزية المكتشفة حديثاً للسلع الإثنية إلى رصيد اجتماعي[٥]. وباستعادة ملكية الثقافة العربية، سعى أبناء الجالية السورية ـ اللبنانية لنيل الاعتراف وحازوا قسطاً وافراً منه في البرازيل المتنوعة استهلاكياً.

أولاً: الدوائر المترفة الشتاتية «عديمة المذاق» في مستهلّ القرن العشرين

رحل المهاجرون الذين انطلقوا من المرافئ الشرق الأوسطية إلى الموانئ البرازيلية حاملين معهم أفكارهم القومية اللبنانية والسورية والعربية. وقد أسفرت موجات الهجرة هذه عن تأسيس أكثر من مئة جمعية شرق أوسطية في البرازيل في النصف الأوّل من القرن العشرين. إحدى هذه المؤسسات الأولى في ساو بالو كانت النادي الرياضي السوري (ECS) الذي أسسته مجموعة من الشبان السوريين ذوي الميول الرياضية عام ١٩١٧. وبفضل التبرعات في السنين اللاحقة اشترى النادي عقاراً كبيراً في حيّ مُويما الذي بات «راقياً» الآن. وأضفى مفكر برازيلي عربي على هذه الأنشطة الترفيهية هالة من الرومنسية كونها «ثورة روحية للمهاجر ورمزاً لفكرة الصراع المدني»[٦].

---

(٤) Larry Luxner, «Esfihas to Go,» *Saudi Aramco World*, vol. 51, no. 6 (2000), pp. 34-37, and Mayra Moreira Vasconcellos, *Dança do ventre-i-Dança do coração* (São Paulo: Radhu, 2000).

(٥) Pierre Bourdieu, *Outline of a Theory of Practice* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1977), pp. 179-183.

(٦) جميل صفدي كما ورد في: Jorge Safady, *Antologia arabe do Brasil* (São Paulo: Editora Comercial Safady, 1972), p. 27.

لكنّ هذه «الثورة الروحية» ولّدت ثورة أخرى. فحين كان المدح يكال للنادي السوري، «انسحب» بعض اللبنانيين وأسسوا نادي جبل لبنان الرياضي (CAML). يعود هذا الانسحاب الذي وصفه رئيس سابق للنادي السوري بأنه «انفصال»، إلى شجار عائلي تورّطت فيه أُسرة يافت واسعة النفوذ، وهي التي تبرّعت بقطعة أرض كبيرة للنادي اللبناني في الحيّ نفسه. رأى طبيب سوري من الجيل الثاني يُدعى صامويل أنّه على الرغم من تعاطف عدد من أفراد أُسرة يافت مع القومية العربية، فقد كان شقيقه الأكبر باسيليو وزوجته أدما «قوميِّين لبنانيِّين» متحمّسَين وحتّى متعصبَين[٧]. تحالف الزوجان مع قوميين لبنانيين آخرين في ساو باولو، منهم الصحافي شكري الخوري، للمطالبة بتمييز اللبنانيين في ما كان يُعرف بالجالية «السورية»[٨] وبعدما أشار صامويل إلى أن لبنان كان جزءاً حقيقياً من سورية الكبرى، بيّن أن الشرخ بين الناديين الاجتماعيَّين اللبناني والسوري يرجع إلى سلخ الاستعمار الفرنسي «لبنان» عن «سورية» في عشرينيّات القرن الماضي.

إضافة إلى النادي الرياضي السوري ونادي جبل لبنان الرياضي، يوجد نحو عشرة أندية على الأقل أسسها أشقاء من مدينة أو من منطقة واحدة. على سبيل المثال، أسست أُسر هاجرت من مدينة حمص (غرب سورية) نادىَ حمص عام ١٩٢٤. وبالمثل، أسست أُسر من مناطق أخرى في سورية ولبنان نادي حلب، وجمعية أنطاكية، ونادي حاصبيا، ونادي مرجعيون، ونادي راشيا، ونادي زحلة في ساو باولو في مطلع القرن العشرين. يقول شخص في منتصف العمر ممن يرتادون هذه الأندية، إن النادي الرياضي السوري خدم «كنادٍ أمّ» للأندية الصغيرة التي أُطلقت عليها أسماء مدن سورية (مثل حلب وحمص)، وأن نادي جبل لبنان الرياضي هو «النادي الأمّ» للأندية التي أُطلقت عليها أسماء مدن لبنانية (مثل مرجعيون وزحلة). ومع أن الأُسر تحضر المناسبات التي تقيمها جمعيات متنوعة، فإن أغلب أفرادها أعضاء في أندية صغيرة تُنسب إلى مدن

(٧) إن باسيليو يافت الذي كافح بلا هوادة لزيادة «بروز» اللبنانيين في ما كان لا يزال يسمى الجالية السورية، هو الذي دفع في اتجاه تغيير اسم المشفى السوري ليصبح المشفى السوري اللبناني.

(٨) تلطّخت صورة شكري الخوري كونه قومياً لبنانياً في عدد من الصحف الشرق أوسطية (الصادرة باللغة العربية) في ساو باولو في مستهلّ القرن العشرين. وبعدما أصبح «لبنان» كياناً متمايزاً من الناحية الجيوسياسية في ظلّ الاستعمار الفرنسي في أواخر عشرينيات القرن الماضي، أصبح الخوري الممثل الدبلوماسي للبنان في البرازيل.

وأعضاء في النادي «الوطني» المنسوب إلى الوطن الأمّ، أي النادي الرياضي السوري أو نادي جبل لبنان الرياضي. بهذا يتبيّن أن الأيديولوجيات القومية الشرق الأوسطية رسمت تخوم الأماكن الترفيهية الشرق الأوسطية في البرازيل في مستهلّ القرن العشرين[٩].

انتقلت الخصومات الإقليمية والقومية الشرق الأوسطية إلى الجالية أيضاً، وتجلّت غالباً في منافسات رياضية بين الأندية الريفية. يحكي سامي، وهو عضو في الجمعية الأنطاكية، قصة عن رعاية نادي حمص في ساو باولو بطولة في لعبة النرد في أواسط القرن العشرين[١٠]. وبما أن أعضاء نادي حمص مثّلوا نحو نصف المشاركين في المنافسة، فقد أوصى مجلس إدارة النادي بصنع كأس برونزية للبطولة بطول متر، ظانّاً أن أحد أعضائه سيفوز بالبطولة. لكن الذي فاز عضو في نادي أنطاكية القريب، وخطط أعضاء النادي لتنظيم عرض احتفالي. وبحسب تعبير سامي:

«بما أن الكأس [المُودَع في نادي حمص] في أفينيدا باوليستا وناديِنا في شارع كوبتاو. . . وأن المسافة التي تفصل بينهما نحو كيلومترين، اقترحتُ إحضار فرقة موسيقية من جماعتنا بعد ظهر يوم أحد تضمّ عازفاً على الكمان، وعازفاً على الغيتار، وقارعاً للطبل [الدربكة]. توجهنا إلى هناك وتناوبنا على حمل الكأس. سرنا على الأقدام وعزفنا الموسيقى وهتفنا «يعيش البطل، يعيش البطل»».

وهكذا، احتفل النادي الذي يحمل اسم مدينة أنطاكية السورية السابقة بطريقة صاخبة في فوزه المفاجئ على أبناء حمص[١١].

لكنّ هذه المناسبات لم تتلاءم مع نظام غيتيوليو فارغاس الدكتاتوري ولا مع الدولة البرازيلية التي ساد فيها كره الأجانب في أثناء الحرب العالمية الثانية. وكما أشرتُ في الفصل الرابع، أريد من نظام المحاصصة الخاص بالهجرة الحدّ

(٩) تردّدت على هذه الأندية الرياضية والاجتماعية أُسَر بأكملها، لكنها كانت (ولا تزال) تخضع لإدارة الرجال الحصرية. وبشيء من التناقض، هناك سيدات شرق أوسطيات أسّسن وأدرن جمعيات خيرية، منها «رابطة السيدات السوريات» عام ١٩٢٠، و«جمعية أرز لبنان» عام ١٩٤٧. لكن حتى في هذه الجمعيات الخيرية، كان الرجال هم من يتولّى الشؤون المالية والأوقاف. ولا تزال الجمعيتان تداران من جانب سيدات سوريات ولبنانيات.

(١٠) لعبة النرد في اللغة الدارجة تعني الطاولة.

(١١) لا تزال مباريات مشابهة في كرة القدم بين النادي السوري الرياضي ونادي جبل لبنان تمثّل اليوم ما وصفته إحدى الأمّهات «صراعات ملحمية».

من وفود مهاجرين غير أوروبيين غير مرغوب فيهم، لكن طائفةً من القوانين المتصلة بالهجرة كفلت استيعاب الجوالي المهاجرة المقيمة ودمجها. وقد جذب «اختلافُها اللغوي» المتصوَّر انتباه النخب الحكومية. وفي ظلّ نظام الجمهورية الثانية، «وُطِّن» القانون المتعلق بطلب أسماء أجنبية لجمعيات المهاجرين تعكس أسماء بلد الأجداد (١٢). بناء على ذلك، توجّب على عشرات الجمعيات التي يديرها مهاجرون وتحمل «أسماء أجنبية» اعتماد تسميات برازيلية(١٣). على سبيل المثال، غيّر «النادي الرياضي السوري» اسمه موقتاً فأصبح «نادي الرايات». واعتمدت «رابطةُ السيدات الأرثوذكسيات» اسم «جمعية اليد البيضاء» كاسم نهائي. وهكذا كان نظام فارغاس الذي فرض قانون التسمية إبّان الحرب العالمية الثانية، مشروعاً قومياً بطبيعته(١٤).

كما أنَّ النخب البرتغالية البرازيلية، وتسمى كواتروسينتوس، حطّت من شأن المهاجرين الشرق الأوسطيين. وكما بيّنا في الفصلين الأوّل والثالث، وطّد السوريون واللبنانيون رقيَّهم من باعة متجولين إلى أصحاب متاجر وصناعيين في

---

(١٢) هناك سوابق. منها أن تروزّي يحكي عن مشروع قانون عرضه مجلس بلدية ساو خوسيه دو ريو بريتو في سنة ١٩٠٦ ينصّ على «تغريم أي تركي يُضبط وهو يتكلم اللغة التركية أمام برازيلي» غرامة كبيرة، انظر: Oswaldo Truzzi, *Patricios: Sirios e libaneses em Sao Paulo* (São Paulo: Editora Hucitec, 1997), p. 75.

وذكر ليسر أن ذلك القانون عُدّ «عنيفاً وسخيفاً» إلى حدّ أنه لم يخضع لمناقشة»، انظر: Jeffrey Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil* (Durham, NC: Duke University Press, 1999), p. 52.

(١٣) نتيجة لذلك، غيّر النادي الألماني اسمه وأصبح نادي الصنوبر. وبالمثل، غيّر نادي باليستيرا الإيطالي اسمه وأصبح نادي أشجار النخيل. واليوم، يدير هذا النادي فريق كرة قدم، لكن لا يزال النادي يعَد نخبوياً إلى حدّ ما، ولا سيما لدى مقارنته بالفرق الشعبية.

(١٤) كانت الاختلافات اللغوية العربية موضع سخرية وسط النخب الوطنية أيضاً. ويرى وديع صفدي أن تحدث العرب باللغة البرتغالية بلكنة ثقيلة كان «موضع سخرية ودافعاً لعمل مسرحي في ساو باولو طوال السنين الثلاثين الماضية». انظر: Wadih Safady, *Cenas e cenários dos caminhos da minha vida* (São Paulo: Penna Editora, 1966), pp. 200-201, and Truzzi, Ibid., p. 75.

تسخر المسرحية التي حملت العنوان «أربعة عشر» من الصعوبة التي يواجهها المتكلمون العرب في نطق الحروف p وv وg باللغة البرتغالية. استندت المسرحية إلى قصة قصيرة للكاتب الساو بالولي كورنيليو بايرس. انظر: Cornelio Pires, *Patacoadas* (São Paulo: Ottoni Editora, 2002 [1923]).

وبالمثل، أشار اللبناني عبده من الجيل الثاني إلى طريقة الباعة المتجولين الشرق الأوسطيين في نطق الأرقام بالعربية مثل «أربعتش» كان محلّ سخرية غير العرب. ذلك بأن أربعتش بدت مثل روباتوشو [اسرق القِدْر] في آذان البرازيليين. لذلك حين كان البائع المتجول يقول «أربعة عشر»، كان البرازيليون يعتقدون أنه يخطط لسرقة قدْر أو إبريق. وبالتالي، رمزت اللغة إلى مكانة العرب الهامشية في البرازيل في النصف الأول من القرن العشرين.

عشرينيّات القرن الماضي. ومع أنهم حازوا مزيداً من رؤوس الأموال المادية والأملاك، بقيت النخب البرتغالية تسخر منهم. ولا يزال هؤلاء الأرستقراطيون الفاسدون يتولون زمام الأمور في الأندية الريفية النخبوية مثل نادي باوليستانو، ونادي ساو باولو للجوكي، ونادي غواروجا لليخوت. وإذ جمع الشرق الأوسطيون ما يكفي من رؤوس الأموال المادية لتغطية تكاليف العضوية الحصرية في هذه الأندية، فهم لم يمتلكوا رصيداً ثقافياً كان لا يزال حكراً على تلك النخب المنعَّمة (من المهد). يشرح أسد هذه المسألة ويقول: «أذكر أنّه حتى بدايات الثلاثينيّات والأربعينيّات، بقيت النخب البرتغالية البرازيلية تنظر بشيء من الاحتقار إلى السوريين ـ اللبنانيين». وهذا الاحتقار هو سبب ظهور «هذا العدد الكبير من الأندية العربية» قبل الحرب العالمية الثانية بحسب سامي، «لأن صورة العرب كانت سيئة جداً في البرازيل». وعلى حدّ تعبير ساندرا، وهي سيدة إيطالية من الجيل الثاني متزوجة بلبناني وترتاد جبل لبنان من حين إلى آخر، «كان هناك الكثير من الاحتكاك بين نادي باوليستانو ونادي جبل لبنان، الكثير من الاحتكاك». مصدر هذا الاحتكاك بحسب ساندرا حقيقة أن النخب البرتغالية البرازيلية «منغلقة على نفسها تماماً ومتغطرسة» إلى حدّ أنّها منعت حديثي الثراء العرب والإيطاليين من الاختلاط بأوساطها الاجتماعية. وما ألهب هذا الاستياء القدرةُ الشرائية الكبيرة التي امتلكتها الأُسر المهاجرة، الأمر الذي أتاح لها شراء سيارات وعقارات، والأهم من ذلك شراء أماكن استجمام نافست أندية الطبقة الأرستقراطية التقليدية.

في هذا السياق، وظّفت النخبُ البرازيلية صنوف الطعام في الإشارة إلى تمايز الشرق الأوسطيين المنفّر. على سبيل المثال، استمتع الصحافيون الذين غطوا أنشطة الشارع ٢٥ دي ماركو في خمسينيّات القرن الماضي وستينيّاته بـ «الطابع الأجنبي» للمناظر والروائح التي تفوح من الحانات التي تقدّم «المأكولات الشرقية». من ذلك أن غابريال ماركيز، مراسل **أو إستادو دي ساو باولو**، أعرب في مقال بعنوان «الشارع القديم للكبّة النيّئة» عن سروره بـ «القفزة التجارية» التي حققها شارع ٢٥ دي ماركو مع أنّه لم يهضم طعامه[(١٥)]. وذكر أنّه عند دخوله حانة صغيرة، سأله شخص سوري «والآن، ماذا تفضّل أن تأكل؟ حمص بالطحينة أم كفتة؟» أجاب ماركيز وقد أربكه سماعه أسماء هذه الأطباق

(١٥) Gabriel Marques, «A velha rua do quibe cru I,» *O Estado de S. Paulo* (12 June 1960).

الغريبة «ماذا؟» هنا، قال له صديقه السوري سليم مترجماً «هل تريد الحمّص المطحون أم فطيرة باللحم المفروم؟» وبحسب ماركيز، واصل سليم، كما كل «العرب المضيافين» سرد الأطباق: «ألا تفضّل الصفيحة؟ أم أنّك تفضّل الكبّة؟ أو ربما تحبّذ القليل من الكبّة النيئة؟ أو ربما تحبّ الكبّة باللبن؟ إن أوراق العنب المحشوة ممتازة. اختر يا رجل، اختر». ختم ماركيز بالقول: «بصراحة، لم أجد فيها ما يفتح الشهية». وبذلك يكون الطعام مظهراً آخر للغرباء العرب أو لمكانتهم الهامشية في البلاد.

تساهم المأثورات الشعبية على ما يبدو، باحتوائها كلمات كثيرة عسيرة على النطق في وصف أطباق الأتراك وصفاً غريباً. وذكر عدد لا يُحصى من المهنيين الشرق الأوسطيين المتوسطي العمر والمسنّين أن ملاك الأراضي والفلاحين البرازيليين كانوا ينظرون غالباً إلى الباعة المتجولين الأتراك على أنهم أكلة لحوم البشر وأن طبقهم المفضّل هو الأطفال. قيل إن الشائعة المنفّرة ذاعت حين شوهد ريفي وهو يتناول طعاماً شهياً يسمّى كبّة نيئة (وهو طبق يُصنع من اللحم النيء المفروم فرماً ناعماً والممزوج مع البرغل، ويُقدم مع البصل النيء وزيت الزيتون). وبما أن استهلاك اللحم النيء لم تعرفه أغلب أصقاع البلاد وقتئذٍ (مع أن الأمر لم يعد كذلك اليوم)، افترض البرازيليون خطأً أن اللحم لحم إنسان لا لحم ضأن أو بقر. وغالباً ما يُلصَق وصف أكلة لحوم البشر المريب بشخصيات مقتدرة تجمّع «الثروات بسرعة»(١٦).

وبطرائق مشابهة، جذب الطابع الغريب للموسيقى والرقص الشرقي اهتمام الصحافيين. من ذلك أن غويلهرم دي ألميدا كتب في مطلع ثلاثينيّات القرن الماضي: «أنا أمشي [في الشارع] تحت صرخات غرامافون غير مفاجئة. إنّها موسيقى راقصة، فيها طنين بكل معنى الكلمة، مثل الضجيج الناتج من تدفق المياه في العلب. أرى هزّ الخصور والسرّة في هذه الموسيقى. هناك خصور وسرر تتمايل في المداخل كافة على وقْع الغرامافونات»(١٧). وبعدما دخل ألميدا إحدى الحانات على وقْع «هذه الموسيقى الراقصة»، عبّر أيضاً عن مخيلته الاستشراقية: «يطنّ الغرامافون السرمدي عند المنضدة بإيقاع راقص.

---

(١٦) James Smith, «Of Spirit Possession and Structural Adjustment Programs,» *Journal of Religion in Africa*, vol. 31, no. 4 (2001), p. 804.

(١٧) Ventre، معناه الحرفي «رحم» في اللغة البرتغالية، لكن كلمة *dança do ventre* تعني الرقص الشرقي (هز البطن) مجازاً.

ومع اللحن الرتيب، تزغرد امرأة بين الحين والآخر»[١٨]. وكما صنوف الطعام، عززت الموسيقى والرقصُ الشرقي غرابة التمايز الشرق الأوسطي في البلاد. لكننا سنذكر لاحقاً أن هذه التعابير الثقافية التي كانت غريبة يوماً تحولت إلى سلع ثقافية مألوفة في البرازيل المعاصرة.

ثانياً: ترويج الثقافة العربية في السوق الوطنية

نالت الأندية الريفية السورية ـ اللبنانية التي انبنت على المشاعر القومية الشرق الأوسطية في البرازيل في أواسط القرن العشرين فضاءات شاسعة بعد نحو خمسين سنة بملاعب السكواش والتنس المغلقة والمفتوحة، وأحواض السباحة الأولمبية، وأحدث المنشآت الرياضية، وقاعات الرقص التي تسع ألفي ضيف. يقول أحد المدراء، إن نادي حمص الواقع على جادة باوليستا «يساوي وزنه ذهباً»، فتكلفة العضوية فيه عشرة آلاف ريال برازيلي، إضافة إلى رسم شهري بقيمة مئة ريال. وفي حيّ مويما الراقي، يمتدّ النادي السوري الرياضي على مساحة ٥٥٠٠٠ متر مربع. وتبلغ تكلفة العضوية فيه نحو إثني عشر ألف ريال إضافة إلى رسم شهري يناهز مئتي ريال. وعلى مسافة خمس دقائق بالسيارة يوجد نادي أتلتيكو جبل لبنان الذي يشغل مساحة ٤٥٠٠٠ متر مربع. تبلغ تكلفة العضوية في النادي ستين ألف ريال فضلاً عن رسم شهري بقيمة أربعمئة ريال. وبما أن هذه الأندية تخدم الأُسر المنتمية إلى الطبقة الوسطى الميسورة، فهي لا تمنح عضويتها ما لم يُرفق طلب نيل العضوية برسائل تزكية من عضوين على الأقل. أي أن الأندية الشرق الأوسطية ليست أقل حصرية على الصعيد المالي والاجتماعي من أندية النخب البرتغالية البرازيلية.

بمباركة من السلطات الحكومية أيضاً، انضمّ نادي جبل لبنان والنادي الرياضي السوري مؤخراً إلى جمعية الأندية الرياضية والاجتماعية في ساو باولو (ACESC). تأسست الجمعية عام ١٩٩٥ بمبادرة من نحو عشرة أندية ثقافية نخبوية بدعم من حكومة ولاية ساو باولو. لكنّ الجمعية لا تقتصر على النخب التقليدية، إذ تضمّ في عضويتها ما يسمّى أندية الجوالي، مثل الجوالي اليهودية والعربية؛ وهي إضافة إلى أتاحتها شبكة واسعة لجميع الأعضاء، تستقطب

---

(١٨) Guilherme de Almeida, «Cosmópolis: O oriente mais próximo,» *O Estado de S. Paulo* (19 May 1929), and Lesser, *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil.*

الأنديةَ الريفية النخبوية في «الماراثونات الثقافية»، حيث يقيّم مسؤولون من وزارة الثقافة المنتجات الفنّية والموسيقية والمسرحية لمشاهير المجتمع المنتمين إلى نحو عشر هيئات[١٩]. وفي حين سعت الدولة البرازيلية لطمس الفروق الإثنية لـ «الجمعيات المدنية» الشرق الأوسطية في عهد فارغاس، فهي باتت اليوم تعزز مكانتهم الرمزية وأساسهم المؤسسي.

تلازمت هذه الأحلاف الطبقية والحكومية التوجّه مع الطابع الحصري القوي للأندية الشرق الأوسطية على صعيد العِرْق، إذ إنك لا تجد في أوساطها أشخاصاً من غير البيض إلا نادراً. وباستثناء حالات معدودة رأيتُ فيها زنوجاً أو آسيويين في أندية الجالية الكبيرة الثلاثة، قوبل وجودهم بتلميحات أو إشارات عِرْقية ازدرائية. وحين حضر رجلان زنجيان أنيقان مهرجاناً عربياً، أشار مدير أحد الأندية إلى «أنهما حارسان شخصيان على الأرجح». وعندما استفسرتُ عن مؤشر يؤكد ذلك، أجاب «مظهرهما يوحي بذلك». حتّى إن حضور الآسيويين يمثّل مفاجأة. على سبيل المثال، حين عبر يابانيون المدخل الرئيسي لنادٍ آخر، قالت امرأة في سنّ الأربعين على سبيل التهكم «إنهم في النادي الخطأ. هذا نادٍ عربي». ومع أن الأندية العربية تُقصي السود والآسيويين، فهي قبلت بانضمام اليهود. وفي المنافسات التي رعتها جمعية الأندية الرياضية والاجتماعية في ساو باولو التي تكلّمنا عليها آنفاً، لم يتبادل البرجوازيون العرب واليهود سوى العبارات اللطيفة. ومع أن توترات بسيطة كانت تظهر بين الحين والآخر فقد زعم كلّ من العرب واليهود «أنهم منسجمون جيداً»، وهو ما يعكس الأيديولوجيا القومية البرازيلية نفسها (التي سنناقشها في الفصل التالي)[٢٠].

---

(١٩) تتضمن «الماراثونات الثقافية» السنوية منافسات في الفنّ والرقص والغناء والمسرح والموسيقى. ومنذ انضمام نادي جبل لبنان إلى الجمعية قبل عشر سنين، أشار المدراء بسعادة إلى زيادة المنتجات الثقافية لأعضاء النادي. يعكس أداء أعضائه في منافسات جمعية الأندية الرياضية والاجتماعية في ساو باولو الأنماطَ البرازيلية، مثل مقطوعات من الموسيقى الشعبية البرازيلية، وكذلك الأذواقَ الأوروبية والأمريكية بأداء أغانٍ لفرانك سيناترا وأندريا بوسيلي وتوني بينيت. ولا تزال هذه «البيئة الخلاقة ثقافياً» بحسب تعبير مسؤول في الجمعية، فضاء تشاهد فيه النخبُ البرازيلية الفنونَ الموسيقية والمسرحية الوطنية والدولية.

(٢٠) برز توتر في أثناء منافسة موسيقية بين أعضاء جمعية الأندية الرياضية والاجتماعية في ساو باولو في نادي هيبرايسا. وكما ذُكر لي لاحقاً، توجهت بعض الشخصيات اللبنانية المرموقة إلى نادٍ يهودي راقٍ لتشجيع متبارين أعضاء في ناديها. جلست إحدى السيدات اللبنانيات بعدما وصلت باكراً إلى جانب مجموعة من البرازيليين اليهود. وبعدما وصل رفاقها في وقت لاحق وبحثوا عن أمكنة للجلوس فيها، عرض أحد المشجعين اليهود مقعداً وهمس في أذن السيدة اللبنانية «لا يضير المرء تحلّيه بالأدب». لم تعبّر المرأة عن سخطها علانية، لكنها قالت لي «يا له من مغرور».

إضافة إلى الأندية الرياضية والاجتماعية الثلاثة الكبرى للجالية، يوجد عدد من الأندية التي تضم في عضويتها عدداً أصغر من الأعضاء وتشغل مساحات أصغر أيضاً، مثل أندية حلب وأنطاكية، وحاصبيا، ومرجعيون، وراشيا، وزحلة. وعلى النقيض من النادي الرياضي السوري ونادي أتلتيكو جبل لبنان، اشتُهرت الجمعيات التي تزاول أنشطتها في المدن باعتنائها بالشؤون «الاجتماعية» أو «الثقافية» فقط، لافتقارها إلى المرافق الرياضية. من أكثر الأمور دلالة هو أن من يرتاد هذه الأندية عموماً أُسر من الطبقة الوسطى المتواضعة. ونظراً إلى تراجع أعداد الأبناء الذين يرتادون هذه الأندية اليوم، سعى المدراء التنفيذيون في بعض هذه الأندية لتنفيذ روزنامة اجتماعية تستهوي الأجيال الشابّة وجمهوراً أعرض. في واحدة من هذه المحاولات، أصدر مدراء أندية ريفية النشرة الأسبوعية أو الشهرية **مآدب العشاء العربية** مع ملحق بالمطبخ والأنشطة الترفيهية الشرق الأوسطية. يحاكي هذا المشروع الذي أطلقته الأندية الريفية، والذي سنسهب في الحديث عنه لاحقاً، المشاريعَ الترفيهية في أندية أخرى أوسع ثراءً مثل النادي الرياضي السوري ونادي جبل لبنان.

إلى جانب هذه التحولات، جرى الترويج لـ «الطعام العربي» في البرازيل في أواخر القرن العشرين، حيث يقول الأنثروبولوجي أرتورو روماس أنّه بدءاً بأواخر سبعينيّات ذلك القرن، «باتت أطباق [السوريين ـ اللبنانيين] وعاداتهم الغذائية تؤثر في المدن الكبيرة: «أسياخ اللحم المشوي، والكبّة، والطبق الرئيسي هو المجدرة، وهي طبق شعبي يُعَد من العدس [والأرز]، والفتوش والتبّولة» فضلاً عن الحلويات»[٢١]. وكما أشار بعض الزملاء، يمكنك طلب الكبّة، أو الصفيحة في أي حانة أو مطعم اليوم. وأشارت ساندرا، وهي سيدة إيطالية متزوجة برجل لبناني من الجيل الثاني، إلى أن «الطعام العربي» لم يُشتهر إلا في السنين العشر الماضية. قالت ساندرا: «في الماضي لم تكن الحال كما هي اليوم. كان لزاماً عليك الذهاب إلى شارع ٢٥ دي ماركو أو تلقّي دعوة لتناول العشاء في منزل أُسرة عربية». لكن اليوم، «أمست الصفيحة مثل الخبز بالجبن» وباتت طعام «الجميع». وبالمثل، أشارت سيدة لبنانية إلى أن «البرازيليين يتناولون الصفيحة مثل الأرز والفاصولياء». وكما ذكرنا في

(٢١) نقلاً عن: Manuel Diegues, *Etnias e culturas no Brasil* (Rio De Janeiro: Civilizacao Brasileira, 1976 [1952]), p. 146.

الفصل الثاني، دخلت الصفيحة معجم المفردات السياسية. ففي سياق التحقيقات الرسمية التي أجرتها الحكومة في الصفقات السياسية «غير الشرعية» في ساو باولو، استعاض الأشخاص العاديون والمراقبون الصحافيون عن العبارة الشعبية «ستُصبح قطعة بيتزا» التي تعني «لن تؤول إلى شيء» بعبارة «ستصبح صفيحة».

حازت الصفيحة الشرقية شهرة بفضل سلسلة مطاعم حبيب للوجبات السريعة. وقلّد نحو خمس سلاسل مطاعم أصغر حجماً ومئات من محال بيع الصفيحة النموذجَ التسويقي لمطاعم حبيب منذ تأسيسها عام ١٩٨٨. تأخذ العلامة التجارية للسلسلة هيئة جنّي اسمه حبيب يعتمر طربوشاً وله شارب غليظ ويلبس قميصاً بلا أكمام[٢٢]. تقدّم سلسلة حبيب، التي تلي سلسلة ماكدونالدز على صعيد الأرباح، أطباق الصفيحة، والتبّولة، والبقلاوة، وغيرها من الوجبات السريعة في نحو ١٥٠ فرعاً منتشراً في ريو دي جانيرو وساو باولو[٢٣]. في نظر ريني، وهي مديرة علاقات عامة، أن سلسلة حبيب «أشاعت الطعام العربي لأن الجميع من شمال البلاد إلى جنوبها باتوا يعرفون اليوم شيئاً عن المطبخ العربي. هم يعرفون أن الصفيحة طعام عربي، وهم يتناولونها ويقدّرونها ويشتهونها». وكما ذكرنا في بداية هذا الكتاب، يقدّر الصحافيون «عدد أطباق الصفيحة التي توزَّع في العاصمة [مدينة ساو باولو] وحدها بـ ١,٢ مليون طبق كلّ يوم، مصدر ٥٥ في المئة منها سلسلتا المطاعم الكبيرتان صفيحة شيك وحبيب»[٢٤]. يظهر أن المأكولات الشرقية باتت موادّ استهلاكية مألوفة اليوم في السوق البرازيلية.

لكنّ هذه الزخرفة العربية لا تقتصر على البرازيل. في الواقع، تمدّدت سلسلة حبيب للوجبات السريعة مؤخراً إلى الأمريكيتين. وبدءاً بعام ٢٠٠٠، فتحت المؤسسةُ عشرات المطاعم في مدينة مكسيكو وأبصارها شاخصة إلى سوق الولايات المتحدة. باستخدام إستراتيجية تسويق المأكولات «العربية» نفسها

---

(٢٢) بدأ هذا المخطط التسويقي حين التقى المؤسس والمسؤول الرئيسي د. ألبيرتو سرايفا (وهو مهاجر برتغالي) بمدير إعلاني اقترح نموذج سلسلة مطاعم حبيب، فضلاً عن ثلاثة نماذج أخرى. ورأى سرايفا، الذي تعلّم فنّ المطبخ الشرقي من الراحل باولو عبود، أن نموذج حبيب هو الأنسب.

(٢٣) انظر: Luxner, «Esfihas to Go,» pp. 34-37.

(٢٤) Roberto de Oliveira, Mariliz Pereira Jorge and Paulo Sampaio, «O nosso lado árabe,» *Folha de S. Paulo* (23 September 2001), p. 8.

في نصف الكرة الأرضية الشمالي، عزم المؤسس حبيب وكبير مدرائه د. ألبيرتو سارايفا على فتح مطاعم في فلوريدا وكاليفورنيا عام ٢٠٠١. لكنّ الخطط التي وضعتها المؤسسة أُرجئت إلى أجل غير مسمّى بعد أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ لتفشي ظاهرة العنف الذي يستهدف العرب في الولايات المتحدة. رأت المؤسسة أن التسويق الواضح للمأكولات العربية الذي قامت به مطاعم حبيب في البرازيل والمكسيك سينفّر الجمهور الأمريكي. وربما كان هذا سبب اعتماد المطاعم التي تقدّم في الولايات المتحدة مأكولات لبنانية وعربية اسم «مأكولات البحر المتوسط» و«مأكولات شرق أوسطية» غالباً[(٢٥)]. وفي حين نجد أن المطاعم التي تعرّف عن نفسها بوضوح أنّها «عربية» مؤسساتٍ مربحة في أمريكا اللاتينية، فإن نظيراتها في الولايات المتحدة تطلق على أطباقها اسم «مأكولات البحر المتوسط» و«مأكولات شرقية» لجذب الزبائن.

ينتشر في السوق البرازيلية المعاصرة عدد كبير من المطاعم العادية والراقية وليس سلاسل الوجبات السريعة العربية فقط. في الواقع، بلغ شيوعها حداً جعل شخصيات مشهورة تشير إلى المطاعم العربية في المسلسلات الكوميدية التلفزيونية[(٢٦)]. وتبين لي في سياق بحثي وجود واحدة وستين من هذه المؤسسات في منطقة ساو باولو الكبرى وحدها. تنتشر هذه المطاعم أساساً في «الأحياء الراقية»، مثل جاردينز وإيتايم بيبي ومويما، ونصفها تقريباً فتح أبوابه في تسعينيّات القرن الماضي، في حين تأسست المطاعم المتبقية في ثمانينيّات القرن الماضي. وليس في هذه المطاعم من بدأ عمله قبل أكثر من عشرين سنة غير ثلاثة مطاعم أو أربعة. وقد تفطّن سمير الذي يدير المطعم البهيّ فولها دي

(٢٥) في البرنامج الوثائقي «*Tales from Arab Detroit*»، أشار صاحب مطعم «شرق أوسطي» في ديترُويت بولاية ميتشغان إلى الملاحظة نفسها. ولست أعتقد أنه من قبيل المبالغة القول إن عامة الشعب الأمريكي اليوم سيحجمون عن دخول «مطعم عربي».

(٢٦) في المسلسل «Os Normais» الشبيه بالعمل المسرحي Seinfeld، الذي بثته شبكة غلوبو التلفزيونية، عُرض مشهد وصل فيه ممثل يدعى روي إلى منزل خطيبته إيفوني. وحين فتحت إيفوني الباب وهي بملابسها الداخلية، تظاهر روي بأنه فوجئ بالمنظر وسألها «ألستِ جاهزة بعد؟ قلت لك أن تتجهزي لكي نخرج هذه الليلة». دافعت إيفوني عن نفسها بالقول إنهما لم يتفقا على مكان يتوجهان إليه. حينئذ سألها روي «ألسنا ذاهبَين إلى مطعم عربي؟» فكررت إيفوني عبارته «مطعم عربي؟ وافقت إيفوني على ذلك لكنها أومأت إلى روي لكي ينتظر إلى أن تتهيأ للذهاب إلى «مطعم عربي». ومع أنهما لم يذهبا إلى مطعم عربي، يشير هذا الحوار القصير بين هاتين الشخصيتين البرازيليتين العصاميتين في مشهد مسرحي إلى شيوع ما يسمى المطعم العربي في البرازيل اليوم.

أوفا بالقرب من جادة باوليستا، لهذا التركيز المتنامي[٢٧] وقال:

افتتحنا مطعمنا عام ١٩٨٩. وطرأت عليه تغيرات كثيرة من ذلك الحين إلى الآن لأن اقتصاد البلاد تغير كثيراً. . . اضطُرت عدة مؤسسات إلى تسريح موظفيها، وتقلّصت سوق الوظائف. . . كما عرضت عدة شركات كبيرة حوافز للموظفين الذين يتقاضون رواتب مرتفعة لكي يقدّموا استقالاتهم. . . لذلك، إذا عملتَ لدى مؤسسة مدّة عشر سنين وعرضتْ عليك إعطاءك حقوقك فضلاً عن راتب [شهري] مقابل كلّ سنة من تلك السنين، وتعويض إنهاء الخدمة، كنت ترحل وفي جعبتك الكثير من النقود. أول شيء خطر ببال أغلب الأشخاص الذين قدّموا استقالاتهم ونالوا هذه الأموال هو فتح مطعم. وهذا هو سبب الزيادة الكبيرة جداً في عدد المطاعم من ذلك الوقت إلى هذا الحين.

ألمح سمير الذي مضى عليه في هذا العمل أكثر من عشر سنين، إلى أن الزيادة الأخيرة في عدد المطاعم حدثت على الرغم من تقلّص الصناعة البرازيلية بالإجمال في تسعينيّات القرن الماضي.

تُردِّد هذه التأملات صدى تحليلات كمّية للتوزيع القطاعي للعمال في الاقتصاد البرازيلي[٢٨]. عام ١٩٥٠، بلغت نسبة العاملين في الزراعة بالبلاد ٦٢ في المئة، مقابل ٢٣ في المئة في الصناعة، و٢٥ في المئة في قطاع الخدمات. وبعد أربعين سنة، أي عام ١٩٩٩، هوت نسبة العاملين في الزراعة إلى ٢٣ في المئة، وظلت نسبة العاملين في الصناعة في حدود ٢٣ في المئة، في حين تجاوزت نسبةُ العاملين في قطاع الخدمات نسبةَ العاملين في القطاعَين السابقَين لتبلغ ٥٤ في المئة. ومن الدلائل المعبّرة بالمثل التوزيع القطاعي للناتج المحلي الإجمالي، إذْ هوت حصة الزراعة بين عامي ١٩٨٠ و١٩٩٠ من ١١ في المئة إلى ٩ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي، وتراجعت حصة الصناعة أيضاً من ٤١ في المئة إلى ٣٤ في المئة. لكنّ حصة قطاع الخدمات ارتفعت من ٤٩ في المئة إلى ٥٧ في المئة من الناتج المحلي الإجمالي. في نموذج التنمية ما بعد عهد

(٢٧) يستخدم سمير العبارة «سوري لبناني» في الإشارة إلى المأكولات التي يتم تقديمها. وفي أحد لقاءاتنا، رأى أن كلمة «عربي» عمومية جداً ولا سيما نظراً إلى عدد سلاسل مطاعم الوجبات السريعة العربية اليوم. والأهم من ذلك تشديد سمير على أن وصفات إعداد المأكولات في مطعمه ورثها عن جده اللبناني الذي أدار مطعماً صغيراً في ريو دي جانيرو في مطلع القرن. تعكس المصطلحات الإثنية مزاعم الأصالة الثقافية.

(٢٨) Werner Baer, *The Brazilian Economy: Growth and Development*, 4th ed. (Westport, Conn: Praeger, 1995).

الصناعة هذا[٢٩]، يمثّل تنوّع المؤسسات العاملة في صناعة تقديم المأكولات جزءاً من توسع قطاع الخدمات في البرازيل في أواخر القرن العشرين[٣٠].

عززت الأنماط الثقافية المؤاتية هذه القوى البنيوية. وقد أشار صديق (غير عربي) مقرّب إلى الأُسرة مرة إلى قلة المطاعم العربية التي يمكن أن تكون نافعة جداً حين يرغب المرء في «تكوين انطباع جيد لدى زبون وإبرام صفقة». وأشار سمير نفسه إلى أن أغلب زبائنه في أيام العمل هم من العاملين في المؤسسات التجارية والمهن الحرة. وقد تجلّت ظاهرة المطبخ العربي المكتشفة حديثاً على الخصوص في المقالات التي تتناول موضوع الغذاء في الصحف الرئيسيّة. وقد أجرى الناقد الغذائي المعروف جوسيمار ميلو مراجعات كثيرة للمطاعم العربية العادية والراقية، مثل مطاعم بعلبك، وحليم، ومسكي، والعربي، والخيام، وفولها دي أوفا، في مقالته الأسبوعية في مجلة **فولها دي ساو باولو**[٣١]. لكن مراجعته تناقض آراء غابريال ماركيز وغيره «الكريهة الطعم» في ستينيّات القرن الماضي. مثال ذلك، مديح ميلو لمطعم «أرغيلة» الذي دشنه مؤخراً نجل يعقوب صاحب أحد المطاعم الشرقية المعروفة في سبعينيّات القرن الماضي. بعد الإشارة إلى نسب صاحب المطعم، أشاد ميلو بالمناظر «البهية» التي تحيط بالمطعم، منها النسائج المطرّزة، والنراجيل، والتحف التي أحضرها من لبنان:

«اللمسة العائلية الأنيقة حاضرة في قائمة الطعام. فطائر اللحم متوازنة جداً (تقدّم مع الحمص والباذنجان واللبنة)؛ والكبّة النيئة متمشية مع المائدة، والصفيحة

---

(٢٩) Richard Parker, *Beneath the Equator: Cultures of Desire, Male Homosexuality, and Emerging Gay Communities in Brazil* (New York: Routledge, 1999), p. 153.

(٣٠) ومع ذلك، لا تمثل المؤسسات التي تعدّ مأكولات عربية سوى واحدة من عدد من المؤسسات الإثنية التي تأسست منذ تسعينيات القرن الماضي. على سبيل المثال، شهدت مدينة ساو باولو في أثناء مجيئي عام ٢٠٠٠-٢٠٠١ فورة في البارات التي تقدم أطباق السوشي اليابانية، ومحال بيع المأكولات الجاهزة والمطاعم. هذا البروز المذهل للمأكولات العربية والآسيوية لم يفت أصحاب المطاعم الأخرى. ففي أثناء زيارتي لمطعم إيطالي متعثر يملكه صديق لي، اشتكى الصديق من أن «زمن المطاعم الإيطالية قد ولّى. والآن أتى زمن المطاعم اليابانية والمطاعم العربية». وكما المأكولات العربية، أضحت المأكولات اليابانية شائعة ومرغوباً فيها وسلعاً استهلاكية في السوق البرازيلية.

(٣١) الأمثلة الأخرى على مراجعات ميلو تتضمن: Jusymar Mello, «Novo Árabe reúne elegância e boa comida,» *Folha de S. Paulo* (15 September 2000); Árabes são como jóias brutas do oriente,» *Folha de S. Paulo* (25 June 2000); Árabes podem ser refinados no Líbano e também em São Paulo,» *Folha de S. Paulo* (26 November 2000), and «Esqueça o medo e vá comer no árabe,» *Folha de S. Paulo* (23 September 2001).

لذيذة، . . . إنّها أطباق تُعطي انطباعاً جيداً. حشوة الملفوف المحشي جيدة مع أن أوراق الملفوف تكاد تذوب من جرّاء طهوها في الماء المغلي (وأفضل منه الباذنجان المحشو الجامد والطيب المذاق). كلّ ما تقدّم جزء من قائمة أطعمة ممتازة أسعارها ثابتة، حيث يقوم النُدُل بوضع الأطباق على الطاولات. هذا وأضف إلى الكبّة باللبن، وأمعاء الخروف المحشوة [(الغمّة)]، واللحم الأرجنتيني المشوي، أطباقاً مميزة أخرى يمكن تذوقها قبل تدخين تبغ النارجيلة المعسّل.

بعدما كان المطبخ الشرقي يُعد «غير فاتح للشهية» في الماضي، بات اليوم موضوع مقالات صحافية لنقّاد غذائيين عارفين، تتحدث بكلام جميل عن «توازنه» و«طعمه المدهش» و«جدارته بالثناء» وطعمه «اللذيذ» وتقديمه الرائع.

أضحت أنماط الموسيقى والرقص الشرقي أيضاً شعبية كثيراً في البرازيل، وخصوصاً بعد إذاعة المسلسل التلفزيوني «النسخة» عام ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢. ساعدت صور النساء والرجال العرب المتلفزة على إطلاق صرعة شملت تعليم الرقص الشرقي، ولوازمه والموسيقى الشرقية. وبعد أسابيع على بدء عرض المسلسل على شاشة شبكة غلوبو التلفزيونية، أوردت مقالة صحافية خبراً مفاده أن الالتحاق بمدارس تعليم الرقص الشرقي بساو باولو «زاد بنسبة ٨٠ في المئة»(٣٢). ومن بين المدارس الخمس والثلاثين التي اتصلتُ بها بطريقة غير عشوائية، تبين أن ست عشرة مدرسة منها تدرّس الرقص الشرقي. ولم يعد هذا الرقص محل سخرية بوصفه عادة أجنبية بل صار موضع مدح كونه «ينفع» الجاذبية الجنسية للمرأة «ويقوّيها» وصار يُعد تمريناً جنسانياً ونافعاً للحالة النفسية(٣٣).

سعياً للإفادة من هذا التحول، أعدّ أباطرة تلفزيون غلوبو سيلاً من المنتجات وقرروا عرضها بعد أسابيع من العرض الأوّل للمسلسل التلفزيوني. تضمنت هذه المنتجات أسْوِرة وخواتم، وصنادل جلدية «مغربية»، وأقراصاً

---

(٣٢) Paloma Cotes, «Novela aumenta procura por cursos de dança do ventre,» *Folha de S. Paulo* (28 October 2001), p. 8.

(٣٣) ذكرت بريسكيلا، إحدى معلّمات الرقص الشرقي، وهي غير عربية، أن الرقص الشرقي «رياضة تناسب جسد المرأة لما لها من منافع. . . تتجاوز إلى حد بعيد أي سياق ثقافي، كما أنها نافعة من الناحية النفسية». وأشار رجل غير عربي يبيع مستلزمات الرقص الشرقي في متجره الصغير إلى أن الرقص جذب الطالبات «لعلاقته الحميمة بجسد الأنثى». وإذا كانت رقصات السامبا والميرينغي واللمبادا بدعاً عابرة تظهر وتختفي، سيواصل الرقص الشرقي، والكلام له، اكتساب الشعبية لعلاقته الوثيقة بجسد المرأة. وبات الرقص الشرقي يمثّل الآن جزءاً من مشهد راقص مصنّع في البرازيل.

مدمجة تحتوي على موسيقى شرقية[٣٤]. تزامن ذلك مع تأسيس برازيلي سوري من الجيل الثالث مؤسسة وطنية تمنح رخصاً لفتح فروع باسمها على غرار صالة الشاي المصرية التي مضى على تأسيسها عشرون عاماً، تحت اسم خان الخليلي المتخصصة بإنتاج سلع «شرقية» وأدوات الرقص الشرقي[٣٥]. وقد بيّنت مالكة إحدى هذه المؤسسات في المجال السوقي عينه منطق هذه الفورة المفاجئة في شعبية صور الرقص العربي في البرازيل وقالت: «ما يُعرض في مسلسل الساعة الثامنة يصبح رائجاً». وهكذا، بعدما كان الرقص الشرقي ممارسة غريبة محصورة ضمن منطقة تجارية يديرها عرب في وسط مدينة ساو باولو، بات اليوم ظاهرة تحظى بتغطية إعلامية وتسويق واسع النطاق.

وبالمثل، راجت مؤخراً المهرجانات العربية. من ذلك أن ممولين غير رسميين أقاموا مناسبات نصف شهرية في الحانات المنتشرة في أرجاء المدينة كانت تحييها فرق موسيقية عربية وراقصات احترفْن الرقص الشرقي. في تلك المناسبات، يؤدي المشاركون معاً ـ رجال عرب وبعض السيدات العربيات وعدد من السيدات غير العربيات ـ الرقص الفولكلوري اللبناني الذي يسمّى الدبكة. وفي أثناء فترات الاستراحة، تُعزف موسيقى البوب العربية والألحان الإيقاعية بالتقنية الأوروبية. وفي مجال آخر في هذا القطاع، توفّر مؤسسات معروفة متخصصة في إقامة «المهرجانات» قائمة بموضوعات المهرجانات التي تهمّ العملاء، منها موضوعات رومنسية مثل «الحب» وموضوعات إثنية مثل موضوعات «إيطالية» أو «عربية». من العناصر الثقافية الأساسية في المهرجانات العربية تقديم الكبّة والصفيحة والتبّولة فضلاً عن «مأكولات عربية» أخرى؛ ومعزوفات موسيقية عربية حية أو مسجلة؛ إلى جانب الرقص الشرقي. وتشير مديرة تعمل في هذا المجال السوقي إلى أن الاهتمام الشعبي في موضوعات الحفلات العربية «تأثر بالإعلام» الذي أثار الفضول في «الغموض الشرقي». وتختم بالقول: «العالم يزداد عولمة،

(٣٤) لم يتّضح إن كانت شبكة غلوبو لزّمت بيع الصنادل والأسورة (طُرح القرص المدمج وعليه اسم غلوبو). لكن هناك أمر في غاية الوضوح وهو أن الأسورة «المغربية» المتصلة بالأصبع لبستها الفتيات والسيدات بعد وقت قصير من البدء بعرض المسلسل التلفزيوني. انظر: «Notícias,» *Diário Popular* (8 September 2001).

(٣٥) بعد وقت قصير من المقابلة التي أجريتها معه، برز اسم مالك سلسلة المتاجر الفخور بنفسه في الأخبار في غازيتا ميركنتيل، وهي صحيفة مهنية برازيلية واسعة الانتشار شبيهة بصحيفة وول ستريت جورنال الأميركية. انظر: «Khan El Khalili: Casa de chá abre franquia de bazar egípcio,» *Gazeta Mercantil* (22 August 2001); «Bazar egípcio da Vila Mariana abre primeira franquia,» *Gazeta Mercantil* (3 September 2001), and «Khan El Khalili: Abre loja em Itu,» *Gazeta Mercantil* (3 September 2001).

ويمكننا التعرف إلى سائر الثقافات عموماً. لذلك، يكنّ البرازيليون مزيداً من الاحترام لهذه الثقافات الشديدة التمايز، مثل ثقافة العرب». لقد أضحت الأمور الثقافية الشرق الأوسطية اليوم سلعاً رائجة في الحياة العامة البرازيلية.

ثالثاً: التفسير والصلات الاجتماعية من خلال الثقافة العربية

مثّل نحو ثمانين كياناً شرق ـ أوسطياً جزءاً من وسط اجتماعي حصري لـ «طبقة راقية» في ساو باولو المعاصرة. تضمنت المناسبات المقامة مآدب عشاء عربية ذات موضوعات منوعة، واحتفالات بأعياد الاستقلال (استقلال لبنان، وسورية، والبرازيل)، ومهرجانات تقيمها الأندية سنوياً، وحفلات موسيقية، وحتّى لقاءات بسيطة. لطالما ميّزت هذه المناسباتِ الإعلاناتُ الرسمية عن أسماء وألقاب شخصيات من نوادٍ ريفية، أو جمعيات خيريّة، أو دوائر سياسية شاركت أو أرسلت تحياتها عبر البريد، أو حظيت بإشادات. كان هذا البروتوكول الذي تراوح مدته بين خمس دقائق وعشرين دقيقة يضمن إقامة علاقات ودّية بين الجماعات، كما كان يرضي الأشخاص الذين يحبّون الظهور أو تقديم عروض. ويظهر أن هذه المقارنة المثيرة للضغائن عُدّت من مسلمات المناسبات التي تقيمها الجالية. ومن بين عشرات المدراء والسياسيين والأطباء والمحامين الذين حضروا تلك التجمعات، التقيتُ بمهنيين يرتقون السلّم الاجتماعي وعلى استعداد للتعريف بأنفسهم وربما تبادل البطاقات المهنية.

حمل هذا الوسط البرجوازي بعض الشرق الأوسطيين، وبخاصةٍ المهاجرون، على انتقاد الجمعيات الثقافية التابعة للجالية بسبب التباينات الاجتماعية الطبقية. قال سليم، وهو مهاجر سوري حائز الجنسية، «أنا لا أحب الأندية بسبب الأشخاص الأثرياء الذين يترددون إليها». ويضيف: «الطيور على أشكالها تقع». وبما أن سليم لا يحسب نفسه واحداً «من هؤلاء الأثرياء»، فهو يشعر بالإحراج حين يزور أندية الجالية. وبالمثل، أشار سركيس، وهو طبيب مهاجر، إلى أن «الرواد الذين أسسوا الأندية أرادوا أن تكون عضوية الأندية مفتوحة للجميع، لكنّ الجيلين الثاني والثالث لم يعرفا كيفية القيام بذلك بكل أسف». في السابق، لم تكن العضوية «مشروطة ببذل ثروة»، وإنما بالقدرة على «التعاون بالعمل لا بالمال». واليوم، ختم سركيس، «تغيّرت [الأندية]، وهي منغلقة من الناحية الفعلية». ولا يبدو غير أبناء الأثرياء وضيوفهم النافذين مرحَّباً بهم في الجمعيات المتنوعة التابعة للجالية.

أعرب شرق ـ أوسطيون آخرون عن استيائهم من المقارنات المثيرة للأحقاد في وسط الأندية. قال إسكندر، وهو مهاجر لبناني حائز الجنسية ويدير وكالة سياحة: «الحديث الذي يدور في جميع هذه الأندية كلام فارغ. وهي لا تساعد العرب... لا شيء يحبّه [أعضاء هذه الأندية] غير سماع أسمائهم وهي تُذاع في المناسبات». في هذه التجمعات، يتعمّد إسكندر تسجيل اسمه باستخدام لقب منظمة غير عربية لإزعاج ممثلي الكيانات الإثنية الأخرى. وبالمثل، أشارت فنانة وعضوة متحمسة في أحد النوادي إلى أن الوقت الذي تمضيه في قاعة التمارين الرياضية يزيد على الوقت الذي تمضيه في المناسبات الاجتماعية أو الثقافية، لأن «الناس يحضرون بثياب أنيقة جداً، أعني أنهم منسجمون تماماً. لكنّي أعتقد أن هذا هو واقع الحال في البرازيل، وهذا هو واقع العرب أيضاً على صعيد الملابس التي يرتدونها. الظاهر أن العرب يحبون المفاخرة، لذلك يبدون أنيقين جداً». وبالمثل، يقول سمير، هو طبيب سوري:

«أنا لا أتردد إلى النادي على نحو دائم، وأنا لست ـ لا أدري كيف أقول ذلك ـ جرذاً في نادٍ يمضي كلّ وقته فيه: «حياتي في النادي. أتناول عشائي في النادي، وأتناول غدائي في النادي». على عكس ما قد تظنّ، أجد الكثير من الأندية مصدراً للألم. ومع ذلك، النادي الذي أتردد إليه هو أحد أندية الجالية العربية. إذا كان في استطاعتي بيع جميع ألقاب عضويتي في نوادي الجالية، سأشتري لقب عضوية في نادٍ محايد لا ينتمي إلى أي جالية، لأشعر أنّني في منزلي، وأمارس الرياضة بسهولة، لأن الجميع في أندية الجالية يعرف كلّ شيء عن حياة الأعضاء الباقين».

على الرغم من «التنقيح» الإثني أو «التثبت من الأصالة» الذي يقوم به مدراء الأندية، أعرب عدد من الشرق الأوسطيين عن إحباطهم وحتّى انزعاجهم من خُيلاء الطبقة الراقية ومن التدخلات الفضولية للشخصيات المرموقة في الأندية المتنوعة للجالية.

الإثنيات ليست السمة الوحيدة في التمايز وفي مناقشة الطابع الحصري المنسوب إلى الكيانات التابعة لمجتمعاتها. تقول ريني، المديرة (غير العربية) في سلسلة مطاعم حبيب التي سبق أن ذكرناها: «أعرف أنّ الجوالي العربية، النادي السوري ونادي جبل لبنان وسائر تلك الأندية، إنما هي أندية نخبوية، وهي ليست أندية شعبية أو أندية عادية»، ولكنها «أشبه بجنّات الأثرياء». وهي

من دون أن تحدد إن كانت ترددت إلى تلك الأماكن أو لا، شدّدت على أن موقف السيارات التابع للنادي الرياضي السوري يكتظّ بسيارات المرسيدس وغيرها من السيارات «المستوردة» «الغالية الثمن». وبالمثل، قالت برازيلية غير عربية تدير شركة متخصصة في إقامة الحفلات الكرنفالية أتينا على ذكرها سابقاً:

«على الرغم من أن الجالية العربية تُعد غنية، فهي تافهة أيضاً. فالسيدات يلبسن الكثير من الحليّ، والعرب لا يرحبّون بعامة الناس وهم متحاملون على البرازيليين. على سبيل المثال، أول شيء يسألك عنه العربي دائماً «ما اسمك الأخير؟ من أي أُسرة أنت؟» وهم يريدون بذلك معرفة نسبك ليعرفوا قدرتك الشرائية».

إذا كانت هذه السيدة تنظّم حفلات كرنفالية «عربية» لعملاء قادرين على الدفع، فهي ترفض الشخصيات المرموقة التي أفرزت في الظاهر هذه الثقافة العربية. ورداً على مزاعم الأصالة التي تدّعيها الإثنيات نفسها، تلام الدوائر الشرق الأوسطية المنعّمة من خلال السمات الاستهلاكية لهذه الطبقة.

الأمر المثير للسخرية أنّه تبين لي أن شخصيات من تلك الإثنيات (وربما بعض الوطنيين من أهل البلاد أيضاً) التي جاهرت بهذه الانتقادات الموجّهة إلى الجالية تحضر تلك المناسبات باستمرار. ومع أن إسكندر وسركيس وسمير وآخرين عبّروا عن فقدانهم الثقة بمعايير الجالية المتعجرفة، فهم حريصون على ألا تفوتهم مناسبة إثنية تجذب أفراداً مشهورين من الجالية العربية والمجتمع الراقي البرازيلي. ربما يمكن استبيان دوافعهم من خلال حادثة وقعت في أثناء حفلة إعادة التدشين الفخمة لغرفة التجارة اللبنانية البرازيلية في نادي جبل لبنان. في تلك المناسبة، كنت أحتسي النبيذ، وأتناول الكبّة وأقراص الجبنة، وأتبادل المُلَح في دائرة صغيرة من العرب والبرازيليين، استأذن رجل في منتصف العمر في الانصراف وقال «دعونا نقطف بعض الأزهار الجميلة». لكن قبل أن يقول مقالته تلك، دنا شاب منا وصافح الجميع وقدّم بطاقته المهنية التي بيّنت أنّه نائب في الولاية من أصل سوري ـ لبناني، ثمّ اختفى وسط الحشد. إن تبادل الأزهار شائع في أكثر المناسبات تنوعاً. وهذا يعني أنّه على الرغم من الانتقادات المتكررة، توفر المناسباتُ الإثنية الراقية فرصةً لأصحاب المهن الحرّة والتجار لإقامة صلات مع النخب الإثنية والنخب القومية على حدّ سواء.

يسهل تأمين الرصيد الاجتماعي الناتج من تبادل البطاقات المهنية في أثناء الاجتماع على مآدب العشاء، ولا سيما التي تقدَّم فيها المأكولات الشرقية.

وأذكر أني دُعيت إلى حفل العشاء الأسبوعي في نادي جبل لبنان في أمسية رائعة. وهناك دخلت ردهة لمعرض فنّي عُرضت فيه لوحات مؤطرة ومنحوتات لأعضاء النادي. وكان سيجري اختيار أعمال فنّية معيّنة للمشاركة في منافسة بين الأندية المنتمية إلى جمعية الأندية الرياضية والاجتماعية في ساو باولو. قدّم النادلُ إليّ كوباً من النبيذ الأبيض على الفور، وسرعان ما دخلت في حوار مع ألبيرتو، أحد مدراء النادي، ومع ضيفين (غير عربيّين) هما سيرجيو ودانييلا كانا في عداد المدعوين إلى تلك الأمسية[٣٦]. وبعد نصف ساعة، اكتظّت الغرفة بالرجال والسيدات اللاتي ارتدين ملابس أنيقة ووازنّ بين الأحاديث القصيرة والنظرات الخاطفة إلى المشغولات المعروضة تحت إنارة هادئة. وبعدما ضاق بنا المكان، اقترح ألبيرتو الصعود إلى الطابق الثالث للمشاركة في العشاء الأسبوعي (الذي كان مفتوحاً في الواقع لجميع أعضاء الأندية المنتمية إلى جمعية الأندية الرياضية والاجتماعية في ساو باولو). وبعدما دخلنا صالة الاستقبال الفسيحة، جلسنا إلى طاولة مرتبة بطريقة أنيقة إلى جانب جواو، وهو مدير آخر في النادي، واستيلا زوجته. شرح لنا ألبيرتو أن العشاء هو على هيئة بوفيه وأننا نستطيع البدء بتناوله متى نشاء.

لكن سبق العشاء تعريف كلّ واحد منا بنفسه. أشارت دانييلا إلى مؤسستها المتخصصة بتعليب المنتجات الزراعية في بلدة على مسافة قريبة من العاصمة، مضيفة أن الخرشوف (الأرضي شوكي) الذي سنتعشّاه من منتجات مؤسستها. وبعدما نبّهنا زوجها إلى وجوب أن نمتدح الخرشوف، قالت دانييلا إنّها أقامت وجواو، أحد مدراء النادي، شراكة مهنية لتطوير «سوق زراعية» (نطقت بالعبارة باللغة الإنكليزية) تُعين صغار المزارعين على تسويق منتجاتهم. وبعدما أسهب الضيف والمدير في الحديث عن شراء الأرض وتأمين رخص البناء، أعربا عن حماستهما للنجاح المرتقب لمشروعهما الاقتصادي. حتّى إن ألبيرتو أبدى موافقته بإعرابه عن اهتمامه في الاستثمار في هذه التعاونية لأنها تبدو صفقة مربحة. وتحدّث ألبيرتو بلا مبالاة عن إعادة انتخاب ابن عمّه عمدة للبلدة التي سيقام عليها المشروع مع أنّه لا يتوقع طلب خدمات سياسية أو تقديمها. في ذلك الوقت، كنت

---

(٣٦) في الوقت الذي كنت أتحدث إلى سيرجيو عن بحثي في الجالية العربية، أعرب عن اهتمام شديد ودخل في مناقشة رواية *Tocaia grande* لجورج أمادو. كما أدلى سيرجيو الذي شدد على انتشار العرب في المناطق الريفية والحضرية في البرازيل ببعض التعليقات عن ميراثه الإثني الأوروبي فقال: «أنا ألماني من جهة والدي، وبرتغالي وإيطالي من جهة والدتي». وبالتعبير عن بياض بشرته بمصطلح قومي قال «إنه مزيج».

مشغولاً بالطعام اللذيذ الذي سأتناوله، لذلك استنتجت في البداية أن هذه المحادثة جرت مصادفة أو أنّها مجرّد حديث عابر. لكن بنظرة استرجاعية، تجلّت المصالح الكامنة في أساس حلف سياسي واقتصادي يمثّل الأساس لتجمّع صغير من البرجوازيين الذين سيتعشون المأكولات الشرقية الشهية في نادي جبل لبنان.

على أن هذه الخطط المادية لم تكن الموضوع الرئيسي للمحادثة في تلك الأمسية. بل على العكس، عُرضت في المحادثة التجارب الاستهلاكية التي راوحت بين الرحلات في أيام العطل إلى هاييتي والولايات المتحدة وبين «النوعية الممتازة للمأكولات الإثنية»، ولا سيما الشرق الأوسطية. لم أسمع سوى لغة تتحدث بإجلال عن الطعام العربي. وبعدما تأهبنا للانتقال إلى البوفيه، قال أحد مدراء النادي إن الطبق المميز لهذه الأمسية هو الملوخية. لكنه اقترح البدء بالمازة (وهو الاسم اللبناني للمقبّلات) قبل تناول الطبق الرئيسي. وقفنا إلى جانب الطاولة وملأنا أطباقنا بأنواع السلطات والمقبّلات، بما في ذلك الحمّص، والبابا غنّوج، والكبّة النيئة. وعقب عودتنا إلى الطاولة، خاطب سيرجيو الجميع قائلاً إن «الطعام العربي» هو «طعامه المفضّل». ثمّ داعب ألبيرتو الحاضرين فقال: يُشتهر نادي جبل لبنان بتقديمه أشهى المأكولات العربية في ساو باولو، مع أن كبير الطهاة في النادي، ولقبه سليم، مهاجر من شمال شرق البلاد. وفي وقت لاحق، أضاف مبتسماً إن حبّات الخرشوف التي أنتجتها شركة دانييلا كانت أشهى ما تناوله من هذا الطعام في حياته. باستهلاك مثل هذه الكلمات والمأكولات الشهية في مأدبة عشاء عربية، أقيمت صلات اجتماعية تمهّد لتعاملات متبادلة محتملة في المستقبل. لقد حوّلت الشخصيات المرموقة بادعائها أصدق صور الأصالة العربية في سوق وطنية مليئة بها، القوةَ الرمزية للمطبخ الإثني إلى رصيد اجتماعي في أوساط المجتمع الراقي. إن مناسبات كهذه تقلب الطاولات على الهرميات القومية والإثنية السابقة وتشير إلى المشروع الإثني للانتماء العربي في دولة برازيلية متنوعة المستهلّكين.

رابعاً: ملامح عربية مسلّعة في الفضاءات الإثنية المنعّمة

من الناحية التاريخية، حلمت عدة أندية في الجالية السورية ـ اللبنانية بفرص التمتع بالمأكولات والموسيقى الشرقية والرقص الشرقي واستغلّت تلك الفرص. في تلك الأندية يجتمع الرجال ويتناولون المأكولات السورية ـ اللبنانية بصوت مسموع، ويقرعون على طبلة فولكلورية تسمى الدربكة، وينشدون أغاني

قديمة، ويرقصون رقصات الدبكة. لكن هذه اللقاءات كانت سهرات غير رسمية ومرتجلة. واليوم، اكتسى استهلاك المأكولات الشرقية طابعاً مؤسسياً، تكمّله تذاكر غالية الثمن (ما بين عشرين وخمسين ريالاً للشخص الواحد)، وتواريخ محددة مسبقاً (تواريخ أسبوعية أو نصف شهرية)، وروابط مادية مبتكرة بمطاعم سورية ـ لبنانية فاخرة في السوق الوطنية.

يجري التعاقد مع مطاعم راقية مثل فولها دي أوفا، على إعداد «مآدب عشاء عربية» ومناسبات عامة في أندية صغيرة وجمعيات دينية. على سبيل المثال، بعد حفل زفاف ديني لعروسين، تعقد الكاتدرائية الأرثوذكسية السورية حفل استقبال أعدّ مأكولاتِه مطعمُ فولها دي أولفا الذي كان أصحابه في عداد الحاضرين (ليست مصادفة أن يكونوا مسيحيين أرثوذكس). وبطريقة مشابهة، حرص المدراء التنفيذيون في نادي أتلتيكو جبل لبنان الأكبر والأغنى، والذي يملك مطبخاً خاصاً به، على أن يكون «مديرُ المطبخ» (اللبناني) في النادي صاحبَ مطعم الخيام، أفخر المطاعم اللبنانية في ساو باولو. وفي الوقت عينه، كان كبير الطهاة في مطبخ النادي «سليم» الآنف الذكر من ولاية بيرنامْبيوكو في منطقة شمال شرق البرازيل المتخلفة. نزح سليم مع عدد من أقرانه للعمل في ساو باولو. وفي تعليق ساخر على تركيبة العاملين هذه، كتب أحد المدراء الثقافيين في مجلّة النادي **شوف**:

«حين أُحضِر ضيفاً لتناول الغداء أو العشاء، يطرح السؤال المعتاد نفسه دائماً بعد وجبة فاخرة: «من هو الطاهي؟» أجيب بنبرة جادّة مُقْنعة «إنّه سليم». [ويجيبون]: «جيد، لا بدّ من أنه من ذات العِرْق ليعدّ هذا الطعام الشهي». أحتفظ بالجواب لنفسي إلى أن نفرغ من طبق الحلوى بعد تزايد كلمات المديح، ثمّ أقول لضيفي: «سليم مواطن من بيرنامْبيوكو، واسمه الحقيقي أديليتو فيرييرا كافالْكانتي، وهو يعمل لدى النادي منذ اثنتين وعشرين سنة... حيث ترقى في سلّم الوظائف في المطبخ إلى أن أصبح كبير الطهاة فيه»»(٣٧).

كما يظهر من هذه المحادثة المرحة، المدراء الثقافيون في النادي متفطّنون لصلات ناديهم بالسوق الكبيرة. في الواقع، حاز نادي جبل لبنان مكانة مرموقة

---

(٣٧) «شوف» تعني «انظر» باللهجة اللبنانية العامية. وهذه تسمية مشتقة من تلاعب بالألفاظ تأسياً باسم أشهر المجلات في البرازيل، فيجا، الذي يعني بالحرف «انظر». وكما يقول أعضاء نادي جبل لبنان على سبيل المزاح، «شوف هي فيجتنا».

لدى العرب والبرازيليين على السواء كونه أكثر المؤسسات التي تقدّم المأكولات الشرقية أصالة، مع أن المقبّلات خاضعة لإشراف صاحب مطعم عريق ومن إعداد طاه نزح من شمال شرق البلاد(٣٨).

بطريقة مشابهة، السيدات اللواتي يتعاقدن مع هذه الأندية على أداء الرقص الشرقي لسن عربيات، وتم اختيارهنّ من سوق الرقص الشرقي في البرازيل. يتم التوصل إلى اتفاقات غير رسمية بين محترفات في الرقص الشرقي ومدراء الأندية العرب. تقول بريسكيلا، وهي غير عربية احترفت الرقص الشرقي، إن نادياً ريفياً معيّناً يتعاقد مع راقصات لتقديم عدد من العروض خلال مدّة زمنية محددة. على سبيل المثال، ضمنت بريسكيلا من خلال عقد غير رسمي أبرمته مع نادٍ عربي صغير العمل في أمسيات تقام فيها مآدب عشاء عربية أسبوعياً، فضلاً عن العمل في أي مناسبة تتضمن رقصاً شرقياً خلال السنة المالية ٢٠٠١ للنادي. كما أبرمت راقصة غير عربية أخرى، اسمها الفني فيروزا، عقداً مع نادٍ اجتماعي لبناني مختلف يقيم مآدب عشاء نصف شهرية وحفلات لمّ شمل عائلية وسهرات متقطعة. إن بريسكيلا وفيروزا على دراية «بحدود مناطق النفوذ» التي تستحوذ عليها راقصات محترفات يتنافسن على هذه العقود المغرية في نحو عشرة أندية تقيم حفلات رقص شرقي في أوساط الجالية.

أضحت الروابط الإثنية والقومية المشتركة مصدر إلهام لأنشطة أخرى في الأندية أيضاً. على سبيل المثال، افتُتحت صفوف لتعليم الرقص الشرقي واللغة العربية في النادي الرياضي السوري، ونادي جبل لبنان، ونادي حمص، أكبر أندية الجالية. وسواء أكان الموضوع تمويج البطن أم إصدار أصوات حَلْقية، استخدم المعلّمون مهاراتهم في هذه المشاهد في تقديم دروس مدفوعة الأجر لطلاب في السوق الخارجية. إضافة إلى تعليم الرقص الشرقي في نادي حمص مثلاً، تدير غابرييلا صفوفاً في أكاديمية الرقص الإثني، حيث يجري تعليم الرقص الغجري، والفلامنكو، وأنواع الرقص «الإثني» الأخرى، كما تعطي دروساً في منزلها. كما خاض جرجس، وهو سوري حائز الجنسية البرازيلية، تجربةً مماثلة كمدرّس للغة العربية في نادي حمص والنادي الرياضي

(٣٨) يمكن رؤية المأكولات الإثنية التي تعدّها العمالة الوافدة من المناطق الشمالية الشرقية في مطاعم السوشي في ضواحي ساو باولو أيضاً. في الواقع إن الكثير من معدي أطباق السوشي اليوم هم عمّال نازحون قدموا من ولاية سيرا الواقعة شمال شرق البلاد (جيفري ليسر، اتصالات شخصية).

السوري[٣٩]. فهو يدرّس ثلاثة أيام في الأسبوع في الناديين، ويعمل مترجماً رسمياً في الجهاز القضائي الحكومي في ساو باولو ويشرف على عدد من الدروس الخاصة لطلاب يتقاضى منهم أجوراً أعلى. ويتبين أن سلعتي الرقص واللغة الإثنيتين في الأندية الريفية الشرق الأوسطية تتداخلان مع «علاقات إنتاج» الانتماء العربي في الاقتصاد البرازيلي الأشمل.

يتجلّى هذا التداخل بين الإثني والقومي في السوق بأبهى صوره في الوصف التالي لمأدبة عربية في واحد من أصغر أندية الجالية. بعدما دعيت إلى مناسبة في نادي مرجعيون، وهو اسم بلدة في جنوب لبنان، وجدتُ نفسي محاطاً ببيئة عائلية واحتفالية. راوحت أعمار المشاركين في الحفل بين العشرين والسبعين سنة، مع أن أغلبهم كان في العقد الخامس. وفي وقت لاحق، علّق سمير، وهو زميل يعمل مديراً ثقافياً في النادي، بالقول إن ٩٠ في المئة ممن حضروا المأدبة العربية ينحدرون من بلدة مرجعيون كونهم مهاجرين منها أو أبناء من هاجر منها. ارتدى الجميع ملابس عادية، فارتدى الرجال سترات وسراويل غير رسمية وساعات أنيقة وأحذية لامعة، بينما ارتدت السيدات ملابس داكنة اللون وحليّاً فاخرة. حتّى إن أحد الرجال المتحمسين اعتمر كوفية فضلاً عن قفطان يليق بشيخ ذي عظمة مشرقية. ومع جلوس الجميع إلى أكثر من عشرين طاولة زُيّنت بأناقة، توقف الجميع لحظة مهيبة للإشادة بعضو قديم في النادي وتقديم لوحة تذكارية إليه.

سرعان ما أحاطت بالحضور روائح فاتحة للشهية مع إحضار النادلات اللواتي ارتدين قمصاناً وقبعات سود عليها اسم «جاكوبس»، صنوفَ الطعام للمأدبة. اشتمل «العشاء العربي» الذي أعدّ مأكولاته مطعم جاكوبس، على أطباق رئيسيّة مثل القرع والملفوف وورق العنب المحشو والكبة النيئة والبابا غنّوج والتبّولة والفتّوش. خدم المدعوون أنفسهم بذهابهم إلى الطاولات لأخذ ما يشتهون والعودة إلى مقاعدهم. عبست عمة سمير الجالسة إلى طاولتنا حين سُئلت عن مذاق أوراق الملفوف المحشوة، مع أن الأطباق الأخرى كانت لذيذة. وبعد ذلك وُضعت أطباق من الحلوى (على هيئة بوفيه أيضاً) تضمنت الفواكه وعدداً

---

(٣٩) لم يكن أغلب طلاب اللغة العربية في نادي حمص منحدرين من الشرق الأوسط أو حتى أعضاء في النادي. وقسم منهم طلبة جامعيون ومهنيون شباب يسعون لتعلّم لغة إلى جانب اللغتين الإنكليزية والإسبانية. وذكر أحدهم وهو خبير تقني في الحواسيب في أواخر العشرينيات من عمره يدعى روجيريو، أنه يتكلم الإسبانية والإيطالية ويريد دراسة لغة أخرى. وبحسب تعبير المعلّم، إن الاهتمام المتزايد باللغة العربية له علاقة بـ «العولمة».

من صنوف الحلويات العربية مثل البقلاوة وعش البلبل. وقد أعدّ المأكولات العربية التي قُدّمت في هذه المأدبة مطعم تقليدي معروف في السوق البرازيلية.

بعدما انتهى الجميع من تناول الحلوى، بدأت فرقة بعزف الموسيقى، وقُدمت سونيا عطية إلى الحضور، وهي مغنية معروفة في الدوائر العربية المنعَّمة، فصدحت وغنّت على وقع الموسيقى. وفي غضون عشر دقائق، دخل إلى الصالة أربع راقصات متمايلات غير عربيات. وعلمتُ في وقت لاحق أن إحداهنّ التي تُدعى فيروزا، «تعاقدت» لتقديم هذه العروض في النادي. وحين أعلنت عطية عن وصول الراقصات، أزاح الأصدقاء بسرعة الأطباق إلى حوافّ طاولتنا لإفساح المجال أمام إحداهنّ لاعتلاء الطاولة والتمايل وإسعاد الجميع. وفعل الكثير من الجالسين إلى طاولات أخرى الأمر نفسه ودعوا الراقصات إلى الرقص فوق الطاولات، فيما دسّ أغلب الرجال أوراقاً نقدية من فئة أو الخمسة أو العشرة ريالات في أحزمة خصورهن. بدا ذلك التصرف موضع ترحاب أغلب الرجال، وحتّى بعض السيدات[٤٠]. كان ذلك استعراضاً واضحاً لهيمنة الذكور في هذه الفضاءات المنعَّمة. وحين أعربت عن مفاجأتي، أكدت لي زميلة جالسة إلى الطاولة أن «تلك ممارسة عربية فعلاً». لكنّ هذا البُعد الجنساني لـ «الثقافة العربية» وُوجه بانتقاد لاذع من بعض السيدات العربيات.

وبعد عرض دائري راقص على إيقاع «الدربكة»، ظهر مغنّ معروف آخر أكبر سناً له شارب غليظ. قال أبياتاً من الزجل في الوقت الذي واصلت الفرقة عزف موسيقاها. وكغيري من أبناء الجيلين الثاني والثالث الحاضرين، لم أفهم كامل الرسالة التي صيغت بلغة عربية فصحى غير مألوفة. امتدح المغني «تحرير جنوب لبنان»، وتلاله المتماوجة بنسائم «الحرية» (ولا سيّما بعد الانسحاب الإسرائيلي في أيار/ مايو ٢٠٠٠). قابل الحضور هذه الكلمات بالتصفيق والهتاف. كان جالساً إلى جانبي والد صديقي، وهو مهاجر مسنّ من مرجعيون، وحاول مسح دموعه عن وجنتيه بيديه المتجعدتين قبل أن يلحظها أحد. لكن ابنته وابنه رأياه وسرعان ما عانقاه. كان ذلك تعبيراً عن حنينه لوطنه الأمّ ولجباله وحرّيته الجديدة. لكنه حنين أفصح عنه في سياق انتماء عربي مصنَّع في البرازيل.

---

(٤٠) بدا أن الرجال يستمتعون بوقتهم، بينما لزمت عامة السيدات أماكنهنّ وصفّقن بأيديهنّ وابتسمن. هذا مجال يمكن للرجال الإفصاح عن ميولهم الجنسية فيه، وإبداء إعجابهم بأجساد الراقصات والتفاعل معهنّ. وفي المقابل، صفّقت النسوة الحاضرات بأيديهنّ ورقصن في أماكنهنّ، لكنّ أغلبهنّ ترددن بين تفحّص جمال أجساد الراقصات ومراقبة أزواجهنّ أو أبنائهنّ أو أصدقائهنّ.

خامساً: تمييز الهوية الإثنية في الحياتين العامة والخاصة

تعكس هذه التجليات السوقية لـ «الثقافة العربية» وتصوغ حساً خاصاً بالإثنية في نفوس أبناء المهاجرين في البلاد. نظر هؤلاء، أكانوا أصحاب مطاعم أم أصحاب مهن حرّة، نظرة ازدراء إلى سلاسل مطاعم الوجبات السريعة مثل سلسلة حبيب أو حتّى المطاعم العادية. على سبيل المثال، أشار سمير، مدير مطعم فولها دي أوفا، إلى أن سلسلة مطاعم حبيب تصنع الصفيحة من مكونات رخيصة عُدّلت لتناسب «أذواق البرازيليين» وتسوَّق بكميات كبيرة. وبالمثل، قالت ليليان، وهي مديرة في سكريتاريا الثقافة لدى حكومة ولاية ساو باولو، إن الأطباق الرئيسيّة التي قُدمت في الكافيتيريا يوم أجريتُ معها محادثة غير رسمية كانت «مأكولات عربية». وقالت سيلفيا: «اليوم الوجبة عربية تتضمن أقراص الكبّة والصفيحة والمجدرة. . . لكن هذا لا يصل إلى جودة ومذاق الطعام الذي تعدّه خالتي إيفيت». يتبين مما تقدّم أنّه من خلال المقارنات التي تعبّر عن الاستياء بين النماذج الإثنية المتنوعة يفتخر أبناء المهاجرين الآن بنماذجهم الإثنية الأصيلة الخاصة.

بيد أن تصنيع الانتماء العربي أثار حس أبناء الإثنية بالتمايز في وسط الأندية الريفية. أضرب على ذلك مثالاً بماريو، وهو عضو في نادي جبل لبنان أثنى على المأكولات العربية التي يقدّمها النادي في مقالة نشرتها **شوف**، حيث قال:

«إن شهرة مأكولاتنا العربية تخطت أصلاً إطار النادي ووصلت إلى المدينة، والبلديات المجاورة، وحتّى المناطق الداخلية في الولاية [أي ولاية ساو باولو]. . . لذلك يأتي إلينا أصدقاؤنا، ولا سيّما «البرازيليّي» [استعمل كلمة عامية في الإشارة إلى البرازيليين من غير العرب] لكي ندعوهم إلى تناول العشاء يوم الثلاثاء أو طعام الغداء يوم الأحد».

بعدما تباهى ماريو بالشهرة التي حازها مطبخ نادي جبل لبنان، أشار إلى أن أطباقه الإثنية تمايزت عما سواها لأن مدراء النادي «أدخلوا تعديلات ثورية في المطبخ» ولأن الأعضاء يتميزون «بحاسة ذوق ممتازة». وأضاف أن الأعضاء تقدّموا باقتراحات لتطوير المطبخ، بما في ذلك التماس حمل ثلاثمئة توقيع «يطلب إضافة مزيد من البرغل إلى الكبّة». بالاستدلال بمكانة «المأكولات العربية» الرفيعة الآن، ختم ماريو حديثه بالقول إن مدراء النادي وأعضاءه «هم الكفالة لبقاء هذا الطعام شهياً وطيباً ويستحق أن يقدّم إلى الرؤساء والشيوخ

والملوك والحكام». وبعدما كانت الأندية الاجتماعية الشرق الأوسطية مهمَّشة ذات يوم، أضحت محلّ ثناء في هذا المجال كونها فضاءات الانتماء العربي الأصيل في البرازيل.

بإعداد صاحب مطعم «الخيام» اللبناني الراقي أطباق الطعام التي يقدمها نادي جبل لبنان، يزعم أعضاؤه أصالة مطبخهم من خلال «كثرة الحديث» عن مطبخهم في الحياة العامة. قالت ساندرا «إن المأكولات العربية التي تقدّم في نادي جبل لبنان شهيرة فعلاً، في ساو باولو وفي شتى أنحاء البرازيل»، وذلك في سياق حكايتها قصة موجزة عن جارها سيزار ترالي، وهو مراسل شهير لدى شبكة غلوبو التلفزيونية:

«قلت له: «آه، سنتاول العشاء يوم الثلاثاء في نادي جبل لبنان. يقدّم النادي عشاء عربياً». . . دعوته وزوجته. [أجابني]: «قالوا لي إنّه يقدم أشهى المأكولات العربية في ساو باولو». . . إنّها شهيرة فعلاً، مذاقها رائع وأطباقها متكاملة».

بهذه العبارة، أشارت ساندرا ضمناً إلى أنّه حتّى المراسلين لدى شبكة غلوبو التلفزيونية سمعوا عن المطبخ الرائع في نادي جبل لبنان. وأضافت على نحو عابر أن ترالي لا يزال يسأل «متى ستصطحبينني لتناول طعام العشاء في نادي جبل لبنان؟»

جاهر مدراء وأعضاء نادٍ آخر، هو نادي حمص، بالمثل بانتمائهم العربي الأصيل في الحياة العامة في البرازيل. وعلى حدّ تعبير أحد المدراء، ويدعى ريكاردو، يرى نادي حمص أن «على نادي الجالية العربية واجب إدارة قيمه الثقافية والمحافظة عليها». وفي غمرة برنامج الصفوف التعليمية في النادي ومناسباته المتنوعة، شدّد مجلس إدارته مؤخراً تشديداً خاصاً على المقررات التعليمية وعلى العروض المسرحية التي تُساهم في التجديد الثقافي للنادي. جاء في مقالة نشرتها مجلة نادي حمص عام ١٩٨٨: «الهدف من هذه المناسبات جلب المعرفة وتقاليد الثقافة العربية إلى النادي من خلال عرض العناصر الثقافية والفنّية المتنوعة»[٤١]. من خلال أمسيات يدور موضوعها حول «الكبّة والعَرَق»، وعروض الرقص الشرقي والدبكة، فضلاً عن الزجل والعزف المنفرد على آلة العود، طوّر مدراء نادي حمص المشروع الإثني للثقافة العربية انطلاقاً من واقع هجين.

---

(٤١) انظر: «Resgate Cultural,» *Homs*, vol. 2, no. 6 (December 1998), pp. 18-20.

وكجزء من هذا المشروع، أعاد نادي حمص تصميم إحدى غرفه في أواخر ثمانينيات القرن الماضي لتكون الصالون العربي، وزوّدها بأثاث مصنوع من الصدف، ولوحات شرقية، ومقتنيات جميلة من الوطن العربي. لكن خلال زياراتي الأسبوعية، كنت أجد الغرفة مقفلة دائماً. في الواقع، علّق أحد المدراء بالقول إن الغرف تُفتح «فقط في المناسبات الخاصة جداً عند وجود شخصيات حكومية ودبلوماسيين لأنه حتّى أعضاء النادي لا يعرفون كيفية الاعتناء بها. إنّهم لا يقدّرون قيمتها». وفي الوقت الذي كنت أجلس أمام أبوابها الموصدة مساء أحد الأيام، نظرت مجموعة من المراهقين الذين اعتادوا الاجتماع في المكان للتوجه إلى قاعة الألعاب الرياضية في الأسفل إلى «الصالون العربي». أشار أحد هؤلاء الشبان إلى أنّه عضو في النادي منذ ثلاث سنين ولم يرَ الصالون العربي مفتوحاً ومضاءً في يوم من الأيام. أي أن الانتماء العربي في هذه الحالة مخصص للاهتمام العام ودخيل في الاستهلاك الخاص.

أطلق نادي حمص، بهدف تقديم عناية أفضل لأعضائه، «برنامج إنعاش» مكثفاً تضمن توسيع صفوف تعليم اللغة العربية، وافتتاح صف لتعليم الرقص الشرقي، والتخطيط لصفوف تعلّم حرفة الحفر على الخشب العربية والعزف على العود في المستقبل. افتُتحت الصفوف الخاصة بتعليم اللغة العربية والرقص الشرقي أمام عامة الناس لجذب أشخاص غير أعضاء وغير عرب يحبون الإطلاع على الثقافة العربية. وبحسب كلام ريكاردو مدير النادي، «نريد اجتذاب الناس ليطلعوا على الثقافة العربية ويعرفوها تمام المعرفة». ورداً على ملاحظتي حول تعليم الرقص الشرقي واللغة العربية في أكاديميات أو مدارس متنوعة في ساو باولو، قاطعني ريكاردو: «لكن لكي تتعلم الرقص العربي أو اللغة العربية، لا شيء أفضل من التعلم في نادٍ، في نادٍ عربي». وبالتالي، تُبرز مزاعم الأصالة الإثنية لأبناء الشرق الأوسطيين اليوم قوتّها الرمزية إزاء السلع الثقافية العربية في السوق الوطنية.

أدى استهلاك سلع المأكولات والموسيقى والرقص في الأندية الريفية الشرق الأوسطية إلى تكثيف هرمية الأصالة في أوساط «الشرق الأوسطيين» أنفسهم. وعلى النقيض من ملاحظة أندريه غاتاز التي يقول فيها إنّه لا يكاد يمكن ملاحظة الفوراق بين الهويات «العربية» و«السورية» و«اللبنانية» في البرازيل(٤٢)، وجدتُ أن الشرق الأوسطيين وحتّى البرازيليين غير العرب يميّزون بينهم بوضوح. وكما

(٤٢) Gattaz, «História oral da imigração libanesa para o Brasil, 1880-2000,» p. 239.

أشرتُ في الفصل الثالث، يشير الوصف الشعبي أو النكتة التي رددها عدد من البرازيليين العرب (وغير العرب) أن التركي بائع متجول فقير، وأن السوري «مداوٍ» أو صاحب متجر من الطبقة الوسطى، وأن اللبناني صناعي ثري أو مهني مثقف. وحين سألت عن أهمية هذا القول الدارج، أجاب سمير، الطبيب السوري من الجيل الثاني، شارحاً المقام الرفيع للبنانيين في البرازيل وفي العالم:

«يتمتع اللبنانيون بتأثير كبير جداً في أوروبا. كان وطنهم أحدث من منظور الجمال الغربي. . . لكنّ السوريين أميل إلى المحافظة منهم. يتخذ السوري موقفاً أكثر انغلاقاً. وداخل البرازيل، يوجد هذا التمييز بين السوريين واللبنانيين بالفعل».

عوضاً من الاستنتاج أن اللبنانيين في البرازيل أوسع ثراءً من السوريين، شدّد سمير وبرازيليون عرب آخرون على كون اللبنانيين أكثر حداثة ويمتلكون درجة أكبر من الحضارة الغربية من السوريين الذين يُعدّون عرباً «تقليديين».

بما أن سمير يميّز بين السوريين واللبنانيين على صعيد الاستهلاك، سألته إن كان لهذا التمييز علاقة بموقع النادي في ساو باولو. أجاب على الفور «بلا شكّ. . . [نادي جبل لبنان] في غاية التطوّر والرقي والتباهي، [في حين] نادي حمص شديد المحافظة». وذكر آخرون أن نادي حمص حاز شهرة كونه بيت العرب في البرازيل، وأعضاؤه جعلوه «مركزاً لعزف الموسيقى العربية في الحفلات» فضلاً عن كونه مركزاً لتعليم الرقص الشرقي واللغة العربية. من ناحية أخرى، يتردد سامي، وهو طبيب سوري آخر من الجيل الثاني، إلى نادي جبل لبنان ويؤكّد الرقيّ المزعوم للبنانيين. ويقول: «نادي جبل لبنان أكثر رقياً» واللبنانيون «أميَل إلى الغرب من السوريين وأوسع ثقافة منهم». وبالمثل، سألَتْني (أنا المنحدر من أصل لبناني) سيدةٌ إيطالية أرملةُ سوري من الجيل الثاني: «اللبنانيون أرقى، أليس كذلك؟» أجبتها، بعدما أصبحت متحمساً للمسألة، «يحبّذ اللبنانيون الاعتقاد أنّهم أرقى». تُظهر تراتبية الشرق الأوسطيين، ولا سيما في ضوء شعبية «العشاء العربي» الذي يقيمه نادي جبل لبنان في أواسط نخب ساو باولو، الحدود المثيرة للسخرية للاعتراف الإثني: المكانة الأرفع في الظاهر للهوية اللبنانية ترجع جزئياً إلى «الرقي الغربي» لا إلى «التقليد الأصيل».

يجري الإعراب عن التمييز بين الانتماء اللبناني والانتماء السوري في الأندية الريفية بهذه الأمثلة اليوم. وحين قلت لصديق للأسرة من أصل لبناني حائز الجنسية البرازيلية إنني أتلقى دروساً في اللغة العربية، أجابني بأنه يتعين

عليّ توخّي الحذر عند اختيار المعلّم والمقرر الدراسي. قيل لي إن عليّ الالتحاق بنادي جبل لبنان أو بأي نادٍ لبناني آخر لا بنادٍ سوري لأن العربية اللبنانية أجمل من العربية السورية. في الواقع، كلّ من نادي جبل لبنان ونادي حمص يرعى دروساً لتعليم اللغة العربية. لكن بينما تجد في صفوف نادي جبل لبنان عدداً قليلاً من الطلاب، يتباهى نادي حمص بطلابه الذين يعدّون بالعشرات. وحين سألت المدير الثقافي في نادي جبل لبنان عن سبب قلّة الاهتمام بتعلم اللغة العربية لديهم رأى أن اللبنانيين عموماً «غربيو النزعة» ولا يقيمون وزناً لجذورهم العربية بقدر ما يفعل السوريون «الأكثر تقليدية». ويتفق مدراء نادي حمص مع هذا الرأي ويكررون التشديد على تمسّك السوريين بـ «التقاليد العربية» من خلال صفوف تعليم اللغة العربية المتاحة للعموم (فضلاً عن تعلّم النواحي الثقافية الأخرى). يتبين في الدوائر الشرق الأوسطية، أن حضور صفوف تعليم اللغة، أو عدم حضورها، يمثّل مصدر «النزوع الغربي» للبنانيين أو «رقيّهم»، و«أصالة» السوريين أو «تقليديتهم».

يعكس تعلّم الرقص الشرقي وأداؤه كذلك هذه الهرمية الشرق الأوسطية. ومع أن عروض الرقص الشرقي منتشرة في الحفلات وفي مآدب العشاء التي تقيمها أندية متعددة، تفادى نادي جبل لبنان إقرار تعليم الرقص الشرقي رسمياً وأيده النادي الرياضي السوري ونادي حمص ظاهرياً. تقول بريسكيلا، وهي مدرسة رقص شرقي سابقة غير عربية في نادي جبل لبنان، إن الآباء في النادي اللبناني عارضوا تعليم بناتهم الرقص الشرقي. في الواقع، لم يتمكن سوى القليل من الطالبات من حضور تلك الصفوف لأن آباءهم اعتقدوا أنهم يزاولون أنشطة أخرى. وتشدّد بريسكيلا على أن الرجال في نادي جبل لبنان «يحبذون وجود راقصة شرقية، لكن الأمهات والخالات والشقيقات لا يمكنهنّ العمل راقصات. على أنّه لا بدّ من وجود راقصة». لذلك، يتم التعاقد مع امرأة برازيلية للرقص في المناسبات التي يقيمها النادي. ومع أن وجهاء المجتمع لم يثيروا هذه القضية معي، فالظاهر أن «الرقي الإثني» لنادي جبل لبنان أتاح المجال لأداء الرقص الشرقي، لكنه منع الأعضاء الإناث في النادي من تعلّمه.

في المقابل، اعتُمدت عروض الرقص الشرقي ودروس تعليمه رسمياً في النادي الرياضي السوري وفي نادي حمص. لكنّ معلّمة الرقص الشرقي في نادي حمص، التي سأدعوها غابرييلا، لم تجب بعبارات واضحة حين سألتها عن رعاية النادي لعروض الرقص الشرقي ودروسه، وبخاصة مجلس إدارة النادي

الذي يكاد يتألف حصرياً من الذكور. وفي حديث خاص، أثنت على الميل الأساسي للسيدات العربيات إلى الرقص الشرقي، مستدلّة بتفوق الطالبات العربيات الأصل في تعلّم الرقص الشرقي على الطالبات الأخريات. وفي عرض الرقص الشرقي لعام ٢٠٠٠ في نادي حمص، شكرت غابرييلا الإدارة للسماح لها «بأحياء الثقافة [العربية]، وأحياء الرقص الشرقي». إضافة إلى ذلك، أهدت غابرييلا العرض لوالدَيها شاكرة لهما «منحها الدم العربي». لكن في محادثة خاصة أخرى، أشارت إلى أن الراقصات اللاتي تعاقدن لتقديم عروض في المناسبات التي يقيمها النادي هن سيدات برازيليات غير عربيات (وغير أعضاء) بلا استثناء. ومع أن مدراء النادي لم يتطرّقوا إلى هذا التباين الجنساني في حديثهم معي، فقد أشارت غابرييلا إلى أن «الأصالة العربية» لنادي حمص أتاحت فتح صفوف لتعليم الرقص الشرقي للفتيات بشرط عدم تقديم عروض فردية في المناسبات التي يقيمها النادي. يتبين مما تقدّم أن الهرمية الشرق الأوسطية مبنية على السلطة الأبوية سواء أكان تمايز الأندية بالرقي أم بالتقاليد.

بعد الانتقال من التهميش الأوّل إلى تصنيع النماذج الثقافية الشرق الأوسطية وفضاءاتها، ركّزنا في هذا الفصل على تزايد الاعتراف بالانتماء العربي في السوق القومية البرازيلية المتنوعة. وبعدما كانت المأكولات الشرقية والرقص الشرقي أحد المؤشرات على المكانة الهامشية للعرب في الدولة البرازيلية، فهي باتت تُشتهَر في أوساط النخب والجماهير. لكن هناك من يشعر أنّ هذا الاستملاك الوطني كان له وقْع إيجابي على الإثنية العربية في البرازيل. وبعدما تنبّه المدراء والأعضاء في الأندية الريفية السورية واللبنانية للتمايز المتنامي للانتماء العربي في الحياة العامة، بذلوا مزيداً من الوقت والجهد والموارد لتطوير المآدب العربية وعروض الرقص الشرقي. كما أنّ الشخصيات المرموقة التي ادعت ثقافة عربية أصيلة في السوق الوطنية حوّلت القوة الرمزية لهذه السلع الإثنية إلى رصيد اجتماعي في أوساط الطبقات العليا في الدولة البرازيلية. وفي سياق استهلاك المنتجات الشرق الأوسطية، أقام الذوّاقة الإثنيون والوطنيون صلات اجتماعية مربحة. وهذه الحصيلة الخلّاقة تشير إلى أنّه حين تتمتع مجموعة استُملِكت ثقافتها بنفوذ اجتماعي كبير، ففي وسعها استعادة ما فقدته بطريقة تزيد المنافع التي تجنيها منها.

الفصل السادس

دوّامة هوائية في السياحة الوطنية

سواء أكان المقصد من ركوب الطائرة التوجه إلى عالم ديزني أم إلى تاهيتي، يعشق البرازيليون المنحدرون من سورية ولبنان السياحة الدولية[1]. ومع أن وجهة هؤلاء المفضلة، كما الكثير من البرازيليين الموسرين، هي الولايات المتحدة، فقد طرأ تنوّع على رحلاتهم السياحية في أواخر تسعينيّات القرن الماضي وهو ما تعكسه الإعلانات السياحية الأسبوعية والتحقيقات التي تجريها الصحف الرئيسيّة. في الواقع، أضحت رزم الرحلات السياحية الشرق الأوسطية سمة مألوفة في المقالات التي تتناول السياحة في الصحافة البرازيلية منذ عام ١٩٩٦[2]. في هذا السياق، أعرب المنحدرون من سورية ولبنان عن اهتمام كبير بالوطن الأمّ في الشرق الأوسط، وشُجّعوا على زيارته. وفي أثناء هذه الرحلات، يزورون مواقع شهدت مجازر ارتكبها الجيش الإسرائيلي في سورية ولبنان. هذه الدوامة الهوائية أفصحت عن معنى كون المرء عربياً في البرازيل المعاصرة.

حاز البرازيليون من أصل سوري ـ لبناني، الذين استمالتهم شركات الطيران ووكالات السفر فضلاً عن السلطات السورية واللبنانية، اعترافاً أكبر كونهم نافذة سوقية للسياحة في الوطن الأمّ. سنتحدث في هذا الفصل عن الرحلات غير

(١) هناك عدد قليل لا يزيد على ثمانين مشاركاً في المقابلات لم يذهب في رحلات سياحية إلى الخارج.

(٢) ظهرت تكراراً إعلانات عن تذاكر خطوط الطيران ورزم سياحية لرحلات متوجهة إلى الشرق الأوسط في الأقسام الأسبوعية المخصصة للسياحة في: *O Estado de S. Paulo* و *Folha de S. Paulo* في عام ٢٠٠٠ وفي مطلع عام ٢٠٠١. وركّزت أربع صفحات خاصة على لبنان في فولها دي ساو باولو في ٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٦، وفي ١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩، وفي ١٤ شباط/ فبراير ٢٠٠١. والصور التي نشرتها وسائل الإعلام عائدة إلى مواقع أثرية وعجائب طبيعية. كما وَرَدَ في الإعلانات أسعار تذاكر السفر وأسماء الوكالات السياحية وأوصاف رزمها الكاملة.

المتوقعة إلى المواقع التي تُشَهّر بالصهيونية وتحيي ذكريات الاعتداءات الإسرائيلية السابقة على سورية ولبنان، ونبيّن أنّه على الرغم من أن بعض السياح أعادوا إنتاج مبادئ معاداة الصهيونية التي تقوم عليها الأيديولوجيات الوطنية السورية ـ اللبنانية، فقد انتقدها البعض الآخر كونها تشجّع على «التحامل» في أوساط العرب الذين يقيمون علاقات طيبة باليهود في دولة برازيلية «متسامحة عِرْقياً»(٣). باستخدام اللغة الإقصائية التي تعتمدها القومية البرازيلية، قوّض بعض السياح الأيديولوجيا المعادية للصهيونية في السياحة في البلد الأمّ، مظهرين أنّه يمكن للأفكار القومية تفنيد المنطق الإقصائي الذي انبثق منها.

ومع الأخذ في الحسبان المنتجات المبتكرة في سوق السياحة المتنوعة، سنعاين في هذا الفصل الأجندات المتقاطعة للبرازيليين المنحدرين من سورية ولبنان، ووكالات السياحة، والسلطات الحكومية السورية واللبنانية. يشارك البرازيليون العرب من أبناء الجيلين الثاني والثالث في الرحلات السياحية المتجهة إلى الوطن الأمّ لإحساسهم العميق بروابطهم الأسرية بسورية ولبنان. لكن هذه الدوافع الشخصية تناقض لباقة الخطوط الجوية المتزايدة في التسويق التي تستهدف المجتمعات الإثنية التي يُفترض أنّها مهتمة بالسفر إلى أوطانها الأمّ. وبالمثل، عوّلت السلطات الحكومية في البلدان العربية على نزوع أبناء الجيلين الثاني والثالث المنحدرين من أصول عربية إلى السفر في إنعاش صناعات السياحة الوطنية. وعلى الرغم من الاعتراف بالولاءات القومية المتعددة لهؤلاء المهاجرين، سعى المسؤولون الحكوميون السوريون واللبنانيون لإضفاء طابع معاداة الصهيونية عليها في الجولات السياحية في الوطن الأمّ.

من بين هذه الرغبات والاهتمامات، سأركز على نموذج تقدّمي مستجد لتحديد الهوية. لقد تأثر المنحدرون من أصل سوري ـ لبناني كثيراً عند زيارتهم المواقع التي تعرضت لاعتداءات إسرائيلية، علماً أن حفنة منهم فقط تكنّ عداءً للصهيونية. واللافت للنظر إعراب آخرين عن شعور مخالف أو اشمئزاز مما عدّوه «النزعة العِرْقية» للحكومتين السورية واللبنانية. وشدّد هؤلاء السياح البرازيليون العرب على أن تكتيكات «غسل الدماغ» التي تتبعها الدولتان من دون

---

(٣) لم أقصد بذلك الخلط بين دولة إسرائيل الصهيونية والديانة اليهودية. لكنّ البرازيليين العرب أنفسهم استخدموا عبارتي «إسرائيل» و«اليهود» في الإشارة إلى مسمًّى واحد. ولم نتطرّق في هذا الكتاب إلى الجمع بين الصهيونية واليهودية.

جدوى لأنه لا وجود لهذه التوترات في البرازيل التي يُزعَم أنّها مختلطة وديمقراطية عِرْقياً. وباستخدام جوهر لغة الأيديولوجيا القومية البرازيلية، «جسّد» السياحُ الإثنيون «مواطنة عالمية مجهولة الاسم في فضاء موقع رسمي محدد جداً» للسياحة التي ترعاها البلدان العربية[٤]. يعبّر عملي عن رفض لإمكان أن تكون المبادئ القومية الخطوةَ الأولى نحو هذه المواطنة العالمية القائمة التي لم يُعترَف بها بعد بين البرازيل والشرق الأوسط.

أولاً: الخطوط الكفافية المثيرة للمشاعر وخصائص الملامح والمميزات العاطفية لسياحة البرازيليين العرب

تحدّث السوريون ـ اللبنانيون من أبناء الجيلين الثاني والثالث عن رغبة في معرفة أصولهم، معربين عن نيات مسبقة في السياحة في البلد الأمّ. هناك سيدة من الجيل الثاني تدعى مارسيا سافرت بصحبة عمّها إلى لبنان في أواخر ثمانينيات القرن الماضي. تقول مارسيا «إن جانبك العاطفي يقول الكثير لأنك [في لبنان] ترى المكان الذي نشأتْ فيه أُسرتك، والمكان الذي يرجع إليه أصلك. لقد أعجبني الذهاب إلى هناك ورؤية المكان الذي وُلد فيه والدي». وبالمثل، يقول رجل سوري لبناني من الجيل الثاني: «ذهبت لأعرف جذوري. ذهبت لأعرف المكان الذي ترعرع فيه والداي. . . ذهبت لأعرف وطن أمي ووطن أبي، أعني [سورية] وحمص. . . ولبنان وزحلة».

كما أفصح برازيليون عرب بطريقة مشابهة، عن رغبتهم في معرفة القرى التي ترعرع فيها آباؤهم أو أجدادهم. يشرح عبده، وهو مدير في قطاع السياحة، المسألة قائلاً: «أردت أن أعرف أرض آبائي وأجدادي». ويشدّد على أن أمه «نقلت» إليه وإلى أشقائه «حبّ لبنان» وخصوصاً «حبّ» قريتهم الصغيرة ميمس في جنوب لبنان. وقال بصوت مرتعش:

«عشنا طفولتنا في ميمس. كانت أمي تحدثنا عن ميمس دائماً، وهو ما يجعلنا نحاول تخيل شكل ميمس، أليس كذلك؟ كانت تحدثنا عن موقعها في أعلى الجبل، وتقول إنّها قرية جميلة. لم تكن مخطئة في ذلك؛ فحين ذهبت

(٤) Louisa Schein, «Importing Miao Brethren to Hmong America: A Not-So-Stateless Transnationalism,» in: Pheng Cheah and Bruce Robbins, eds., *Cosmopolitics: Thinking and Feeling beyond the Nation* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1998), pp. 190.

إلى هناك، رأيت ميمس على قمة الجبل، ورأيت المنازل المتباعدة التي تحيط بها كروم الزيتون. أودّ القول إن الأمر يتخطى الجمال، القرية مؤثرة فعلاً».

بزيارة عبده قرية الأجداد التي احتضنت طفولته ورؤيته خطوطها الكفافية الجبلية، والطرق المتعرّجة وكروم الزيتون، عاش تجربة العودة إلى الوطن كتجربة حية.

وبالمثل، تحدّث ماريو، وهو لبناني في منتصف عمره من الجيل الثاني، عن إشارات والده المتكررة إلى القبيّات في شمال لبنان، وأعرب عن رغبته في التعرف إلى تلك البلدة. يقول ماريو: «عندما وصلنا إلى أرض والدي، استُقبلنا بمأدبة لم أرَ مثيلاً لها في حياتي. وحظيت بترحاب عاطفي قوي». وبانفعال مماثل، يقول حسن، وهو من الجيل الثاني: «حين وطأت قدمي التراب اللبناني، وجدت أنّه ملكي. إنّه ملكي». ثمّ واصل طريقه نحو عكّار، حيث «البلدة التي وُلد فيها أبي»:

قوي شعوري بأن المكان ملك لي، إنه لي. . . تلك القرية ملكي. أحسست بذلك في أعماق نفسي، وبأن كل الأشخاص الذين يعيشون هناك أقاربي.

لقد حرّك السفر إلى قرية الأجداد في لبنان حساً فريداً بالانتماء. حتّى إن أبناء حسن، وهم الجيل الثالث للأُسرة، زاروا البلدة.

على أن هذه الدوافع الشخصية اقترنت برغبة في معرفة مكان «مختلف» أو «بديل». يقول أحمد، وهو لبناني من الجيل الثاني: «سافرنا لنتعرف أكثر إلى أقاربنا في المقام الأوّل. . . ولنتعرف إلى المدن المتنوعة، التاريخية منها والحديثة». لقد استمتعت بزيارة مواقع مثل بعلبك وبيت الدين وأماكن أخرى «لها تاريخ طويل». وقال سعيد، وهو طبيب وُلد في لبنان لكنه انتقل إلى البرازيل في سنّ مبكرة: «أولاً، سرتني رؤية أقاربي مجدداً. . . كما أني ذهبت لأتعرّف إلى لبنان. زرت عدداً من الأماكن، وأحببت بعلبك وجونية وجنوب لبنان». وأشار بيتو، وهو ابن للبناني مهاجر وأم عربية وُلدت في البرازيل، إلى أنّه أثناء رحلة إلى لبنان استغرقت أسبوعاً واحداً عام ١٩٩٩، زار أقارب والده، وزار آثار بعلبك ومغارة جعيتا. حتّى إن مارسيا، ابنة الجيل الثاني التي تكلّمنا عليها آنفاً، قالت إنّه إلى جانب الاجتماع بالأقارب، من «الرائع» رؤية أشياء جديدة ليست غريبة. وبالتالي، تداخلت تجربة زيارة قرى الأجداد، والاجتماع بالأقارب البعيدين، وزيارة المواقع السياحية مع السياحة التراثية.

رُبطت هذه الأجندة المزدوجة الخاصة باستكشاف الجذور ورؤية أماكن جديدة بالبرامج السياحية في الوطن الأمّ. لذلك، تتيح السلطات الرسمية اللبنانية ووكالات السياحة رحلات مخفّضة الأجر لزيارة قرى الأجداد المهاجرين لا لزيارة المواقع الأثرية فقط. ففي أثناء مخيم شبابي أقيم عام ٢٠٠١ برعاية وزارة المغتربين اللبنانية، جرى اصطحاب إثنين من المشاركين من الجيل الثالث في رحلات موقتة غداة انتهاء زيارة مسائية لمدينة زحلة المشهورة بمحال البوظة ومتاجر بيع الهدايا التذكارية. وبعد تناول البوظة وشراء الهدايا، انطلق الشابّان إلى قرية أجدادهم المهاجرين مرجعيون. اصطُحب كارلوس، وهو برازيلي لبناني، برفقة موظف من الوزارة إلى منزل الشقيق الوحيد الحيّ لجده المهاجر. وبعدما تعانق القريب المهاجر مع عم والده، تبادلا سرد قصص الأسرتين اللتين انقطعت الاتصالات بينهما زهاء أربعين سنة[٥]. وبعدما عاد كارلوس إلى البرازيل، وصف بشوق تلك المناسبة بأنها تتويج لرحلته التي دامت شهراً. مثّل «لمُّ شمل الأُسرة» الذي تقرر وسط رحلات إلى المتحف وإلى مواقع أثرية نقطةً محورية في التجربة السياحية نفسها.

لكنّ هذا المشروع الهادف إلى «معرفة» أو «رؤية» أقارب ومواقع وقرى لم يتضمن فكرة الإقامة هناك اليوم؛ وإذ شدّد حسن على شدّة تأثره بحس الانتماء إلى قرية أبيه، زل لسانه حين ذكر أنّه سافر إلى البلد لرؤيته لا للعيش فيه. وذكر جواو، طبيب الأسنان الذي شارك في رحلة إلى وطنه الأمّ سورية: «سألني صديقي إن كنت أنوي العيش هناك [في سورية أو لبنان] فأجبته لا. هنا في البرازيل أنا ملك. في استطاعتي شراء سيارة والذهاب إلى السينما». وأشار سعيد إلى أن «الأمور هناك [في لبنان] معقدة الآن»، فضلاً عن أن العدد المتنامي من المرضى الذين يقصدون عيادته في ساو باولو لا يسمح له بالانتقال إلى هناك بصورة دائمة. أي أن سبُل رزق البرازيليين العرب وأنماط حياتهم المرتبطة بالسوق البرازيلية جعلتهم يختارون الذهاب إلى الشرق الأوسط في زيارات موقتة.

يتبين مما تقدّم أن التركيبتين الطبقية والأُسرية عاملان مهمان جداً. فالسياح ينتمون إلى الطبقتين الوسطى والعليا. وفي بعض الحالات، تُمضي الزوجات

---

(٥) في أثناء خطاب ألقاه كارلوس وتحدث فيه عن لمّ شمل الأسرة في الحفل الختامي لمخيم الشباب المغترب، أعاد الحديث عن الفرصة التي أتاحها المخيم لكي يجدد روابطه الأُسرية التي كادت تنقطع نهائياً. وأذاع أخباراً على المحطات الإذاعية وفي الصحف وأصبح مؤدي إعلانات في برنامج الشباب المغترب الذي ترعاه الحكومة اللبنانية في الحياة العامة بلبنان.

والأولاد العطلة الشتوية (في شهر تموز/يوليو) في لبنان، في حين يبقى الأزواج في أعمالهم في البرازيل. وفي حالات أخرى، يسافر طلاب جامعيون من دون رفقة ذويهم في رحلات مع دليل سياحي. وفي حالات قليلة، تسافر الأُسرة بأكملها. لكنّ العرب البرازيليين يشدّدون في تمييز أنفسهم على الاختلاف الديني. فالمسلمون والمسيحيون على السواء أشاروا إلى أن المسلمين أميل إلى زيارة وطنهم الأمّ بانتظام من المسيحيين. في الواقع، شدّد أربعة وكلاء سفر يبيعون تذاكر رحلات متوجهة إلى الشرق الأوسط على أن أغلب عملائهم مسلمون. ومع أن بعض الزملاء أرجعوا ذلك إلى صلة المسلمين الأوثق بالعروبة، فقد نظر البعض إلى هذا التمايز الديني من منظور تاريخي. فلكون عامة المسيحيين هاجروا في مستهلّ القرن العشرين، يرى عبد الله، وهو مسلم سنّي لبناني من الجيل الثاني، أنهم لم يطوّروا «عادة» زيارة الوطن الأمّ. وفي المقابل، يسهل على المسلمين الذين هاجروا في النصف الثاني من القرن العشرين زيارة لبنان كلّ سنة أو كلّ سنتين لتدنّي تكلفة السفر وسرعته.

على الرغم من هذه التباينات الطبقية والأُسرية والدينية التاريخية، لاحظتُ تخصيصاً متزايداً في رزم الجولات السياحية لأعضاء نادٍ ريفي معيّن أو لجمعية دينية معيّنة، فضلاً عن دوائر الأصدقاء أو الزملاء المقربين. استهدفت هذه الجولات السياحية التي تتميز بالتنظيم الجماعي، فئاتٍ عمرية محددة تشمل أزواجاً في منتصف العمر، أو شباباً (يرافقهم راشدون)، أو مزيجاً من أصدقاء الأُسر، لذلك خُصّت كلّ مجموعة بأنشطة ومناسبات. ومن غير المفاجئ أن تتشابه هذه الرزم الخاصة بالمجموعات المتوجهة إلى الشرق الأوسط مع جولات سياحية أخرى ينظّمها وكلاء سفر إلى الولايات المتحدة وأوروبا. هذه الدقة المفصلة لكن «النمطية» ظاهرة شائعة في الأزمنة النيوليبرالية.

لكن المسافرين لم يفصحوا في حديثهم عن نياتهم المسبقة في زيارة المواقع التي تعرضت لاعتداءات إسرائيلية أو لجنوب لبنان الذي تحرر حديثاً. وعموماً، تجري مقارنة الصراع العربي ـ الإسرائيلي الدائر في الشرق الأوسط بما يسمّى العلاقات الطيبة بين العرب واليهود في البرازيل. فالروابط المهنية التاريخية بين العرب الذين يبيعون الأقمشة بالجملة في شارع ٢٥ دي ماركو وبين اليهود الذين يبيعون الملابس بالتجزئة في شارع خوسيه بولينو المجاور معروفة جيداً في كلتا الجاليتين. يقول أحد التجار العرب «اشترينا متجرنا من شخص أصله يهودي عربي». وبالمثل، تذكر ابنة تاجر يهودي أوروبي أن والدها كان يشتري أغلب

بضاعته التي يبيعها بالتجزئة من مصنع نسيج اسمه باراماونت يملكه عربي معروف. وتختم بالقول: «علاقة العرب باليهود ممتازة هنا [في البرازيل]». وعلى الرغم من هذه اللغة الرومنسية بحقّ، تعاون العرب واليهود تاريخياً في قطاعي الجملة والتجزئة في سوق النسيج، ولا سيما في وسط مدينة ساو باولو.

ترجع هذه العلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية التكاملية بين العرب اليهود، التي كانت سائدة قبل عام ١٩٤٨(٦)، ولو جزئياً، إلى أصولهم الشرق الأوسطية المشتركة. كما أنّه كان لما يسمّى المنادمة العربية ـ اليهودية علاقة بطرائق مشابهة من تعامل الدولة البرازيلية مع الطرفين كإثنيتين. وقد بيّن جيفري ليسر أن النزوع التجاري الحضري «الشديد البروز» لدى كلّ من العرب واليهود قاد النخبَ البرازيلية إلى الربط بينهم وتهميشهم بطرائق متداخلة في النصف الأوّل من القرن العشرين(٧). وبعدما عاش العرب واليهود تجارب تهميشية مشتركة، طوّر الطرفان علاقات متبادلة في المرحلة الانتقالية التي مرّ بها الاقتصاد البرازيلي في مستهلّ القرن العشرين.

وحتّى في يومنا هذا، يعترف أصحاب المهن الحرّة من البرازيليين العرب بصداقتهم لنظراء يهود. مثال ذلك، يقول المهندس المدني فلاديمير: «لدي عملاء يهود، وهم أصبحوا أصدقائي». وأشار خمسة أطباء بالمثل إلى أن في عداد زملائهم ومرضاهم بعض اليهود. حتّى إن طبيب الأسنان جواو قال: «كنت شاهد العريس في حفل زفاف يهودي». وختم قائلاً: «نحن الآن كما كانوا [العرب واليهود في سورية] قبل مجيء الأوروبيين». لكنّ «مشاعر الودّ» هذه لا تمتدّ إلى هذا المجال الخاص. يقول مدير مجلة توزَّع في أوساط الجالية: «من يعش هناك [في الشرق الأوسط] لا يصدّق ما يحصل هنا. لكنّ ذلك لا يعني أن اليهودي الذي يدخل متجر العربي سيدعوه إلى منزله. . . الأمر يختلف من شخص إلى آخر». على أنّ الأشخاص غالباً ما يتغاضون عن هذا الشعور الملتبس حين يتحدثون عن «العلاقة الودية» بين العرب واليهود في البرازيل. وكما عبّر ماريو من الجيل الثاني بصورة مثالية: «العرب واليهود مندمجون معاً

(٦) Ignacio Klich, «Arab-Jewish Coexistence in the First Half of the 1900s' Argentina: Overcoming Self-Imposed Amnesia,» in: Ignacio Klich and Jeffrey Lesser, eds., *Arab and Jewish Immigrants in Latin America: Images and Realities* (London: Frank Casso, 1998), pp. 1-37.

(٧) Jeffrey Lesser, «Tews Are Turks Who Sell on Credit: Elite Images of Arabs and Jews in Brazil,» in: Ibid., p. 40.

هنا... وفي استطاعة البرازيل تفكيك جميع هياكل التعصب الطائفي... في استطاعة البرازيليين والبرازيل القضاء على كل الأحقاد». يعكس هذا الاحتفاء بالعلاقات العربية ـ اليهودية التي أقرّت بها الدوائر المهنية في البرازيل أيديولوجيا الديمقراطية العِرْقية. وهذه هي الفكرة القومية التي تتحدى معاداة الصهيونية التي يُعبَّر عنها في الرحلات السياحية إلى الوطن الأمّ.

ثانياً: نحو تسويق هادف في قطاع السياحة النيوليبرالي

صاغت خطوط الطيران ومنظّمو الرحلات السياحية ووكالات السفر الخاصة الصغيرة، أطرَ الترويج للسياحة الدولية في البرازيل. تروّج خطوط الطيران لمبيعات التذاكر على مستوى دولي من خلال منظّمي الرحلات السياحية، مثل ستيلا باروس وسوليتور وأغاكستور. ويضمّ منظمو الرحلات السياحية بدورهم تذاكر خطوط الطيران إلى «رزم خدمات أرضية» تشمل نفقات الإقامة في الفنادق والرحلات اليومية، التي تؤمّن بأسعار مخفّضة من شركات موازية في المدينة أو في البلد المقصود. وهكذا، بتوفير أجور النقل الجوي، والإقامة في الفنادق، وخيارات السفر، جذبت هذه «الرزم» قدراً كبيراً من اهتمام الطبقات البرازيلية المنعّمة.

كما أقامت خطوط الطيران ومنظّمو الرحلات السياحية روابط شخصية منتقاة بعناية مع وكالات سفر صغيرة خاصة. وفي هذا الصدد رأى ولسون، مدير علاقات السوق في الخطوط الجوية الإيطالية (أليطاليا) في ساو باولو، أنه «توجد مصلحة كبيرة في إقامة علاقة طيبة مع الوكالات»، مشيراً إلى أنه كلّما كانت العلاقات أفضل، زاد عدد التذاكر التي يبيعها الوكلاء الخاصون للعملاء. وبالمثل، بيّن أوزوالدو، وهو موظف لدى شركة الطيران الهولندية الملكية (KLM)، أن الشركة تطرح حوافز تستهدف وكلاء الحجز المتخصصين في تسيير رحلات سياحية إلى وجهات مختلفة[٨]. وبامتلاك مدراء فروع خطوط الطيران عدداً كبيراً من البطاقات المهنية لوكالات سفر خاصة يملكها عرب، فهم يحيلونني دائماً إلى عدد لا بأس به من وكلاء الحجز المتخصصين في الشرق

(٨) حين التقيت بأوزوالدو في غرفة الاجتماعات لدى فرع شركة (KLM) في ساو باولو، ظهر لوح أبيض في زاوية الغرفة كُتب عليه «المبيعات والتسويق»، ثم لائحة بالجماعات المستهدفة المتنوعة والاستراتيجيات التجارية. وقد تضمنت «حوافز تجارية حقيقية، وأهدافاً، وجماعات طالبية وإثنية». نشير هنا إلى أن كلمة «إثنية» كُتبت باللغة الإنكليزية لا بالبرتغالية.

الأوسط. وفي أثناء زيارة أحدهم ويدعى إسكندر، تنحيّتُ جانباً بينما قدّم مندوب شركة سول تور عرضاً للأسعار التنافسية لشركته. مضيفاً هذا المندوب: «إضافة إلى ذلك، يمكننا تقديم رحلات مجانية إليك وإلى أُسرتك». لكنّ زميلي رفض بأدب شديد وأشار عقب رحيل المندوب إلى زيارات وكلاء خطوط الطيران ووكالات السفر بقصد تقديم عروض مشابهة.

هذا السيل من الاتصالات لا يحدث مصادفة، إذ إن الوكالة التي يعمل لديها إسكندر واحدة من عدة عشرات من وكالات السياحة الخاصة التي تتخذ من الشرق الأوسط ميداناً لعملها. ويشرح مدير الخطوط الجوية الإيطالية المسألة فيقول إن خطوط الطيران تسعى لتطوير علاقات بهذه الوكالات والوكالات المشابهة لها، ويضيف أن خطوط الطيران تميّز في العادة بين وكالات السياحة «الدينية» و«الإثنية» وغيرها من وكالات السياحة الخاصة الأخرى. ويقول هو ومدراء آخرون في خطوط الطيران إن وكالات السياحة المتخصصة بالشرق الأوسط تسمى الوكالات الإثنية الشرق الأوسطية، كما أنّ الوكالات المتخصصة في إيطاليا تسمى «الوكالات الإثنية الإيطالية». وحين سألت إذا كانت هذه الوكالات تعلم أنّه يجري الحديث عنها بهذه الصفات، أجاب أحد المدراء: «الجميع يعرفون أنّه مورد رزق كلّ منها». وفي ضوء ذلك، دخلت الإثنية في العلاقات الشخصية الأوسع نطاقاً بين القطاعات الصناعية السياحية المتنوعة في ساو باولو.

تغيّرت هذه العلاقات الشخصية منذ مطلع تسعينيّات القرن الماضي. وبات مدراء السوق في الخطوط الجوية الإيطالية الخطوط الجوية الفرنسية (إير فرانس) وشركة الطيران الهولندية الملكية (KLM) يتمتعون اليوم على الخصوص بقدرة على الوصول إلى قواعد البيانات في مقار شركاتهم في أوروبا. وقد أصابتني دهشة لسهولة دخول المدراء في فروع خطوط الطيران في ساو باولو الشبكاتِ الحاسوبية وتحميل الإحصاءات الخاصة بالرحلات المتجهة من البرازيل إلى الشرق الأوسط. وشدد أحد المدراء وهو يطبع مجاميع الركاب المسافرين على هذا الخط على متن عدد من خطوط الطيران(٩)، على الطابع

(٩) إن خطوط الطيران الأربعة الكبرى التي تنقل المسافرين بين البرازيل والشرق الأوسط (في ما عدا إسرائيل) هي فاريغ، وإير فرانس، وأليطاليا، وخطوط KLM الملكية الهولندية. وجميع هذه الشركات مطلع على مجاميع الركاب الذين نقلتهم الشركات الأخرى.

السرّي للمعلومات. وفي عام ١٩٩٩، أحصت البيانات المطبوعة نحو ١٩٠٠٠ راكب راوحت وجهاتهم بين البرازيل والشرق الأوسط، علماً أن أكثر من نصف هؤلاء قصد بيروت.

وفي قائمة أخرى عرضها موظفون في «أليطاليا»، ارتفع المجموع المالي لثمن تذاكر السفر على جميع خطوط الطيران التي سيرت رحلات من البرازيل إلى الشرق الأوسط من ٢١ مليون دولار عام ١٩٩٩ إلى ٣١ مليون دولار عام ٢٠٠٠. وفي الوقت عينه، بلغ المجموع المالي لتذاكر خطوط الطيران في العالم نحو مليار وثلاثمئة وخمسين مليون دولار. أي أن حصة قطاع البرازيل ـ الشرق الأوسط ارتفعت من ١,٦ في المئة عام ١٩٩٩ إلى ٢ في المئة من القيمة الإجمالية للسوق عام ٢٠٠٠؛ وهي نسبة ضئيلة، لذا سألتُ أحد المدراء عن سبب اهتمام خطوط الطيران بقطاع يستحوذ على هذه النسبة الزهيدة من السوق الإجمالية، فأجاب بنبرة صريحة: «هذا القطاع يهمّنا بسبب مبيعاته من التذاكر». إن سيل الإحصاءات المعتمدة على قواعد البيانات يصوّر التعقيد الزائد للقطاع السياحي في البرازيل.

في هذا الصدد، بدأت شركة إير فرانس بانتهاج «إستراتيجيات موجهة» مؤخراً. ففي عام ٢٠٠٠، طلب مقرّ الشركة في باريس إلى فرع الشركة في البرازيل تخصيص نسبة معيّنة من موازنته «للإعلانات الإثنية». ثمّ «انتقى» مدراءُ شركة إير فرانس في ريو دي جانيرو ثلاثَ جوالٍ بوصفها «سكاناً مستهدفين» وهي العربية والألمانية واليهودية. وأجروا اتصالات مع شركة استشارات تابعة لشركة الطيران متخصصة في التسويق الدولي وتدعى كاريلو باستور يورو آر أس سي جي. تأسست شركة كاريلو باستور التي يوجد مقرها في ساو باولو عام ١٩٩٥، واستحوذت شركة يورو آر أس سي جي على حصة منها بعد سنتين في مرحلة الاقتصاد المحرَّر. وهي تدير حملة «الإعلانات الإثنية» التي أطلقتها شركة إير فرانس في ساو باولو. وبالتالي، رُبطت المستلزمات التجارية العابرة للحدود التي وُضعت إستراتيجياتها في باريس بالسياسات الإثنية للقطاع السياحي الوطني في البرازيل النيوليبرالية.

اتصل مدراء التسويق في كاريلو باستور أولاً باتحاد وسائل الإعلام الإثنية ـ أميت (AMET) الذي تأسس حديثاً في ساو باولو ويتألف من صحف ومجلات عربية وألمانية ويهودية وكورية ويابانية، والغاية من تأسيسه «التنافس عبر وسائل

[إعلانية] كبيرة الحجم» مثل فيجا واستو أي. وُصف جمهور القرّاء الإثنيون بأنهم «مليون مستهلك ناشط ومستعد لشراء منتجاتكم»[١٠]. لكنّ تنوّع أميت الإثني كان أكبر من أن تتحمله إير فرانس، وهو ما دفع الشركة إلى التفاوض على عقود منفردة بين كاريلو باستور وثلاث مجلات في كلّ جالية. وأجرت ما تسمّى الحملة الإعلانية الإثنية «مباراة» لاختيار أفضل مقالة عن «رحلة أحلامك». وفي حين تنافس المتبارون على تذكرتي سفر جوي تبلغ قيمتهما ٣٥٠٠ ريال برازيلي، بنت وكالة الإعلانات قاعدة بيانات لعملائها. امتدّت الحملة من شهر تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ إلى آذار/مارس ٢٠٠١ عبر تسع منافذ إعلامية في الجوالي العربية والألمانية واليهودية.

اقترحت كاريلو باستور نشر إعلانات إثنية مفصلة قابلة للتعديل لتتلاءم مع المنشورات الإثنية الثلاثة على اختلاف وجهات سفر الجماهير المستهدَفة. احتلّ الإعلان صفحة كاملة على شكل لافتة خضراء حافتها وحروف كلماتها بيض على طريق سريع على خلفية سماء زرقاء وغيوم خفيفة. وعلى لافتة الطريق السريع سهم رأسه إلى أسفل يشير إلى «ساو باولو» وإلى «ريو دي جانيرو»، وسهم آخر رأسه إلى أعلى ويشير إلى مدن في الخارج هي وجهات قرّاء الإعلان. ظهرت في الإعلانات المنشورة على صفحات المجلات العربية عشر مدن كُتبت أسماؤها بحروف بيض كبيرة منها بيروت وعمّان والقاهرة ودمشق[١١] وفي المجلات الألمانية، نشير إلى مدن ثلاث من بين المدن الاثنتي عشرة المذكورة وهي برلين وفرانكفورت وهامبورغ. ولم تظهر سوى تل أبيب وباريس في المجلات اليهودية[١٢]. وظهرت طائرة تابعة لإير فرانس فوق لافتة الطريق السريع مع الرسالة التالية: «إير فرانس: لم يسبق أن كانت القارّات بهذا القُرب».

ظهرت شروط المباراة في أسفل الإعلان. طُلب إلى القرّاء كتابة مقالة من

(١٠) ترجع العبارة إلى إعلان لاتحاد وسائل الإعلام الإثنية ـ أميت (AMET) في عدد من المؤسسات الإعلامية.

(١١) بالنسبة إلى الجالية البرازيلية العربية، المجلات الثلاث التي اختيرت هي: **العروبة**، **وشمس**، **وأورينت إكسبرس**.

(١٢) عندما التقيت برئيس أميت الذي يتولى رئاسة تحرير مجلة رائجة في الجالية اليهودية، أثرت إمكان أن تكون أصول العديد من البرازيليين اليهود عربية (مشيراً بذلك ضمناً إلى كونهم عرباً فضلاً عن كونهم يهوداً). لكنّ محرر المجلة ردّ بالقول إن البرازيليين اليهود يهود وليسوا عرباً.

عشرين سطراً عن «رحلة أحلامك»، وكتابة أسمائهم وعناوينهم، ومراجعة المعلومات المتصلة بإعلانات إير فرانس. يقول أدواردو من شركة كاريلو باستور للاستشارات: «أرادت إير فرانس معرفة إذا كانت الحملة ستنجح، وإذا كانت ستحفز القارئ على الردّ». ولقياس مدى نجاح الحملة في الجوالي المختلفة، استحدث قسم الإعلام في الوكالة إجراءً لتحديد استمارات الدخول بوضع علم غير لافت للنظر ورقم عليها. أعطيت المجلات الألمانية أرقاماً من ١ إلى ٣ مع علم ألماني، وأعطيت المجلات العربية الأرقام ٤ ـ ٦ مع علم العربية السعودية، وأعطيت المجلات اليهودية الأرقام ٧ ـ ٩ مع علم إسرائيل. بهذه الطريقة، قاس المُعلنون معدل اهتمام القرّاء بعدّ عدد استمارات الدخول الخاصة بكل مجلة وكل مجموعة إثنية. سألتُ الموظف في شركة كاريلو باستور: «هل كان معدّل النتائج مرتفعاً؟» فأجاب «أجل كان كذلك. لم يبلغ مستوى آمالنا لكنه كان مرتفعاً». وهكذا أقرّ التسويق الهادف بمكانة الإثنية وأعاد ترتيبها في الدولة البرازيلية[١٣].

أحدثت هذه الحملة الإثنية مفاجأة كبيرة في أوساط مندوبي المبيعات في شركتي أليطاليا وKLM. وصف ولسون، مدير أليطاليا، مقاربة «التسويق الهادف» التي اتبعتها إير فرانس بالـ «مبتكرة». وأضاف، اختارت الشركة «الهجوم الآن» بسبب التحسينات التي أُدخلت على الجداول الزمنية لرحلات خطوط الطيران الناقلة في أوروبا (التي تنقل الركاب المتوجهين من أمريكا اللاتينية إلى الشرق الأوسط). وبصوت مرتجف أعاد القول: «إير فرانس تهاجم السوق الآن لتمتعها بصلات جيدة». وختم ولسون حديثه بالقول: هذه «المقاربة المباشرة» في التعاطي مع العملاء تناقض مقاربةَ أليطاليا التي «نظّمت حملاتها التسويقية من خلال الوكالات [السياحية] لا في الاستثمار في المجلات، وهي لم تستخدم الإعلان المباشر أبداً»[١٤]. على النقيض من الإستراتيجيات السوقية «التقليدية» المعتمدة على العلاقات الشخصية بين شركات الطيران ووكالات السياحة، يشير هذا «التسويق الذي يستهدف الإثنيات» إلى حيازة الإثنيات

(١٣) لا ريب أن الفائز في مسابقة «رحلة أحلامك» التي نظّمتها إير فرانس هو مشترك في مجلة شمس.

(١٤) بعدما سأل عمّا إذا كان في إمكانه الاحتفاظ بالمجلة التي نشرت إعلان إير فرانس، قال ولسون إن أليطاليا كانت «ملك التلّ» في ما يتصل بقطاع البرازيل-الشرق الأوسط من صناعة نقل الركاب. وختم ولسون بالقول: «تأكد أن شخصاً في روما ألقى نظرة على عدد الركاب، ووجد أن هناك وجهات أكثر ربحية» من الرحلات بين أمريكا الجنوبية والشرق الأوسط.

اعترافاً أكبر كونها شريحة سوقية لديها اهتمامات وطنية وعابرة للحدود في البرازيل.

تزامنت حملة إير فرانس مع تطبيق إستراتيجيات إعلانية أخرى على نطاق أصغر. كما بدأت وكالات السفر المتخصصة بالشرق الأوسط بنشر إعلانات في أربع مجلات رئيسيّة متداولة في أوساط الجالية البرازيلية العربية، وهي مجلة **شمس**، و**أورينت إكسبرس**، و**كارتا دو ليبانو**، و**العروبة**. عرضت هذه الإعلانات الأكثر تواضعاً من الناحية الجمالية اسم الوكالة وعنوانها، فضلاً عن رزم خاصة أو أسعار تذاكر السفر (للرحلات داخل البرازيل والمتجهة إلى بلاد أخرى لا الشرق الأوسط فقط). على سبيل المثال، نشرت وكالة ليبان تور إعلاناً احتلّ صفحة كاملة في أوائل إصدارات مجلة **شمس** عام ٢٠٠١. جاء في الإعلان عن رحلات إلى لبنان وسورية والأردن: «رزم سياحية لا يمكن تفويتها. أعدت ليبان تور رزماً سياحية مثالية لك ولأُسرتك لزيارة أفضل الأماكن في الشرق الأوسط ومناطقه الخلابة». في إشارة إلى هذا الإعلان، قال رئيس تحرير مجلة **شمس** متأملاً: «أنا واثق من تحقيقه مردوداً جيداً لوكالة سياحة». وفي مقابلة سابقة، قال المحرر نفسه: «إن شركات الطيران راضية» عن عدد السوريين ـ اللبنانيين الذين «يملأون مقاعد طائراتها». عبر الاستعانة بمجلات المجموعات الإثنية، عززت شركات الطيران ووكالات السياحة الصلة العاطفية بين البرازيليين العرب وأوطانهم الأمّ في الشرق الأوسط.

ثالثاً: التسويق الهادف والرغبات الشتاتية للبلدان العربية والقوى المهنية

ليست خطوط الطيران ووكالات السياحة هي الوحيدة التي تستهدف البرازيليين العرب. فالدولتان السورية واللبنانية والمجموعات المتمولة أطلقت مبادرات مشابهة. على سبيل المثال، شاركت الحكومة السورية في رعاية سبع رحلات مخفّضة الأجر منذ أوائل تسعينيّات القرن الماضي تحت عنوان «التعرف إلى الجذور». كما أن جمع نحو ثلاثين شاباً أو راشداً من أصل شرق أوسطي، يحوّل هذا البرنامج السياحي إلى فرصة استجمام مألوفة، إذا ما عُرض على نحو متقطع على البرازيليين في أوقات العطل الشتوية. نشير هنا إلى أن الجهتين الأخريين المشاركتين في رعاية هذه الرحلات هما الجمعيتان البرازيليتان السوريتان فيراب ونادي حمص، ويقال إن الوزارات

تكفّلت بتأمين نفقات مخفضة للإقامة في الفنادق والرزم السياحية في سورية(١٥). جاء في مقالة على صفحات مجلة **حمص** التي يصدرها نادي حمص: «استقبل وزير المغتربين عبد الله الأحمر في دمشق البرازيليين في لقاء خاص وأقيمت على شرفهم مأدبتا عشاء في دمشق وفي صيدنايا»(١٦). هذا التركيز على السياح المنحدرين من سورية جزء من مبادرة أطلقتها الحكومة السورية للترويج «للسياحة الثقافية». وأعرب وزير السياحة بصراحة عن رغبته في جذب الزوار «المغتربين» في الولايات المتحدة والبرازيل «الذين يجدون متعة بالسفر إلى سورية»(١٧).

رعت الحكومة اللبنانية رحلات أكثر منهجية للشباب من أبناء الأجيال الثاني والثالث والرابع أطلقت عليها اسم «مخيمات شباب لبنان المغترب». أُطلق البرنامج السنوي عام ١٩٩٦ بقصد استقطاب الشباب اللبناني «المغترب» من أفريقيا وآسيا والأمريكيتين، بمن في ذلك «البرازيليون» (الذين ألفوا أكبر وفد عام ٢٠٠١). وفي مدّة ثلاثة أسابيع من شهر تموز/يوليو تأخذ وزارةُ الخارجية والمغتربين الشبابَ إلى المواقع السياحية وتجمعهم في لقاءات شبه رسمية مع قادة سياسيين. وقد أملت السلطات الحكومية من خلال رعايتها هذه المخيمات، بغرس فكرة العودة إلى لبنان في نفوس «الشباب المغترب» لقضاء عطلاتهم فيه. وبعد وقت قصير من انتهاء فعاليات مخيم عام ٢٠٠١، أدلى مسؤول في الوزارة بتصريح جاء فيه: «نريد منهم العودة إلى لبنان». وهو أقرّ بأنه ليس كلّ المشاركين سيعودون إلى لبنان نهائياً لكنه أمل بأن تتملّكهم رغبة في زيارة البلاد

---

(١٥) Fearab (فيراب) تعني اتحاد الهيئات العربية في الأمريكيتين. تأسس الاتحاد في الأرجنتين عام ١٩٧٣ على يد برازيليين وأرجنتينيين ينحدر أغلبهم من الشرق الأوسط. لكن الاتحاد يحافظ على روابط وثيقة بالجمهورية العربية السورية. واليوم، يضم الاتحاد كيانات وطنية من مختلف بلدان أمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية، فضلاً عن حوض الكاريبي. ومع أن جهات خارجية أطلقت على فرعه في هندوراس وصف «متعصب» الشنيع بحسب رواية غونزاليز، انظر: Nancie Gonzalez, *Dollar, Dove, and Eagle: One Hundred Years of Palestinian Migration to Honduras* (Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1992).
يبقى فيراب قوة محترمة، ولو رمزية، في الجالية المقيمة في ساو باولو، انظر: Claude Hajjar, *Imigração árabe: Cem anos de reflexão* (São Paulo: Leone Editora, 1985).

(١٦) «Viagem ao passado: Jovens sócios do Club Homs conhecem a terra de seus ancestrais e convivem com uma cultura milenar,» *Homs*, no. 3 (1997).
يذكر المشاركون في الرحلات أن المسؤولين الحكوميين السوريين تعاملوا معهم كما لو أنهم «دبلوماسيون». كما أن هذه الرحلات عنت لسورية جلب مزيد من الدولارات لاقتصادها. وأشارت المجلة إلى أن الركاب توجهوا إلى سورية ومعهم ٥٤ حقيبة وعادوا حاملين ١٤٧ حقيبة.

(١٧) «Tourism: Wide Ranging Opportunities for Investment,» *World Links* (July-August 2002).

من حين إلى آخر. وباستحضار ما قاله حسن، يتبين أن البرازيليين اللبنانيين يسافرون إلى لبنان «لرؤيته لا للعيش فيه».

إضافة إلى ما تقدّم، سعت الحكومة اللبنانية لتوظيف سياح مغتربين لتلميع صورة لبنان في العالم؛ فبإطلاع أبناء لبنان ممن يقيمون في الخارج على «أعاجيبه» القديمة و«مناظره الطبيعية الخلابة»، أراد المسؤولون الحكوميون ضمان مساهمتهم في الترويج «للجانب المشرق» للبنان. على سبيل المثال، قالت السلطات الحكومية في حفل افتتاح مخيم عام ٢٠٠١: «نحن نؤمن بكم ونعوّل عليكم أن تكونوا سفراء لبنان في بلدكم المضيف». وقال مرشد سياحي رسمي في وقت لاحق للمشاركين في المخيم: «تريد الحكومة اللبنانية منكم الترويج للثقافة وللسياحة اللبنانية... في بلدان الاغتراب». وشُجّع السياح الشباب على إلقاء كلمات عن لبنان في البلدان التي نشأوا فيها. وهكذا، ومن خلال الإفادة من تدفق السياح المهاجرين، أضحى الإعلان أداة نافعة متاحة للدول لا لخطوط الطيران فقط.

تتمشى مخيمات الشباب المغترب السنوية كذلك مع الأهداف المعلَنة لوزارة الخارجية والمغتربين اللبنانية[١٨]؛ ففي نظر أحمد عاصي مدير العلاقات العامة في الوزارة، تسعى الوزارة لتعزيز الروابط بين المغتربين ووطنهم الأمّ لبنان، فضلاً عن تعزيز العلاقات بين المغتربين والدول التي يقيمون فيها، وتكريس «أفضل العلاقات بين المغتربين في الخارج وبلدان الاغتراب». وسعت الحكومة اللبنانية أيضاً من خلال رعاية الرحلات السياحية، لتحويل المشاركين إلى «دبلوماسيين» يفخرون بأصلهم اللبناني، ويتمسكون «بوطنهم الأمّ» و«بلدان الاغتراب». لكنّ أجندة الحكومة اللبنانية العابرة للحدود لا تشترط أو تطلب ولاء المغتربين الحصري لها. ففي سياق ترسيخ هويتهم بأنهم لبنانيون، تُرسخ بالمثل هويتهم في البلدان التي ترعرعوا فيها. وكما قال أخيل غبطة مرة، «ربما تكون النزعة القومية بحاجة إلى نزعة عابرة للحدود لتحمي نفسها»[١٩].

طبّقت شركات السياحة العاملة في لبنان برامج مشابهة. يقول جاك، وهو

---

(١٨) تأسست وزارة شؤون المغتربين اللبنانية بموجب المرسوم الرقم ٤٨٥٩ عام ١٩٩٣. وفي عام ٢٠٠٠، دُمجت بوزارة الخارجية.

(١٩) Akhil Gupta, «The Song of the Nonaligned World: Transnational Identities and the Reinsciption of Space in Late Capitalism,» in: Akhil Gupta and James Ferguson, eds., *Culture, Power, Place: Explorations in Critical Anthropology* (Durham, NC: Duke University Press, 1997), pp. 182.

موظف في وكالة سياحة كبيرة في بيروت، إذا كان المغتربون اللبنانيون يعرفون أسماء قرى آبائهم أو أجدادهم أو آباء أجدادهم المهاجرين، تستطيع وكالته تنظيم رحلات إليها. ويضيف إن المنحدرين من لبنان «يأتون لزيارة قرى أسلافهم، ويرغبون في إعداد قوائم بأنسابهم الأُسرية». وبالمثل، يقول مرشد سياحي يتقن عدة لغات إن «المنحدرين من لبنان» المتعاقدين معه يطلبون غالباً تنظيم رحلة مدتها يوم أو يومان إلى قرى أجدادهم المهاجرين. وبالإشارة إلى أن أغلب السياح القادمين من أمريكا اللاتينية ينحدرون من لبنان، يختم المرشد حديثه بالقول إن السياح المنحدرين من لبنان يوفرون له وسيلة للرزق وفرصة فريدة لتعريف الأطفال البعيدين بوطنهم الأمّ.

هذا الاهتمام للمغتربين بوطنهم الأمّ لم يفت مديرة العلاقات العامة في وزارة السياحة اللبنانية بشرى حفّار إذ قالت:

«أعتقد أنّ على لبنان الاهتمام بالمنحدرين منه. هناك جوالٍ كبيرة منتشرة في أنحاء العالم. إنّهم يعرفون لبنان مما سمعوه من أجدادهم وآباء أجدادهم بأنهم ينحدرون من لبنان. إن جذب هؤلاء اللبنانيين أيسر كثيراً لأنهم يعرفون في الأساس شيئاً عن لبنان».

اقترن هذا الوعي بأهمية المنحدرين من لبنان بالنسبة إلى القطاع السياحي اللبناني باعتراف صريح بالمنحدرين من لبنان المقيمين في البرازيل (كما في الأرجنتين). تواصل الحفار حديثها فتقول:

«قلت للوزير [وزير السياحة] إننا بحاجة إلى تنظيم حملة تستهدف المنحدرين من لبنان المقيمين في البرازيل والأرجنتين. البرازيل وطن أكبر جالية لبنانية وتليها الأرجنتين. وأنا على ثقة بأنهم سيكونون سعداء لزيارتهم لبنان. . . لأنهم سمعوا عن بلدهم الأمّ من آبائهم وأجدادهم الذين يحتفظون بصور جميلة عن لبنان، ويتحدثون دائماً عن قراهم وعن بلدهم الأمّ. لذلك، يستحضر أبناؤهم وأحفادهم هذه الصور الجميلة وأسطورة لبنان. وحين يزورن لبنان، سيرون البلد الذي طالما سمعوا عنه».

تتشوق الجهات الحكومية والمهنية للإفادة من رغبة المغتربين في التعرّف إلى قرى أسلافهم، ولديهم سبب وجيه للقيام بذلك. وكما ذكرنا آنفاً، يؤكّد وصف البرازيليين اللبنانيين لدوافعهم الشخصية هذه التوقعات حين يأتون سائحين إلى لبنان.

في أواخر تسعينيّات القرن الماضي، تكاتفت الهيئات الحكومية والمهنية اللبنانية لتحويل هذه الفكرة إلى واقع. وفي سبيل ذلك، جرى ترتيب لقاء جمع مستثمرين مهتمين بالبرامج السياحية التي تستهدف المغتربين اللبنانيين بمدير تنفيذي في شركة إميغرادو (شركة المغتربين) وسأسمّيه أمير. بدأ أمير حديثه بالقول: «الفكرة هي أنّه يوجد في شتى أنحاء العالم أفراد منحدرون من لبنان من الجيلين الثاني والثالث، آباؤهم وأجدادهم هم آخر صلة لهم بلبنان». توجد «مجموعات» ثلاث مختلفة يمكن استهدافها، وهي «مجموعات الشباب والمقامرين والبرازيليين من أبناء الطبقة العليا». يبيّن أمير أن فكرة تنظيم «رحلات سياحية للشباب» جاءت ثمرة استبيان ملأه المشاركون في «مخيم الشباب المغترب» الذي رعته الحكومة اللبنانية. يهدف برنامج أمير المموَّل من القطاع الخاص إلى الجمع بين الشباب المغترب وطلاب جامعيين وُلدوا في لبنان في أنشطة سياحية وترفيهية. يرى أمير أنّه بتطوير علاقات بين المنحدرين وأشقائهم الطلاب في لبنان، سيشعر المنحدرون برغبة أقوى في العودة:

«كانت الفكرة استقدامهم للاجتماع بالناس لا للسياحة فقط. رتّبنا اجتماع [الشباب المغترب] بثلاثمئة طالب جامعي لبناني. وبهذه الطريقة يتعلّق المغتربون بالبلد، وبشعبه لا بأحجاره وآثاره».

تقوم الفكرة من «السياحة الشبابية» على ربط السياح الشباب المهاجرين بالسكان أنفسهم، وعلى تنشيط السياحة في البلاد في الوقت عينه.

كانت البرازيل أحد البلدان الرئيسيّة المستهدفة، لأن فيها «أكبر احتياطي من المنحدرين من أصل لبناني» على حدّ وصف أمير الذي يضيف: «لا يوجد بلد آخر في العالم يضم هذا العدد الكبير منهم. لكن لا يوجد من يهتم باللبنانيين المقيمين في البرازيل لاختلاف لغتهم ولبُعدهم. وهذا ما يجعلها سوقاً بكراً». لذلك، أطلقت شركته إميغرادو حملة إعلانية طموحة، فطبعت أولاً كتيّبات ملوّنة باللغة البرتغالية حملت الطابع الرسمي لوزارة السياحة اللبنانية. يضيف أمير: «أردنا من ذلك اكتساب الشرعية». ثمّ جرى توزيع منشورات من عشرين صفحة على الجمعيات اللبنانية وعلى مكاتب التمثيل الدبلوماسي اللبنانية في البرازيل. تحت عنوان «لبنان ٢٠٠٠: رحلات سياحية شبابية»، يصوّر الكُتيّب الأعاجيب الثقافية والطبيعية في لبنان كتابة وتصويراً: آثار بعلبك المهيبة، ومغارة جعيتا التي نحتتها المياه، والقلاع الصليبية في صيدا وصور

وجبيل، فضلاً عن الليالي «الساخنة» في بيروت التي أعيد بناؤها. ويختم بالقول: «نعتقد أن هذه الزيارة للبنان ستكون الأساس لصلة دائمة تنعش البلد وتحوله من حلم غامض إلى حقيقة نابضة بالحياة». بإعادة تمثيل السياحة اللبنانية، سوّقت المؤسساتُ الرسمية والمهنية اللبنانية الوطن الأمّ في أوساط البرازيليين المنحدرين من لبنان.

إضافة إلى ما تقدّم، اتصلت شركة إميغرادو بكاتبتي مقالات برازيليتين لبنانيتين معروفتين هما فيرا سيماو وأليس كارتا اللتين وافقتا على نشر مقالات تتحدث عن برنامج «السياحة الشبابية». في رأي أمير، سيتلازم ذلك مع رسالة رسمية من وزارة السياحة اللبنانية تُضفي على الرنامج «صدقية أكبر». وفي موازاة ذلك، اتصلت الشركة بوكالة السياحة البرازيلية أغاكستور للتعاون معها على تأمين تذاكر السفر. ومن أجل هذا الغرض، دُعيت مندوبة من الوكالة للقيام برحلة مدفوعة الأجر لمعايشة البرنامج على حقيقته في لبنان بحسب أمير الذي بقي يقول: «الفكرة رائعة». لا ريب أن التقاطع العابر للحدود للمصالح الحكومية والمهنية، بمن في ذلك المسؤولون الحكوميون اللبنانيون، والمتمولون، ومنظّمو الرحلات السياحية بالبرازيل، وكاتبو المقالات الصحافية، وحّد قواها لاستغلال «سوق» السياح البرازيليين اللبنانيين «البكر».

مع تبلور هذه الحملة في مستهل عام ١٩٩٩، أغارت الطائرات الحربية الإسرائيلية على منشأة لتوليد الكهرباء قريبة من بيروت (زُعم أن الغارة جاءت ردّاً على هجمات شنها حزب الله على شمال إسرائيل). وفي غضون أيام، يضيف أمير، ألغت مندوبة أغاكستور رحلتها المجانية إلى لبنان. وبفعل ارتدادات «صورة» لبنان «الذي مزّقته الحرب»، أشار المدير بنبرة رصينة إلى تعليق البرنامج. بيد أن الغارات التي تشنّها إسرائيل على لبنان مرّة في السنة على الأقل منذ عام ١٩٩٩ دفعته إلى أرجاء برنامج «السياحة الشبابية» إلى أجل غير مسمّى. ويختم أمير حديثه فيقول: «في هذه الظروف، يصعب تطبيق البرنامج». وبالمثل، ترى موظفة في وكالة سياحية أخرى أنّه «في كلّ صيف تقع حادثة خلال موسم السياحة. تقصف إسرائيلُ لبنان، وتغطّي وسائل الإعلام الغربية، ولا سيما الأمريكية، الأحداث بطريقة سيئة». وتضيف: «لا يمكننا القيام بنشاط سياحي حقيقي في لبنان ما لم يعمّ السلام الشرق الأوسط». لا ريب أن هذه الدوامة التي تحدثها الاعتداءات الإسرائيلية أضعفت القطاع السياحي في لبنان. لكن كما سنرى لاحقاً، تحوّلت المواقع التي شهدت اعتداءات إسرائيلية إلى معارض سياحية.

رابعاً: سياحة اضطراب في الشرق الأوسط

تحدّث البرازيليون العرب مراراً عن مواقع أو تجارب عنف في أثناء رحلات سياحية إلى سورية ولبنان[٢٠]. فمن خلال برنامج «التعرّف إلى الجذور» الذي ترعاه الحكومة السورية، اصطُحب البرازيليون إلى «بلدة الأشباح» القُنيطرة التي دمّرها الإسرائيليون قبل انسحابهم منها في حرب عام ١٩٧٣ و«حُفظت» على تلك الحال منذ ذلك الحين لتكون شهادة على العدوان الصهيوني. عرض المرشدون السياحيون الرسميون على السياح بقايا المنازل التي انهالت عليها القذائف وأسقطت سُقُوفها على الأرض، ومشفى أشبه بـ «هكيل عظمي» بعدما استخدمه الجيش الإسرائيلي في مناورته الحيّة، ومبانيَ أخرى سوّتها القوات الإسرائيلية بالأرض. وكجزء من الجولة السياحية، اصطُحب السياح أيضاً إلى منزل صغير فيه صورة مصغرة تُظهر مئات المنازل والشوارع في البلدة قبل أن يدمّرها الإسرائيليون[٢١]. وقال أحد المشاركين ويدعى جواو بعد تفطّنه للدعاية السياسية القوية متهكماً: «يريد [المسؤولون الحكوميون السوريون] أن يبيّنوا لنا ما فعله اليهود».

أغلب الذين زاروا القُنَيطرة تحدثوا طويلاً عن الفظائع التي أحدثها الدمار. ففي أثناء مأدبة عشاء أقيمت في ساو باولو على شرف من شاركوا في «التعرّف إلى الجذور» خلال السنين الخمس الماضية، توقف أحد المتكلمين برهة شجباً «لأعمال العنف التي تنمّ عن الكراهية»، وأومأ الجالسون إلى طاولتي برؤوسهم موافقين. بل إن رجل أعمال موسراً قال لي إنّه «لم يرَ شيئاً منتصباً» في القرية التي كانت عامرة يوماً، وأنهى تعليقه بالتشبيه التالي: «الأمر أشبه بتدمير جميع المباني الواقعة في جادة باوليستا بين عشية وضحاها». وفي وقت لاحق أشار مشارك آخر يدعى إسماعيل بالقول: «كنا هناك، في ذلك المكان الواقع خارج العالم. إنّه يُظهر أهوال الحرب التي دارت رحاها هناك. حتّى إني أحضرت معي

---

(٢٠) سافر عدد صغير من البرازيليين العرب إلى فلسطين ودولة «إسرائيل» أيضاً. وأشار فلسطيني أرمني من الجيل الثاني اسمه ساحاك إلى أنه سافر ليلتقي بأقارب أمه في القدس عام ١٩٩٧. ويذكر أنه فوجئ حين قالت له خالته إنهم لا يستطيعون التحدث بالعربية حين يمشون في شوارع المدينة المزدحمة. قال ساحاك: «في المدينة القديمة يمكننا التحدث بالعربية، لكنّ ذلك محال في الحافلة وفي شوارع القدس. قالت خالتي إن اليهود يكرهون حتى سماع الكلام العربي. إنهم [أي الإسرائيليون] يدوسون عليهم [يعني الفلسطينيون]».

(٢١) قيل أيضاً إنه اصطُحب السياح إلى منطقة غنية بالمياه جنوب القنيطرة احتلتها إسرائيل عام ١٩٧٣. وذكر أحد المشاركين الذي «رأى المراعي الخصبة» أن إسرائيل لن تُعيد هذه الأرض أبداً بسبب خصوبتها.

كتاباً [عن الحرب] من هناك، وما زلت أحتفظ به». أي أنّه حتّى في محيط الموقع الذي سالت فيه الدماء، سنحت فرصة لشراء كتب تاريخية وهدايا تذكارية أخرى. كانت تلك سياحة: سياحة اضطراب.

اصطُحب السياح أيضاً إلى قرية قانا الواقعة في جنوب لبنان. حين شنّ الإسرائيليون عدواناً على جنوب لبنان امتد ستة عشر يوماً عام ١٩٩٦، وجدت قانا نفسها معلّقة وسط تبادل النيران. في عملية سُمّيت «عناقيد الغضب»، زُعم أن الجيش الإسرائيلي أراد تدمير قواعد حزب الله، لكنه أسقط «عن طريق الخطأ» قنابل على ملجأ تابع للأمم المتحدة في بلدة قانا، وهو ما أدى إلى مقتل أكثر من مئة مدني بريء وبعض جنود حفظ السلام الدوليين. ومن أجل «تذكّر» هذا الهجوم الوحشي، حوّلت الحكومةُ اللبنانية مجمّعَ الأمم المتحدة المقصوف إلى ضريح تذكاري. وبات نصب قانا التذكاري نقطة جذب سياحي للأفراد والجماعات على السواء، وباتت وكالات السياحة المحلية وحتّى دليل *Lonely Planet*[٢٢] يصفه بأنه نقطة لافتة تنبغي زيارتها في «الجنوب المحرَّر» حديثاً. كما كان هذا النصب التذكاري في عداد المواقع التي زارها المشاركون في مخيم الشباب المغترب عام ٢٠٠١.

توقفت حافلات رحلتنا. نظرت من نافذتي إلى مبنى مدمّر انتصب عليه برج مهتزّ كُتبت عليه عبارة «الأمم المتحدة» (UN). وكما أجزاء أخرى في مركز الأمم المتحدة، تُرك المبنى على حاله ليكون شهادة على العنف الإسرائيلي. وقفت إلى جانب المبنى دبابتان خضراوتا اللون. وبعدما نزل ستون عضواً من أعضاء الوفد البرازيلي في مخيم الشباب المغترب من الحافلات، اعتلى بعض الصبية ظهري الدبابتين وطلبوا من أصدقائهم التقاط الصور. وتواصلت مظاهر الرحلة الاحتفالية إلى حين الوصول إلى النصب التذكاري الفعلي على الرغم من اللافتات التي تقول «المحرقة الجديدة: ١٨ نيسان/أبريل ١٩٩٦، مستشفى الأمم المتحدة». لم يأبه أحد لستة أضرحة رخامية أو سبعة بطول ثمانية أمتار وُضعت فيها أشلاء الأشخاص المئة والستة الذين قُتلوا في الهجوم الإسرائيلي. وبعدما ضاق أحد المرشدين في جولتنا ذرعاً بالصبية، صاح طالباً من الجميع احترام من يرقد في المكان وقال: «هذا مكان محرقة القرن العشرين». وأضاف

(٢٢) Ann Jousiffe, *Lonely Planet: Lebanon* (Victoria, Australia: Lonely Planet Publications, 2001).

بصوت غاضب ولكن رزين: «هذا هو المكان الذي ذبح فيه الإسرائيليون ١٠٦ لبنانيين. . . المجرم الأوّل في نظر اللبنانيين هم الإسرائيليون الذين قتلوا ١٠٦ مدنيين عُزل هنا عام ١٩٩٦». لا شكّ في أن تلك كانت رحلة سياحية إلى موقع هجوم إسرائيلي سالت فيه دماء اللبنانيين.

أحس الجميع بالكآبة من مناجاة النفس في ذلك الموقع. لكن الشباب تنقّلوا في أرجاء المكان بين الأضرحة. وسرعان ما اصطُحبنا إلى مواقع لا تزال النصب التذكارية فيها قيد الإنشاء. وفي غرفة مجاورة انتصب جداران مليئان بصور فوتوغرافية التُقطت بعد القصف. صُدمنا لرؤية صور الأشلاء الممزّقة والأمّهات الممسكات بأحشاء أطفالهنّ التي اندلقت من بطونهم فلذنا بالصمت. وأشار أحد أصدقائي البرازيليين إلى صورة أظهرت رأس صبي تفجّر. ثمّ جرّ جميع السياح خطاهم متوجهين نحو مؤخر المجمّع المدمَّر حيث غُلفت بقايا كنيسة بنوافذ زجاجية. نظرنا إليها، وقال المرشد الرسمي في الجولة: «هذه مقاومتنا». لقد وضع النصبُ التذكاري، بأضرحته البيض وصوره الفوتوغرافية الدموية والبقايا الأسمنتية المهدّمة، المغتربين وجهاً لوجه أمام حرب لم يعايشها أحد منهم عياناً ولا كان في مقدوره ذلك. لكن كما المجموعات السياحية الأخرى التي أمّت مجمّع الأمم المتحدة المدمّر، اصطُحبنا بسرعة إلى الحافلات التي توجهت بنا إلى الموقع السياحي التالي: منحوتات صخرية مسيحية في الجوار ربما تشير إلى أن بلدة قانا الحالية هي قانا المذكورة في الكتاب المقدس. بهذا المعنى المختلط، كان مجمّع الأمم المتحدة المدمَّر مجرد واحد من مواقع سياحية متعددة زرناها في ذلك اليوم في جنوب لبنان.

زار المشاركون في مخيم الشباب المغترب، بمن في ذلك أعضاء الوفد البرازيلي الستون، موقع اضطراب سياحي آخر، إنّه معتقل الخيام القريب من الحدود مع إسرائيل. هذا هو المكان الذي دأبت فيه إسرائيل على مرّ تاريخها في جنوب لبنان وجيشها العميل، أعني جيش لبنان الجنوبي، على تعذيب مقاتلي المقاومة اللبنانية ومن اشتُبه أنه متعاون معهم. لكن بعد انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان في أيار/مايو ٢٠٠٠، حُوِّل المعتقل إلى «متحف بإدارة حزب الله، ونصب تذكاري لضحاياه». يستقبل هذا المعتقل حافلات ملأى بالسياح المتلهفين لاستهلاك آثام إسرائيل في جنوب لبنان. وكما كُتب في دليل *Lonely Planet* الخاص بلبنان، «الأوضاع الفظيعة [في معتقل الخيام] تدعو

الزائرين إلى وقفة تأمّل»[٢٣]. وكما المجموعات السياحية الأخرى، اصطُحب المشاركون في مخيم الشباب المغترب لعام ٢٠٠١ إلى مشهد العنف «المثير للتأمّل».

دنَونا من لافتة صفراء وحمراء كبيرة كُتب عليها «معسكر الخيام». كانت أولى لافتات متعددة كُتب عليها باللغتين الإنكليزية والعربية. وبعدما دخلنا إلى مجمّع المعتقل، شاهدنا لافتة عن يميننا تقول «حمّام الرجال» ولافتة عن يسارنا تقول «غرفة التحقيق والتعذيب بالكهرباء». وفي أثناء اجتيازنا زنزانات المحتجزين، انحنى بعض الشباب المغترب لدخول الحجيرات المغلقة بالقضبان. «أدوا دور السجين» في ذلك اليوم. أضاء وميض الكاميرات المكان الاحتفالي المُعتم. لكن سرعان ما تحولت هذه البهجة السياحية إلى صمت مطبق بعدما تحدّث رجال ملتحون سُجنوا في المعسكر عن تجاربهم فيه. جهد شاب برازيلي كان واقفاً في مكان مكشوف داخل المعسكر ليسمع في الوقت الذي كان دليل سياحي يترجم حكايات السجناء السابقين من العربية إلى البرتغالية. قال أحدهم: «عذبنا [الإسرائيليون] بالصدمات الكهربائية في وجوهنا وفي أجسادنا. عانينا كثيراً. كانوا ينهالون علينا ضرباً إلى أن نعجز عن المشي. كانوا يلقون الماء علينا ثمّ يجلدوننا». وأكد سجين سابق آخر للمشاركين في المخيم الشبابي «أن العالم كلّه يعرف بأمر هذا المعتقل، وأنتم تعرفونه الآن». فإذا سافر سياح مغتربون إلى لبنان: «المعرفة جذورهم»، فسوف يغادرونه وهم على معرفة تامة بآثام الصهيونية أيضاً[٢٤].

في نهاية الجولة، عدنا إلى الحافلات. ولكن بعضنا توقف في أثناء مغادرتنا المكان للتفرج والتقاط الصور للوحة جدارية كبيرة على أحد جدران

---

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

(٢٤) بعد أكثر من ساعة من سماع قصص مروّعة عن التعذيب في السجن، أعيد الشباب المهاجر إلى الحافلات. وربما توجه بعضنا من دون قصد إلى التفرّج على بعض طاولات صغيرة تبيع تذكارات. وظهرت لافتة كبيرة باللونين الأصفر والأخضر تقول «هنا تُقبل التبرعات للمقاومة الإسلامية». تضمنت التذكارات المعروضة أعلام حزب الله في ثلاثة حجوم، وقبعات عليها شعار حزب الله، وبطاقات بريدية تحمل صورة الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله، وأشرطة فيديو تصوّر الغارات الإسرائيلية وعودة الأسر النازحة عقب التحرير/ وسلاسل مفاتيح عليها شارات الحزب، ودفاتر تلوين تحكي قصص صراع حزب الله ولبنان، فضلاً عن عشرات الأدوات الأخرى. كما عند ارتياد أي موقع أثري آخر، كان لهذه «الرحلة السياحية» تذكاراتها الخاصة. لكن دعني أشر إلى أن مرشدنا السياحي أشار علينا بإخفاء رموز حزب الله عند الاجتماع رسمياً بمسؤولين من الحكومة اللبنانية.

المعسكر. طارت حمامة في اليسار من زنزانة انفرجت قضبانها. وفي اليمين رُسمت نجمة داوود بخطوط متكسرة واضحة. ربما لم يفهم الشباب المغترب الذي لا يتحدث سوى البرتغالية والإنكليزية والإسبانية الكلمات المكتوبة بالعربية، لكنّ الرسالة المرئية بدت واضحة: قاوم اللبنانيون الصهيونية وتحرروا منها. وهي رسالة جعلتنا نقف وجلين وقد تملّكتنا مشاعر مختلطة.

بعد أسابيع قليلة من انتهاء فعاليات المخيم، التقيتُ بمسؤولين أشرفوا على البرنامج في وزارة الخارجية والمغتربين. كانت مديرة العلاقات العامة ومساعدها على دراية تامة بهذه التجارب الشديدة الوطأة في المواقع السياحية التي تعرّضت لاعتداءات إسرائيلية في الماضي. واتفقت المديرة والموظف على أن:

«هدفنا ليس مقتصراً على السياحة. نحن نرمي إلى تعريف الشباب ببلدهم، وهو ما يعطي المخيم بُعداً وطنياً. لقد عانى لبنان من إسرائيل الكثير. إنّها تهاجمه وتقتل أبناءه. بسبب هذه المعاناة، أدرجنا بالطبع هذه الرموز الوطنية. فهناك الكثير مما يمكن تعلّمه من زيارة الخيام وقانا، هذين الرمزين الوطنيّين. أردنا من خلال تنظيم المخيم إطلاع الجيلين الثالث والرابع على معاناة لبنان وآلامه والأفعال التي ترتكبها إسرائيل في لبنان».

من خلال تنظيم مخيم الشباب المغترب، سعت السلطات اللبنانية إلى تعميق صلة المغتربين ببلدهم الأمّ. لكنّ هذه الصلة تعني التعرف إلى «ما هو جيد وما هو سيئ في لبنان وعلى معاناة لبنان». ولكي «يعرف» السياح مدى معاناة لبنان، اصطُحبوا لزيارة مواقع تعرضت في السابق لاعتداءات إسرائيلية.

لكنّ سياحة الاضطراب عايشها المسافرون البرازيليون العرب في حياتهم اليومية، وخصوصاً نقاط التفتيش المنتشرة في كلّ مكان. سافرت مارسيا، تلك السيدة من الجيل الثاني التي أتينا على ذكرها في مستهلّ هذا الفصل، إلى لبنان بصحبة عمها غداة انتهاء الحرب الأهلية في أواخر ثمانينيّات القرن الماضي. وفي أثناء إقامتها هناك، أُرغمت على عبور نقاط تفتيش تابعة لقوى مسلحة مختلفة. «كانوا يجبروننا على التوقف ويطلبون منا فتح حقائبنا ليعرفوا ما بحوزتنا. كنا نسير بالسيارة مسافة قليلة لنصل إلى نقطة تفتيش أخرى. لذلك يتوجب عليك التوقف مجدداً وإظهار جواز سفرك وغير ذلك. إنّه أمر مخيف بعض الشيء». وذكرت مارسيا أيضاً أنّها أقامت مع أقاربها في شمال لبنان وخططت لزيارة أسرة زوجها في الجنوب. لكن لا الأقارب ولا سائقو

سيارات الأجرة وافقوا على اصطحابها إلى مكان إقامة أهل زوجها. فهناك الكثير من نقاط التفتيش التابعة لعدد كبير من الفصائل المتحاربة، بما في ذلك القوات السورية واللبنانية، والإسرائيلية. ختمت حديثها بالقول «عدلت عن الذهاب في النهاية». وهنا أيضاً ينطوي السفر إلى الوطن الأمّ على معايشة اضطراباته السابقة.

حين زار سعيد لبنان في أواسط تسعينيّات القرن الماضي، كانت قرية والده لا تزال تحت الاحتلال الإسرائيلي. وهو يذكر جيداً «عدداً من العراقيل التي واجهها بسبب النظام الذي كان قائماً هناك»، بما في ذلك نقاط التفتيش العسكرية السورية وكذلك التابعة لجيش لبنان الجنوبي العميل لإسرائيل. يقول سعيد في سياق حديثه عن زيارته الجنوب: «شاهدت اشتباكاً مع الطوافات الإسرائيلية». ومع أنّه أراد التقاط الصور (وهذا ما فعله)، حرص أقرباؤه على أن يواصل مع مَن يرافقهم سيرهم بسرعة. أثارت تجربته فضولي، فسألته إن كان قد «اغتاظ» من رؤية هذه «المشاهد»، فأجاب: «غضبت بالطبع. فلا أحد يحبّ هذه الأفعال، لكنّها جزء من سياق الأحداث»[٢٥]. في ضوء ذلك، يكون الصراع المسلح جزءاً من سياحة الاضطراب الفعلية التي خبرها سعيد وغيره في لبنان. وسواء أكان الاضطراب عفوياً أم كان مدبَّراً، سيكون له وقْع على البرازيليين العرب لدى عودتهم إلى ساو باولو.

خامساً: التنافر والالتباس في هوية برازيلية عربية شديدة البروز

بعدما عايش السياح معاداة الصهيونية في سورية ولبنان، باتوا صريحين جداً في الحديث عن الشؤون الشرق الأوسطية لدى عودتهم إلى البرازيل. وعلى الرغم من انتقاد البعض للدعاية السياسية المكشوفة للكيانات الحكومية

(٢٥) تركت فيه بيروت التي مزّقتها الحروب انطباعات أيضاً: «من الأمور التي أثّرت فيّ كثيراً ذلك التناقض بين بعض الأشياء الجميلة حقاً وبين أمور بشعة فعلاً بجوارها. شاهدت مباني دمّرتها القذائف. وهذا الجزء مؤثر فعلاً». وبالمثل، لفتت عمليات إعادة الإعمار في لبنان عقب انتهاء الحرب انتباه عبده من الجيل الثاني الذي زار بيروت ثلاث مرات. يقول عبده: «ذهبت بعد الحرب عام ١٩٩٦ حين كانت آثار الدمار لا تزال بادية في بيروت. وسافرت إلى هناك في عام ٢٠٠٠. شعرت بالإثارة لأنه كان يعاد ترميم بيروت ولأنها ستتحول إلى مدينة جميلة، لكني قلقت كثيراً لحالة الفقر التي يعيشها البلد. إنه بلد بدون... بدون مستقبل على صعيد الوظائف والاقتصاد».

والسياحية العربية، أعرب البعض الآخر عن تضامنهم معها[٢٦]. على سبيل المثال، يقول جواو الذي زار «بلدة الأشباح» القنيطرة، إنّه يوافق «على كلّ ما يقوله [السوريون ـ اللبنانيون] عن «اليهود الوقحين» و«اليهود النازيين»»، لكن أشدّ ما أزعجه أنّه كان في مستطاع السلطات الحكومية السورية «إعادة بناء المدينة [القنيطرة]، لكنّها آثرت تركها على حالها لتعرضها على العالم». يعتقد جواو الذي أزعجته الدعاية السورية المعادية للصهيونية في أوساط السياح المغتربين أن «لا أحد يريد السلام. فالسلام لا يهمّ أحداً هناك، لا العرب ولا اليهود». ويذكر جواو العضو في حزب العمال البرازيلي أنّه في حديثه مع أقاربه طرح على ابنة عمه في لبنان السؤال التالي: «ما سبب هذا القدر من الكراهية؟» فأجابت: «خمس عشرة سنة من القصف تغيّر عقلية الناس». «لم أنسَ ما قالته لي». ومع ذلك ينتقد جواو الحماسة القومية «التي تؤججها الحكومة السورية» ويُعرب عن إيثاره الالتزام بمعتقدات عالمية ويقول: «لم أعد أحسب نفسي عربياً، أو برازيلياً أو أبيض أو أسود أو أسمر[٢٧]. أنا مواطن عالمي». ويختم حديثه بالقول: إن اعتناق وجهة النظر هذه يأتي من خلال «السفر».

لكنّ ناديا التي شاركته الرحلة السياحية نفسها، طرحت وجهة نظر مختلفة عن الرحلة المدبَّرة إلى القنيطرة. رأت أنّه يجري تشجيع المسافرين إلى إسرائيل على زيارة المتاحف والمواقع السياحية المكرّسة للمحرقة النازية. فإذا كان الإسرائيليون يبقون ذكرياتهم حيّة، تتساءل ناديا بكلمات بليغة: «لماذا لا يستطيع العرب المحافظة على ذكرى تحولهم إلى ضحايا على يدّ الصهيونية في بلدة القنيطرة؟» لكن إضافة إلى وجهتي النظر المتعارضتين هاتين، أعرب بعض المسافرين عن موقف لا مبالٍ أو ملتبس. تقول فانيسا التي شاركت في الرحلة السياحية نفسها أيضاً:

---

(٢٦) بعدما شاهد البرازيليون العرب المواقع التي تعرّضت لاعتداءات إسرائيلية سابقاً في سورية ولبنان، تحدثوا بسخرية عن عدم مشاهدتهم جرائم في الشوارع تقريباً، وهي مشاهد حاضرة دائماً في حياة أبناء الطبقتين الوسطى والراقية التي إليها ينتمون في ساو باولو. يقول سعيد: «أحسست بمزيد من الأمن هناك لأنه لا توجد سرقة، ولا نشل. يمكنك إيقاف السيارة وتركها مفتوحة، في حين أوقفها هنا وأوصد أبوابها. لقد اقتحموها عنوة وسرقوا إحدى لوحاتها الداخلية. يمكنك هنا التنقل في سيارة أفضل، ولا يمكنك الوقوف عند إشارة من دون النظر في جميع الاتجاهات. لذلك، العنف هنا أشد من العنف هناك». وأعرب آخرون عن دهشتهم لترك بائعي الذهب في السوق بسورية متاجرهم من دون إغلاق أبوابها. تقول فانيسا: «الشوارع في سورية ولبنان هادئة وآمنة».

(٢٧) المثير أن خواو استخدم عبارة أسمر العربية عوضاً من نظيرتها مورينو بالبرتغالية البرازيلية.

«يميل [المسؤولون الرسميون العرب] إلى الجانب العربي بالطبع. لكنّي أعتقد أن الرحلة السياحيّة كانت رائعة، وقد قضى الجميع فيها وقتاً ممتعاً. رأينا أشياء جديدة، وتعرّفنا إلى عادات مختلفة، وتناولنا مأكولات شهية. وكما تعرف، ربما تتذمّر من بعض الأمور، لكنّها كانت رحلة رائعة إلى أرض ارتبط بها أجدادي».

لا تزال فانيسا المتنبّهة إلى دور السياسة في السياحة تؤكد أن رحلتها كانت مجرد رحلة. بشعورها الملتبس حيال معاداة الصهيونية، تتحدث عن «أرض ارتبط بها أجدادها».

هذه التجربة السياحية المعادية للصهيونية دفعت الكثير إلى التفكير في العلاقات القائمة بين العرب واليهود في البرازيل. فبعد مغادرة موقع مجمّع الأمم المتحدة المدمَّر في قانا على سبيل المثال، دخل أعضاء الوفد البرازيلي وهم في الحافلة في مناقشة تناولت علاقاتهم باليهود. تحدثت فتاة عن مواجهة سابقة وقعت بين صديق عربي وزميلة يهودية في الصف في ساو باولو. ورداً على قول صديقها: «أنا أكره (قالها بالبرتغالية) اليهود (قالها بالعربية)»، سألته زميلته اليهودية عن السبب الذي يدفعه إلى قول مثل هذا الكلام العنصري. فوجئ صديقها من فهم الفتاة اليهودية معنى كلمة «يهود» العربية، لكنه أجابها: «لأنكم تريدون القضاء على عِرْقنا [العربي]». لكن بعد مشاهدة الآثار المتبقية لهجوم إسرائيلي على مدنيين لبنانيين، لم تعد المسألة موضع جدال. لكن المشاعر المعادية للصهيونية والمعادية للسامية التي ظهرت كانت موقتة، إذ سرعان ما تلاشت حين وصل الوفد إلى الموقع الذي يُزعَم أن المسيح حوّل فيه المياه إلى نبيذ بالقرب من قانا.

بعد العودة إلى ساو باولو، تأمّل الشباب السائح في تجربته التي عاشها من خلال جولة سياحية رعتها الحكومة اللبنانية. أشار ساندرو، وهو طالب في الثانوية العامة من الجيل الثاني، إلى أن الجولة في الخيام وقانا في جنوب لبنان كانت الجزء المفضّل في المخيم في نظره. وبحسب تعبيره: «سُررت لمعرفة أن الفأرة لم تخشَ الهرّة لأن الناس هناك يقولون «إننا لبنانيون» ولا نخشى الدول التي تُعدّ متفوقة علينا». ويضيف أن زيارة المواقع نابعة من رغبة الحكومة اللبنانية «في أن تُظهر للمنحدرين من أصول عربية أنهم كانوا مخدوعين، وأنهم يمثلون الأغلبية، وأنهم لم يعايشوا الوضع على حقيقته ليفهموا ماذا يجري

هناك». وحين سُئل إذا كان قد تحوّل إلى شخص آخر عقب عودته إلى البرازيل، أجاب ساندرو «بالتأكيد. أنا لا أخضع لأحد. أنا لبناني». أي أنّه بعدما «تعرّف» إلى الوضع في لبنان، تطور لدى هذا الشاب وعي مختلف.

لكنّ عدداً آخر اختلف في شأن جولتَي الخيام وقانا. ذلك بأنّه بعدما عُرضت عليهم صور فوتوغرافية لنساء وأطفال في النصب التذكاري في قانا على سبيل المثال، قال لي شاب برازيلي عربي بنبرة خفيضة جداً: «هذا غسل للدماغ». والملاحظة نفسها كررها آخرون بعدما تأمّل في أثناء الرحلة عدد من الفِتية في مرامي المسؤولين الحكوميين من اصطحابهم إلى ذلك السجن في جنوب لبنان. قال أحد الطلاب الثانويين: «يريدون منا [المسؤولون الحكوميون اللبنانيون] أن نحقد على إسرائيل». وردد عدد من المشاركين صدى المشاعر نفسها في أثناء الرحلة وبعدها. فبعدما رأت الشابة مليسا الصورة الجدارية لنجمة داوود متكسرة على جدار المخيم، اعتقدت أن منظّمي المخيم أرادوا من الشباب «أن يحقدوا على إسرائيل. . . لكن لا جدوى من ذلك. فهذا التحامل لا مكان له في البرازيل». وبالمثل، طرحت إيزابيلا الطالبة الثانوية الرأي التالي عقب عودتها إلى البرازيل:

«وجدت الرحلات السياحية تثير في النفس مشاعر الثورة لأن المراد منها في نظري زرع الكراهية تجاه الإسرائيليين في نفوسنا. لكنّ ثقافتنا في البرازيل لا تجيز هذه النزعة العِرْقية بسبب تخالط أجناسنا. يمكن [للمسؤولين الحكوميين اللبنانيين] إطلاعنا على تأثيرات الحرب، لكنهم لا يستطيعون حملنا على كره بلد أو ثقافة».

بالتشكيك في دوافع المسؤولين الحكوميين والسياحة المسيَّسة، صاغت إيزابيلا ومليسا انتقاداتهما بلغة القومية البرازيلية للديمقراطية وللمزيج العِرقي. تزعم الفتاتان أن العلاقات المتبادلة العربية ـ اليهودية في البرازيل التي يُزعم أنّها متسامحة عِرقياً ليست مشحونة بـ «التحامل» و«النزعة العِرقية» التي قسّمت الطرفين في الشرق الأوسط. وبالتالي، تُناقضُ المبادئُ القومية المنطقَ الإقصائي المنبثق منها.

وإذْ رفض بعض الشباب البرازيلي العربي الدعاية المعادية للصهيونية في السياحة في البلد الأمّ، نظر إليها المشاركون في مخيم الشباب المغترب نظرة إيجابية بطرائق أخرى شخصانية في الظاهر ولكنها ليست أقل حدّة. على سبيل

المثال، تواصل إيزابيلا التفكير في كيفية ارتباط المخيم بنمط حياتها الخاصة في البرازيل وغيرها وتقول:

«تعرفت في تلك الرحلة إلى القرية التي وُلد ونشأ فيها والد جدّي. بدت كئيبة بعض الشيء لأنها دُمّرت بالكامل في أثناء الحرب. لكن من المهم أن أعرف أنّني لست مواطنة برازيلية وحسب، لأنه لديّ ماضٍ آخر في بلد آخر. أتشوق بالفعل للقاء أقاربي الذين لا يزالون يعيشون هناك. وسيكون مشروعي المستقبلي محاولة إيجادهم وبناء شجرة عائلة للأُسرة».

على الرغم من انتقاد إيزابيلا للدعاية المعادية للصهيونية، فقد كان للبرنامج السياحي المدعوم من الدولة تأثير في طريقة نظرها إلى نفسها، فهي برازيلية إلى جانب كونها لبنانية. وبالتخطيط لبناء شجرة عائلة مع فرعي أسرتها، صاغت إيزابيلا هوية لبنانية خاصة بالبرازيل.

لم يقتصر تزايد حدّة المشاعر الإثنية البرازيلية العربية سواء السياسية أم الشخصية على التأمل الباطني، بل وُضع قيد التطبيق العملي. وهذا ما يتجلّى في حالة كارلوس، الفتى البرازيلي اللبناني من أبناء الجيل الثالث الذي سقنا قصة اجتماعه بوالد عمه في بلدة مرجعيون في جنوب لبنان. حين عاد إلى ساو باولو، قرّر إطلاع الناس على تجربته. استمدّ فكرة المناسبة من المسؤولين الرسميين اللبنانيين الذين شددوا غير مرّة على الحاجة إلى «الترويج للجانب الجيد» للبنان في «دول الاغتراب»، مثل البرازيل.

أُعلن عن برنامج كارلوس في صحيفة محلية وجرت فعالياته في مركز ثقافي محلي. أعدّ بمساعدة أسرته طاولة نُشرت عليها كتيبات عن المواقع السياحية في لبنان، وأوراق وقطع نقدية لبنانية، ومأكولات إثنية. كما وضعوا على الجدران خرائط للمنطقة وعلماً لبنانياً كبيراً. بلغ عدد الحاضرين، وكانوا من جملة الأقارب (اللبنانيين والإيطاليين من الجيلين الثاني والثالث) وبعض المحليين، عشرين شخصاً إلا قليلاً. قدّم كارلوس عرضاً زاد على الساعتين عن لبنان وعن مخيم الشباب المغترب الذي شارك فيه. وصف لبنان بأنه «تقاطع» حضارات كونه أرض الفينيقيين الأسطوريين وأرضاً تحتوي على عجائب طبيعية وثقافية. بالتالي، تحمّل كارلوس مسؤولية ألقاها على عاتقه مسؤولون رسميون لبنانيون. أصبح «سفير» لبنان و«متحدثاً باسمه» في هذا الحيّ الصغير لأبناء الطبقة المتوسطة في ساو باولو.

وبعدما احتدّ في مرحلة معينة في أثناء تقديمه العرض، لامس ما وصفه «الناحية السياسية» لتاريخ البلاد وللمخيم الشبابي نفسه. ومع اقتراب البرنامج من نهايته، قال إنّه جرى اصطحاب المشاركين إلى «جنوب لبنان المحرَّر». وأضاف كارلوس، إنه في تلك المنطقة زار الجميع مجمّع الأمم المتحدة الذي قصفته إسرائيل عام ١٩٩٦، فضلاً عن معتقل الخيام الذي أقامه الجيش الإسرائيلي ذات مرّة. وفي الوقت الذي كان يعيد رواية بعض حكايات السجناء السابقين في الخيام، قال إنّهم كانوا «يقضون أقل من عشر دقائق تحت أشعة الشمس كلّ يوم. كانوا يُجلدون بعد وضعهم في الإطارات المطاط. كان طعامهم الوحيد الخبز والماء». ومع أن التفاصيل جاءت مختلفة، فإن المشاعر الإجمالية التي نقلتها هي أن اللبنانيين ذاقوا الأمرَّين من إسرائيل في لبنان. وبذلك قام كارلوس بدور سفير لبنان في البرازيل، لكن هل قام به فعلاً؟

ما لفت انتباهي في حديث كارلوس هو الجزء الذي لم يتطرّق إليه. فقبل وقت طويل من تقديمه عرضه العام، أسرّ إليّ (وإلى أسرته وأصدقائه) أنّه على إعجابه بمخيم الشباب المغترب وبلبنان شعر بالاضطراب من الجولات المسيَّسة في قانا والخيام. فبعد استحضاره الأحاسيس التي ساورته فور زيارة هذين الموقعين، أشار بنبرة ساخرة إلى أنّه «وإن كان يعجز عن قتل ذبابة» بات حاقداً على إسرائيل. واستنتج كارلوس، كبعض رفاقه المسافرين المراهقين الذين تأملوا في هذه التجربة المثيرة للوعي، أن الغاية من زيارة هذين الموقعين السياحيَّين «سياسية بحتة لغرس الحقد فينا على إسرائيل». لكن على الرغم من هذا النقد المكتوم للنيات السياسية للمسؤولين الرسميين اللبنانيين، أعاد عرضُ كارلوس إنتاج عروضهم المعادية للصهيونية.

اختُتم العرض عند الساعة التاسعة مساءً. أُنزل العلم اللبناني، وطُويت الخرائط، وخلع شقيق كارلوس الأصغر كوفيته، ولفّها ووضعها في كيس بلاستيك. وبينما كان السائح «المغترب» وأسرته وأنا نغادر المركز الثقافي المحلي ونتلمّس نسيم المساء البارد، خاطبت الوالدة كارلوس وقالت: «يا بني، أنا فخورة جداً بك». لم يكن كارلوس أو أسرته ليأبهوا كثيراً للسؤال عما إذا كان كارلوس قد عمل لمصلحة الدعاية الحكومية اللبنانية وأيديولوجيتها المعادية للصهيونية، أو ما إذا كان من اللائق أن يوضح مشاعره الملتبسة حيالها. فهو فتى في سنّ السادسة عشرة تحدّث بطلاقة عن البلد الذي نشأ فيه أجداده، وأسرته فخورة به. لا شكّ في أن العرض كان تمريناً عميقاً في الإفصاح عن

مشاعر إثنية محتدة لا يزال كارلوس في طور التعوّد عليها، أعني إحساس المرء بأنه لبناني في البرازيل.

ولكون السياحة في الوطن الأمّ أبعد من أن تكون تجربة فردية وشخصية، فهي أصبحت محطّ أنظار خطوط الطيران، ووكالات السياحة، فضلاً عن الكيانات الحكومية والمهنية العربية. لقد أعيد تصميم مشروع البرازيليين العرب الرامي إلى تعريفهم بجذورهم وتوجيهه في ضوء ذلك لزيادة مبيعات تذاكر السفر للرحلات المتنقلة بين البرازيل والشرق الأوسط ولدعم القطاع السياحي في كلّ من سورية ولبنان. لكنّ البرازيليين العرب وظّفوا تلك الأنشطة السياحية بطرائقهم الخاصة أيضاً. أعرب جواو وناديا وفانيسا وساندرو وإيزابلا وكارلوس وغيرهم الكثير، عن وجهات نظرهم حيال السياحة في البلد الأمّ ـ حيال العنف وما شابهه ـ بدت متضاربة وملتبسة غالباً. لكن هذه الآراء والممارسات توضح عمق المشاعر الإثنية العربية في البرازيل اليوم. أعرب السياح البرازيليون العرب عن وجهات نظر متعددة حيال وطنهم الأمّ، والمواقع السياحية التي تعرّفوا إليه من خلالها، والعلاقات بين العرب واليهود في البرازيل. وفي غمرة الاستقطاب المتزايد بين العرب واليهود في الشرق الأوسط، فإن أصواتهم تثبت وجود طرائق بديلة وخلاقة ثقافياً للصمود في هذه الأوقات المضطربة.

خاتمـة
نحو مستقبل آمِن
الانتماء العربي، والنيوليبرالية، والبرازيل

ـ ١ ـ

يحتفل المنحدرون من أصل سوري ـ لبناني اليوم بمساهماتهم الاقتصادية والسياسية والثقافية في البرازيل. يشدد أبناء الجيلين الثاني والثالث دائماً على براعة العرب في التجارة، وعلى صعود نجمهم في الدوائر السياسية وميادين المهن الحرّة، وعلى الهيمنة الذكورية على النظم الأسرية، وعلى المأكولات الشرقية والرقص الشرقي التي يروّج لها. بيّنا في هذا الكتاب أن هذا الاعتزاز الإثني لا يُعدّ مبرّراً بالضرورة، وأنه ينبغي فهمه في السياق البرازيلي لـ «الثقافة النيوليبرالية»[١]. ولا يزال البرازيليون من أصل سوري ـ لبناني يحظون باعتراف متزايد في اقتصاد التصدير، والحكم الشفاف، وسياسة الهجرة المحرَّرة، فضلاً عن تنوع السلع والمستهلكين. في هذه السياقات، باتت قدرتهم الفطرية المزعومة على تحصيل مرادهم بأي وسيلة، ونزوعهم المزعوم إلى الزواج من أبناء جماعتهم، وتقاليد مطبخهم ورقصهم، والرغبة في السفر إلى البلد الأمّ، أكثر وضوحاً. وهدفي هو إظهار طريقة حيازة الإثنية العربية اعترافاً متزايداً بهذه السمات في البرازيل النيوليبرالية.

ـ ٢ ـ

من الناحية النظرية، يهدف هذا الكتاب إلى دراسة الإثنية خارج إطار

(١) Jean Comaroff and John Comaroff, «Millennial Capitalism: First Thoughts on a Second Coming,» *Public Culture*, vol. 12, no. 2 (2000), p. 304.

البارامترات الحالية. فابتداءً من سبعينيّات القرن الماضي، أُجريت تحقيقات حاسمة في البناء المحيطي للاختلاف الإثني عن الماضي الاستعماري من خلال القومية(٢). وبهدف استخدام هذا الإطار التاريخي وتجاوز حدوده، تساءلت عن سُبل تحول العلاقات الهرمية بين الإثنية والأمّة وإعادة تنظيمها في النظام العالمي في المرحلة النيوليبرالية. أكدت أنّه في الوقت الذي تظل الإثنية مرتبطة بالهيمنة القومية اليوم، فإن إحداثياتها ومراجعها حازت امتيازات أكبر بحسب الاتجاهات الاقتصادية والثقافية العالمية. ذلك بأن الموضوعات والموادّ الإثنية التي كانت مرفوضة أو مفروضة يوماً، نالت الاعتراف اليوم كشركاء في التصدير، وقادة خاضعين للمساءلة الأخلاقية، ومستهلكين في الأسواق الجديدة في الدولة النيوليبرالية. وفي ضوء ذلك، لم تترفّع الإثنيةُ عن الصراع القومي بل امتلكت امتيازات بطرائق لا يُعرَف لها مثيل.

بتأطير انتشار البرازيليين العرب في اقتصاد سياسي متصوَّر، وفي النظام القومي، وفي تسويق الثقافة الإثنية، سعيت لإعداد دراسة إثنوغرافية بلا نعوت. تنقّل كلّ فصل في هذا الكتاب بين المفاهيم الذاتية العربية التاريخية والحالية، والممارسات المعترَف بها رسمياً في ساو باولو، التي غيّرت نماذج الدولة والأمّة البرازيلية، فضلاً عن تحرّكات واتجاهات السوق العالمية. أردت باستخدام هذه المقاربة تجاوز نقد «ثقافة الكتابة»، لا بالدعوة إلى الرجوع إلى المعايير الأنثروبولوجية السابقة، ولكن باعتماد الشمولية كأداة نصّية. وقد أتاح لي ذلك عرضَ الوجوه المتنوعة لمَعايِش البرازيليين العرب وأنماط حياتهم، بما في ذلك المجال التجاري، والسياسي، والمهن الحرّة، وإعادة إنتاج الأسرة، والأندية الريفية، والسياحة، بوصفها وحدة كاملة متشابكة العناصر من دون عزلها عن مجال علاقات السلطة الأوسع نطاقاً. أردنا من التنظيم الشامل للتجربة العربية في البرازيل في هذا الكتاب توضيح الطرائق المتعددة التي أعادت العلاقاتُ الهرمية

---

(٢) Brackette Williams, ***Stains on My Name, War in My Veins: Guyana and the Politics of Cultural Struggle*** (Durham, NC: Duke University Press, 1991); Judith Friedlander, ***Being Indian in Hueyapan: A Study of Forced Identity in Contemporary Mexico*** (New York: St. Martin's Press, 1975); Viranjini Munasinghe, ***Callaloo or Tossed Salad? East Indians and the Cultural Politics of Identity in Trinidad*** (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2001); Ronald Stutzman, «El Mestizaje: An All-Inclusive Ideology of Exclusion,» in: Norman Whitten, ed., ***Cultural Transformations and Ethnicity in Modern Ecuador*** (Urbana: University of Illinois Press, 1981), pp. 45-94, and Kay Warren, ***The Symbolism of Subordination: Indian Identity in a Guatemalan Town*** (Austin, TX: University of Texas Press, 1989 [1978]).

بين الإثنية والدولة تنظيم نفسها من خلالها في الاقتصاد العالمي النيوليبرالي.

من خلال «زخرفة عربية من نوع آخر»، سعيت إلى تصوير المكان المتغير للانتماء العربي في الدولة البرازيلية. وكما ذكرنا في مستهل هذا الكتاب، تُلمح عبارة «زخرفة عربية» المدرجة في عنوانه إلى التصميم العام للإثنية العربية المترسّخة من خلال المدراء والسياسيين والشخصيات المرموقة البرازيلية المنحدرة من أصول سورية ـ لبنانية. وتشير عبارة «من نوع آخر» إلى طريقة إخفاء الإثنية العربية أو تحقيرها في الأزمنة السابقة، في حين يتزايد ظهورها والاعتراف بها اليوم كونها مصدراً فريداً يعكس ويكوّن الأحلاف والنماذج النيوليبرالية المهيمنة في البرازيل.

في النهاية، أردتُ من التركيز على هذا التكوين العربي في الأجندات القومية وفي البرامج السياسية والاقتصادية على الهامش البرازيلي للنظام العالمي إلغاء مركزية الطرائق الراسخة أو التفريق بينها في دراسة الانتماء العربي، واستكشاف زخرفة عربية من نوع آخر تروّج الآن في الأمريكيتين.

ـ ٣ ـ

لا ريب أن هذه الخطوط الكفافية البرازيلية للانتماء العربي ليست معزولة عن النظام العالمي عديم الأمن على نحو متزايد. وكما الناس في الولايات المتحدة قبل الهجوم على مركز التجارة العالمي في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وبعده، عايش البرازيليون المنحدرون من الشرق الأوسط، وبخاصةٍ المسلمون، سياسات انعدام الأمن والمراقبة. وفي هذا الصدد، تُوضح تجربة د. ناصر رجب، وهو محام عربي برازيلي من الجيل الثاني، النتائج المتوقعة والمفاجئة للعلاقة بين الإثنية العربية والدولة البرازيلية في هذا النظام العالمي الذي لا يزال متقلباً. في يوم مشمس بعد الظهيرة في شهر نيسان/أبريل ٢٠٠١، استقبلني رجب في مكتبه الذي يزاول فيه المحاماة في «حيّ» إبيرابيورا «الراقي» جنوب ساو باولو. زيّنت جدرانَ مكتبه الخاص إجازاتٌ، وشهادات، ولوحات شرقية. وضع على طاولة مكتبه العتيق الطراز حاسوب IBM قديماً وحاسوباً محمولاً جديداً لامعاً. وهو يسهّل على رجب أعماله حين يحطّ رحاله بين مقرّه الرئيسي في ساو باولو ومكتبيه الحقوقيّين الآخرَين في برازيليا وبوينس أيرس. حقاً لقد احتجت إلى عدة شهور لترتيب لقاء به يتخلل رحلاته المتكررة إلى العاصمتين الاتحاديتين البرازيلية والأرجنتينية.

بعدما جلسنا في مكتبه في ساو باولو، بادر رجب إلى الحديث عن ظهوره في الصحيفة المحافظة الرئيسيّة أو إستادو دي أس باولو في كانون الأوّل/ ديسمبر ٢٠٠٠[٣]. بيّن لي أن مؤسسته الحقوقية عازمة على مقاضاة وكالة الاستخبارات البرازيلية. ومع أن الوكالة تُشتهر باسم «أبين» (Abin)، فقد أشار رجب إليها بأنها «وكالة الاستخبارات المركزية البرازيلية» (Brazilian CIA). استناداً إلى وثائق سرّية مسرَّبة، ذكرت المجلة الأسبوعية فيجا أن «أبين» تجسست على شخصيات سياسية متنوعة، وعلى أفراد أسرها، وعلى «الجماعات الإثنية الإسلامية»[٤]. وبالتحديد، نشرت المجلة وثيقة أصلية صادرة عن «أبين» تشير إلى الحاجة إلى جمع معلومات استخبارية محددة عن «الجماعات الإثنية الإسلامية؛ وتحديد هذه الجماعات وأماكنها في البلاد؛ ومناطق أنشطة الجماعات الإسلامية»[٥] ومع أن فحوى المقالة التي نشرتها المجلة ركز على الحالات الأشهر (أو السيئة الذكر) التي جرى التجسس فيها على شخصيات عامة وعلى أُسرها، فقد تطرّقت بصورة عابرة إلى مراقبة «الجماعات الإثنية الإسلامية» أيضاً. وقد شعر رجب، بوصفه محامي الجمعية الخيريّة الإسلامية التي أسّسها مهاجرون جلّهم من السوريين ـ اللبنانيين عام ١٩٢٩، أن من واجبه النظر في القضية وطلب نسخة من الوثائق المعنية.

في نهاية المطاف، قرر رجب إقامة دعوى على «أبين» أمام القضاء «بجرم التحيّز العِرقي وانتهاك قانون الخصوصية الإدارية». بعبارة قانونية، إنّه يستخدم تجريم التحيّز العِرقي المنصوص عليه في الدستور البرازيلي لعام ١٩٨٨. وكما جاء في المقالة، «يرى المحامي ناصر رجب أن [أبين] «في طريقها إلى مستنقع التمييز الديني والإثني البغيض، منتهكة التشريع والمبادئ المقرَّرة أساساً في المعاهدات الدولية التي التزمت بها البرازيل»». ونقلت المقالة عن رجب قوله

(٣) Fausto Macedo, «Muçulmanos pedem inquérito contra a Abin: Sociedade sediada em São Paulo alega estar sendo vitima de espionagem,» *O Estado de S. Paulo* (17 December 2000).

(٤) «Espionagem no Planalto: Bastante ativos, os agentes secretos da Abin espionam o que não devem e vigiam até os passos do governador Itamar Franco,» *Veja* (15 November 2000), pp. 38-45. للمتابعة، انظر: Policarpo Júnior, «O documento secreto da espionagem: Dos- siê sigiloso mostra que a Abin se interessa por uma gama de assuntos muito mais ampla do que costuma admitir,» *Veja* (22 November 2000), pp. 42-47.

(٥) النص مقتبس عن وثائق «أبين» التي أعادت فيجا نشرها. جاء في النص: «Grupos étnicos islâmicos; identificação e localização de grupos no País, área de atuação dos grupos islamicos»، (الجماعات الإثنية الإسلامية؛ تحديد هوياتها ومواقعها في البلد، ونواحي أنشطة الجماعات الإسلامية).

«بتعميم الجالية الإثنية الإسلامية كهدف للمراقبة، ارتكبت [أبين] جريمة تحيّز عِرقي». لكن في حديثنا الخاص ذكر أنّه لا يعقتد أن النزعة العِرقية المعادية للعرب والمعادية للمسلمين متفشية في الحكومة البرازيلية برمّتها، بل تقتصر على بعض الأفراد داخل وكالة الاستخبارات ذاتها. أي أن ناصر سعى إلى رفع شكوى أمام القضاء على «أبين» فقط.

وحين أشرتُ إلى أن «الكثير من العرب يتحدثون عن الديمقراطية العِرقية»، أجاب رجب: «لكن حين تقع مشكلة، لم يُقدِم أحد على فعل شيء». ويبقى أن نعرف إن كان هذا الكشف العلني لنزعة عِرقية معادية للعرب ومعادية للمسلمين يمكن أن تغيّر جذرياً المفاهيمَ الذاتية للعرب المتعلّقة بديمقراطيةٍ إثنية وعِرقية مزعومة بالبرازيل.

تحدّث ناصر رجب مطولاً عن تقارير إخبارية تناولت مراقبة ما يسمّى جماعات إثنية إسلامية. وبما أن «أبين» وكالة حكومية تُعنى «بالأمن القومي» ـ يشرح رجب ـ فيمكن عدّ العرب المسلمين تهديداً أمنياً الآن. لكنه شدّد على أن الدعوى القضائية على «أبين» لا تتعلق بحق المسلمين في ممارسة شعائرهم الدينية من دون تمييز وحسب، بل بحقهم في الحصول على وظائف مُربحة أيضاً. يقول ناصر: «تخيل أنّك ذاهب لإجراء مقابلة وظيفية في مؤسسة مهنية. وصلتَ إلى مقرّ المؤسسة لإجراء المقابلة، وتبيّن في أثنائها على نحو غير متوقع أنّك عربي، وأنك مسلم». افترض ناصر أن حصول ذلك قد يحمل ربّ العمل على رفض طلبك مخافة أن يصبح هدفاً للمراقبة هو الآخر. وختم حديثه قائلاً: إن فرص العرب المسلمين في سوق الوظائف مهددة لتصويرهم بأنهم تهديد للأمن القومي. وبالتالي، فإن القضية المرفوعة على «أبين» ليست متصلة بالتحيز الديني أو العِرقي وحسب، بل بالدفاع عن ترقّي العرب المسلمين في السوق أيضاً. ليس مفاجئاً أن يكون التبرير الذي ساقه رجب للطعن ضمناً في الديمقراطية العرقية مصوغاً بعبارات اقتصادية. فكما ذكرتُ في الفصل الثالث، أضحت السوق معياراً لقياس العلاقات الإثنية في البلاد أو الدفاع عنها أو الطعن فيها.

لا ريب أنّ هذه «الدعوى الخلافية» كانت لها عواقب على الصعيد الشخصي. يتحدث رجب عن إشارة عدد من أصدقائه وزملائه إلى إمكان أن تلفت الدعوى انتباه الإعلام على نحو لا داعي له أو أن تنفّر عملاء محتملين. لكنه أجابهم بأن الدعوى القضائية على «أبين» ليست شيئاً مقارنة بكفاح

«أشقائنا» الذين «يتلقّون الرصاص في صدورهم كلّ يوم في فلسطين». بالتالي، ينظر هذا المحامي البرازيلي العربي إلى دعواه القضائية من منظور صراع عربي أشمل اليوم. وكم كانت مفاجأته حين تلقّى عدداً هائلاً من الرسائل والمكالمات الهاتفية منذ نشر تلك المقالة من الناس في شتى ربوع البرازيل، بحسب قوله هو. أي أنّه في ديمقراطية عِرقية مزعومة، استقطب شجبُه النزعة العِرقية تأييداً وتشجيعاً عامَّين عارمَين.

إحدى هذه المكالمات الهاتفية جاءته من نائب القنصل الأمريكي في ساو باولو. يقول رجب إن نائب القنصل، واسمه مالكوم، أعرب عن اهتمامه بالاجتماع به وزيارة مسجده. في البداية خشي رجب أن تكون تلك ذريعة تتسلّح بها وكالة الاستخبارات المركزية لمراقبته. وكم كانت مفاجأته حين وجد أن نائب القنصل حلو المعشر؛ وبحسب كلام رجب «إنّه أسودا». في تلك المحادثة، أوضح رجب لنائب القنصل مهزلة تحوّل جماعة إسلامية إلى هدف للمراقبة العِرقية. ففي النهاية، يُشتهَر الإسلام بتسامحه العِرقي وبمبادئه القائمة على المساواة. قال رجب لنائب القنصل: «أنا متأكد أنّك تعرف أن عدداً من السود اعتنقوا الإسلام لهذا السبب بالتحديد». أجاب نائب القنصل: «ليس من قبيل المصادفة أن اسمي مالكوم». طوّرت هاتان الشخصيتان العالميتان صداقة قوية قائمة على الزمالة منذ ذلك الحين. زار نائبُ القنصل المسجد الذي يصلّي فيه ناصر رجب وشاركه رياضة الهرولة في متنزّه إبيرابيورا. بل إن صورهما ظهرت على صفحات مجلّتي **شمس** و**العروبة** المتداوَلتين وسط الجالية العربية. وقد ظهرا في أحد الإصدارات في صورة فوتوغرافية جالسَين إلى طاولة في أثناء مأدبة غداء غير رسمية عقب صلاة الجمعة. ومع أن ناصر علّل معركته القضائية ضدّ التحيز العِرقي بأنها دفاع عن حركية العرب المسلمين في السوق، فقد أكسبته قضية «أبين» رصيداً رمزياً واجتماعياً داخل أوساط الجالية وخارجها.

لسنا نقصد التقليل من موقف المحامي ناصر رجب المعارض للممارسات المعادية للعرب والمسلمين ولمراقبتهم في البرازيل، لكن أردنا وضع الانتماء العربي في سياق البُعْد البرازيلي لنظام عالمي متقلّب. ذلك بأنّه لا أحد غيره، عربياً كان أم برازيلياً غير عربي، عبّر في السرّ أو في العلن عن القلق من وصف العرب المسلمين بأنهم تهديد للأمن القومي في البرازيل. وقد فهم البرازيليون من أبناء الطبقتين الوسطى والعليا على اختلاف أصولهم هذه التشبيهات بأنها مؤثرات خارجية لنفوذ الولايات المتحدة وسياساتها الخارجية.

أي أن صورة «العربي» بوصفه تهديداً أمنياً وهدفاً للمراقبة تلازمت كلياً مع القوة الأمريكية في نظر البرازيليين من أبناء الطبقتين الوسطى والعليا. وكما ذكر لي محام عربي آخر من الجيل الثاني، صورة العرب كإرهابيين «مفروضة على [البرازيل]، لكنّها لم تترسخ». وعدم ترجمة صورة «العربي» إلى إرهابي بسهولة في البرازيل يفسر ولو جزئياً سبب فشل ظهورها في أواخر عام ٢٠٠٠ في جذب الكثير من التدقيق العام، سواء الداعم أو المعارض. أي أنّه خارج مكتب المحاماة الذي يملكه رجب، وخارج مقار «أبين»، لا يتردد صدى الفكرة التي تقول إن العرب يمثّلون تهديدات أمنية وأنّهم بحاجة إلى المراقبة في البرازيل.

ـ ٤ ـ

هناك حدود لشمولية العولمة الأمريكية للانتماء العربي، وهو ما يتجلى خصوصاً في سيل التقارير الإعلامية التي تتحدث عن «حلقات إرهابية شرق أوسطية» زُعم أنّها موجودة في مدينة فوز دو إيغواسيو البرازيلية والمثلث الحدودي (الذي أتينا على ذكره في مقدمة الكتاب). على سبيل المثال، تكهّن جيفري غولدبيرغ، وهو مراسل لمجلة نيو يوركر، في تشرين الأوّل/ أكتوبر ٢٠٠٢ بأن «جماعات إرهابية شرق أوسطية»، منها القاعدة، تمتلك قواعد تنظيمية ومالية في مدينة فوز دو إيغواسيو وفي محيطها[٦]. كانت مقالة جيفري عارية عن الصحة ومسيئة، لكنّها أعادت مع ذلك وضع منطقة المثلث الحدودي على شاشة رادار «الحرب على الإرهاب». وفي الأشهر القليلة التالية عام ٢٠٠٣، انتشرت الشائعات في وسائل الإعلام الأمريكية والبرازيلية. ادّعت وسائل إعلام متنوعة أن أسامة بن لادن نفسه أمضى وقتاً في المدينة في أواسط تسعينيّات القرن الماضي[٧]. وهذا ما وُثّق في الظاهر بـ «اكتشاف» سابق لصورة فوتوغرافية لشلالات فوز دو إيغواسيو في معسكر تدريب تابع للقاعدة في أفغانستان. لا ريب أن مصدر الشكوك المحيطة بزيارة ابن لادن لمدينة برازيلية محاذية للأرجنتين وباراغواي هو وسائلُ الإعلام الأمريكية.

(٦) Jeffrey Goldberg, «In the Party of God,» *New Yorker* (28 October 2002), pp. 75-80.

(٧) للاطلاع على بضعة أمثلة، انظر: «Bin Laden Reportedly Spent Time in Brazil in 95,» *Washington Post*, 18/3/2003, p. 24; «Bin Laden esteve em Foz do Iguaçu e até deu palestra em mesquita,» *O Estado de S. Paulo* (16 March 2003), and Policarpo Júnior, «Ele esteve no Brasil,» *Veja* (19 March 2003).

في سياق التداول العابر للحدود لهذه الشائعة الإعلامية، التقطتْها وكالة إعلان سياحية برازيلية في مدينة فُوز دو إيغواسيو في مطلع عام ٢٠٠٤. جعلت الوكالةُ من ابن لادن «رجل لافتات إعلانية» للترويج للسياحة المحلية والدولية في المنطقة، واضعة جبينه الذي لا يدع مجالاً للشك في هويته على إعلان مؤثر جاء فيه: «إذا كان ابن لادن يجازف بحياته بزيارة فُوز دو إيغواسيو، فلأن المدينة تستحق المجازفة! . . . فُوز، الجميع يرغبون في رؤيتها»(٨). تسخر هذه الحيلة الإعلانية من الشكوك الأمريكية في أن فُوز دو إيغواسيو ملاذ للإرهاب وتستغلها. يشير ذلك إلى أنّه في وسع منطق السوق استيعاب «الحرب على الإرهاب» التي تشنّها الولايات المتحدة حيث يعاد تصنيع صورة إرهابي معادٍ للحكومة الأمريكية على هيئة رجل لافتات إعلانية لمصلحة القطاع السياحي البرازيلي. أي أن هياكل الأمن والمراقبة المعولِمة التي تقودها أمريكا استوعبتها ثقافةُ النيوليبرالية البرازيلية الآن(٩).

وعلى نحو أكثر جدّية، شجبت البرازيل، فضلاً عن دول أمريكا اللاتينية وحوض الكاريبي، اهتمامات السياسة الأمريكية بـ «الحرب على الإرهاب» في الاجتماع السنوي لمنظمة الدول الأمريكية (OAS) الذي عُقد في حزيران/ يونيو ٢٠٠٣. ضمّ الاجتماع وزراء خارجية ومسؤولين من ثلاث وثلاثين دولةً أعضاء في أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية ودول الكاريبي، في العاصمة التشيلية سانتياغو. وكما كان متوقعاً، حاول مندوب أمريكا وزير الخارجية كولن باول ترميم العلاقات التي تضررت في إثر الغزو الأمريكي للعراق. تحدّث عن تهديدات «الطغاة والمهرّبين والإرهابيين» في المثلث الإرهابي الواقع بين الأرجنتين والبرازيل وباراغواي، لكنه فشل في إقناع نظرائه بأن مسائل الأمن والمراقبة تهمّ نصف الكرة الجنوبي لا الحكومة الأمريكية فقط. وعوضاً من ذلك، أجمع مندوبو الدول الأعضاء الثلاث والثلاثين على وجوب حماية

---

(٨) Maristella do Valle, «Bin Laden vira garoto-propaganda de Foz,» *Folha de S. Paulo* (24 March 2003), p. 2.

(٩) أنا ممتنّ لبول عمار على اقتراحه الاستفزازي بأن العولمة العسكرية والصناعية بعد ١١ أيلول/ سبتمبر تتنافس مع العولمة النيوليبرالية وربما تفوقت عليها، انظر: Paul Amar, «Police and Polis in the Transnational Middle East: Security, Sexuality, and Militarized Urban Regimes in Cairo, Rio de Janeiro, and Baghdad».

وهي محاضرة ألقيت في مركز الدراسات الشرق الأوسطية في جامعة كاليفورنيا، بيركلي، عام ٢٠٠٥.

الاستقرار والديمقراطية في المنطقة بضمان التنمية الاجتماعية والاقتصادية لا بزيادة الإجراءات الأمنية(١٠).

بناء على ما تقدّم، تتواصل المرحلة السياسية والاقتصادية التي تعيشها البرازيل اليوم. وبمعاينة المقاربات البنيوية للنيوليبرالية وتعدّي إطارها في أمريكا اللاتينية(١١)، سعينا من خلال تركيزنا في هذا الكتاب على التوجه نحو التصدير والمساءلة الأخلاقية والتنوع الاستهلاكي، لتصوير التجسيد الثقافي للنيوليبرالية في البرازيل. لم أرد بذلك إظهار المزايا أو المنافع المزعومة للتجربة النيوليبرالية وإنما إظهار قوتها المُغرية والخلابة التي تأسر كبار المدراء في إستراتيجيات التصدير، وكذلك السياسيين والمواطنين المطالبين بالمساءلة الإثنية، فضلاً عن المستهلكين والإعلانيين الباحثين عن سلع مبتكرة أو منافذ سوقية مختلفة. الحجة المركزية التي استند إليها كتابي هي أن الانتماء البرازيلي العربي حاز اعترافاً متزايداً كونه مشروعاً في هذه «الثورة الصامتة» للاقتصاد السياسي(١٢).

– ٥ –

سواء أكانت الثورات صامتة أم صاخبة، فهي لا تبقى بلا حراك. مع أن الطبقتين الوسطى والعليا في البرازيل رحبتا بالليبرالية الجديدة في مطلع تسعينيّات القرن الماضي وجددتا موافقتهما الضمنية على الحلف السياسي، إذا لم يكن النموذج الاقتصادي، وانتخبتا الرئيس فيرناندو هنريكي كاردوسو عام ١٩٩٤ وأعادتا انتخابه عام ١٩٩٨، فقد بدأ التأييد الشعبي لهذه التجربة

(١٠) Larry Rohter, «Latin Lands Don't Share Powell's Priorities,» *New York Times*, 9/6/2003.

(١١) Florence Babb, *After Revolution: Mapping Gender and Cultural Politics in Neoliberal Nicaragua* (Austin, TX: University of Texas Press, 2001); Robert Gwynne and Cristobal Kay, «Latin America Transformed: Changing Paradigms, Debates and Alternatives,» in: Robert Gwynne and Cristobal Kay, eds., *Latin America Transformed: Globalization and Modernity*, (New York: Arnold and Oxford University Press, 1999), pp. 2-29; Peter Kingstone, *Crafting Coalitions for Reform: Business Preferences: Political Institutions, and Neoliberal Reform in Brazil* (University Park: Pennsylvania State University Press, 1999); Philip Oxhorn and Graciela Ducantenzeiler, eds., *What Kind of Democracy?: What Kind of Market? Latin America in the Age of Neoliberalism* (University Park: Pennsylvania State University Press, 1998); Susan Carol Stokes, *Mandates and Democracy: Neoliberalism by Surprise in Latin America* (New York: Cambridge University Press, 2001); Kurt Weyland: *Growth without Equity: Failures of Reform in Brazil* (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1996), and «Swallowing the Bitter Pill: Sources of Popular Support for Neoliberal Reform in Latin America,» *Comparative Political Studies*, vol. 31, no. 5 (1998), pp. 539-568.

بالانحسار. وبحلول أواسط تسعينيّات القرن الماضي، رفض كاردوسو وجماعته صراحة عبارة «النيوليبرالية» أو «الليبرالية الجديدة» في الوقت الذي كانوا يمارسون مبادئها بإبرام اتفاقات أو تجديدها مع صندوق النقد الدولي ومع البنك الدولي. لا ريب أن التأثيرات الكارثية للسوق الحرّة في أوساط البرازيليين الفقراء الحضريين والريفيين ظهرت أصلاً في ذلك الوقت. فليس مفاجئاً إذاً أن يخسر خوسيه سيرا مرشح حزب كاردوسو السياسي الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٢ أمام مرشح حزب العمال لويز إيناسيو «لولا» دا سيلفا. وكان السؤال الحاسم هو إن كان لولا سيتمكن من الانعتاق من تركيبة النيوليبرالية وثقافتها.

لكن، كما أشار الخبير الأمريكي في علم الاجتماع جايمس بيتراس منتقداً، شهدت السنتان الأوليان في رئاسة لولا استمراراً مذهلاً لاتفاقات من سبقوه مع «سياسات التكيّف الهيكلي الخاصة بالسوق الحرّة التي اقترحها صندوق النقد الدولي»(١٣). ووصف الخبراء المتخصصون الناقدون والمراقبون العاديون على السواء رئاسة لولا بأنها «التفويض الثالث لفيرناندو هنريكي [كاردوسو]». وعلى الرغم من ظهور علامات تغيير محتملة، فقد جدّد لولا التجربة النيوليبرالية في البرازيل(١٤)؛ وهو بانحيازه إلى النخب التجارية والصناعية البرازيلية، شدّد على الحاجة إلى زيادة الصادرات الوطنية في الاقتصاد الحرّ ودفَع بالأهداف الخاصة بذلك قدماً بتبنّيه مواقف أخلاقية وسياسية في المنتديات الوطنية والعابرة للحدود(١٥). والظاهر أن السياسة النيوليبرالية لا تزال مستمرة حتّى وقت هذه الكتابة.

---

(١٢) Duncan Green, *Silent Revolution: The Rise of Market Economics in Latin America* (London: Cassell, 1995), p. 2.

(١٣) كما أشار بيتراس أيضاً، زاد لولا دفعات سداد الديون لصندوق النقد الدولي «بنسبة ناهزت ١٤ في المئة» في مطلع عام ٢٠٠٣. انظر: James Petras and Henry Veltmeyer, «Whither Lula's Brazil? Neoliberalism and «Third Way» Ideology,» *Journal of Peasant Studies*, vol. 31, no. 1 (2003), p. 2.

(١٤) على الرغم من شجب لولا النزعة النيوليبرالية لخلفه غير مرّة، فقد أظهر مؤخراً هو وحلفه المنتمي إلى يسار الوسط علامات على خروج محتمل من الوضع الراهن. ففي آذار/ مارس ٢٠٠٥، أعلنت الحكومة عزمها على عدم تجديد عقدها مع صندوق النقد الدولي الذي كان لا يزال سارياً منذ عام ١٩٩٨. لكن بدا أن هذا القرار كان وثيق الصلة بالانتخابات الرئاسية المقبلة في البرازيل عام ٢٠٠٦.

(١٥) طلبت منظمة «الشفافية الدولية» التي أتينا على ذكرها في عجالة في الفصل الثاني إلى لولا وإلى منافسه خوسيه سيرا توقيع «التزام بمحاربة الفساد» في أثناء السباق الرئاسي عام ٢٠٠٢. تضمن «الالتزام» عدة إجراءات لتعزيز الضمانات الدستورية بمحاربة الفساد والتي وعد كل مرشّح بتطبيقها في حال انتخابه رئيساً.

ليس مفاجئاً أن الانتماء العربي حافظ على زخمه في البرازيل التي يقودها لولا. على سبيل المثال، ساعد لولا على عقد مؤتمر «لبنان الكوكب» في تموز/ يوليو ٢٠٠٣. أشرف على ذلك المؤتمر، الذي جذب نحو ٢٠٠٠ رجل أعمال إلى ساو باولو وفُوز دو إيغواسيو، الغرفةُ التجارية العربية البرازيلية التي يرئسها برازيليون من أصل سوري ولبناني في ساو باولو، والمجلسُ التجاري الدولي اللبناني الذي يرئسه مغترب لبناني مقيم في الولايات المتحدة. وبعدما استقبل لولا رئيسَ الوزراء اللبناني رفيق الحريري، وصف المؤتمر بأنه وسيلة لزيادة حجم التبادل التجاري بين البرازيل ولبنان(١٦). وأعلن في خطاب افتتاح المؤتمر الذي أذيع في نشرة أخبار الساعة الثامنة على شبكة «غلوبو» التلفزيونية في أوائل حزيران/ يونيو ٢٠٠٣ أن حياته في أيدي اللبنانيين، يعني بذلك طبيبه الشخصي اللبناني الأصل. وفي حفل استقبال لاحق في نادي أتلتيكو جبل لبنان الرياضي، قال لولا: «لبنان بلد عزيز على البرازيل نظراً إلى أهمية الجالية اللبنانية الجذور في بلدنا وإلى مساهمة المهاجرين اللبنانيين الملحوظة في تطورنا كدولة». وفي سياق الاحتفال العام بالحضور اللبناني في البرازيل خلال هذا المؤتمر الذي تمحور حول التجارة، أعلن لولا عن عزمه على زيارة لبنان والوطن العربي في وقت لاحق من السنة نفسها.

في مطلع كانون الأوّل/ ديسمبر ٢٠٠٣، قام لولا على رأس وفد دبلوماسي وتجاري بزيارة استمرت تسعة أيام شملت سورية ولبنان والإمارات العربية المتحدة ومصر وليبيا. كانت تلك أول مرة يزور فيها رئيسٌ برازيلي الوطن العربي منذ الإمبراطور دوم بيدرو الثاني في أواخر القرن التاسع عشر. وبحاشية كبيرة لا تختلف عن حاشية الإمبراطور، «رافق لولا ستة وخمسون شخصاً، منهم أربعة حكام ولايات، وخمسة وزراء، وسبعة معاونين فدراليين»، فضلاً عن نحو ١٥٠ مديراً رئيسياً برازيلياً، منهم مدراء شركات بناء، مثل أوديبريخت وكويروز غالفاو. عكست الرحلة أحد أهداف لولا وهو التقريب بين بلدان أمريكا الجنوبية والبلدان العربية في تحوّل لما سمّاه «الجغرافيا التجارية للعالم». وعلى النقيض من دعوة سلفه إلى زيادة الصادرات البرازيلية إلى الأسواق

(١٦) Paula Santa Maria, «Primeiro-ministro do Líbano visita Lula,» *Gazeta Mercantil* (4 June 2003), p. 5, and Gabriela Valente, «Lula e Hariri criam comissão bilateral,» *Gazeta Mercantil* (10 June 2003), p. 8.

الخارجية غير التقليدية، أعرب لولا عن منطق السوق بجاذبية سياسية (وشعبية) كبيرة. خاطب بضع مئات من المدراء في لبنان قائلاً: «آن الأوان لكي نغيّر الجغرافيا التجارية للعالم. إذا عمل كلّ منا بمفرده، لن يتمكن أحد من منافسة البلدان الغنية، لكن باجتماعنا نمتلك قوة كبيرة. . . نحمل البلدان الغنية على تليين قواعدها لكي تتسنى لنا المنافسة بشروط عادلة». وأشار لولا في الخطاب نفسه إلى الاتصالات القائمة بين المدراء البرازيليين ونظرائهم اللبنانيين في ضوء وجود نحو سبعة ملايين شخص لبناني الأصل في البرازيل. وأضاف: «أدعو الله أن يوفّق المدراء البرازيليون في تعلّم فنّ التجارة مع المدراء اللبنانيين»(١٧). في هذه العبارة الثانية، عبّر عن البراعة الفطرية في المساومة المنسوبة تاريخياً إلى الشرق الأوسطيين في البرازيل في صراعات بلدان أمريكا الجنوبية والبلدان العربية «النامية» مع الشمال «الغني».

كما خدمت الزيارة التي أقرّ بأهميتها أقطاب الإعلام والمسؤولون الحكوميون في تعزيز مكانة البرازيل في الوطن العربي في الوقت الذي تدهورت علاقاته بالإدارة الأمريكية بعد هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر. حفلت هذه الرحلة بانتقادات لولا للاحتلال الإسرائيلي لفلسطين ولمرتفعات الجولان، وللاحتلال الأمريكي للعراق، ودافع عن حقّ الشعب الفلسطيني والسوري والعراقي في السيادة، وأعرب عن الحاجة المستمرّة إلى اللجوء إلى الأمم المتحدة واحترامها. عكست هذه المواقف الأخلاقية والسياسية في الظاهر هدف الرئيس لولا المتمثل بجعل البرازيل نصيراً، منفصلاً عن السياسة الخارجية الأمريكية ومعارضاً لها، في الشؤون الدولية. لكنّها كانت جزءاً من مهمة تركّز على السوق كذلك. وكما ذكر أحد المراسلين: «على الرغم من هذا المكوّن السياسي والرمزي القوي في رحلة لولا، أمَلُ البرازيليين هو زيادة التبادلات التجارية للبلاد مع هذه المنطقة. لقد تصرف الرئيس كما لو كان تاجراً»(١٨). في حقبة ما بعد هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر، قرنت الدولة البرازيلية السياسات المعادية للإمبريالية بمنطق السوق في نصف الكرة الجنوبي في النظام العالمي.

(١٧) Fernando Rodrigues and Alan Marques, «No Líbano, Lula defende uma nova «geografia commercial»,» *Folha de S. Paulo* (6 December 2003), p. 4.

(١٨) Fernando Rodrigues, «Lula «vende» Brasil na Síria e defende Estado palestino,» *Folha de S. Paulo* (4 December 2003), p. 4.

كان من نتائج هذه المهمة الدبلوماسية في الوطن العربي انعقاد قمّة بلدان أمريكا الجنوبية والبلدان العربية في برازيليا في أيار/ مايو ٢٠٠٥. بأسلوب لا يُعرف له في التاريخ مثيلاً، جمعت القمّة ممثلين عن اثني عشر بلداً أمريكياً جنوبياً واثنين وعشرين بلداً عربياً. وقد صرّح لولا في الخطاب الافتتاحي أن الغاية من القمّة مواجهة تحدّي «تصميم جغرافيا تجارية واقتصادية دولية جديدة»[١٩]. كان لولا في هذه المهمة على دراية تامة بالأهمية السياسية المتأصلة في القمّة. قال لولا: «ما يحرّك القادة هنا اليوم هو ضرورة تعزيز فضاء سياسي لبناء عالم ينعم بالسلام، والديمقراطية، والعدالة الاجتماعية». حتّى إن وزير العلاقات الخارجية سيلسو أموريم كان أوضح حين قال: «المراد بتكوين جغرافيا اقتصادية عالمية جديدة التوجه من البرازيل إلى القاهرة من دون الحاجة إلى المرور بواشنطن أو باريس»[٢٠]. ودارت على هامش القمّة التي استمرّت يومين وتجاهلتها وسائل الإعلام الأمريكية أو شجبتها على نحو غير مفاجئ، مناقشاتٌ حول التجارة الحرّة وكانت محلّ انتقاد السياسة الخارجية الأمريكية[٢١].

وكما فعل الرئيس لولا خلال زيارته الرسمية للوطن العربي، أشار إلى الحضور العربي في البرازيل وفي أمريكا الجنوبية. على سبيل المثال، قال في افتتاح القمّة: «لهذه القمة مذاق بالنسبة إلى البرازيل وإلى قارّتنا: اللقاء المتجدد للأمريكيين الجنوبيين مع حضارة وفدت إلينا أول مرّة من خلال التراث الإيبيري، ثمّ من خلال الهجرة». واستدلالاً «بتنوع [البرازيل] الثقافي والإثني كمثال على الديمقراطية والتسامح»، أشار لولا في خطاب اختتام القمّة إلى «قلّة البلدان التي يوجد فيها هذا العدد الكبير من العرب والمنحدرين من أصول عربية الذين يعيشون في هذا البلد، والذين ينعمون بالسلم هنا،

---

(١٩) «Discurso do presidente da República, Luiz Inácio Lula da Silva, na sessão de abertura da Cúpula América do Sul-Paises Árabes,» Centro de Convenções Ulysses Guimarães (10 May 2005).

(٢٠) Eliane Cantanhêde, «Democracia é algo que existe também no Sul, diz ministro,» *Folha de S. Paulo* (6 May 2005), p. 14.

(٢١) نشرت ذي نيويورك تايمز مقالة واحدة، انظر: Larry Rohter, «Little Common Ground at Arab-South American Summit Talks,» *New York Times*, 11/5/2005.

الأمر الذي ينبغي توقعه هو أن المراسل قلّل من شأن القمّة كونها منقسمة على نحو يتعذر إصلاحه. وعلّقت الصحافة البرازيلية أيضاً على هذه «الهفوة» الأمريكية والأوروبية في تغطيتها للمناسبة. انظر: Fábio Maison-Nave, «Governo dos EUA e analistas ignoram evento,» *Folha de S. Paulo* (12 May 2005), p. 6.

وينخرطون في السياسة، ويشاركوننا أديانهم. . . لقد ساعد هؤلاء الناس على بناء هذا البلد»[٢٢] بالتالي، جرى الاعتراف بالإثنية البرازيلية العربية في هذه المناسبة الرمزية الكبيرة التي جمعت النخب السياسية والاقتصادية الأمريكية الجنوبية والعربية.

إضافة إلى هذه الومضات الخطابية، حاز الحضور العربي في البرازيل وأمريكا الجنوبية قوة ظاهرة في معرض للصور الفوتوغرافية نظّمته وزارة العلاقات الخارجية في الحكومة البرازيلية خصيصاً لهذه القمّة وشارك في رعايته مصرف المركز الثقافي البرازيلي. حمل المعرض العنوان «أمريك»، في إشارة إلى طريقة العرب المفترضة في لفظ كلمة «أمريكا»، مبرزاً بُعدَين «للحضور العربي في أمريكا الجنوبية: الإرث القديم» للأندلس في شبه الجزيرة الإيبيرية الذي «نُقل» إلى الأمريكيين الجنوبيين على يدّ الأسبان والبرتغاليين؛ والمهاجرون السوريون ـ اللبنانيون في الأغلب الذين أثّروا بالمثل في أنماط الحياة الأمريكية الجنوبية وانصهروا فيها[٢٣] امتلأ المعرض بالصور الفوتوغرافية لتصاميم معمارية تحمل زخارف عربية لكنائس الجالية في أمريكا الجنوبية، وملابس راعي بقر من الغوتشو متأثرة بالتصاميم المغربية، فضلاً عن صور لمسنّين وشباب سوريين ـ لبنانيين في مشاهد من حياتهم اليومية في مختلف أنحاء أمريكا الجنوبية. بالنسبة إلى البُعد المتعلق بالمهاجرين السوريين ـ اللبنانيين، جاء في كُتيّب المعرض وفي موقعه الإلكتروني: «جلب أبناء العمومة [في إشارة إلى المهاجرين العرب] مأكولاتهم، مثل الكبّة، والتبّولة، والطحينة، والصفيحة، والخليط الغني من التوابل، إلى المأكولات المحلية. كما أنَّ حضورهم مذهل في التجارة، في واجهات المحال، والمؤسسات، والصناعات؛ وفي الأندية والجمعيات الخيريّة؛ وفي الأدب والموسيقى والرياضة والطبّ والسياسة». دُشّن معرض «أمريك» في العاصمة الاتحادية برازيليا، وجال في الأشهر التالية على ريو دي جانيرو، وساو باولو، ومدينة كيورتيبا الجنوبية. لقد أقيم هذا المعرض الذي أصبح محل تداول في الحياة العامة البرازيلية من أجل قمّة سعت لتكوين «جغرافيا تجارية جديدة للعالم».

---

(٢٢) Eliane Cantanhêde and Cláudia Dianni, «No final, Lula diz que falta de democracia é ameaça global,» *Folha de S. Paulo* (12 May 2005), p. 4.

(٢٣) انظر الموقع الإلكتروني للمعرض، في: <http://www.amrik.com.br>.

في ضوء ما تقدّم، الظاهر أن الانتماء العربي في البرازيل يواصل كسب الاعتراف به من خلال ثقافة الليبرالية الجديدة. ليس المراد من هذا القول إنكار تأثير أحداث ١١ أيلول/سبتمبر وما تلاها في يومنا هذا، لكنّ المراد تلافي التكهنات المتسرّعة «بعصر جديد» بالتفطّن للأوضاع الحقيقية ولو كانت ظرفية. ففي مؤتمر «لبنان الكوكب» الذي عُقد في ساو باولو في تموز/يوليو ٢٠٠٣، وفي أثناء الزيارة الدبلوماسية البرازيلية للوطن العربي في كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠٣، وفي قمّة بلدان أمريكا الجنوبية والبلدان العربية في برازيليا في أيار/مايو ٢٠٠٥، أشير إلى الإثنية البرازيلية العربية مراراً وتكراراً في سياق منطق السوق والأحلاف بين البرازيل والوطن العربي. لكنّ هذا الاعتراف المميّز ليس جديداً، مع أنه يمثّل جزءاً من زخرفة عربية من نوع آخر برزت في البرازيل في أواخر القرن العشرين وفي مستهلّ القرن الحادي والعشرين، وهو ما سعيتُ إلى إظهاره في ثنايا هذا الكتاب. وأنا أشك في أن تلقى مساواةُ الأمريكيين بين الانتماء العربي وانعدام الأمن صدى كبيراً في المخيلة الوطنية البرازيلية في المستقبل، لكنّ هذا الاعتقاد يبقى في طور التخمين. لكن ما يمكن قوله بيقين أكبر هو أن المشروع الإثني العربي الذي حاز قوة خلال التجربة النيوليبرالية سيستمرّ في البرازيل ولو بعد أفول النيوليبرالية نفسها.

ثبت المصطلحات

Abidao	عبده
Aceito	مقبول
ACESC	جمعية الأندية الرياضية والاجتماعية في ساو باولو
Afetivo	تودّدي
Agencia Brasileira de Inteligencia	وكالة الاستخبارات البرازيلية
Alinhado	أنيق
AMET	اتحاد وسائل الإعلام الإثنية
Amor	حبيب
Apadrinhadoau	الابن في العماد سياسياً
Arabe	عربي
Arabe brasileiro	عربي برازيلي
ARs	الإدارات الإقليمية
Bahiano	ساكن ولاية باهيا الواقعة شمال شرق البرازيل
Banco	مصرف
Bandieras	أعلام
Barzinho	حانة صغيرة
Berço	مهد
Bordellos	بيوت الدعارة
Brasileira	امرأة برازيلية
Brasilidade	الانتماء البرازيلي

Briga	صراع
Brincadeira	نكتة
Caboclo	هنود مختلطون
Camelo	بائع متجول
Caml	نادي أتلتيكو جبل لبنان
Carcamano	وصف للمهاجرين الأوروبيين غير الإيبيريين
Carta	رسالة
Cartaozinhos	بطاقات عمل
Carteirinha	هوية
Casa	منزل/ بيت
CCAB	الغرفة التجارية العربية البرازيلية
Cedro do Libano	جمعية أرز لبنان
Cidade	مدينة
CMES	مركز الدراسات الشرق الأوسطية
Colnia arabe	الجالية/ المجتمع العربي
Colonia	مستعمرة/ جالية
Colonos	مزارعون مستأجرون للأرض
Comida	طعام/ مأكولات
Comunidades etnicas	مجتمعات إثنية
Conselho de imigracio e Coloniza-cao	وكالة الهجرة الحكومية
Constrangimento	انزعاج
Convenios	اتفاقات
Convivencia	الأنس/ المنادمة
Culinaria arabe	المطبخ العربي
CUT	اتحاد العمال المتحدين

De	من
Democracia racial	الديمقراطية العرقية
Descendencia	السلالة/ النسب
Descendente	سليل/ حفيد
Desconfianco	عدم ثقة
Descontinho	خفض السعر
Dinheiro	المال
Diploma	شهادة دراسية
Discriminacao	تمييز
DO	من
Doces	حلويات
Doutores	خرّيجو الجامعات
E	واو العطف
E voto	صوت انتخابي
ECS	النادي الرياضي السوري
Efeito de eatatistica	لها أثر إحصائي
Ele e Americano	إنه أمريكي
Emigrado	مغترب
Ensaista	كاتب
Envergonhou	عيّر
Estado Novo	الجمهورية الثانية
Estatuto do estrangeiro	النظام الأساسي للأجانب
Ethnography	إثنوغرافيا، علم وصف الشعوب
etica	الأخلاق
Etico	أخلاقي
Etnicidade	إثنية

Etnico	إثني
Familia arabe-muculmana	أسرة عربية مسلمة
Fearab	اتحاد الهيئات العربية في الأمريكيتين
Filho	ابن
Filho de libaneses	أحد أبناء الجالية اللبنانية
Filho de turcos	ابن الأتراك
For a da colonia	من خارج الجالية
Franquia	امتياز
Furado	ممل
Garcom	نادل
Grande	كبير
Grao	حبوب
Guilherme	ويليام
HMO	منظمة إدارة صحية
Homenagem	إشادة
IMF	صندوق النقد الدولي
Imigração	هجرة
Impotado	مستورَد/ وافد
Infelizmente	لسوء الحظ
Integra	يندمج
Integracao	التكامل
ISI	برنامج بدائل الواردات بالتصنيع
Jantar	عشاء
Japonesinho	ياباني صغير
Jardin	حديقة
Judeus	يهود

Libanes	لبناني .
Liga das Damas Sirias	رابطة السيدات السوريات
Luso	برتغالي
Mae da lei	أمّ القانون
Mafia das propinas	مافيا السمسرات
Mascates	باعة متجولون
Melhor	أفضل
Mescal	خليط
Mesticagem	مزيج
Meuos olhos	يا عيوني (بالبرتغالية)
Misturar as racas	أعراق مختلطة
Monte	كومة
Moreno	بني
MPB	الموسيقى الشعبية البرازيلية
Nacional	وطني
Nao gostam de se misturar	لا يحبون التمازج
Negao	زنجي
Negocio	صفقة
Negro de ganho	خادم أسود
Neto	حفيد
No exterior	في الخارج
Nordestino	المنطقة الشمالية الشرقية
O	ألـ التعريف
Ondo revertida	موجة معاكسة
Operarios	عمال المصانع
ordem dos advogados do brasil	جمعية المحامين البرازيليين

Origin	أصل
Originaria	أصليّ
Padrinho	شاهد العريس
Pao duro	بخيل
Papo	حديث
Parceria	شراكة
Partido dos trabalhadores (PT)	حزب العمال
Patria	البلاد
Patricia	امرأة ريفية
Patricio	ريفي
Pita azeda	خبز تنور مرّ المذاق
PMDB	حزب الحركة الديمقراطية البرازيلية
Porque	لأن
PPB	الحزب التقدمي البرازيلي
Preconceita	تحامل
Preto	زنجي
Primo	ابن عم
Promisso	وعد
PT	حزب العمال البرازيلي
Quatrocentoes	البرتغاليون البرازيليون
Querido	عزيزي
Quistos	المعنى الحرفي حويصلات، والمعنوي بؤر
Rapazes	رفاق
Resgate	تجديد
Rouba mas faz	يسرق لكنّه يُنجز ما ينبغي إنجازه
Rua 25 de Marco	شارع ٢٥ مارس

Salao Nobre	قاعة النبلاء
Sampa	ساو باولو
Saudade	حنين
Se	إذا
Senhor	سيد
Senhora	سيدة
Sessao solene	جلسة احتفالية
Sieio-libanese	سوري - لبناني
Sieo	حضن
Sirio	سوري
Sistema Unico de Saude (SUS)	النظام الصحي الحكومي
Sociedade Beneficente Muculmana	الجمعية الخيرية الإسلامية
Sujou	لطّخ
Suplente	عضو بديل في مجلس البلدية
Tietense	أحد سكان تياتي، بولاية ساو باولو
titular de sócio	لقب عضوية
Transparencia	الشفافية
Triplice fronteira	المثل الحدودي
Turcalhada	جماعة أتراك
Turcao	تركي كبير
Turco	تركي
Turquinho	تركي صغير
USP	جامعة ساو باولو
Varrer	مسح
Ventre	بطن (في إشارة إلى الرقص الشرقي)

المراجـــع

١ ـ العربية

كتب

حمادة، سعيد. **النظام الاقتصادي في سورية ولبنان.** بيروت: الجامعة الأميركية في بيروت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٣٦.

٢ ـ الأجنبية

Books

Abraham, Sameer and Nabeel Abraham (eds.). *Arabs in the New World: Studies on Arab American Communities*. Detroit, MI: Wayne State University Press, 1983.

Abu-Lughod, Leila. *Dramas of Nationhood: The Politics of Television in Egypt*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 2005.

Akmir, Abdeluahed. *La inmigración árabe en Argentina (1880-1980)*. Madrid: Universidad Complutense de Madrid, 1991.

Amado, Jorge. *A descoberta da América pelos turcos*. Rio de Janeiro: Editora Record, 1991.

______. *Gabriela, cravo e canela*. 79th ed. Rio de Janeiro: Editora Record, 1998 [1958].

______. *Sao Jorge de Ilhéus*. Rio de Janeiro: Olympus, 1945.

______. *Tocaia Grande: A face Obscura*. Rio de Janeiro: Editora Record, 1981.

Anderson, Benedict. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism.* New York: Verso, 1991 [1983].

Andrews, George Reid. *Blacks and Whites in São Paulo, Brazil: 1888-1988.* Madison: University of Wisconsin Press, 1991.

Antonius, George. *The Arab Awakening: The Story of the Arab Notional Movement.* New York: Capricorn Books, 1965 [1939].

Aoun, Farid. *Do cedro ao mandacarú.* Recife: Editora Pernambucana, 1979.

Appadurai, Arjun. *Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization.* Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1996.

_______ (ed.). *Globalization.* Durham, NC: Duke University Press, 2001.

Appelbaum, Nancy P., Anne S. Macpherson and Karin Alejandra Rosemblatt (eds.). *Race and Nation in Modern Latin America.* Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2003.

Armbrust, Walter (ed.). *Mass Mediations: New Approaches to Popular Culture ill the Middle East and Beyond.* Berkeley, CA: University of California Press, 2000.

Associacao dos Antigos Alunos da Faculdade de Medicina da Universidade de São Paulo (AAAFMUSP). *Medicos da Faculdade de Medicina da Universidade de São Paulo.* São Paulo: AAAFMUSP, 1995.

Assrauy, Nagib. *O Druzismo.* Belo Horizonte: Editora Sao Vicente, 1967.

Aswad, Barbara (ed.). *Arabic Speaking Communities in American Cities.* New York: Center for Migration Studies, 1974.

Azevedo, Thales. *As elites de cor: Um estudo de ascencão.* São Paulo: Companhia Editora Nacional, 1951.

Babb, Florence. *After Revolution: Mapping Gender and Cultural Politics in Neoliberal Nicaragua.* Austin, TX: University of Texas Press, 2001.

Bacelar, Ieferson. *A hierarquia das raças: Negros e brancos em Salvador.* Rio de Janeiro: Pallas, 2001.

Baer, Werner. *The Brazilian Economy: Growth and Development.* 4th ed. Westport, Conn: Praeger, 1995.

Basch, Linda, Nina Glick-Schiller and Cristina Szanton-Blanc. *Nations Unbound: Transnational Projects, Postcolonial Predicaments, and Deterritorialized Nation-States.* Langhorne: Gordon and Breach, 1994.

Bastani, Jorge Tanus. *O Libano e os libaneses no Brasil.* Rio de Janeiro: Mendes Junior, 1945.

Bastide, Roger. *Brasil: Terra de contrastesi.* Rio de Janeiro: Companhia Editora Nacional, 1964.

______ and Florestan Fernandes. *Brancos e negros em São Paulo.* 3rd ed. São Paulo: Companhia Editora Nacional, 1971.

Bergsman, Joel. *Brazil: Industrialization and Trade Policies.* New York: Oxford University Press, 1970.

Bezerra, Marcos Otavio. *Corrupção: Um estudo sobre poder público e reladies pessoais no Brasil.* Rio de Janeiro: Reiume-Dumara, 1995.

Bilate, Anver. *Ze Felipe: O libanes.* Rio de Janeiro: C. Mendes Junior, 1966.

Bourdieu, Pierre. *Distinction: A Social Critique of the Judgment of Taste.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1984.

______. *Language and Symbolic Power.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991.

______. *Outline of a Theory of Practice.* Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1977.

Brasil: 500 Anos de Povoamento. Rio de Janeiro: IBGE, 2000.

Browning, Barbara. *Samba: Resistance in Motion.* Bloomington, IN: Indiana University Press, 1995.

Burdick, John. *Blessed Anastacia: Women, Race, and Popular Christianity in Brazil.* New York: Routledge, 1998.

Calhoun, Craig (ed.). *Habermas and the Public Sphere.* Cambridge, MA: MIT Press, 1992.

Camara de Comércio Arabe Brasileira. *Camara de Comércio Arabe Brasileira.* São Paulo: CCAB, 1998.

______. *Almanaque.* São Paulo: CCAB, 1989.

Campos, Mintaha Alcuri. *Turco Pobre, sírio remediado, libanês rico: A trajetória do imigrante libanês no Espírito Santo.* Vitoria: Instituto Jones dos Santos Neves, 1987.

Cardoso, Fernando Henrique and Octavio Ianni. *Côr e mobilidade social em Florianópolis.* São Paulo: Companhia Editora Nacional, 1960.

Cardozo, Jose Eduardo. *A mafia das propinas: Investigando a corrupção em São Paulo.* São Paulo: Editora Fundacao Perseu Abramo, 2000.

Carrillo, Luis Ramirez. *Secretos de familia: Libaneses y elites empresariales en Yucatan.* Mexico City: Consejo Nacional para la Cultura y las Artes, 1994.

Carvalho, A. Dardeau. *Situação jurídica do estrangeiro no Brasil.* São Paulo: Sugestoes Literarias, 1976.

Carvalho, Hernani de. *Sociologia da vida rural.* Rio de Janeiro: Editora Civilizacao Brasileira, 1951.

Carvalho, Rejane Vasconcelos Accioly de. *Transição democrática brasileira e padrão midiático publicitário da politica*. Campinas: Pontes, 1999.

Caufield, Sueann. *In Defense of Honor: Sexual Morality, Modernity, and Nation in Early Twentieth Century Brazil*. Durham, NC: Duke University Press, 2000.

Chase, Jacquelyn (ed.). *The Spaces of Neoliberalism: Land, Place and Family in Latin America*. Bloomfield, Conn.: Kumarian Press, 2002.

Chatterjee, Partha. *The Nation and Its Fragments*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1993.

Chavez, Antonio. *As normas nacionalizadoras no direito brasileiro*. São Paulo: Saraiva, 1950.

Cheah, Pheng and Bruce Robbins (eds.). *Cosmopolitics: Thinking and Feeling beyond the Nation*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1998.

Clifford, James. *Routes: Travel and Translation in the Late Twentieth Century*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997.

_______ and George Marcus (eds.). *Writing Culture: The Poetics and Politics of Ethnography*. Berkeley, CA: University of California Press, 1986.

Correntes de imigrantes e invenções culinárias no 5º centenário do Brasil. São Paulo: [n. pb.], 2000.

Conselho de Imigração e Colonizacao. *Ante-projcto de lei sabre imigração e colonização*. Rio de Janeiro: Imprensa Nacional, 1943.

Cutait, Daher Elias. *Um médico, uma vida*. São Paulo: Editora Mandarim, 2000.

DaMatta, Roberto. *Carnivals, Rogues, and Heroes*. South Bend, Ind.: University of Notre Dame Press, 1991.

Davies, Charlotte Aull. *Reflexive Ethnography: A Guide to Researching Selves and Others*. New York: Routledge, 1999.

Davila, Arlene. *Latinos Inc.: The Marketing and Making of a People*. Berkeley, CA: University of California Press, 2001.

De Gois, Chico. *Segredos da máfia: Os bastidores do escândalo que abalou São Paulo*. São Paulo: Publisher Brasil, 2000.

Dean, Warren. *The Industrialization of São Paulo, 1880-1945*. Austin, TX: University of Texas Press, 1969.

Degler, Carl. *Neither Black nor White: Slavery and Race Relations in Brazil and the United States*. Madison: University of Wisconsin Press, 1986 [1971].

Departamento Estadual da Estatistica. *Catálogo das industrias do Municipio da Capital, 1945*. São Paulo: Rothschild Loureiro e Cia, 1947.

Diegues, Manuel. *Etnias e culturas no Brasil.* Rio de Janeiro: Civilizacao Brasileira, 1976 [1952].

______. *Imigração, urbanização e industrialização.* Rio de Janeiro: Instituto de Estudos Pedagologicos, 1964.

Dilley, Roy (ed.). *Contesting Markets: Analyses of Ideology, Discourse, and Practice.* London: Edinburgh University Press, 1990.

Do Rio, Joao [Paulo Barreto]. *As Religiões do Rio.* Rio de Janeiro: Editora Companhia Nacional, 1928.

Duany, Jorge. *The Puerto Rican Nation on the Move: Identities on the Island and in the United States.* Chapel Hill, NC: University of North Carolina Press, 2002.

Duoun, Taufik. *A emigração sirio-libanesa as terras de promissão.* São Paulo: Tipografia Editor a Arabe, 1944.

Ellis, Alfredo (Jr.). *Populações Paulistas.* São Paulo: Companhia Editora Nacional, 1934.

Emigração e imigração internacionais no Brasil contemporâneo. Coord. Neide Lopes Patarra. 2nd ed. São Paulo: Fundo de Populacao das Nacoes Unidas, 199.

Estatuto do Estrangeiro, Lei No. 6.815 de 19-8-80, 26th ed. São Paulo: Editora Atlas, 2000.

Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference. London: George Allen and Unwin, 1969.

Ethnography and the Historical Imagination. Boulder, CO: Westview Press, 1992 [1982].

Evans, Peter. *Dependent Development: The Alliance of Multinational, State, and Local Capital in Brazil.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1979.

Fanon, Frantz. *Black Skin, White Masks.* New York: Grove Press, 1965.

Farhat, Emil. *Dinheiro na estrada: Uma saga de imigtantes.* São Paulo: T. A. Queiroz, 1987.

Farmer, Paul. *Pathologies of Power: Health, Human Rights, and the New War on the Poor.* Berkeley, CA: University of California Press, 2003.

Fausto, Boris (ed.). *Fazer a América: A Imigração em massa para a América Latina.* São Paulo: Editora da Universidade de São Paulo, 1999.

______ [et al.]. *Imigração e politica em São Paulo.* São Paulo: Editor IDESP/ Sumaré, 1995.

Fawaz, Leila. *Merchants and Migrants in Nineteenth Century Beirut*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1983.

Federacao De Entidades Arabes do Brasil (Fearab). *II Congresso panamericano árabe: São Paulo-Brasil*. São Paulo: Fearab, 1974.

Fernandes, Florestan. *The Negro in Brazilian Society*. New York: Columbia University Press, 1969.

Fontaine, Pierre (ed.). *Race, Class, and Power in Brazil*. Berkeley, CA: University of California Press, 1985.

Foucault, Michel. *Power/Knowledge*. New York: Pantheon Books, 1980.

Foster, Robert. *Materializing the Nation: Commodities, Consumption, and Media in Papua New Guinea*. Bloomington, IN: University of Indiana Press, 2002.

Fox, Elizabeth (ed.). *Media and Politics in Latin America: The Struggle for Democracy*. London: Sage Publications, 1998.

_______ and Silvio R. Waisbord (eds.). *Latin Politics, Global Media*. Austin, TX: University of Texas Press, 2002.

French, John. *The Brazilian Workers' ABC*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1991.

Freyre, Gilberto. *Casa grande e senzala*. Rio de Janeiro: Jose Olympio Editora, 1977 [1933].

Friedlander, Judith. *Being Indian in Hueyapan: A Study of Forced Identity in Contemporary Mexico*. New York: St. Martin's Press, 1975.

Fry, Peter. *Para inglês ver*. Rio de Janeiro: Zahar Editores, 1982.

Geertz, Clifford. *The Interpretation of Cultures*. New York: Harper Collins, 1973.

Ghanem, Sadalla Amin. *Impressões de viagem (Libano-Brasil)*. Montevideo: Graphica Brasil, 1936.

Gilroy, Paul. *The Black Atlantic: Modernity and Double Consciousness*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993.

Glick-Schiller, Nina. *Georges Woke Up Laughing: Long-Distance Nationalism and the Search for Home*. Durham, NC: Duke University Press, 2001.

_______, Linda Basch and Cristina Blanc-Szanton (eds.). *Towards a Transnational Perspective on Migration: Race, Class, Ethnicity, and Nationalism Reconsidered*. New York: New York Academy of Sciences, 1992.

Gois, Chico de. *Segredos da máfia: Os bastidores do escândalo que abalou São Paulo*. São Paulo: Publisher Brasil, 2000.

Goldstein, Donna. *Laughter Out of Place: Race, Class, Violence, and Sexuality in a Rio Shantytown*. Berkeley, CA: University of California Press, 2003.

Gonzalez, Nancie. *Dollar, Dove, and Eagle: One Hundred Years of Palestinian Migration to Honduras*. Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1992.

Goulart, Jose Alipio, *O mascate no Brasil*. Rio de Janeiro: Conquista, 1967.

Green, Duncan. *Silent Revolution: The Rise of Market Economics in Latin America*. London: Cassell, 1995.

Greiber, Betty, Lina Maluf and Vera Mattar. *Memórias de imigração: Libaneses e sírios em São Paulo*. São Paulo: Discurso Editorial, 1998.

Guillermoprieto, Alma. *Samba*. New York: Alfred A. Knopf, 1990.

Gulick, John. *Social Structure and Culture Change in a Lebanese Village*. New York: Wenner Gren, 1955.

Gupta, Akhil and James Ferguson (eds.). *Anthropological Locations: Boundaries and Grounds of a Field Science*. Berkeley, CA: University of California Press, 1997.

_______ and ______ . *Culture, Power, Place: Explorations in Critical Anthropology*. Durham, NC: Duke University Press, 1997.

Gwynne, Robert and Cristobal Kay (eds.). *Latin America Transformed: Globalization and Modernity*. New York: Arnold and Oxford University Press, 1999.

Habermas, Jürgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society*. Cambridge, MA: MIT Press, 1989.

Hajjar, Claude. *Imigração árabe: Cem anos de reflexão*. São Paulo: Leone Editora, 1985.

Hanchard, Michael. *Orpheus and Power: The Movirnento Negro of Rio de Janeiro and São Paulo, Brazil, 1945-1988*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Hannerz, Ulf. *Transnational Connections: Culture, People, Places*. New York: Routledge Press, 1996.

Harris, Marvin. *Patterns of Race in the Americas*. New York: Walker, 1964.

Hasenbalg, Carlos. *Discriminação e desigualdades racias no Brasil*. Rio de Janeiro: Graal, 1979.

______ . *Estrutura social, mobtlidade e raça*. São Paulo: Vertico, 1988.

______ and Nelson do Valle Silva. *Relaçõcs Raciais no brasil*. Rio de Janeiro: Fundo Editora, 1992.

Hatoum, Milton. *Dois irmãos*. São Paulo: Companhia das Letras, 2000.

______ . *Relato de um certo oriente*. São Paulo: Companhia das Letras, 1989.

Heras, Maria Cruz. *La emigración libanesa en Costa Rica*. Madrid: Editorial Cantarabia, 1991.

Hess, David and Roberto DaMatta (eds.). *The Brazilian Puzzle: Culture on the Borderlands of the Western World.* New York: Columbia University Press, 1995.

Himadeh, Sa'id*The Economic Organization of Syria and Lebanon*. Beirut: [n. pb.], 1936.

Hobsbawm, Eric and Terence Ranger (eds.). *The Invention of Tradition*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1983.

Holloway, Thomas. *Immigrants on Land: Coffee and Society in São Paulo, 1886-1930*. New York: Routledge Press, 1980.

Hourani, Albert and Nadim Shehadi (eds.). *The Lebanese in the World: A Century of Emigration*. London: I. B. Tauris, 1992.

Hymes, Dell (ed.). *Reinventing Anthropology*. New York: Pantheon Books, 1972.

Ingold, Tim (ed.). *Companion Encyclopedia of Anthropology*. New York: Routledge, 1994.

Instituto Brasileiro de Geografia e Estatistica (IBGE). *Censo demográfico*. Rio de Janeiro: IBGE, 1981.

______ . ______ . Rio de Janeiro: IBGE, 1991.

Issawi, Charles (ed.). *The Economic History of the Middle East, 1800-1914*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1966.

Jafet, Basilio. *A Supremacia Reconhecida*. São Paulo: Editora Esphinge, 1935.

Jafet, Nami. *Ensaios e Discursos*. São Paulo: Editora SA., 1947.

Jorge, Salornao. *Album da colônia sírio-libanesa no Brasil*. São Paulo: Sociedade Impressora Brasileira, 1948.

Jousiffe, Ann. *Lonely Planet: Lebanon*. Victoria, Australia: Lonely Planet Publications, 1998.

Junior, Amarilio. *As vantagens da imigração syria no Brasil.* Rio de Janeiro: [n. pb.], 1935.

Kadi, Joana (ed.). *Food for Our Grandmothers: Writings by Arab-American and Arab Canadian Feminists*. Boston, MA: South End, 1994.

Kashmeri, Zuhair. *The Gulf Within: Canadian Arabs, Racism and the Gulf War*. Toronto: James Lorimer, 1991.

Kay, Cristobal. *Latin American Theories of Development and Underdevelopment*. New York: Routledge, 1989.

Kayal, Philip and Kathleen Benson (eds.). *A Community of Many Worlds: Arab Americans in New York City*. New York: Syracuse University Press, 2002.

Kedourie, Elie and Sylvia Haim (eds.). *Essays on the Economic History of the Middle East*. London: Frank Casso, 1969.

Keynes, John Maynard. *The General Theory of Employment, Interest, and Money*. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1974 [1936].

Khater, Akram. *Inventing Horne: Emigration, Gender, and the Middle Class ill Lebanon, 1870-1920*. Berkeley, CA: University of California Press, 2001.

Kingstone, Peter. *Crafting Coalitions for Reform: Business Preferences. Political Institutions, and Neoliberal Reform in Brazil.* University Park: Pennsylvania State University Press, 1999.

Klich, Ignacio and Jeffrey Lesser (eds.). *Arab and Jewish Immigrants in Latin America: Images and Realities*. London: Frank Casso, 1998.

Knowlton, Charles. *Sírios e libaneses em São Paulo*. São Paulo: Editora Anhembi, 1961.

Kondo, Dorinne. *Crafting Selves: Power, Gender, and Discourses of Identity in a Japanese Workplace*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1990.

Kottack, Conrad. *Assault on Paradise: Social Change in a Brazilian Village*. New York: Random House, 1983.

Kurban, Taufik. *Os sírios e libaneses no Brasil*. São Paulo: Sociedade Impressora Paulista, 1933.

Lacaz, Carlos da Silva. *Médicos sírios e libaneses do passado: Trajetória em busca de uma nova pátria*. São Paulo: Almed, 1982.

______. *Vultos da medicina brasileira*. São Paulo: Almed, 1977. 4 vols.

Leopoldi, Maria Antoineta. *Política e interesses na industrialização brasileira: As associações industriais, a política econômica e o Estado*. São Paulo: Paz e Terra, 2000.

Lesser, Jeffrey. *Negotiating National Identity: Immigrants, Minorities, and the Struggle for Ethnicity in Brazil*. Durham, NC: Duke University Press, 1999.

______. *Welcoming the Undesirables: Brazil and the Jewish Question*. Berkeley, CA: University of California Press, 1995.

Linger, Daniel. *No One Home*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2001.

MacAllister, Patrick and Edwin Wilmsen (eds.). *The Politics of Difference: Ethnic Premises in a World of Power.* Chicago, IL: University of Chicago Press, 1996.

MacCannell, Dean. *The Tourist: A New Theory of the Leisure Class.* New York: Schocken Books, 1976.

Machado, Armando Marcondes (Jr.). *Centro Acadêmico XI de Agosto: Faculdade de Direito de São Paulo, 1961-1998.* São Paulo: Mageart, 1998. 4 vols.

Mankekar, Purnima. *Screening Culture, Viewing Politics: An Ethnography of Television, Womanhood, and Nation in Postcolonial India.* Durham, NC: Duke University Press, 1999.

Marcus, George. *Ethnography through Thick and Thin.* New York: Routledge, 2000.

______ and Michael Fischer. *Anthropology as Cultural Critique: An Experimental Moment in the Human Sciences.* Chicago, IL: University of Chicago Press, 1986.

Marques, Gabriel. *Ruas e tradições de São Paulo: Uma história em cada rua.* São Paulo: Conselho Estadual de Cultura, 1966.

McCarus, Ernest (ed.). *The Development of Arab-American Identity.* Ann Arbor, MI: University of Michigan Press, 1994.

McClintock, Anne (ed.). *Dangerous Liasons: Gender, Nation, and Postcolonial Perspectives.* 1997 [1991].

Miller, Daniel (ed.). *Worlds Apart: Modernity through the Prism of the Local.* New Brunswick, NJ: Routledge, 1995.

Miller, Lucius Hopkins. *Our Syrian Population: A Study of the Syrian Communities of Greater New York.* San Francisco: Reed, 1969 [1905].

Mintz, Sidney. *Sweetness and Power: The Place of Sugar in Modern History.* New York: Penguin Books, 1985.

Miranda, Ana. *Amrik: Romance.* São Paulo: Companhia das Letras, 1997.

Mouffe, Chantal (ed.). *Gramsci and Marxist Theory.* London: Routledge and Kegan Paul, 1979.

Munasinghe, Viranjini. *Callaloo or Tossed Salad?: East Indians and the Cultural Politics of Identity in Trinidad.* Ithaca, NY: Cornell University Press, 2001.

Nabeel Abraham and Andrew Shryock (eds.). *Arab Detroit: From Margin to Mainstream.* Detroit, MI: Wayne State University Press, 2000.

Nassar, Raduan. *Lavoura arcaica.* Rio de Janeiro: Editora Record, 1975.

Neiva, Artur Hehl. *O problema imigratório brasileiro*. Rio de Janeiro: Imprensa Nacional, 1945.

O'Dougherty, Maureen. *Consumption Intensified: The Politics of Middle-Class Daily Life in Brazil*. Durham, NC: Duke University Press, 2002.

Olguin Tenorio, Myriam. *La inmigración árabe en Chile*. Santiago: Ediciones Instituto Chileno Arabe de Cultura, 1990.

Omi, Michael and Howard Winant. *Racial Formation in the United States: From the 1960s to the 1980s*. New York: Routledge, 1986.

Ong, Aihwa J. *Flexible Citizenship: The Cultural Logics of Transnationality*. Durham, NC: Duke University Press, 1999.

______ and Donald Nonini (eds.). *Ungrounded Empires: The Cultural Politics of Modern Chinese Transnationalism*. New York: Routledge, 1997.

Orfalea, Gregory. *Before the Flames: A Ouest for the History of Arab Americans*. Austin, TX: University of Texas Press, 1988.

Ortiz, Renata. *A moderna tradição brasiletra: Cultura brasileira e industria cultural*. São Paulo: Editora Brasiliense, 1988.

Owensby, Brian. *Intimate Ironies: Modernity and the Making of Middle-Class Lives in Brazil*. Stanford, CT: Stanford University Press, 1999.

Oxhorn, Philip and Graciela Ducantenzeiler (eds.). *What Kind of Democracy? What Kind of Market? Latin America in the Age of Neoliberalism*. University Park: Pennsylvania State University Press, 1998.

Parker, Richard. *Beneath the Equator: Cultures of Desire, Male Homosexuality, and Emerging Gay Communities in Brazil*. New York: Routledge, 1999.

______. *Bodies, Pleasures, and Passions: Sexual Culture in Contemporary Brazil*. Boston, MA: Beacon Press, 1991.

Pires, Cornelio. *Patacoadas*. São Paulo: Ottoni Editora, 2002 [1923].

Pierson, Donald. *Negroes in Brazil: A Study of Race Contact at Bahia*. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1942.

Puls, Mauricio. *Folha Explica: O Malufismo*. São Paulo: Folha de São Paulo, 2000.

Reich, Robert. *The Work of Nations*. New York: Doubleday, 1992.

Reichman, Rebecca (ed.). *Race in Contemporary Brazil*. University Park: Pennsylvania State University Press, 1999.

Ricardo, David. *The Works and Correspondence of David Ricardo*. Edited by M. H. Dobb and Piero Sraffa. Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1951 [1815]. 11 vols.

Riggs, Lynn. *Green Grow the Lilacs*. New York: Samuel French, 1931.

Roberts, Lois J. *The Lebanese in Ecuador: A History of Emerging Leadership*. Boulder, CO: Westview Press, 2000.

Roquette-Pinto, Edgar. *Rondonia*. 3rd ed. Rio de Janeiro: Editora Companhia Nacional, 1935.

Rowe, Peter and Hashim Sarkis. *Projecting Beirut: Episodes in the Construction and Reconstruction of a Modern City*. New York: Prestel, 1998.

Said, Edward. *Orientalism*. New York: Praeger, 1978.

Safady, Jamil. *O café e O mascate*. São Paulo: Editora Comercial Safady, 1972.

______. *Panorama da imigração arabe*. São Paulo: Editora Comercial Safady, 1972.

Safady, Jorge. *Antologia árabe do Brasil*. São Paulo: Editora Comercial Safady, 1972.

Safady, Wadih. *Cenas e cenários dos caminhos da minha vida*. São Paulo: Penna Editora, 1966.

Sales, Teresa and Maria do Rosario R. Salles. *Politicas Migratórias: América Latina, Brasil e brasileiros no exterior*. Sao Carlos: Editora UFSC, 2002.

Salibi, Kamal. *A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered*. Berkeley, CA: University of California Press, 1988.

Sansone, Livio. *Blackness without Ethnicity: Constructing Racein Brazil*. New York: Palgrave Macmillan, 2003.

Sassen, Saskia. *Globalization and its Discontents*. New York: New Press, 1998.

Schein, Louisa. *Minority Rules: The Miao and the Feminine in China's Cultural Politics*. Durham, NC: Duke University Press, 2001.

Scott, James. *Seeing Like a State: How Certain Schemes to Improve the Human Condition Have Failed*. New Haven, CT: Yale University Press, 1998.

Seyferth, Giralda. *Imigração e cultura no Brasil*. Brasilia: Editora UnB, 1990.

Shaheen, Jack. *Dreaming Equality: Color, Race, and Racism in Urban Brazil*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2001.

______. *The T.V. Arab*. Madison: Bowling Green State University Press, 1984.

Sheriff, Robin. *Dreaming Equality: Color, Race, and Racism in Urban Brazil*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2001.

Simpson, Amelia. *Xuxa: The Mega-Marketing of Gender, Race, and Modernity*. Philadelphia: Temple University Press, 1993.

Skidmore, Thomas. *Black into White: Race and Nationality in Brazilian Thought*. New York: Oxford University Press, 1974.

______. *Politics in Brazil, 1930-1964: An Experiment in Democracy*. New York: Oxford University Press, 1967.

Smith, Adam. *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations*. Edited by Edwin Cannan. Chicago, IL: University of Chicago Press, 1976 [1776].

Sociedade Nacional de Agricultura. *Immigração: Inquerito promovido pela Sociedade Nacional de Agricultura*. Rio de Janeiro: Villani e Barbero, 1926.

Souza, Jesse and Valter Sinder (eds.). *Imagining Brazil*. New York: Lexington Books, 2005.

Stein, Stanley. *The Brazilian Cotton Manufacture: Textile Enterprise in an Underdeveloped Area, 1850-1950*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1957.

Stepan, Nancy Leys. *The Hour of Eugenics: Race, Gender, and Nation in Latin America*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991.

Stokke, Verena. *Coffee Planters, Workers, and Wives: Class Conflict and Gender Relations on São Paulo Plantations, 1850-1980*. New York: St. Martin's Press, 1988.

Stokes, Susan Carol. *Mandates and Democracy: Neoliberalism by Surprise in Latin America*. New York: Cambridge University Press, 2001.

Suleiman, Michael (ed.). *Arabs in America: Building a New Future*. Philadelphia, PA: Temple University Press, 1999.

Tannenbaum, Frank. *Slave and Citizen: The Negro in the Americas*. New York: Vintage, 1947.

Tasso, Alberto. *Aventura, trabajo y poder: Sírios e libaneses en Santiago del Estero, 1880-1980*. Buenos Aires: Ediciones Indice, 1988.

Truzzi, Oswaldo. *De mascates a doutores: Sírios e libaneses em São Paulo*. São Paulo: Editor a Sumare, 1992.

______. *Patricios: Sírios e libaneses em São Paulo*. São Paulo: Editora Hucitec, 1997.

Twine, France Winddance. *Racism in a Racial Democracy: The Maintenance of White Supremacy in Brazil*. New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1998.

Vasconcellos, Mayra Moreira. *Dança do ventre-i-Dança do coração*. São Paulo: Radhu, 2000.

Velben, Thorstein. *The Theory of the Leisure Class*. New York: Prometheus, 1996 [1899].

Viana, Oliveira. *Raça e assimilação*. São Paulo: Companhia Editora Nacional, 1932.

Viva O Centro. *Camelôs: Subsídios para O equacionamento do problema do comércio informal de rua e sua solucao*. São Paulo: Associacao Viva O Centro, 1994.

Wade, Peter. *Race and Ethnicity in Latin America*. London: Pluto Press, 1997.

Wagley, Charles (ed.). *Race and Class in Rural Brazil*. Paris: United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization, 1952.

Wallerstein, Immanuel. *The Modern World-System: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century*. New York: Academic Press, 1974.

Warren, Kay. *Indigenous Movements and Their Critics: Pan-Maya Activism in Guatemala*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998.

______ . *The Symbolism of Subordination: Indian Identity in a Guatemalan Town*. Austin, TX: University of Texas Press, 1989 [1978].

Weinstein, Barbara. *The Amazon Rubber Boom*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1983.

______ . *For Social Peacein Brazil: Industrialists and the Remaking of the Working Classin Sao Paulo, 1920-1964*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1995.

West, Harry G. and Todd Sanders (eds.). *Transparency and Conspiracy: Ethnographies of Suspicion in the New World Order*. Durham, NC: Duke University Press, 2003.

Weyland, Kurt. *Growth without Equity: Failures of Reform in Brazil*. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1996.

Whitten, Norman (ed.). *Cultural Transformations and Ethnicity in Modern Ecuador*. Urbana, IL: University of Illinois Press, 1981.

Williams, Brackette. *Stains on My Name, War in My Veins: Guyana and the Politics of Cultural Struggle*. Durham, NC: Duke University Press, 1991.

Williams, Judith. *The Youth of Haouch El Harimi, a Lebanese Village*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1968.

Williamson, John (ed.). *Latin American Adjustment: How Much Has Happened*. Washington, DC: Institute of International Economics, 1990.

Winant, Howard. *Racial Conditions: Politics, Theory, Comparisons*. Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1994.

Wolf, Eric. *Europe and the People without History*. Berkeley, CA: University of California Press, 1980.

Zogby, John. *Arab America Today: A Demographic Profile of Arab Americans*. Washington, DC: Zogby International, 1990.

Periodicals

«A intenção de voto para a CPI das regionais.» *Folha de S. Paulo*: 9 February 1999.

«Advogados temem abertura de Mercado.» *Gazeta Mercantil*: 30 August 2002.

Aith, Marcio. «FMI propõe humanizer a globalização.» *Folha de S. Paulo*: 29 September 1999.

Alonso, Ana Maria. «Politics of Space, Time, and Substance: State Formation, Nationalism, and Ethnicity.» *Annual Review of Anthropology:* vol. 23, 1994.

Anderson, Benedict. «Exodus.» *Cultural Inquiry*: vol. 20, 1994.

Araujo, Oscar Egidio de. «Enquistarnentos étnicos.» *Revista do Arquivo Municipal*: vol. 6, no. 65, 1940.

Baringer, Sandra. «Oklahoma! and Assimilation.» *Proceedings of the Modern Language Association*: vol. 113, no. 3, 1998.

«Bate-Papo com Dorthéa Werneck: Projeto CCAB-APEX e exportações brasileiras.» *Câmara Árabe Notícias*: vol. 1, no. 4, 2001.

«Bazar egípcio da Vila Mariana abre primeira franquia.» *Gazeta Mercantil*: 3 September 2001.

Betto, Frei. «A rebelião ética.» *Folha de S. Paulo*: 5 November 2000.

«Bin Laden esteve em Foz do Iguaçu e até deu palestra em mesquite.» *O Estado de S. Paulo*: 16 March 2003.

«Bin Laden Reportedly Spent Time in Brazil in 95.» *Washington Post*: 18/3/2003.

Bourdieu, Pierre and Louis Wacquant. «On the Cunning of Imperialist Reason.» *Theory, Culture and Society*: vol. 16, no. 1, 1999.

«Brasil é 45° no ranking mundial da corrupção.» *Folha de S. Paulo*: 27 October 1999.

«Brasil melhorou pouco desde 1995.» *Folha de S. Paulo*: 27 October 1999.

«Brasil recebeá rabes desde o século 19.» *Folha de S. Paulo*: 14 December 1997.

Bruner, Edward. «Tourism in Ghana: The Representation of Slavery and the Return of the Black Diaspora.» *American Anthropologist*: vol. 98, no. 2, 1996.

«Câmara Árabe comemora seu cinquentenário.» *Câmara Árabe Noticias*: vol. 2, no. 7, 2002.

«Câmara Municipal de São Paulo homenageia descendentes libaneses: A vereadora Myryam Athiê organiza e discursa para 300 convidados.» *Carta do Libano*: vol. 6, no. 55, November 2000.

Cantanhêde, Eliane. «Democracia é algo que existe também no Sul, diz ministro.» *Folha de S. Paulo*: 6 May 2005.

______ and Cláudia Dianni. «No final, Lula diz que falta de democracia é ameaça global.» *Folha de S. Paulo*: 12 May 2005.

«Casa Grande x Senzala.» *Folha de S. Paulo*: 13 September 2000.

«Casa usada pela Al Qaeda tinha foto que seria das cataratas do Iguaçu.» *Folha de S. Paulo*: 16 November 2001.

Christofoletti, Lilian. «Prefeito afasta administrador que não foi indiciado.» *Folha de S. Paulo*: 6 March 1999.

Ciardi, Liliana. «Blitz tira camelôs da Rua 25 de Março.» *Jornal da Tarde*: 24/3/2001.

Clain, Christian. «Islamismo chega ao horário nobre.» *Folha de S. Paulo*: 1 July 2001.

Clifford, James. «Diaspora.» *Cultural Anthropology*: vol. 9, no. 3, 1994.

Colloredo-Mansfeld, Rudy. «An Ethnography of Neoliberalism: Understanding Competition in Artisan Economies.» *Current Anthropology*: vol. 43, 2002.

«Comandos' fiscais em acao na 25 de Marco.» *O Estado de S. Paulo* : 28 June 1960.

Comaroff, Jean and John Comaroff. «Millennial Capitalism: First Thoughts on a Second Coming.» *Public Culture*: vol. 12, no. 2, 2000.

«Comercio atacadista desaparece da cadeia textile.» *Gazeta Mercantil*: 25 August 2000.

«Comercio exterior: Consorcio mineiro de confeccoes mira Mercado arabe.» *Gazeta Mercantil* (Minas Gerais): 9 October 2000.

«Como devem votar os vereadores na CPI da oposição.» *Folha de S. Paulo*: 2 March 1999.

«Como votaram os vereadores de São Paulo.» *Folha de S. Paulo*: 21 May 1999; 27 May 1999; 28 May 1999; 4 June 1999, and 9 June 1999.

«Como votaram os vereadores na prorrogação da CPI por apenas três dias.» *Folha de S. Paulo*: 5 June 1999.

Cotes, Paloma. «Novela aumenta procura por cursos de dança do ventre.» *Folha de S. Paulo*: 28 October 2001.

Cuimaraes, Caio de Freitas. «Aassimilação dos principais grupos estrangeiros, atraves das estatísticas dos casamentos e nascimentos, na população do Municipio de São Paulo, 1940-1946.» *Boletim do departmento de estatistica do Estado de São Paulo*: vol. 14, no. 2, 1952.

Da Silva, Carlos Eduardo Lins. «Wolfensohn é o ideó logo da mudança.» *Folha de S. Paulo*: 30 September 1999.

Davila, Arlene. «El Kiosko Budweiser: The Making of a «National» Television Show in Puerto Rico.» *American Ethnologist*: vol. 25, no. 3, 1999.

De Almeida, Guilherme. «Cosmopolis: O oriente mais próximo.» *O Estado de S. Paulo*: 19 May 1929.

De la Torre, Carlos. «Neopopulism in Contemporary Ecuador: The Case of Bucararn's Use of the Mass Media.» *International Journal of Politics, Culture, and Society*: vol. 12, no. 4, 1999.

De Oliveira, Roberto, Mariliz Pereira Jorge and Paulo Sampaio. «O nosso lado árabe.» *Folha de S. Paulo*: 23 September 2001.

De Queiroz, Maria Isaura Pereira. «The Samba Schools of Rio de Janeiro, or the Domestication of an Urban Mass.» *Diogenes*: vol. 129, 1985.

Débora, Yuri. «O nosso ladoá rabe.» *Revista da Folha*: 23 November 2001.

Dionisio, Rodrigo. «Muçulmanos ganham destaque em «O Clone».» *Folha de S. Paulo*: 23 September 2001.

Do Valle, Maristella. «Bin Laden vira garoto-propaganda de Foz.» *Folha de S. Paulo* : 24 March 2003.

«Espionagem no Planalto: Bastante ativos, os agentes secretos da Abin espionam o que não devem e vigiam até os passos do governador Itamar Franco.» *Veja*: 15 November 2000.

Euraque, Dario. «Formación nacional, mestizaje, y la inmigracion árabe palestina a Honduras.» *Estudios Migratorios Latinoamericanos*: vol. 9, no. 26, 1994.

Fausto, Boris. «Um balance da historiografia da imigração para o Estado de São Paulo.» *Estudios Migratorios Latinoamericanos*: vol. 8, no. 25, 1993.

Fernandes, Fátima. «Piratas roubam mer-cado de empresas e U.S. $10 bi do país.» *Folha de S. Paulo*: 3 September 2000.

Ferreira, Wanise. «25 de Marco vira polo de importados: Lojas de armarinhos e distribudores de aviamentos impotam a maipria dos produtos oferecidos.» *O Estado de S. Paulo*: 2 April 1993.

Ferguson, James and Akhil Gupta. «Spatializing States: Toward an Ethnography of Neoliberal Governmentality.» *American Ethnologist*: vol. 29, no. 4, 2003.

«Fiemt e Apex promovem encontro sobre exportação para países árabe.» *Gazeta Mercantil* (Mato Grosso): 30 May 2001.

«Fiscais passam por novo rodízio.» *Folha de S. Paulo*: 27 January 1999.

Foster, Robert. «Making National Cultures in the Global Ecumene.» *Annual Review of Anthropology*: vol. 20, 1991.

Fry, Peter. «O Que a cindarela negra tern a dizer sobre a «politica racial» no Brasil.» *Revista USP*: vol. 28, 1995.

Furuno, Meire. ««Camelôdromo» da 25 segue intocável: Enquanto a Barão de Itapetiniga está livre dos ambu- lantes, eles continuam ocupando a Rua 25 de Março.» *Jornal da Tarde*: 20/1/2001.

Gancia, Barbara. «BEM FEITO.» *Folha de S. Paulo*: 25 April 1999.

Goldberg, Jeffrey. «In the Party of God.» *New Yorker*: 28 October 2002.

Gros, Denise. «Institutos liberais, neoliberalismo e políticas publicas na Nova República.» *Revista Brasileira de Ciencias Sociais*: vol. 19, no. 54, 2004.

Gupta, Akhil. «Blurred Boundaries: The Discourse of Corruption, the Culture of Politics, and the Imagined State.» *American Ethnologist*: vol. 22, no. 2, 1995.

Habermas, Jürgen. «Why Europe Needs a Constitution.» *New Left Review*: vol. 2, no. 11, 2001.

Hale, Charles. «Cultural Politics of Identity in Latin America.» *Annual Review of Anthropology*: vol. 26, 1997.

______. «Does Multiculturalism Menace? Governance, Cultural Rights, and the Politics of Identity in Guatemala.» *Journal of Latin American Studies*: vol. 34, no. 3, 2002.

______. «Neoliberal Multiculturalism: The Remaking of Cultural Rights and Racial Dominance in Central America.» *Political and Legal Anthropology Review* (PoLAR): vol. 28, no. 1, 2005.

Hall, Michael. «Italianos em São Paulo (1880-1920).» *Anais (Museu Paulista)*: vol. 29, 1979.

Harris, Marvin. «Referential Ambiguity in the Calculus of Brazilian Racial Identity.» *Southwestern Journal of Anthropology*: vol. 14, no. 4, 1970.

Helayel, Munir. «A emigração libanesa para O Brasil.»*Anuario Brasileiro de Imigração e Colonizacao*: vol. 2, 1961.

Howell, Sally and Andrew Shryock. «Cracking Down on Diaspora: Arab Detroit and America's War on Terror.» *Anthropological Quarterly*: vol. 76, no. 3, 2004.

«Industria cearense chama atenção de paises do oriente.» *Gazeta Mercantil* (Ceara): 11 September 2000.

Ioschpe, Bustavo. «Aos vencedores as batatas: Os piores de 1998.» *Folha de S. Paulo*: 11 January 1999.

Jabor, Arnaldo. «Corrupção global vai do angu até o FBI.» *Folha de S. Paulo*: 2 May 2000.

______. «Pitta ficou com os lábios roxos e a boca seca.» *Folha de S. Paulo*: 21 March 2000.

______. «Temos de beber desta lama luminosa e vital.» *Folha de S. Paulo*: 4 April 2000.

Jozami, Gladys. «The Return of the «Turks» in 1990s Argentina.» *Patterns of Prejudice*: vol. 30, 1996.

Júnior, Policarpo. «Ele esteve no Brasil.» *Veja*: 19 March 2003.

______. «O documento secreto da espionagem: Dossiê sigiloso mostra que a Abin se interessa por uma gama de assuntos muito mais ampla do que costuma admitir.» *Veja*: 22 November 2000.

Karam, John Tofik. «A Cultural Politics of Entrepreneurship in Nation-Making: Phoenicians, Turks, and the Arab Commercial Essence in Brazil.» *Journal of Latin American Anthropology*: vol. 9, no. 2, 2004.

Karpat, Kemal. «The Ottoman Emigration to America.» *International Journal of Middle East Studies*: vol. 17, 1985.

«Key Players in the U.S.-Arab Economic Forum.» *Detroit Free Press*: 29 September 2003.

«Khan El Khalili: Abre loja em Itu.» *Gazeta Mercantil*: 3 September 2001.

«Khan El Khalili: Casa de chá abre franquia de bazar egípcio.» *Gazeta Mercantil*: 22 August 2001.

Kofes, Suely [et al.]. «Gênero e raça em revista: Debate com os editores da revista Raça Brasil.» *Cadernos Pagu*: nos. 6-7, 1996.

Kwong, Peter. «Manufacturing Ethnicity.» *Critique of Anthropology*: vol. 17, no. 4, 1997.

Lafer, Celso. «Parcerias no Oriente.» *Folha de S. Paulo*: 18 August 2002.

Lesser, Jeffrey. «Immigration and Shifting Concepts of National Identity in Brazil during the Vargas Era.» *Luso-Brazilian Review*: vol. 31, no. 2, 1994.

______. «(Re) Creating Ethnicity: Middle Eastern Immigration to Brazil.» *Americas*: vol. 53, no. 1, 1996.

Lewis, J. Lowell. «Sex and Violence in Brazil: Carnival, Capoeira, and the Problem of Every Day Life.» *American Ethnologist*: vol. 26, no. 3, 1999.

«Líbano, 57 anos de Independência.» *Jornal do Brás*: 25 November- 15 December 2000.

Lopes, Marcus. «Bird vai mapear focus de corrupção em SP.» *O Estado de S. Paulo*: 17 March 2001.

______. «Marta: Prioridade para publicidade.» *Jornal da Tarde*: 27 March 2002.

Luxner, Larry. «Esfihas to Go.» *Saudi Aramco World*: vol. 51, no. 6, 2000.

Maison-Nave, Fábio. «Governo dos EUA e analistas ignoram evento.» *Folha de S. Paulo*: 12 May 2005.

Marcus, George. «Ethnography in/of the World System: The Emergence of Multi-Sited Ethnography.» *Annual Review of Anthropology*: vol. 24, 1995.

Maria, Paula Santa. «Primeiro-ministro do Líbano visita Lula.» *Gazeta Mercantil*: 4 June 2003.

Marques, Gabriel. «A velha rua do quibe cru. I.» *O Estado de S. Paulo*: 12 June 1960.

______. «A velha rua do quibe cru. II.» *O Estado de S. Paulo*: 19 June 1960.

______. «Rua Vinte e Cinco de Março: O rio das sete voltas.» *Folha da Noite*: 2 May 1957.

______. «Rua Vinte e Cinco de Março: As chácras recuaram.» *Folha da Noite*: 3 May 1957.

______. «Rua Vinte e Cinco de Março: O outro Harun Al-Rachid.» *Folha da Noite*: 6 May 1957.

Martins, Jose de Souza. «A Imigração Espanhola para o Brasil e a formação da força-detrabalho na economia cafeeira, 1880-1930.» *Revista de Historia*: vol. 121, 1989.

Macedo, Fausto. «Muçulmanos pedem inquérito contra a Abin: Sociedade sediada em São Paulo alega estar sendo vítima de espionage.» *O Estado de S. Paulo*: 17 December 2000.

Masao, Miyoshi. «A Borderless World?: From Colonialism to Transnationalism and the Decline of the Nation-State.» *Critical Inquiry*: vol. 19, 1993.

Massad, Joseph. «Palestinians and the Limits of Racialized Discourse.» *Social Text*: vol. 11, no. 1, 1993.

Mello, Jusymar. «Árabes podem ser refinados no Líbano e também em São Paulo.» *Folha de S. Paulo*: 26 November 2000.

______. «Árabes são como jóias brutas do oriente.» *Folha de S. Paulo*: 25 June 2000.

______. «Esqueça o medo e vá comer no árabe.» *Folha de S. Paulo* : 23 September 2001.

______. «Novo árabe reúne elegância e boa comida.» *Folha de S. Paulo*: 15 September 2000.

Mita, Chiyoko. «Ochenta años de inmigración japonesa en el Brasil.» *Estudios Migratorios Latinoamericanos*: vol. 10, no. 30, 1995.

«Monte Líbano.» *Chams*: vol. 7, no. 64, January 1998.

Moraes, Mauriciao. «Marta quer parceria com o Bird para combater corrupção em São Paulo.» *O Estado de S. Paulo*: 16 March 2001.

«Mudança de discurso.» *Folha de S. Paulo*: 3 February 1999.

Naber, Nadine. »Ambiguous Insiders: An Investigation of Arab American Invisibility.» *Ethnic and Racial Studies*: vol. 23, 2000.

Narayan, Kirin. «How Native Is a «Native» Anthropologist?.» *American Anthropologist*: vol. 95, 1993.

Natali, Joao Batista. «Bird quer programa anticorrupção: Instituicao estudo financiar projecto de transparencia na prefeitura.» *Folha de S. Paulo*: 12 November 2000.

Navarrete, Gonzalo. «Governistas resistem a CPI.» *Folha de S. Paulo*: 9 February 1999.

Needle, Jeffrey. «Identity, Race, Gender and Modernity in the Origins of Gilberto Freyre's Oeuvre.» *American Historical Review*: vol. 100, no. 1, 1995.

Neto, José Gonçalves. «Região da 25 de Março é alvo de blitz: Fiscalização atingiu comércio formal e também os ambulantes da região.» *O Estado de S. Paulo*: 12 October 2000.

«Notícias.» *Diário Popular*: 8 September 2001.

Nylen, William. «Selling Neoliberalism: Brazil's Instituto Liberal.» *Journal of Latin American Studies*: vol. 25, 1993.

«O Jantar dos 50 Anos.» *Chams*: vol. 11, no. 120, September 2002.

Oliveira, Michele. «Bloqueio no Paraguai afeta negócios na Rua 25 de Março.» *Gazeta Mercantil*: 26 September 2001.

«Os vereadores que enterraram a CPI.» *Folha de S. Paulo*: 29 May 1999.

«Palavras de Myryam Athie.» *Chams*: vol. 10, no. 100, January 2001.

«Parceria contra corrupção.» *Jornal da Trade*: 17 March 2001.

«Pesquisa sobre corrupção vai ouvir servidor.» *Folha de S. Paulo*: 8 May 2002.

Petras, James and Henry Veltmeyer. «Whither Lula's Brazil? Neoliberalism and 'Third Way' Ideology.» *Journal of Peasant Studies*: vol. 31, no. 1, 2003.

«Pitta era refém de esquema malufista, afirma advogado.» *Folha de S. Paulo*: 5 April 1999.

«Prefeita diz que fez convenio para combater a corrupção.» *Folha de S. Paulo*: 13 March 2002.

«Protesto troca pizza por esfiha.» *O Estado de S. Paulo*: 21 June 2000.

Prudente, Celso Luiz. «Casa Grande x Senzala.» *Folha de S. Paulo*: 13 September 2000.

Queiroz, Maria Isaura Pereira de. «The Samba Schools of Rio de Janeiro, or the Domestication of an Urban Mass.» *Diogenes*: vol. 129, 1985.

«Quem votou contra a CPI.» *Folha de S. Paulo*: 24 February 1999.

Reichl, Christopher. «Stages in the Historical Process of Ethnicity: The Japanese in Brazil.» *Ethnohistory*: vol. 42, no. 8, 1995.

«Resgate Cultural.» *Homs*: vol. 2, no. 6, December 1998.

Ribeiro, Paula. «Saara: Uma pequena GNU no Rio de Janeiro.» *Travessia*: vol. 12, no. 34, 1999.

Ricupero, Ricardo. «Patrícios, mascates, e deputados.» *Folha de S. Paulo*: 29 August 1999.

Rodrigues, Fernando. «Lula «vende» Brasil na Síria e defende Estado palestino.» *Folha de S. Paulo*: 4 December 2003.

______ and Alan Marques. «No Líbano, Lula defende uma nova «geografia commercial».» *Folha de S. Paulo*: 6 December 2003.

Rohter, Larry. «Latin Lands Don't Share Powell's Priorities.» *New York Times*: 9/6/2003.

______. «Little Common Ground at Arab-South American Summit Talks.» *New York Times*: 11/5/2005.

______. «Terrorists Are Sought in Latin American Smugglers' Haven.» *New York Times*: 27/9/2001.

Rosa, Zita de Paula. «Imigração: um tema controvertido na voz dos plenipotenciarios da oligarquia cafeeira.» *Revista de Historia*: vol. 15, 1983.

Rossi, Clóvis. «Governo quer parceria com «baleias».» *Folha de S. Paulo*: 13 November 2001.

_____. «Itamaraty aposta em exportações para emergentes.» *Valor Econômico*: 9 April 2002.

Rossi, Valéria. «Blitz anticamelô toma 25 de Março de madrugada: Para evitar a montagem das barracas, 350 fiscais e guardas civis chegaram à rua às 4 horas.» *Jornal da Tarde*: 30/5/2000.

«Rubin propõe ataque do FMI a corrupção.» *Folha de S. Paulo*: 25 February 1999.

Said, Edward. «Zionism from the Standpoint of Its Victims.» *Social Text*: vol. 1, 1979.

Sallum, Ericka. «O Que seria do nosso cardápio sem eles?.» *Veja São Paulo*: 5 February 2003.

Sanjek, Roger. «Brazilian Racial Terms: Some Aspects of Meaning and Learning.» *American Anthropologist*: vol. 73, 1971.

Sawyer, Suzana. «Fictions of Sovereignty: Of Prosthetic Petro-Capitalism, Neoliberal States, and Phantom-Like Citizens in Ecuador.» *Journal of Latin American Anthropology*: vol. 6, no. 1, 2001.

«Seminário discute perspective de comercio.» *Gazeta Mercantil* (Goias): 20 June 2001.

«Seminário ensina a exportar para Mercado árabe.» *Gazeta Mercantil* (Santa Catarina): 15 August 2000.

Seyferth, Giralda. «La inmigración alemana y la política brasileña de colonización.» *Estudios Migratorios Latinoamertcanos*: vol. 10, no. 29, 1995.

Sheriff, Robin. «The Theft of Carnaval: National Spectacle and Racial Politics in Rio de Janeiro.» *Cultural Anthropology*: vol. 14, no. 1, 1999.

Shryock, Andrew. «New Images of Arab Detroit: Seeing Otherness and Identity through the Lens of September 11.» *American Anthropologist*: vol. 104, 2002.

Simão, José. «Buemba! Buemba! Na Globo abunda Pita.» *Folha de S. Paulo*: 16 March 2000.

_____. «Grana Garib! Turcocircuito em Sampa!.» *Folha de S. Paulo*: 1 July 1999.

_____. «Uêba! Melô a CPI e fiquemo sem Grana Garib!.» *Folha de S. Paulo*: 11 June 1999.

Skidmore, Thomas. «Bi-racial U.S.A vs. Multi-racial Brazil: Is the Contrast Still Valid?.» *Journal of Latin American Studies*: vol. 25, 1993.

Smith, James. «Buying a Better Witch Doctor: Witch-finding, Neoliberalism, and the Development Imagination in the Taita Hills, Kenya.» *American Ethnologist*: vol. 32, no. 1, 2005.

______ . «Of Spirit Possession and Structural Adjustment Programs.» *Journal of Religion in Africa*: vol. 31, no. 4, 2001.

Smith-Nonini, Sandy. «Health «Anti-Reform» in El Salvador: Community Health NGOs and the State in the Neoliberal Era.» *Political and Legal Anthropology Review*: vol. 21, no. 1, 1998.

Souza, Bárbara. «Guardas e camelôs confrontam-se no centro: Ação na Ladeira Porto Geral deixou vários feridos por golpes de cassetete.» *O Estado de S. Paulo*: 7 October 2000.

Souza, Rafael Paula. «Contribuicao aetnologia paulista.» *Revista do Arquivo Municipal*: vol. 3, no. 3, 1937.

«Tourism: Wide Ranging Opportunities for Investment.» *World Links*: July-August 2002.

Traumann, Thomas. «Prefeita eleita Marta Suplicy recebe oferta de pesquisa do Banc Mundial.» *Folha de S. Paulo*: 16 November 2000.

Tsing, Anne. «The Global Situation.» *Cultural Anthropology*: vol. 15, no. 3, 2001.

«Turismo em alta.» *Câmara Árabe Notícias*: vol. 1, no. 2, 2001.

Valente, Gabriela. «Lula e Hariri criam comissão bilateral.» *Gazeta Mercantil*: 10 June 2003.

Varella, Flavia. «Patrícios, dinheiro, diploma e voto: A saga da imigração árabe.» *Veja*: 4 October 2000.

Varella-Garcia, Marileila. «Demographic Studies in a Brazilian Population of Arabian Origin.» *Social Biology*: vol. 23, no. 2, 1976.

«Veja como seu vereador deve votar.» *Folha de S. Paulo*: 18 May 1999, and 20 May 1999.

«Veja como votaram os «mandantes» das regionais.» *Folha de S. Paulo*: 25 February 1999.

«Viagem ao passado: Jovens sócios do Club Homs conhecem a terra de seus ancestrais e convivem com uma cultura milenar.» *Homs*: no. 3, 1997.

Vicentini, Tatiana. «Colôniaá rabe teme retaliaç ã o dos EUA.» *Journal da Tarde*: 18/8/2001.

Viera, Paulo and Fernando Souza. «Piratas tomam a rua dos micreiros.» *Veja São Paulo*: 11 October 2000.

Walsh, Tom. «Arab Leaders' Dialogue is All about Power, Politics.» *Detroit Free Press*: 29 September 2003.

______ . «Mideast's Future to Take Shape in Detroit.» *Detroit Free Press*: 29 September 2003.

Weyland, Kurt. «Swallowing the Bitter Pill: Sources of Popular Support for Neoliberal Reform in Latin America.» *Comparative Political Studies*: vol. 31, no. 5, 1998.

Wilk, Richard. ««It's Destroying a Whole Generation»: Television and Moral Discourse in Belize.» *Visual Anthropology*: vol. 5, 1993.

Williams, Brackette. «A Class Act: Anthropology and the Race to Nation across Ethnic Terrain.» *Annual Review of Anthropology*: vol. 18, 1989.

Williamson, John. «Democracy and the «Washington Consensus».» *World Development*: vol. 21, no. 8, 1993.

Wolfe, Joel. ««Father of the Poor» or «Mother of the Rich»? Getúlio Vargas, Industrial Workers, and Constructions of Class, Gender, and Populism in São Paulo, 1930-1954.» *Radical History Review*: vol. 58, 1994.

Yudice, George. «Civil Society, Consumption, and Governmentality in an Age of Global Restructuring.» *Social Text*: vol. 45, 1995.

______. «The Privatization of Culture.» *Social Text*: vol. 59, 1999.

Yuri, Debora. «O nosso lado árabe.» *Revista da Folha*: 23 September 2001.

Zanini, Fábio and Sílvia Corrêa. ««Sim, a dona Marta é do PT», diz eleita.» *Folha de S. Paulo*: 30 October 2000.

Zapparoli, Alesandra. «Vaivém sem fim: Prefeitura faz nova tentativa de tirar os camelôs da região da 25 de Março.» *Veja São Paulo*: 11 August 1999.

«ZF pode conquistar Mercado árabe.» *Gazeta Mercantil* (Amazonas): 9 April 2001.

Theses

Buechler, Simone. «Enacting the Global Economy in São Paulo, Brazil: The Impact of Labor Market Restructuring on Low-Income Women.» (Ph.D. Dissertation, Columbia University, New York, 2002).

Cavarzere, Thelma Thais. «Direito internacional da pessoa humana: A circulação internacional de pessoas.» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 1991).

Gattaz, Andre Castanheira. «História oral da imigração libanesa para o Brasil, 1880-2000.» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 2001).

Nunes, Heliane Prudente. «A imigração arabe em Goias.» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 1993).

Osman, Sarnira Adel. «Caminhos da imigração árabe em São Paulo: História oral de vida familiar.» (Masters Thesis, Universidade de São Paulo, 1998).

Pardue, Derek. «Blackness and Periphery: A Retelling of Hip-Hop Culture of São Paulo, Brazil.» (Ph.D. Dissertation, University of Illinois, Urbana-Champaign, 2004).

Safady, Jorge. «Aimigração arabe no Brasil (1880-1971).» (Ph.D. Dissertation, Universidade de São Paulo, 1972).

Wilkie, Mary. «The Lebanese in Montevideo, Uruguay: A Study of an Entrepreneurial Ethnic Minority.» (Ph.D. Dissertation, University of Wisconsin, Madison, 1973).

Reports and Websites

«Argentina, Paraguay, Brazil Step Up Search for «Terrorists» in Tri-Border Area.» BBC Monitoring Service (United Kingdom): 15 September 2001.

«Discurso do presidente da República, Luiz Inácio Lula da Silva, na sessão de abertura da Cúpula América do Sul-Países Árabes.» Centro de Convenções Ulysses Guimarães: 10 May 2005.

«Rubin propõ e ataque do FMI à corrupç ã o.» Editorial Folha de S. Paulo: 25 February 1999.

<http://www.amrik.com.br>.

<http://orthodox-okie.blogspot.com/2004_10_31_orthodox-okie_archive>.

<http://www2.prefeitura.sp.gov.br/secretarias/relacoes_internacionais/organizacao/0001>.

فهـــرس

ـ ص ـ

ـ ض ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

- غ -

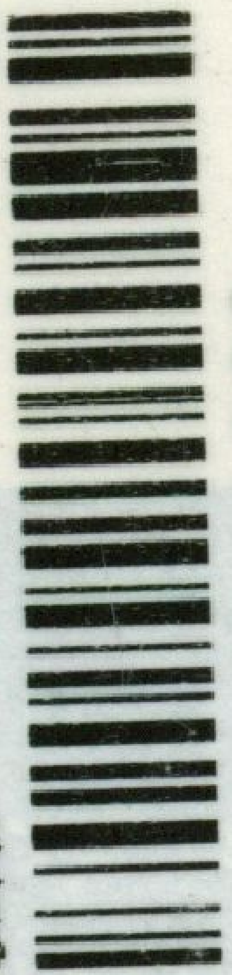
- ن -

هذا الكتاب

يركّز هذا الكتاب على الاعتراف المتنامي بالبرازيليين من أصل سوري ـ لبناني في مرحلة «التحول النيوليبرالي»؛ ذلك أن المبادرات النيوليبرالية منذ سبعينيات القرن الماضي إلى يومنا هذا (مثل تحرير السوق، وخفض حجم القطاع العام، وتنويع المستهلكين) وثّقت أواصر البرازيل بالنظام العالمي. وعند هذا المفترق، فرض السوريون ـ اللبنانيون من أبناء الجيلين الثاني والثالث أنفسهم بهويتهم الإثنية كشركاء في التصدير، وكسياسيين أخلاقيين، وهواة فنون متنوعة، وشخصيات تصوغ وتعكس الدولة القومية البرازيلية في أواخر القرن العشرين ومستهل القرن الحادي والعشرين.

ويمثّل المشروع الإثني العربي، كما يرى المؤلِّف، جزءاً متشابكاً من التجربة النيوليبرالية البرازيلية؛ ففي الاقتصاد المفتوح طرح المنحدرون من أصل سوري ـ لبناني أنفسهم كمروّجين عرب للصادرات البرازيلية في أسواق الخليج العربي، وهو ما جعل الإثنية العربية تمتلك قوة لم يسبق لها مثيل في المرحلة التي سبقت حقبة الانفتاح الاقتصادي وشفافية الدولة وتنوع المستهلكين. وهذا التركيز على التكوين المبتكر للعروبة في البرازيل هو ما أسماه المؤلّف «زخرفة عربية من نوع آخر».

ويتساءل المؤلف، في إطار تجاوز تواريخ الإثنيات وبناء الدولة في حقبة الاستعمار وما بعدها: كيف أُعيد تنظيم العلاقات الهرمية بين الإثنية والدولة في النظام العالمي اليوم؟ وهو في سياق إجابته، يزعم أن الإثنية لم تعد الإطار الوحيد للدولة فحسب، بل إنها اكتست مميزات بطرائق تعكس الاتجاهات السياسية ـ الاقتصادية الواسعة وتصوغها. لقد استكشف هذا التحول بتعقّب طرائق تهميش الإثنية أساساً في الأزمنة الأولى، وكيف حازت اعترافاً واسعاً في أواخر القرن العشرين ومستهل القرن الحادي والعشرين.



الثمـ

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

e-mail: info@caus.org.lb
Web site: http://www.caus.org.lb

ISBN 978-9953-82-566-3

